سلسلة شرح الرسائل (١٣)

كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

شرح فضيلة الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وطبعه
عبد السلام بن عبد الله السليمان

الرسالة العالمية



بسم الله الرحمن الرحيم



دار الرسالة العالمية

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m. Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي و صلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإنَّ الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أَلَّف مؤلفات كثيرة نادرة ومفيدة في بيان التوحيد والأمر به وبيان الشرك، والنهي عنه وفي بيان المعاصي والذنوب، والنهي عنها لأنها تنقص التوحيد كل ذلك من باب النصيحة للمسلمين، والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ والإصلاح في الأرض، وهذه طريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن شأن الإنسان ما دام على قيد الحياة أن يعمل ويتحرك ولا يبقى ساكناً وجامداً لا يتحرك، فإما أن يكون عمله في الخير أو في الشر، ولهذا بعث الله الرسل لدعوة الناس للخير وتحذيرهم من الشر، والله جعل دارين للجزاء: الجنة، وهي دار المتقين العاملين بالطاعات، والنار، وهي دار الكافرين العاملين بالمعاصي والسيئات، وفرق بينهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ

كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فاللهُ ـ جل وعلا ـ يميّز بين أفعال عباده ولا يظلم أحداً، فالمحسن يضاعف له إحسانه ويزيده من فضله ويكرمه، والمسيء: إما أن يعفو عنه أو يجازيه بمثل سيئاته، قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فالسيئة بمثلها ولا تضاعف؛ لكنها قد تغلَّظ فهذا عدلٌ من الله جل وعلا، والحسنةُ يضاعفها الله ويزيدها وينمّيها، وهذا فضلٌ منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فالمضاعفة فضلٌ من الله، والجزاءُ على السيئة بمثلها عدلٌ منه سبحانه وتعالى.

والطاعات قسمان: واجباتٌ ومستحُباتٌ.

الواجب: ما يُثاب فاعله ويُعاقب تاركه.

والمستحب: ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه.

والمعاصي تنقسم إلى عدّة أقسام:

فمنها: ما هو كفرٌ وشركٌ، ومنها: ما هو كبيرةٌ دون الشرك، ومنها: ما هو صغائر. فأما الكفر أَو الشرك فإنَّ الله لا يغفره إلّا إذا تاب صاحبه منه قبل أن يموت، وأمَّا لو مات عليه فهو خالدٌ مخلدٌ في النار، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ٤٨].

وأما الكبائرُ التي دون الشركِ فهي تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذبه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨].

وأما الصغائر، وتسمى اللَّمم، فهذه تكفَّر بأنواع من المكفرات، فتكفَّر بالطاعات، ومنها الصلوات الخمس يكفِّر اللهُ بها الصغائر، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «الصلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفراتٌ ما بينهن إذا اجتَنب الكبائر»[(١)]. وتكفَّر بالتوبة منها. والتوبة تكفِّر كل ذنب.

ولقد حثَّ اللهُ على التوبةِ والاستغفارِ، وهما ممّا يُمحى به الذنوب، وإن كانت كبيرةً، أو كانت كفراً، أوشركاً، ومن تاب وأصلح العمل فإن الله يتوب عليه، وباب التوبة مفتوحٌ في الليل والنهار، قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر»[(٢)] وهو كذلك، مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، فحينئذ لا يُقبل من أحد توبةٌ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٦١٦٠) من حديث ابن عمر ر الله عنهما.

ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾[1] [الأنعام: ١٥٨].

فالذنوب تنقسم إلى: كبائر وصغائر.

وضابط الكبيرة: أن كل ذنب ختَمه الله بنار، أو لعنة، أو غضب، أو عذاب، فهو كبيرة، كما ذكره الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو الذي اختاره المحققون من أهل العلم كابن تيميَّة وغيره.

وقد أُلِّف في الكبائر مؤلَّفات، منها هذا الذي بين أيدينا وكتاب «الكبائر» للذهبي، ومنها «الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيتمي.

وهذه الكبائر – كما ذكرنا – إن كانت شركاً بالله أو كفراً به، فإنها لا تُغفر إلا بالتوبة، ومن مات ولم يتب منها، فإنه خالدٌ مخلدٌ في النار قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، أمّا إن كانت هذه الكبائر دونَ الشرك، فعند أهل السنة والجماعة: أنها تُفَسِّق وتنقص الإيمان ولا تُكفِّر، فيُحكم على صاحبها أنه فاسق وأنه ناقص الإيمان، لكن لا يُكفَّر

---

(١) انظر «البخاري» (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بها، بدليل أنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، ولهذا رتَّب اللهُ تعالى على بعض هذه الذنوب مثل: السرقة، والزنى، وشرب الخمر، والقتل العمد، والعدوان وقطع الطريق، رتب عليها الحدودَ، ولو كان مرتكبوها كفاراً لما أقيمت عليهم الحدود ولَقُتِلوا مرتدين، فإقامةُ الحد عليها دليلٌ على أنها ليست كفراً، وإنما هي كبائر ومعاصٍ تقام بحقها الحدود المرتبة عليها، وهذه الحدود إما زواجر وإما مكفرات، فيقام على مرتكبها الحد في الدنيا، ولا يقام عليه مرة أخرى في الآخرة.

أما الخوارج فيَحكمون على مرتكب الكبيرة بالكفر والخلود في النار، ولا يفرِّقون بين كبيرة الشرك والكفر، وبين كبيرة المعاصي، وإنما يقولون: إنَّ الكبائر كلها تُكفِّر صاحبها، وتخرجه من المِلَّة، والعياذ بالله. وأنَّ أصحابها مخلدون في النار عندهم، فهؤلاء قد أخذوا بآيات الوعيد وتركوا آيات المغفرة والوعد، فأخذوا بجانب من الأدلة وتركوا جانباً لعدم فقههم، وعدم معرفتهم بالكتاب والسُّنة، واعتمادهم على فهمهم دون الرجوع إلى أهل العلم، وهذا من نتيجة الانعزال عن أهل العلم، فإنه تورِث مثل هذا الضلال.

وهم على قسمين: فأمّا المعتزلة فيقولون: إنَّ مرتكبَ الكبيرة يخرُج من الإيمان، ولكنه لا يَدْخل في الكفر، بل إنه في منزلة بين المنزلتين، فهو ليس بمؤمن ولا كافر، فإن مات ولم يتب فهو خالد

مخلد في النار، وأما الخوارج فيقولون: إنَّ مرتكب الكبيرة خارج من الإيمان داخل في الكفر. والمعتزلة قد اجتمعوا مع الخوارج في جزائه في الآخرة، وخالفوهم في حكمه في الدنيا، فابتدعوا المنزلة بين المنزلتين.

والمرجئة وهم الذين لا يرون دخول الأعمال في مسمى الإيمان فهم على النقيض مع هؤلاء، فهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، لأنَّ الإيمان ـ بزعمهم ـ في القلب: وهو التصديق، وهو لا يزيد ولا ينقص، وأنَّ المعاصي لا تضر، ما دام صاحبها مؤمناً بقلبه فهي لا تُنْقِصُ إيمانه.

فالمرجئة، هم الذين لا يدخلون العمل في حقيقة الإيمان. وإنما يقولون: الإيمان، الاعتقاد بالقلب، وبعضهم يقول: الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان. وبعضهم يقول: هو المعرفة فقط، ولو لم يعتقد، كما هو قول الجهمية، وهذا أشد أنواع الإرجاء.

وهناك قسم آخر يقول: إنَّ الإيمان هو قول باللسان دون اعتقاد بالقلب، وهذا قول الكرّاميّة، فالمرجئة على اختلاف فرقهم الأربع لا يُدخلون الأعمال في الإيمان، يقولون: الإيمان هو: التصديق بالقلب، وهو لا يزيد ولا ينقص، فإيمان أبي بكر ـ عندهم ـ مثل إيمان أفسق الناس! لأنه ما دام المرء مؤمناً بقلبه، فهذا يكفيه!

هذا هو مذهب المرجئة الذي يختلف عن مذهب الخوارج ويناقضه، فكلا الطائفتين ضالٌّ مخالف للحق.

والصواب في هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة المأخوذ من الكتاب والسنة، فالخوارج والمعتزلة يقال لهم: الوعيدية، لأنهم أخذوا بنصوص الوعيد، والمرجئة أخذوا بنصوص الوعد، وتركوا نصوص الوعيد، في حين نرى أنَّ أهل السنة والجماعة قد جمعوا بين نصوص الوعد ونصوص الوعيد، وهذا هو الحق.

فالمعاصي لا يجوز أن يقال فيها: إنها لا تضر كما قالت المرجئة، بل هي تضر، لأنها تُنقص الإيمان وتقود إلى الكفر، ولا يقال عنها: إنها تُخرج من الملة كما قال الخوارج والمعتزلة، بل إن صاحبها مؤمن، ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه فلا يُعطى الإيمان المطلق، كما قال المرجئة، ولا يُسْلَب منه مطلق الإيمان كما قال الخوارج والمعتزلة.

وهذا أمرٌ ينبغي التفقه فيه ومعرفته معرفة جيدة وصحيحة، لأنه من الأمور المهمة جدّاً، وخصوصاً في هذا الزمان، الذي التبس فيه الحق بالباطل، وظهر فيه المتعالِمون الذين يتعلّمون من الكتب، ويعتمدون على فهمهم دون الرجوع إلى أهل العلم، وقد اختلطت عليهم الأمور، فظهر من يكفِّر الناس، كأمثال الخوارج وظهر من يتساهل في ذلك، وهم المرجئة، فهم على طرفي نقيض،

فلا بد من معرفة الحق في هذا والتمسك به، لئلّا ينحرف الإنسان فيكون مع المغالين، أو مع المتساهلين، بل ينبغي على المرء أن يكون معتدلاً في هذا الأمر، فإنه مَزِلَّة أقدام ومَضِلَّة أفهام، لأنَّ هؤلاء إذا حكموا على المسلمين بالكفر فقد استحلُّوا دماءهم وأموالهم، وشقّوا عصا الطاعة، وحصل منهم كما حصل من الخوارج من قبل من سفك الدماء، وإذا قالوا بقول المرجئة تسلط أهل الكفر والشر والنفاق، وقالوا: نحن مصدقون بقلوبنا، مع ارتكابهم الفواحش والعصيان، ومع هذا كله يقولون: نحن مؤمنون؛ فكلا المذهبين يشكِّل خطراً شديداً على هذا الدين وأهلِهِ.

والآن مع الشرح.

قال الشيخ الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

كتاب الكبائر

وقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١]. [١]

---

[١] قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه دليل على أن الذنوب تنقسم كما ذكرنا إلى كبائر وصغائر، وأن من اجتنب الكبائر كفَّر الله عنه الصغائر، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وهذا وعد من الله، وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة، وبيان فساد مذهبهم، بزعمهم أن الكبائر تُخرج مرتكبيها من المِلَّة، وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل، وبيان أن الحقَّ في ذلك هو مذهب أهل السُّنة والجماعة البعيد كلَّ البُعد عن الإفراط والتفريط وعن الغُلو والتطرف.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم: ٣٢]. [٢]

---

[٢] ومن الأدلة على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

وكبائر الإثم: هي المعاصي.

والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما تناهى قُبحه وشناعته.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾: أي: الصغائر، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: إنَّ الصغائر تكفَّر بمكفِّرات كثيرة، منها:

- اجتناب الكبائر، كما في هذه الآية.

- ومنها: الصلوات الخمس.

- ومنها: المصائب التي تنزل بالإنسان من الأمراض والأسقام والهموم، وموت الأقارب، حتى الشوكة يُشاكها المسلم كما ورد في الحديث[1]، فكل هذه من مكفِّرات الصغائر، وهذا من فضل الله عزَّ وجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

وكذا قوله تعالى في الآية الأخرى من سورة الشورى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ الآية [الشورى:٣٧]، هي دليل آخر على أنَّ الآثام تنقسم إلى كبائر وصغائر.

روى ابن جرير[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الكبائرُ كلُّ ذَنْبٍ خَتَمَه اللهُ بنارٍ أوْ لَعْنَةٍ أو غَضبٍ أو عَذَابٍ. [٣]

---

[٣] الكبائر: هي المعاصي، أي: ما نهى الله عنه.

فالأصل فيما نهى الله عنه أنه معصية ومحرم، لكن إن رُتب عليه وعيدٌ في الآخرة، أو حدٌّ في الدنيا فإنه كبيرة، وإن لم يرتَّب عليه عقوبة ولا وعيد، فإنه معصية صغيرة يدخل في باب اللَّمم.

فقوله: «ختمه الله» أي: ختم ذكره بأن توعد الله عليه بالنار، أو لعن من فعله، أو لعنه الرسول ﷺ، فهو كبيرة.

وقوله: «أو غضب» أي: إذا توعد الله مرتكب هذا الذنب بالغضب، فهو كبيرة أيضاً.

وقوله: «أو عذاب» في الآخرة، أو حدٌّ في الدنيا مثل القصاص، وكقطع يد السارق، أو جلد الزاني أو رجم القاذف. هذه هي الكبائر، وهي التي عليها حدٌّ في الدنيا، أو غضب، أو توعُّد باللعن.

وأمّا ما نهى الله عنه، ولم يرتب عليه شيئاً من ذلك، فإنه يدخل في باب الصغائر.

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤١).

ولهُ[١] عنه، قال: هي إلى سَبْعِ مئةٍ أقربُ منها إلى السَّبْع، غير أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صَغيرةَ مع الإصرار. [٤]

---

[٤] أي: لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الكبائرَ كثيرةٌ، فهي للسبع مئة أقربُ منها إلى السبع. فالكبائر ليست على حدٍّ سواء، فهي تنقسم إلى قسمين: أكبر الكبائر، وكبائر دون ذلك.

فهناك أكبر الكبائر، وهناك ما هو كبائر وحسب، أي: ليست من أكبر الكبائر، فالكبائر تتفاوت، وأما عدُّها، فإنه يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة.

خذ هذا الضابط الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما وطبِّقه على المعاصي، فما انطبق عليه منها فهو كبيرة، وما وجدت أنه منهيٌّ عنه ولم ينطبق عليه هذا التعريف، فهو صغيرة وحرام.

وقد ألَّف العلماء في الكبائر مؤلَّفات: فالحافظ الذهبي أوصلها إلى أكثر من سبعين كبيرة، وابن حجر الهيتمي أوصلها إلى أكثر من أربع مئة كبيرة، وابن عباس ﷺ قال: هي إلى السبع مئة أقرب منها إلى السبع.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤١).

....

وأكبر الكبائر: هي السبع الموبقات، كما قال ﷺ: «اجتَنِبوا السَّبْعَ الموبِقاتِ»[1].

وأما قوله: «لا كبيرة مع الاستغفار»: فهذا يعني أن مَن استغفر اللهَ صادقاً من قلبه تاب الله عليه، ومحا عنه ذنبه، والصغيرة لا يُتساهل بها لأنه إن استمر عليها مرتكبها، فهي تعظُم وتُصبح كبيرة، فلا ينبغي أن يتساهل بها الإنسان، لأنها قد تجره إلى الكبائر، فليحذر الإنسان من المعاصي: سواء الكبائر أو الصغائر، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فالكفر أكبر الكبائر.

وأمّا الفسوق: فالمراد به الكبائر التي دون الكفر، والعصيان المراد به: الصغائر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولعبد الرزاق[1] عنه: هي إلى سَبْعينَ أقْربُ منها إلى السَّبْع.

[٥]

---

[٥] فالكبائر ما حُصِرت بعدد، ولكنْ تَنضَبِط بهذا الضابط الذي رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما واختاره المحقِّقون، كابن تيميّة ـ رحمه الله ـ وغيرُه من أهل العلم.

---

(١) في «مصنفه» (١٩٧٠٢).

باب أكبر الكبائر

في «الصحيحين» عن أبي بَكْرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أنبِّئُكُم بأكْبر الكبائر؟» قلنا: بَلى يا رسولَ الله، قال: «الإشراكُ بالله، وَعقُوقُ الوالدَيْن» وكان مُتَّكِئاً فجلس، فقال: «ألَا وقَوْلُ الزُّورِ، ألَا وشَهادَةُ الزُّورِ» فما زالَ يُكَرِّرُها حَتَّى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ[1]. [٦]

---

[٦] عرفنا أن الكبائر ليست سواءً، فمنها أكبر الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك، والسبع الموبقات هي أكبر الكبائر؛ سميت موبقاً لأنها تهلك صاحبها؛ لقوله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، ما هنَّ؟ قال: «الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ الله إلّا بالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَتْلُ الـمُحْصَناتِ الـمؤْمِناتِ الغَافِلاتِ»[2].

فذكر النبي ﷺ أكبر الكبائر، وأولها: الشرك بالله وهو أعظمها على الإطلاق؛ لأنه لا يُغفر إلَّا بالتوبة، وصاحبه مخلَّد في النار، بخلاف الكبائر التي دون الشرك فإنها وإن عُذب صاحبُها في النار،

---

(١) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

فإنه لا يُخلَّد فيها، وقد لا يُعذب، فيعفو الله عنه ولا يعذبه.

ثانيها: عقوق الوالدين: لأن الله جل وعلا لما ذكر حقَّه ذكر حقَّ الوالِدَين، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فحق الوالِدَين يأتي بعد حق الله تعالى، وعقوق الوالِدَين وهو الإساءة إليهما من أكبر الكبائر بعد الشرك، فهو الذي يلي الشرك، والعياذ بالله.

كما أن حقَّ الوالِدَين يلي التوحيد، فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله في حديث الباب: «وَكانَ مُتَّكِئاً فَجَلسَ فَقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وشَهادَةُ الزُّورِ، فما زال يكرِّرُها حَتَّى قُلنا: ليتَهُ سَكَتْ».
الزُّور: هو الكذب، سمِّي زوراً، لأن صاحبَه يزيِّنُه ويُزَوِّرُه ويُحسِّنه حتى يُقبل.

فالكذب يزوِّر ويحسِّن ويزيِّن، حتى يظنَّه الناسُ صدقاً وحقّاً، فمِن أعظم قول الزور الشرك، ودعاءُ غير الله عزَّ وجل. وشهادة الزور هي الشهادة الكاذبة.

....

ومن شهادة الزور الشهادة التي يُشهد بها عند القاضي، لأجل أن يَحكم للخَصْم بها، وهذه الشهادة من أكبر الكبائر، وقد تساهل الناسُ بشهادة الزور، فقد أصبحت تدخل في معاملاتهم وخصوماتهم متجاهلين بذلك عِظَم حُرمتها وما يترتَّب عليها من الوعيد الشديد كما ورد في هذا الحديث وغيره، فهي من أكبر الكبائر بعد الشرك.

والذي يشهد لصاحبه شهادة من هذا النوع إنما يضرُّه، ولا ينفعه بهذه الشهادة؛ لأنه أدخل عليه ما لا يستحِق، وأخذ الحق مِن صاحِبه، وتهاوَنَ بحقِّ الله سبحانه وتعالى، وشهادة الزور خطيرةٌ جدّاً، ولكنها أصبحت عند كثير من الناس من الأمور السهلة، ولهذا ينبغي التنبيه والتحذير منها ومن عواقبها.

ومنها: التزكيات الباطلة، فالذين يُزكّون الشخص، وهو غير أهل للتزكية، يدخل في باب شهادة الزور، فأنت إذا زَكيتَ شخصاً بأنه طيب وخلوق وأنه.. وأنه.. وأنه صاحب دِيْن، وهو ليس كذلك، فهذا ممّا لا شكَّ فيه أنَّه من شهادة الزور، والعياذ بالله!

باب كبائر القلب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكم وأَمْوالِكُم، ولكنْ يَنْظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكُم» رواه مسلم[1]. [٧]

---

[٧] الكبائر تنقسم إلى قسمين:

الأول- كبائر الجوارح: كالزنى، والسرقة وقتل النفس.

الثاني- كبائر القلوب، مثل: الكِبر والحسد.

فكلٌّ من الكِبْر والاختيال والعُجب، وازدراء الناس، واحتقارهم، والحسد وبغض الحق، وحب المنكر، هذه من أعمال القلوب.

وأما الحديث الذي ساقه الإمام رحمه الله، فإنه يبين أنَّ اللهَ جلَّ وعلا لا ينظر نَظَرَ اعتبارٍ وجزاءٍ، لا ينظر إلى الأجسام وجمالِها، مع فساد القلوب، فربما يكون العبد جميلَ الجسم جميلَ المظهر، لكنَّ قلبَه فاسد فاسق، فالله لا ينظر إليه نظَرَ إكرامٍ ونظرَ رحمةٍ، وإنما ينظر إليه نظرَ غضبٍ، ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] فهم جميلو المظهر والهيئة، ولكن قلوبهم

---

(١) في «صحيحه» (٢٥٦٤).

....

فاسدة، ثم قال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي يعجبك قولهم لجماله وفصاحته [المنافقون: ٤]، فليست العبرةُ بجمال الجسم وفصاحة القول فقد يكون جسم المرء دميماً ومحتقراً عند الناس، لكنه كريم عند الله؛ لأن قلبه طيب، وهو مؤمن صادق مع الله عز وجل، ولهذا يقول ﷺ: «رُبَّ أشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبوابِ لو أقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّه»(١)، فليست العبرةُ بالمظهر، وإنما العبرةُ بالـمَخْبَر، وكذلك الأموال فهي ليست محلَّ اعتبارٍ عند الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، فمحل الاعتبار عند الله ليس جمالَ المظهر ولا جمال القول، ولا كثرة المالِ ولا علو المنصب، وإنما الاعتبار بالقلب، فالله تعالى ينظر إلى القلبِ وإلى العملِ الصالح، حتى وإنْ كان صاحبُ القلب الطيبِ والعمل الصالح لا يملك منظراً يُغري الناسَ ويُعجِبُهم، بل ربما يكون محتَقراً عندَهم، وهو كريمٌ على الله جلَّ وعلا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن النعمانِ بن بشيرٍ رضي الله عنهما مرفوعاً: «أَلَا وإنَّ في الجَسَد مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهي القَلْبُ»(١). [٨]

---

[٨] هذا الحديث يدل على أهمية صلاح القلب، وأنَّ العبرة ليست بجمال الجسم، وإنما العبرة بالقلب، فهذه المضغة وهذه اللحمةُ هي صغيرةٌ بالنسبة للجسم، إنما هي محلُّ الاعتبار عند الله عز وجل.

وحديثُ النعمانِ بنِ بشير ـ ﷺ ـ طويلٌ، ولفظه عند مسلم: «إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مُشتبهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ من النَّاس، فمَن اتَّقى الشُّبُهات فقد استَبْرأَ لِدِينِهِ وعِرْضِه، ومن وَقَعَ في الشُّبُهات، وقَعَ في الحرام، كالرَّاعي يَرْعى حَوْلَ الحِمَى، يُوشكُ أنْ يَرتع فيه. ألا وإنَّ لكُلِّ ملكٍ حمًى، ألا وإنَّ حِمى الله محارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجسَد مُضْغةً إذا صَلَحت، صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَد كلُّه ألا وهي القلب».

فقوله ﷺ: «مُضغة» أي: قطعة لحم، إذا صلحت بأن صارت قلباً سليماً طيباً معتبراً ذاكراً الله عز وجل، خائفاً منه، خاشعاً له، محباً للخير وأهله، مبغضاً للشر وأهله، فهذا هو القلب السليم، كما قال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

....

تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] سليم لله عز وجل من الشرك والغِشّ والكِبْر والخِداع والـمَكْر، وغير ذلك من آفاتِ القُلوب، فإذا صَلَحَت أعمال الجوارح فهذا دليلٌ على صلاحِ القلب، وإذا فسَدَتْ أعمال الجوارح فهذا دليلٌ على فسادِ القلب، لأن القلب مَلك الجوارح، وإذا صلح الملك صلحت الرعية، والعكس صحيح، وكذلك القلب في الجسم، ولهذا كان ﷺ يُكثر مِن الدعاء بقوله: «يا مُقَلِّب القُلوب ثَبِّت قُلوبَنا على دينِكَ»[1]، والراسخون في العلم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، فالقلب هو الأصل، وهو مصدر الخير والشر، ومصدر الصلاح للجسم والفساد.

ربما تسأل بعض المغالطين أو المغرورين فتقول له: لماذا تحلق لحيتك؟ لماذا لا تصلي؟ ونحو هذه الأسئلة المتعلقة بالفرائض الشرعية والسنن الشريفة، فيقول: الإيمان في القلب! وربما يستدل

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠)، وابن ماجه (١٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٨) من حديث النواس بن سمعان ﷺ.

....

بقول النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره[١] ﷺ. نعم الإيمانُ في القلب، ولكنْ إذا كان في القلب إيمانٌ صَلَحَ العمل، وصَلَحَت الجوارح، وحَلْقُ اللحية وتَرْك الصلاة ونحو ذلك، من الذنوب، وإنما هو فسادٌ يدل على أن القلبَ فاسدٌ، وفي المقابل فإنه إذا صَدر عن الجوارح وعن الجسم أعمالٌ طيبة، فهذا دليلٌ على أنَّ القلبَ صالحٌ، وهذا من بعض المعاني التي يحملها قوله ﷺ: «إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه.

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب ذكر الكبر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. وقول الله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]. [٩]

---

[٩] الكِبْرُ من آفات القلب ومن أعماله، فالكِبرُ: هو الترفع عن قبول الحق والترفع على الناس، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، والكفار إنما كفروا ورفضوا اتباع الرسل من باب الكِبْر، والترفُّع في أنفسهم، قال الله تعالى يصف ترفُّعَهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وهكذا يترفعون عن الحق، ويتكبرون على الرسل عليهم السلام، ويتكبرون على ربهم عزَّ وجل.

والكِبْر مرض خطير وقلَّ من يَسلَم منه، لكنَّ الإنسانَ يقاومُه بالتواضُعِ والانكسار بين يدي الله عز وجل.

وقول المصنِّف: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. ﴿مُخْتَالًا﴾ من الاختيال: وهو الكِبْر، وقوله:

....

﴿ فَخُورًا ﴾ الفخور: هو الذي يَفخَر بنفسه وبآبائه وحَسَبه ونَسَبه، يفتخر على الناس بذلك، فهذا الفعل ونحوه لا يحبه الله، لأنَّ الله يبغضُ المختال الفخورَ، والاختيال والفخر من الكِبْر.

وكذلك الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب فهما من أمور الجاهلية، وقد أخبر عنهما الرسول ﷺ فقال: «أَرْبَعٌ في أُمَّتي مِنْ أُمورِ الجاهِلِيَّة، لا يَتْركونَهُنَّ: الفَخْرُ بالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ بالأَنْسَابِ، والاستِسْقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحَةُ على المَيِّت»[1].

وقول الله تعالى: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ يعني: فلبئس النار منزل من تكبَّر على الله ولم يتبع رسله، لأن النار مقامهم وجزاؤهم، فجعل النار جزاءً للمتكبرين، وهذا فيه تحذير شديد من الكبر.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرْ» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوْبُه حَسَناً ونَعْلَهُ حَسَناً، قالَ: «إنَّ الله جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَال، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم[1]. [١٠]

---

[١٠] هذا فيه الوعيد الشديد على المستكبر، وأنَّه لا يدخل الجنَّة ما دام في قلبه مثقال حبَّةٍ من كِبْر حتى يُمحِّصَه اللهُ عزَّ وجل من هذا المرض. فلما سأله الرجل: أن المرء يحب أن يظهر بمظهر حسن، سواء كان ذلك في ثوبه أو نعله، بيَّن ﷺ أن ذلك لا يدخلُ في باب الكِبْر فقال: «إنَّ الله جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَال»، فقوله: «جميل»: هذا فيه وصفٌ لله جلَّ وعلا بأنه جميل، ويحب الجمال مِن خَلْقه، وأنَّ عليهم أن يتجمَّلوا ويتزيَّنوا ليظهروا بمظهرٍ حَسَنٍ، وليشكروا نعمةَ الله عليهم، خصوصاً إذا جاؤوا إلى المساجد والمجامع، ولهذا يُندب للمسلم أن يتطيَّب ويدَّهن ويلبس من أحسن الثياب ليبدو في أحسن مظهر، شكراً لله تعالى.

أما قوله: «الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس» فمعنى بَطَر الحق:

---

(١) في «صحيحه» (٩١).

أي: دفعه وعدم قبوله، وغَمْطُ الناس، أي: احتقارهم، فلا يُشترط في المتكبِّر أن يكون مظهره غير جميل، بل يشترط فيه أن لا يبطر الحق ويغمط الناس.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن التجمُّل لا يعد كِبْراً، فليس معنى قوله ﷺ: «إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكمْ وأمْوالِكُمْ، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم»[1] ليس معناه أنه على الإنسان أن لا يتجمَّل أو لا يطلُبَ الرِّزْقَ، لكن معناه: أن يتجمَّلُ مِنْ غير كِبْر، يتجمَّل في ملبسه وجسمِه وهيئتِه ومظهره، لأنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، والكِبْر في القَلْبِ لا في الجسم، فقد يكون الإنسانُ رَثّاً وسخاً، لكنه متكبر، والعياذ بالله، وقد يكون نظيفاً جميلاً بهيّاً، وهو متواضعٌ لله، والرسول ﷺ كان أحسنَ الناسِ جسماً ومنظراً، وأطيب الناس رائحة، فليس معنى هذا أنَّ كل من كان جميلاً اعتُبر متكبِّراً، إنما هذا يرجع إلى القلب، وليس كلُّ دميم يكون متواضعاً لله، فقد يكون المرء عائلاً ومع ذلك يكون مستكبراً؛ والعائل: يعني: الفقير، وهذا من أبغض الناس عند الله عزَّ وجل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يَقْبلون الحق – ولا حول ولا قوة إلا بالله – وإذا قيل لهم: قال الله عز وجل، وقال رسوله ﷺ لا يتقبلون، بل يتبعون أهواءهم وشهواتهم، أو مَن يقلدونه مِن رُؤَسائهم وزعمائهم وقادتهم، فهم يتعاملون مع الآيات والأحاديث من باب التبرك، أما العمل فلا يعملون إلَّا ما يخطط لهم رؤساؤهم وقادتهم، حتى إن بعض طلبة العلم عندما تقول له: أنت مخطئ والدليل كذا، لا يقبل، فهذا من باب الكِبْر، لأنَّ الواجب على المسلم إذا تبيَّن له الحق أن يبادر للأخذ به، لأنه لو علم الحق ولم يأخذ به، أُصيب بالزيغ والعياذ بالله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالذين تبيَّن لهم الحق، ولم يقبلوا به، يخشى أن يختم على قلوبهم، فتصبح لا تقبل الحق، عقوبةً لهم.

وروى البخاريُّ عن حارثةَ بن وهبٍ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألَا أُخبِرُكُمْ بأَهْلِ النَّار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتكْبر»(١)، العُتُلّ: الغليظُ الجافي، والجوّاظُ: قيل: المُخْتال الضخم، وقيل: القَصيرُ البَطين، وبَطَرُ الحقِّ: رَدُّه إذا أتاك، وغَمْطُ النَّاس: احْتقارُهم وازدراؤهم [١١]

---

[١١] في هذا الحديث بيان معنى الكِبْر: أنه بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس، وهذا تفسيرٌ من الرسول ﷺ، فالذي لا يقبل الحق مستكبر، وكذلك الذي يحتقر الناس مستكبر، وقد ساق المصنِّف رحمه الله بعد ذلك معنى كلٍّ من العتلّ والجوّاظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، وأخرجه مسلم (٢٨٥٣).

ولأحمد وصحَّحه ابن حبّانَ من حديث أبي سعيدٍ، ﷺ:
«مَنْ تَواضَعَ دَرَجةً، رفعَهُ اللهُ بها درجةً، حتى يَجْعَلَهُ في أعْلى عِلِّيين، ومَنْ تكَبَّر على الله درجةً، وَضَعَهُ الله بها درجةً، حتى يَجعَلَهُ في أسْفَل سافِلينَ»(1). [١٢]

---

[١٢] وعلِّيُّونَ اسمُ أشرفِ الجِنان، وهي للمتواضعين المؤمنين الصادقين، كما أنَّ سِجيناً شرُّ النيران في أسفل سافلين، وهي للكفار والمنافقين والمستكبرين، فبئس مثوى المستكبرين، لأنهم تكبروا فوضعهم الله وأذلَّهم، وأولئك تواضعوا فرفعهم الله وكرَّمهم في أعلى عليين.

---

(١) أحمد (١١٧٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٧٨).

وللطبرانيّ(١) عن ابن عُمَر رضي الله عنهما رفعه: «إيّاكُمْ والكِبْرَ، فإنَّ الكِبْرَ يَكونُ في الرَّجُلِ وإنَّ عَلَيه العَبَاءَةَ» رواته ثقات [١٣]

---

[١٣] في هذا الحديث بيانٌ لحال بعض الناس المستكبرين، ومن ذلك المرء تكون عليه العباءة، من شدَّة الحاجة، وضَنَك المعيشة وقلّة الشيء، ومع ذلك لا تمنعه حالته هذه من التكبُّر، فهو فقيرٌ عليه عباءة مرقعة، وهو متكبر، وفي المقابل قد يكون الرجل عليه ثيابٌ جميلة، وذو منظر حسن، وهو عابد لله تعالى متواضع. وجاء في حديثٍ آخر: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُم اللهُ يَومَ القِيامَة ولا يَنْظُر إليهم ولا يُزَكِّيهم، ولَهم عَذابٌ أليمٌ؛ أُشَيْمِطٌ زانٍ، وَعائِلٌ مُسْتكْبِر، ورَجُلٌ جَعل الله بَضاعَتَهُ لا يَشْتَري إلّا بِيَمينه، ولا يَبيعُ إلّا بِيَمينِهِ»(٢).

وقوله: «أُشَيْمِط زانٍ»: أي: كبير السن الزاني، فلو كان شابّاً فربما يقال: غلبت عليه الشهوة لكن هذا كبير في السن، وهذا دليل على حبه للزنى، وإنما قال ﷺ بحقِّه «أُشَيْمِط زانٍ» تحقيراً وتصغيراً له.

---

(١) في «الأوسط» (٥٤٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١١١) من حديث سلمان الفارسي ﷺ.

. . . .

وقوله: «وعائل مستكبر» العائل: الفقير، فربما يتكبَّر الغني بماله، لكن هذا فقير ليس لديه شيء يحمله على التكبر، فدلّ على أن الكِبْر من سَجِيَّته وطبيعته، فالكبر رداء الله لا ينبغي لسواه، لذلك توعَّد سبحانه من نازعه إيَّاه بالعَذاب الأليم، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما، قذفته في النار»[1] والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وهو في «مسند أحمد» (٧٣٨٢).

باب ذكر العُجْب

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾

[المعارج: ٢٧]. [١٤]

---

[١٤] هذا في صفات المؤمنين الذين ذكرهم الله في سورة المعارج، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٧]، فهم وَجِلُون من عذاب الله، ولا يأمنون منه، وهم أيضاً لا يكتفون بالقول: نحن مسلمون قد عملنا أعمالاً صالحة فهي تَقِينا من عذاب الله، بل إن من صفاتهم أنهم لا يَرْكَنُون إلى أعمالهم، إنما هم مُشفقون من عذاب الله تعالى، وكذلك هم إلى جانب طَمعِهم في رحمة الله، هم دائماً مشفقون من عذابه جلّ وعلا. فيجمعون بين الخوف والرجاء.

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ: يا رَسول الله، أَهُمُ الذين يَشْرَبون الخمر ويسرقون؟

قال: «لا، يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، ولكنَّهُم الذين يَصومُون ويُصلُّون ويَتَصَدَّقون ويخافون أنْ لا يُقبَلَ منهم، أولئك الذين يُسارعون في الخيرات»[1]، وفي رواية: «ولكنه الذي يُصلي ويصومُ ويتصدَّق وهو يخاف الله عزَّ وجل»[2]، فهم مع اجتهادهم لا يأْمنون من عذاب الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهم يخافون من هذا الموقف أمام الله عزَّ وجل.

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣).

رُوِيَ عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «الهَلاكُ في اثْنَيْن: القُنوطِ والعُجْبِ». [١٥]

---

[١٥] لا شكَّ أنَّ العذاب له أسباب كثيرة، ولكنْ هاتان الخصلتان هما أشدُّ الصفات المسبِّبة للهلاك.

فالقنوط: هو اليأس من رحمة الله تعالى، فهناك بعض الناس الذين قد عملوا أعمالاً سيئة، ظنُّوا أنَّ الله تعالى لن يغفر لهم بعد أن تعاظمت ذنوبهم، وهذا تفكير خاطئ، لأنه لا ينبغي للإنسان مهما بلغت وتعاظمت ذنوبه أن يقنط من رحمة الله تعالى، وكذلك لا ينبغي للآخرين أن يحكموا عليه بأنه لا يرحمه الله، أو لن يغفر له الله، قال الله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فعلى الإنسان أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى، ويرجو المغفرة، ولا يقنط من رحمته سبحانه.

كما أنه لا ينبغي للمرء أن يُصيبه العُجْب بعمله، فيعتقد أنه أدّى ما عليه من الطاعات والأعمال الصالحة، بل عليه أن يعتبر نفسَه مقصِّراً، وأنْ لا يأْمَنَ من عذاب الله، والأفضل أن يَجْمع بين الخَصْلتين معاً وهما: الطَّمع في رحمة الله، والخوف من عذابه، أي: عليه أن يكون بين الخوف والرَّجاء، فلا يرجو فقط كما هو عليه حال

....

المرجئة، القائلين بأن الأعمال لا علاقة لها بالإيمان، لأنه ـ بزعمهم ـ لا يَضرُّ مع الإيمان معصية! كما أنه لا ينبغي للمرء أن يقنط من رحمة الله بسبب ذنوبه، فيعتقد أنه قد هلك، كما هو حال الخوارج الذين يقولون: إنَّ مَن فعل كبيرةً من كبائر الذنوب فقد خرج من الإسلام!

فعلى الإنسان أن يتجنَّب هذين المذهبين الفاسدين، وذلك بأن يسير على ما سار عليه أهل السُّنة والجماعة من الجَمْع بين الخَوْف والرَّجاء، فهم يخافون من ذنوبهم ويرجون رحمة الله، وطريقة أهل السُّنة والجماعة هي طريقة الرُّسل، فهم لا يخافون خوفاً يُقنِّطهم من رحمة الله، ولا يرجون رجاءً يؤمِّنهم من عذابه جلّ وعلا.

عن أبي بَكْرة رضي الله عنه: «أنَّ رَجُلاً ذُكِرَ عِنْدَ النبيِّ ﷺ فأَثنى عليه رجلٌ خيراً، فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك» ردّدَه مِراراً، ثم قال: «إنْ كان أحدُكم مادحاً لا مَحالةَ فلْيَقُل: أحسِبُه كَذا وكَذا، إنْ كان يَرَى أنه كذلكَ، وحَسِيبُه الله، ولا أُزكِّي على الله أحداً» رواه البخاري ومسلم[1]. [١٦]

---

[١٦] في هذا الحديث أنَّ من أسباب العُجْب المدحَ، حينما يمدح إنسانٌ شخصاً آخر في وجهه، فإن هذا من شأنه أن يجعل الممدوح يتعاظم في نفسه ويعجب بعمله، ولهذا يُكره ذلك، وأمّا الثناء على الشخص في حال غيابه فهو يدخل في باب الذِّكر الحسن، بخلاف ما إذا كان الشخص موجوداً فهذا لا يجوز، لأنه يكون سبباً لإعجاب المرء بنفسه، ولهذا أنكر ﷺ على هذا الرَّجل الذي مَدَح رجلاً آخر، وقال له: «وَيْحك، قَطَعْتَ عُنُق صاحبِك»، يعني: أهلكتَه بمدحك إيّاه، ولقد كان ﷺ يكره مثل هذا السُّلوك، ولهذا حينما قالوا له: أنْتَ سَيِّدُنا. قال: «السَّيِّدُ الله تبارك وتعالى» قالوا: وأَفْضَلُنا فَضْلاً، وأعْظَمُنا طَوْلاً، فقال: «قولوا بقَولِكُم، أو بَعض

---

(١) البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).

....

قَولِكُمْ، ولا يَستَجرِيَنَّكُم الشَّيْطانُ»[1]، هذا وهو رسول الله ﷺ نَهى أن يُمدَح بحضوره أو في وجهه، فكيف بمَن هو دُونه؟!

فالإنسان ضعيفٌ، لأنه إذا ما مُدح في وجهه، كان ذلك سبباً لدخول العُجْب إلى نفسه، وبالتالي انعكس ذلك على عَمله، ولهذا جاء في الحديث: «أمرَنا رَسولُ الله ﷺ أنْ نَحْثِيَ في وُجوهِ الـمَدَّاحين التُّراب»[2] وغالب من يفعل ذلك المنافقون الـمُتَملِّقون، ولهذا قال جلَّ وعلا ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ثم قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يعني: سُتْرة ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]، هذه هي صفات المنافقين وأهل التملُّق، فينبغي الحذرُ منهم، وعدمُ السماح لهم في التمادي بهذا السُّلوك المنهيّ عنه، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنه حينما يمدح إنسانٌ إنساناً آخر، فإنه يكون

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣١٦)، وأبو داود (٤٨٠٦) من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

....

قد زكَّاه على الله، واللهُ يعلم من حاله ما لا يَعْلمه أحد، فمن الذي يَعْلم باطنَ الناس إلّا الله جلَّ وعلا، ومَن الذي يعلم حقيقة صِدْق أعمال الخَلْق مِن حيث كَوْنها صادرةً لوجه الله أو العكس إلَّا الله سبحانه وتعالى، أو من حيث كونها متقبَّلة أو لا، ففي حال مَدْحِنا لشخص نكون قد زكَّيناه على الله، فإذا كان لا محالة - من المدح والثناء - فينبغي أن يكون ذلك في غَيْبَته، فيقال: أحسِبُه كذلك، والله حَسِيبُه، لأن الله هو الذي يحاسبُه ويعلم أعماله، ويعلم نيّاته ومقاصده، هذا هو التأدُّب مع الله، فلا ينبغي تزكية أحدٍ على الله جل وعلا، وهو سبحانه يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢].

والحاصل أن المفهوم من هذا الحديث النهيُ عن الإفراط في مدح الآخرين، لأنه لا يُؤْمَن عليهم من دُخول العُجْب إلى نُفوسهم، واعتقادهم بأنهم يستحقون ذلك، مما يؤدِّي إلى تضييعهم العمل، وعدم إقبالهم على الطاعات اتكالاً على ما وُصفوا به.

ولأحمدَ(١) بسندٍ جيِّد عن الحارث بن معاوية أنه قال لعُمرَ ﷺ: إنهم كانوا يُراودونَني على القَصَص، فقال: أخشى أنْ تَقُصَّ فتَرتَفِعَ عليهم في نفسِك، ثمَّ تَقُصَّ فتَرْتَفِع، حتى يُخيَّل إليك أنَّكَ فَوْقَهم في مَنْزِلةِ الثُّرَيّا، فيَضَعُكَ الله عزَّ وجل تحتَ أقدامِهم يوم القيامة بقَدْر ذلك. [١٧]

---

[١٧] في هذا تحذير للوعّاظ والدُّعاة أن لا يعجبوا بأنفسهم، وألّا يعجبوا بوعظهم وكلامهم، لأنهم إذا لم يبتعدوا عن هذا الإعجاب فإن ذلك من شأنه أن يُكسِبَهم ترفُّعاً على الناس.

فهذا رجل قال لعمر ﷺ: «إنهم يراودونني على القصص، والمراد بالقَصَص» هنا: الوعظ، فقال له عمر ﷺ: «أخْشَى عليك أنْ تَقُصَّ فتَرْتَفِعَ عَلَيْهِم في نَفْسِكَ» فقد خَشِيَ عليه عمر أن يبادر إلى ذلك فيقصَّ عليهم، وبالتالي يتولَّد عنده إعجابٌ بنفسه فيترفَّع عليهم، فيَضعه الله يوم القيامة تحت أقدامهم، مجازاةً له على هذا الترفُّع والكِبْر، ولهذا يُروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان إذا تكلَّم أو خَطَبَ فأعجبه كلامُه، سكت وقطع حديثه خشيةً على نفسه من العُجْب.

---

(١) في «مسنده» (١١١).

. . . .

فعلى الدُّعاة والوعَّاظ أن يستشعروا هذا الأمر، وأن لا يصيبهم العُجب بكلامهم وأسلوبهم في الخطابة والوعظ، وبسبب إقبال الناس عليهم، وبكثرة من يحضر عندهم، بل عليهم الالتزام والتحلي بالتواضع، والاعتراف بالتقصير، وأن يَرَوْا أن كلامهم هذا إنما هو قليل، ولم يصل إلى الحدِّ المطلوب، وأنهم ما زالوا يجهلون أكثر مما يعلمون.

والتركيز هنا على الوعاظ والدُّعاة والخطباء دون غيرهم، لأنهم مِن أكثر الناس عُرضة للمدح والثناء وإطراء المتملِّقين، فهذا عمر ﷺ كان قد نَصَح هذا الرَّجل، وهو لم يمنعه من ممارسة الوعظ والقصص، ولكنه أوصاه بأن لا يعجب بنفسه بسبب إطرائهم وثنائهم عليه، فيُصيبه العُجْب جرّاء ذلك، ثم يترفَّع على الناس حتى يكون أبعدَ من الثُّريا ارتفاعاً في نفسه، ثم يكون ذلك سبباً لأن يضعه الله يوم القيامة تحت أقدامهم، لأنه جاء في الحديث: «يُحشَر المتكبِّرون يومَ القيامة أمثال الذَّرِّ في صُوَر الناسِ، يَعْلُوهم كل شيء من الصَّغار»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

وللبيهقي[1] عن أنس ﷺ مرفوعاً: «لو لم تُذنِبوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أشدُّ من ذلك: العُجْبَ». [١٨]

[١٨] من حكمة الله جلَّ وعلا أنه جعل الإنسان يُذنِب، فالمسلم أو المؤمن يقع منه الذَّنب، وفي هذا حكمة، لأنَّ المؤمن كلما وقع منه ذنب تواضع وخاف من الله سبحانه وتعالى.

فالذنوب إذا كانت سبباً للتوبة والخوف من الله جل وعلا، فإنه يترتَّب عليها مصلحة للمسلم والمؤمن، كما أنَّ الطاعة إذا كانت سبباً للترفُّع والتكبُّر ترتَّب عليها ضررٌ يعود على صاحبها، فالوقوع في بعض الذنوب سبب لجلبِ بعض المصالح إلى الناس، لأنَّ أحدهم إذا أذنب وتذكّر ذنبه تاب إلى الله جلَّ وعلا الذي يقبل التوبة من عباده. أما المذنب الذي لا يتوب فإنَّ الذنوب ضرر محضٌ في حقه.

ففي هذا الحديث دليلٌ على أن وقوع الذُّنوب من بعض المسلمين يترتَّب عليه مصلحة تتمثل بالانكسار والتوبة والرجوع إلى الله تعالى، وإن كانت هذه الذنوب تعتبر ضرراً في نفسها، ولكن مجرد تذكُّرها والخوف من الله جلَّ وعلا يجلب مصلحةً لأصحابها.

---

(١) في «شعب الإيمان» ٥/ ٤٥٣ (٧٢٥٥).

....

وقوله: «لخفت عليكم العُجب» فإنَّ الإعجاب بالنفس مهلك لها، فالمذنب التائب خيرٌ من المطيع الـمُعجَب، ولذلك لـمَّا تعاظم إبليس بنفسه، حلَّت عليه اللعنة والطَّرد من رحمة الله جلَّ وعلا، ولـمَّا تواضع آدم عليه السلام، واعترف بذنبه، وتاب إلى الله تعالى، رفعه الله عزَّ وجلَّ، وصار في معصية آدم عليه السلام مصلحةٌ له، لأنه تواضع وخاف من الله تعالى وتاب إليه.

باب ذكر الرِّياء والسُّمعة

وقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. [١٩]

---

[١٩] من الكبائر: الرِّياء والسُّمعة، والرِّياءُ لِمَا يُرى من الأعمال، والسُّمعةُ لِمَا يُسمع من الأقوال، فالرِّياء في الأعمال، والسْمعة في الأقوال، ومن ذلك أن يتصدَّر أحدهم للوعظ أو الخطابة، فيُزوِّق كلامه، ويأتي بفنون البلاغة حتى يُثنَى عليه، أو يُصلي النوافل ويتصدَّق وغير ذلك من أعمال الطاعات ووجوه البِرِّ وهو يُحبُّ أن يطَّلع عليه الناس ويثنوا عليه، فإذا أحبَّ أن يطَّلع عليه الناسُ ويُثنوا على عمله، فقد دخل في باب الرِّياء الذي يُحبط العملَ.

ومن السُّمعة أن يجهر بالذِّكْر أو بتلاوة القرآن، ويُحسِّن صوته فيها، من أجل أن يمدحه الناس، ويُثنوا عليه، ويجتمعوا حوله، ويُصلُّوا خلفه، فهذا ونحوه إنما حبطت أعمالهم بسبب حرصهم على جَلْب المديح لهم، وثناء الناس عليهم، وإعجابهم بما يصدر عنهم من أعمال لم تكن خالصة لوجه الله تعالى.

فعلى الإنسان أن يخاف ويحذر من الرِّياء والسُّمعة، وأن يُخلص في أعماله وأقواله لتكون لوجه الله عزَّ وجلّ.

....

وأما قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أول الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فالنبيُّ ﷺ بشرٌ وليس مَلَكاً، وليس له نصيبٌ من الألوهية ولا الرُّبوبية، بخلاف ما يزعمه بعض الـمُغالين من أنه ﷺ ليس من البشر، وإنما هو مخلوق من النور، والصحيح أنه ﷺ هو وكل الرسل عليهم السلام إنما هم من البشر، فما أرسل الله إلى الناس إلّا بشراً مثلهم، من أجل أن يفهموا عنهم ما يبلِّغون، فهذه هي الحكمة من كون الرسل إلى الناس من البشر، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذا من رحمة الله تعالى أن أرسل إلينا بشراً مثلنا، ويتألم كما نتألم، ويجوع كما نجوع، ونحو ذلك من الصفات التي تكون في طبيعة البشر، وفي هذا ردٌّ على الذين يَغْلون في الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذا هو الفارق بيننا وبين الرسول ﷺ، حيث إن الرسول ﷺ يُوحى إليه من الله جل وعلا، ويُبلِّغنا ما يوحيه الله إليه، ومما أوحي إليه من وحدانيته ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله جلَّ وعلا، ولا أحد غيره، والمراد بالإله هنا: المعبود الذي يستحق العبادة، والذي لا تصلح العبادة إلّا له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يوم القيامة، مع أنَّ كلَّ الخلق سوف يلقون ربَّهم، لكن المؤمن

. . . .

يلقى ربَّه بالخير والإيمان، والكافر والمشرك يلقى ربه بالشر والكفر.

وأما شرط لقاء الله بالخير فقد بيَّنه جل وعلا بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، والعمل الصالح: هو الذي يُوافق شرع الله سبحانه وتعالى، فلا يعمل عملاً يخالف ما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ، لأنه لن يُقبل منه، ولهذا قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وقال أيضاً ﷺ: «إيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فَإنَّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢)، فالبدعة ليست عملاً صالحاً، وإنما هي عمل فاسد وباطل، مهما زيَّنها أصحابُها، هذا هو الشرط الأول للقاء الله تعالى بالخير.

وأمّا الشرط الثاني: وهو الإخلاص لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فإذا ما اجتمع الشرطان: وهما المتابعة للرسول ﷺ، والإخلاص لله جلَّ وعلا في العمل، فإن الله يقبله، وأمّا إذا اختلَّ شرط من الشرطين فإنَّ الله لا يقبل العمل.

---

(١) أخرجه البخاري قبل (٢١٤٢) و(٧٣٥٠) معلقاً، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجه (٤٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عن جُندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّع سَمَّع الله به، ومَن يُرائي يُرائي الله به» أخرجاه[1].

قيل: معنى «من سمَّع سمَّع اللهُ به» أي: فضحه يوم القيامة، ومعنى «من يرائي» أي: مَن أظهر العملَ الصالح للناس ليَعظُم عندهم «يرائي به اللهُ»، قيل: معناه: إظهار سَرِيرته للناس. [٢٠]

---

[٢٠] قوله ﷺ: «مَن سمَّع» أي: أحبَّ أن يسمع الناسُ قراءته وذِكْرَه لله عزَّ وجل، والسُّمْعة مشتقة من السَّماع؛ لأنها تتعلق بحاسَّة السَّمع، وأمّا الرِّياء فهو يتعلَّق بحاسَّة البَصَر.

وقوله ﷺ: «سمَّع الله به» أي: شَهَره أو ملأ أسماعَ الناس بالثناء عليه في الدنيا، ويفضحه يوم القيامة بما انطوى عليه من خُبْث السَّريرة، فحقَّره وصغَّره، وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمِ الشِّركُ الأصغرُ» قالوا: وما الشركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياءُ، يقول الله عزَّ وجل لهم يَومَ القِيَامَة إذا جَزَى النَّاس بأعمالِهِم: اذهَبوا إلى الّذين كُنتُم تُراؤونَ في الدُّنيا، فانظُروا هَلْ

---

(١) البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

....

تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً»(١)، فيُفهم من هذا أن المرائي يُفضح يوم القيامة أمام الخلائق، بعد أن كان في الدنيا يتستَّر بأعماله التي لم يكن يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في هذا المتصدِّق لغير وجه الله تعالى، وقارئ القرآن الذي لم يقصد بقراءته سوى ثناء الناس عليه، وغير ذلك من الأعمال التي لم يُرِد بها صاحبها وجه الله تعالى، ولهذا فإنه مَن عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما أراد به أن يراه الناسُ ويسمعوه، جُوزيَ على ذلك بأنْ يُشهرَه الله تعالى ويفضحه ويُظهر ما كان يُبْطِنُه، ويدخل في ذلك من أراد بعمله الجاهَ والمنزلة عند الناس، فإنَّ الله يُجازيه على ذلك بأن يحصل على ما أراد من ثناء الناس عليه في الدنيا مع خسرانه لثواب الآخرة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٦٠) من حديث محمود بن لبيد ﷺ.

وهما[1] عن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمالُ بالنِّيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى». [٢١]

---

[٢١] يؤخذ من هذا الحديث أن العِبْرة ليست بصورة العمل، وإنما العبرة بالنية والقصد، فقد تكون صورةُ العمل جيدةً وحسنةً، ولكن نيَّة صاحبِه فاسدة، ويدخل في هذا الصلاةُ والصدقةُ والحجُّ، وغيرُ ذلك من الأعمال التي ظاهرها أنها عملٌ صالحٌ مع فساد نيَّة صاحبها، فلا فائدة من كل هذه الأعمال التي هذا هو حال صاحبها، لأن الأعمال بالنيات، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى» ولم يقل: ما عَمِلَ، فلا يُقبل من الأعمال إلَّا ما كانت نيَّةُ صاحبه خالصةً لوجه الله تعالى، وقد مضى توضيح قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وسبب هذا الحديث أن رجلاً هاجر إلى المدينة ـ والهجرة عمل صالح ـ ولكن هـذا الرجل هاجر من أجل أن يتزوَّج امرأة يقال لها: أم قيس، فهو قد هاجر من أجل الزواج منها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَات، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُه إلى الله ورَسولِهِ، فَهِجْرتُه إلى الله ورَسولِهِ...» أي: يقصد بها الله

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

....

ورسولَه فهي مقبولة، «ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصيبُها أو امْرأةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إليه» فهي ليست لله عز وجل، وإنما هي للمال أو لأجل الزواج من المرأة التي هاجر إليها.

وقوله ﷺ: «فمَن كانت هِجْرتُه... إلخ» إنما هو تمثيل لما ورد في أول الحديث من قوله: «إنَّما الأعْمالُ بالنِّيَّات»، فينبغي للمرء أن ينتبه لهذا.

وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي يدور عليها أصول الإسلام وفقهه، فهو حديث له شأن عظيم ومنزلة كبيرة عند العلماء، ولهذا فقد تناولوه بكثير من الشروح والتعليقات النافعة. ويكتبونه في مقدمة مؤلفاتهم تذكيراً.

ولمسلم[1] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقضى عليه يوم القيامة ثلاثةٌ: رجلٌ استُشهد في سبيلِ الله، فأُتِيَ بهِ، فعَرَّفَه نِعْمتَه، فعَرفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ في سبيلِكَ حتى قُتلتُ، قال: كَذَبْتَ، ولكنك قاتلْتَ ليُقال: هو جريءٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وَجهِه حتى أُلقيَ في النار، ورجلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمه، وقرأ القرآنَ، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعمَه، فعَرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمت العلمَ وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ ولكنَّكَ تعلَّمت ليُقال: هو عالِـم، وقرأتَ ليُقال: هو قارِئٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ علَى وجهه حتى أُلقِيَ في النار. ورجلٌ وسَّع الله عليه فأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعمَه، فعَرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحبُّ أن يُنفقَ فيه إلا أنفقتُ فيه لك، قال الله: كذبتَ، ولكنك فعلت ليُقال: هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار». [٢٢]

---

[٢٢] في هذا الحديث دليلٌ على تغليظ تحريمِ الرِّياء وشدة عقوبَتِه، وعلى الحثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال.

---

(١) برقم (١٩٠٥).

....

فهذا الذي قاتل في المعركة مع المسلمين، كانت صورة عمله أنه من أجلِّ الأعمال، وهي القتال في سبيل الله وإعلاء كلمته، وقد استُشهد في ذلك والشهادة في سبيل الله لها شأن عظيم عند الله لكن لما كانت نيَّته ليست لله فقد حَبِط عملُه، ويوم القيامة يُسحب إلى النار، لأنه كان كاذباً؛ لأنه لم يقاتل لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وإنما قاتل ليقال: هو جريء، أي: موصوف بالشجاعة، ففي هذا أن الصفات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد وَجْهَ الله تعالى بذلك مخلصاً له.

وأما الصِّنف الثاني من الأصناف الثلاثة الوارد ذكرهم في هذا الحديث، فهو في العلماء وطلبة العلم، وهم على صنفين: فالصنف الأول جاء فيهم قوله ﷺ: «مَن سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ الله به طريقاً إلى الجنَّة»[1]، فإذا كان قصد طالب العلم وَجْهَ الله تعالى، فإنه يحصل على الأجر الموصل إلى الجنة.

وأمّا الصنف الثاني فهم طلبة العلم الذين يطلبون العلمَ لنَيْل

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٦٤٦)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٧٤٢٧) وحديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشهادات وتحصيل المال، ونَيْل الشُّهرة والمنزلة الرَّفيعة عند الناس، فمثل هؤلاء مصيرهم إلى النار، سواء كان قصدهم طمع الدُّنيا أو الرِّياء، لأنه جاء في الحديث الصحيح: «ومَن طلب العلمَ لِيُجارِيَ بِهِ العُلَماءَ، أوْ لِيُماريَ بِهِ السُّفَهاء، أوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إلَيْهِ، أدْخَلَهُ الله النَّارَ»[1]، فمن تعلَّم العلم لأجل أن يُمدح أو ليحصل على الوظيفة، فهذا إمّا أنه يريد الدُّنيا أو الرِّياء، ويدخل في هذا أيضاً الذين يعلِّمون العلم ويوصلونه للناس، فإن كان مرادهم ابتغاء وجه الله ولأجل تبليغ الحجّة ونفع الناس، فهم من خير الناس، وأما إن كان مرادهم الرياء وطلب الثناء والمدح، فهؤلاء من الذين يَقُودهم علمهم إلى النار وإن كان متعلِّماً أو معلِّماً، لأن الأعمال بنيات أصحابها لا بصورها الظاهرة.

وأمّا الصنف الثالث الوارد ذكرهم في هذا الحديث: فهم المتصدِّقون، ولا شكَّ بأن الصَّدقة لها ثواب عظيم، والله جلَّ وعلا أثنى على المتصدِّقين ووعدهم بجزيل الثواب إذا صدقت نيَّاتهم، بخلاف ما إذا كانت نيَّتُهم طلب المدح ليقال: هو كريم ومحسن، أو

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) من حديث أُبيّ بن كعب ﷺ، وابن ماجه (٢٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

هو مواطن صالح ونحو ذلك من الصفات التي يُحبُّ سماعها، فمثل هؤلاء ليس لهم إلّا ما سمعوه في الدنيا من صور الثناء والمدح في حياتهم الدُّنيا، وأمّا في الآخرة فليس لهم ثواب عند الله عزَّ وجل.

وللترمذي(١) فيه أن معاوية ﷺ لـمَّا سمعَه بكى وتلا قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾[هود: ١٥]. [٢٣]

---

[٢٣] هذا معاوية ﷺ الصحابي الجليل لـمَّا سمع هذا الحديث بكى، لأن هذا حديث مُخيفٌ، فإذا كان هؤلاء الثلاثة الوارد ذكرهم في الحديث الذين أعمالهم من أجَلِّ الأعمال يصيرون إلى النار يوم القيامة بسبب نيّاتهم التي ليست لله عز وجل، فمن أجل ذلك بكى معاوية ﷺ ثم تلا هذه الآية مصداقاً لما جاء فيه وهو قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، والحديث مطابق للآية تماماً ومثال لما جاء فيها، وهذا الذي جعل معاوية ﷺ يتلو هذه الآية.

---

(١) برقم (٢٣٨٢)، وهو قطعة من حديث أبي هريرة الطويل.

باب الفَرَح

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. [٢٤]

---

[٢٤] قوله: «باب الفرح» الفرح: هو السُّرور، وهو على قسمين: فرح محمود، وفرح مذموم، والفرح المحمود: هو الفرح بنعمة الله وبفضله، ويدخل فيه الفرح بالعلم وبالقرآن والإسلام وغيرهما، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرح بالإسلام وبالعلم وبفضله ونِعَمِه هو الفرح المشروع والمحمود، لأنه دليل على محبَّة الخير.

وأمّا الفرح المذموم: فهو الفرح بالدُّنيا من أجل ما فيها من الملذات والشهوات، فمثل هذا الفرح مذموم لأنه يحمل المرءَ على الأَشَر والبَطَر، كما حصل لقارون الذي أعطاه الله من المال الشيء الكثير، فقال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تفرح فرح البغي، ولا تَبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ

....

ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ – ٧٧]، أي: استعمل ما وَهبَكَ الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه، ولكنه تكبَّر وتجبَّر وقال: إنما أُوتيت هذه الكنوز بتعبي وكدِّي وقوَّتي، فما كان نتيجة ذلك إلا أن خسف الله به الأرض، كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١]، وقال سبحانه وتعالى عن الذين ركنوا إلى الدنيا واطمأنوا بها: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]، فلا ينبغي لأحد أن يفرح في هذه الحياة الدنيا، وإنما ينبغي له أن يأخذ من حلالها ويترك حرامها، وينفق مما أعطاه الله في طاعته، فلا يأخذ منها لذاتها فقط وإنما من أجل أن يتبلَّغ بها إلى الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهؤلاء فرحوا بما أُوتوا ونسوا الله عز وجل، فالفرح المذموم: هو الفرح بالدنيا، وأما الفرح المحمود: فهو الفرح بالآخرة وبالعلم النافع.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ١٣]، أي:

....

كان في حياته الدنيا سعيداً، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] ظنَّ أنه لن يرجع إلى ربِّه، وإنما هي الحياة الدنيا فقط، فنسيَ الآخرة، والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ وقد سبق بيان المراد منه.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، هذه في حال أهل الجنة حيث قال تعالى قبلها في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢١ - ٢٦]، والشاهد من هذه الآيات قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: كنّا في الدنيا خائفين من عذاب الله، كما في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]، ومعنى ذلك: أن الذي أوصلهم إلى هذه المنزلة من الجنة هو أنهم كانوا في الحياة الدنيا خائفين من عذاب الله متجنبين لما يوجبه فلما خافوا منه نجاهم الله تعالى.

....

وفي هذا فضيلة الخوف من الله عزَّ وجل، وأنَّ على الإنسان أن يبقى على خوف من عذاب الله ولو أنه أُوتِيَ الدنيا بحذافيرها، فهذا نبي الله داود عليه السلام قد آتاه الله الملك والمال، والنبوة والخلافة في الأرض ومع هذا كله كان يقوم من الليل، ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً[(١)]، وكان يأكل من كسب يده عليه السلام[(٢)]، كان يعمل الدروع ويبيعها، فهو عليه السلام كان قد سَخَّر الدنيا للآخرة، وأما الذي يُسَخِّر عمل الآخرة للدنيا، فهذا هو الخاسر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهؤلاء ابتلاهم الله بالمصائب؛ ليرجعوا إلى ربهم، ويستغفروا من ذنوبهم، فلم يتوبوا إلى ربهم، ولم يستمعوا إلى نصح رسلهم، وقالوا: هذه المصائب أمر معتاد، وقد مسَّ آباءَنا الضراءُ والبأساء وليس هو بسبب ذنوبنا كما يقوله بعض الصحفيين اليوم، عند ذلك استدرجهم الله بالنسيان فلما أشروا وبطروا أخذهم الله

(١) انظر البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) انظر البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه.

بالعذاب بغتةً، فهذا كما سبقت الإشارة إليه مِن أنَّ المسلمَ المؤمن عليه أن يكون معتدلاً بأن يعيش بين الخوف والرجاء، فلا يخاف خوفاً يقنطه من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمِّنه من مكر الله، بل يكون وسطاً بين الخوف والرجاء، أما أهل الضلال، فهم على عكس ذلك، فمنهم من غلّب الرجاء وأَمِنَ مكر الله، والله جل وعلا يقول: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، أي: أنهم لم يخافوا الله عزَّ وجل، وظنوا أن الله سيغفر ذنوبهم، وهم لا يعلمون أن الله سيستدرجهم من حيث لا يعلمون، فهم يرجون رحمة الله، لكنهم لا يأمنون مكره تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فكلما اشتد الكرب عظُم الرجاء، فهذا يعقوب عليه السلام حينما اشتدَّ كَرْبُه وحزنه على يوسف عليه السلام حتى ابيضَّت عيناه من الحزن، وقد فَقَدَ أبناءه الثلاثة: يوسف وبنيامين، والأكبر منهم الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] لم ييأس من روح الله، بل قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣]، وهذا شأن المؤمن يحيا دائماً بين الخوف والرجاء.

باب ذكر اليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

عن ابن مسعود ﷺ قال: «أَكْبرُ الكبائِرِ: الإشراكُ بالله، والأَمْنُ مِن مَكْرِ الله، والقُنوطُ مِنْ رحمَةِ الله، واليأسُ مِن رَوْح الله» رواه عبد الرزاق(١)، وأخرجه ابن أبي حاتم(٢)، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً ولفظه: سُئل: ما الكبائر؟ فقال: «الإشراكُ بالله، والأَمْنُ من مَكْرِ الله، واليأسُ من رَوْح الله» [٢٥]

---

[٢٥] بوَّب الإمام ـ رحمه الله ـ بهذين الأمرين لِيَلْفتَ الانتباه إلى أنهما من الكبائر، وأن من ينزع إلى القنوط تماماً كالذي ينزع إلى الأمن من مَكْره سبحانه، فكلا الأمرين من الكبائر، فإنه ينبغي للمسلم أن يكون معتدلاً في ذلك، فالمطلوب هو الوسط وهو خير الأمور.

وقد ساق ـ رحمه الله ـ الآيات والحديث ليدلك على ما بوَّبه من

---

(١) في «مصنفه» برقم (١٩٧٠١).

(٢) في «تفسيره» ٣/ ٩٣١ (٥٢٠١).

....

أنَّ اليأس من روح الله، والأمن من مكره من أكبر الكبائر.

فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يرزقه الله تعالى الذرِّية وكان قد كَبِرَ، إلّا أنه لم يقنط من رحمة الله تعالى إلى أن جاءته الملائكة وبشَّرته بالولد، فبشَّروه بإسماعيل ثم بإسحاق ثم من بعده يعقوب عليهم السلام، قال تعالى في ذلك: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، هذا إسحاق، وفي آية أخرى قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، وهذا إسماعيل عليه السلام، جاءته بشارتان، ولكن لـمَّا بشَّروه قال: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٤ – ٥٦]، فهو لم ييأس من رحمة الله ـ وهذا هو الشاهد ـ مع كبر سِنِّه، لأنَّه قد عاش ووصل إلى هذا العمر، إلّا أنَّه كان يحيا على الرجاء والأمل ولم يقنط من رحمة الله، فقوله ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ هو من باب التعجب لا من باب اليأس، وهذا هو سبيل الأنبياء عليهم السلام، وسبيل المؤمنين، أنهم مهما اشتد بهم الكرب، فإنهم لا يقنطون من رحمة الله تعالى، في حين أنه وللأسف هناك الكثير من الناس في وقتنا هذا يعيشون على خلاف هذا السَّبيل الذي سار عليه

....

الأنبياء عليهم السلام، فتراهم يقولون: إن الإسلام قد قُضِيَ عليه، وإن المسلمين لا طاقة لهم بقتال الكفّار الذين ملكوا الدُّنيا، فهم يملكون الأسلحة الفتّاكة، متناسين أن الإسلام له ربٌّ ينتصر له، وأن الدُّنيا دُوَلٌ، وأن الله مع المتقين، وأن العاقبة كذلك للمتقين، وأنه مهما أُوتِيَ الكفّار من قوَّةٍ، فإنهم إلى زوال، وأن الإسلام دين الله هو الباقي، وأنَّ المسلمين باقون بحول الله وقوَّته، ولهم العاقبة في الدُّنيا والآخرة، فلا ينبغي للمسلم أن يقنط من رحمة الله إذا ما رأى هذه الأحوال، وهذه الفتن العظيمة، بل ينبغي أن يعظُم رجاؤه بالله عزَّ وجلَّ، وأن يثق بوعده سبحانه وتعالى، هكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن دائماً.فالمسلمون اليوم وإن كانوا في حالة ضعف، وعدوهم في حال قوة، ولا يقدرون على قتاله، فإنهم ينتظرون اليوم الذي تدور فيه الدائرة على الكفار، ويحصل النصر للإسلام والمسلمين، وما ذلك على الله بعزيز.

باب ذِكْر سوء الظَّنِّ بالله عزَّ وجلّ

وقول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقول الله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ الآية [فصلت: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦].

رُوِيَ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أكبرُ الكبائرِ سُوءُ الظَّنِّ بالله» رواه ابن مردويه[1] [٢٦]

---

[٢٦] ومن الكبائر سوء الظن بالله – عزّ وجل ـ، ومن ذلك عند الموت، وقد قال ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله»[2]، أما في حال الحياة، فينبغي أن يوازن بين الخوف والرجاء، فلا يغلّب أحدهما على الآخر، بعكس ما عند الموت فإنه يُغلِّب الرجاء، لأنَّ وقت العمل قد انتهى، فلا عمل، فعليه أن يحسن الظن بالله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣]، الخِطاب في هـذه الآية للكفار، أي: ظنكم أنَّ الله لا

---

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٢٧٩ وعزاه لابن مردوية.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

....

يعلم كثيراً مما تعملون من الكفر والشرك، فظنكم هذا ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾، أي: أهلككم، فأصبحتم من الخاسرين بسبب سوء الظن بالله عز وجل، بأنه لا يعلم ولا يطلّع، ولا يستجيب، وهذا اعتداء منهم على حقِّه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، وذلك عندما خرج النبي ﷺ للغزو تخلّف المنافقون ظناً منهم أنهم لا يرجعون كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]، فلما عاد ﷺ وأصحابه منتصرين ظافرين، جاء المنافقون يعتذرون بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١]، فهم يقولون إنَّ الذي شغلهم وحبسهم عن الخروج مع الرسول الأموال والأولاد ثم قال في حقِّ هؤلاء المتخلِّفين المعتذرين إلى الرسول ﷺ: بأنَّ الذي حبسهم هو سوء الظن بالله بأنه لا ينصر رسوله ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: وددتم هلاك الرسول ﷺ وأصحابه، واعتقدتم أنهم لـن يعودوا سالمين، وتمنيتم أن يستأصلهم عدوهم، فهم بظنهم

. . . .

هذا ظنوا ظنَّ السوء، وكانوا قوماً بوراً، فبيَّن سبحانه وتعالى أن الذي أقعدهم عن الجهاد إنما هو سوء الظن بالله تعالى، وظنوا أن الرسول ﷺ وأصحابه لن يستطيعوا قتال الكفار وهزيمتهم، وأنهم بعددهم القليل لن يرجع منهم أحد.

فقد تبيَّن من هذا أنَّ سوء الظن بالله إنما هو كبيرة من كبائر الذنوب، ولهذا ينبغي للمسلم أن يكون دائماً حسن الظن بربِّه، وأنه مهما بلغت سيئاته، وتعاظمت ذنوبه، لا بدَّ له أن يدرك أن باب التوبة مفتوح، وأنَّ الله يقبل توبة العبد إذا تاب وأحسن الظن به. وأنَّ الفرج قريب.

وفي هذا الحديث التحذير من اليأس من رحمته تعالى، والقنوط من عفوَه، وفيه الحثُّ على الرَّجاء، وخاصةً عند دُنوِّ الأجل. وعند الشدائد والكربات.

وعن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول قَبل وفاته بثلاث: «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله» أخرجاه(١).

وزاد ابنُ أبي الدُّنيا(٢): «فإنَّ قوماً أَرداهم سُوءُ ظنِّهم بالله، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] [٢٧]

---

[٢٧] من الكبائر: سوءُ الظنِّ بالله، وهذه الصفة إنما وصف الله بها المنافقين في غير ما آية، وذكر أن الشيطان يُدخِل إلى بعض القلوب المريضة أن الله لا يريد الخير لعبده، وأنه سيعذبه، ولا يقبل توبته، إلى غير ذلك من الوساوس التي يُخذِّل بها بعض أصحاب القلوب المريضة، فَيقنِّط العبد من رحمة الله، ويجعله ييأس من روح الله، وهذا يعدُّ كبيرة من كبائر الذنوب القلبية، وقد وصف الله به المنافقين والكفار، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] كما حصل في وقعة أُحُد، ففيها اشتدَّ

---

(١) مسلم (٢٨٧٧).

(٢) في كتاب «حسن الظن بالله» (٤)، وهذه الزيادة عند أحمد في «مسنده» (١٥١٩٧).

....

الكرب على المسلمين، حيث استشهد منهم عددٌ كبير، وظنَّ المنافقون أنَّ هذه هي نهاية المسلمين، وأن الله لن ينصر رسوله ﷺ وأصحابه، وأن الإسلام سينتهي، فهذا ظنهم بالله، وهو ظنُّ الجاهلية، يقول تعالى في سورة الفتح: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، فقد ظنَّ المنافقون والمنافقات أن الرسول ﷺ وأصحابه لن يعودوا إلى أهليهم بعدما خرجوا للحرب، فلذلك تخلفوا ولم يخرجوا للقتال، ولما نصر الله رسوله ﷺ وأصحابه، وعادوا بالنصر والظفر، جاؤوا إلى الرسول ﷺ يعتذرون بأنهم شغلتهم أموالهم وأولادهم وأهلوهم، وقالوا كما ذكر سبحانه على لسانهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، فهذا ظنُّ المنافقين.

أما المؤمن فإنه يحسن الظنَّ بربِّه، مهما بلغت الشدَّة، فهو لا ييأس أبداً، لعلمه بأنَّ رحمة الله واسعة، وأنَّ هذا امتحان من الله له.

....

فهذا هو شأن المؤمن، فإنه كلما اشتد به الكرب، عَظُم رجاؤه بالله - عز وجل - ولهذا قال ﷺ: «واعْلَم أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»[1]، هكذا المؤمن دائماً، فهو يزداد ثقةً بالله كلما اشتد به الكرب وضايقته الحوادث، أو تسلَّط أعداؤه عليه، فإنه لا ييأس أبداً.

كما أن المؤمن إذا أذنب وأخطأ فإنه يتوب، ويُحسِن الظن بربِّه بأنه يقبل توبته ويغفر له ذنبه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فإنه كلَّما عظُم الذنب، عَلِمَ المؤمن بأنَّ عَفْوَ الله أعظم، فإذا تاب المسلم تاب الله عليه مهما كان ذنبه، بل حتى لو تاب العبدُ غير المسلم فإنَّ الله يتوب عليه ويدخله في رحمته، فلا ينبغي للعبد أن ييأس من مجيء الفرج عند الكرب، أو ييأس من تحصيل المغفرة عند التوبة من الذنب، وهكذا إذا حضره الموتُ فإنه ينبغي له أن يُحسن الظنَّ بربِّه، ولا يقنط من رحمته، أو يَغْلب عليه الخوف من النار عند الموت، فهكذا هو حال المؤمن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٢٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

دائماً وأبداً، سواء عند الموت أو عند وقوع الكُرَب والشدائد، أو في حال مقارفة بعض الذنوب، فعليه أن يجعل أمله بالله تعالى قوياً.

وأمّا الكفار والمنافقون فهم بخلاف المؤمنين لأنهم يُسِيئُون الظنَّ بربِّهم، ولهذا يوبِّخ الله الكافرين يوم القيامة في حال دخولهم جهنم ويقول لهم: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢ – ٢٣]، فلقد ظنوا أن الله لا يعلم أعمالهم من كفرٍ وشرٍّ، فتمادوا في الكفر والطغيان؛ لأنهم يظنون أنَّ الله تعالى غير مطَّلعٍ على أعمالهم، وأنها تُنسَى وتذهب، أما المؤمن فإنه لا يظن هذا الظن، فهو يعلم أنَّ الله يعلم كل شيء، ويعلم أن الله يسمع ويبصر، لذلك فهو يراقب الله عزَّ وجل، لأنه لا يخفى على الله شيء، ولذلك فهو يبتعد عن المعاصي والذنوب، ويكثر من الطاعات، وهذا نتيجة مراقبة الله سبحانه وتعالى، بعكس الكفار الذين ظنوا أن الله مُهمِلُهم، وأن أعمالهم لا تُحصى عليهم، ولكن الله تعالى ردَّ عليهم بقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فالله جل وعلا بالمرصاد، يرصد أحوال عباده ولا يخفى عليه شيء، ولهذا قال ﷺ:

. . . .

«اتَّقِ الله حيثما كُنْتَ»[1]، وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، فإذا لم تصل في مرحلة اليقين كأنك ترى الله عياناً، وهذه هي المرتبة الأولى، فاعلم أن الله يراك، وهذه المرتبة الثانية، وهذا هو الإحسان بين العبد وبين ربه ـ عز وجل ـ كأن العبد يرى الله ـ عزَّ وجل ـ بأسمائه وصفاته وآلائه، وذلك من قوة يقينه، فهو لا يراه في الدنيا بالبصر ولكن يراه بالبصيرة، فلما كان يراه بالبصيرة، فكأنما رآه بالبصر، فإذا لم يبلغ هذه المرتبة فليعلم أنَّ الله يراه، وهذا من الإحسان أيضاً، لكنه أقل من المرتبة الأولى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولهما عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي»[1]، زاد أحمد وابن حبان: «إن ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظنَّ بي شرّاً فلَه»[2] [٢٨]

---

[٢٨] هذا حديث عظيم، حيث يقول الله – جل وعلا – في الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّي عبدي بي» فإن ظنَّ خيراً أعطاه خيراً، وإن ظن شراً أعطاه إيّاه، فالجزاء من جنس العمل، فالذي يظن أن الله لا يقبل توبته، وأنَّه معذبه وهو لا محَالَةَ من أهل النار، فهذا يجازيه الله على حسب هذا الظن، لأنه أساء الظن بربه عز وجل، أما إذا أحسن الظن بربه، وأيقن أنَّ الله لا يغفر ذنبه، فإنَّ الله يكون عند حسن ظنه.

ومعنى الحديث أن الله يعامل العبد على حسن ظنه به، ويفعل به ما يتوقعه من خير أو شر، والمراد: الحث على تغليب الرجاء على الخوف وحسن الظن بالله، والتحذير من اليأس والقنوط، والحثُّ على حسن الرَّجاء.

---

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) أحمد (٩٠٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٩).

باب ذكر إرادة العُلُوِّ والفساد

وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] [٢٩]

---

[٢٩] هذا من كبائر القلوب، وهو إرادة العلو والفساد في الأرض، ولهذا أورد المصنِّف رحمه الله قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقد جاء قوله تعالى هذا بعد أن ذكر قبله قصة قارون، وكيف أن الله خسف به وبداره الأرض، بعدما تكبّر وتجبّر على الناس، وجحد نعمة الله وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكبُّراً على الناس ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: لا يريدون الفساد في الأرض بالكبر والمعاصي والذنوب والاعتداء على الناس، وهذه الأشياء هي من مظاهر الفساد في الأرض، فهو جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالله تعالى قد أصلحها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فلا تفسدوا فيها بعد أن أصلحها الله وهيأها لذلك، وقد

....

قال الله تعالى في وصف المسرفين الذين يفعلون الفساد في الأرض ولا يصدر منهم الصلاح ألبتَّة: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢]، فالإفساد في الأرض يكون بارتكاب المعاصي والذنوب، والكفر والشرك، والاعتداء على الناس، وكل هذه الصفات والأعمال لا يرضى الله عنها ولا يقبلها لعباده، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

فكما أنَّ هذه الأعمال السالفة الذكر من مظاهر الإفساد في الأرض، فإن الطاعات من مظاهر الإصلاح فيها، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ الناس أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين يريدون العلوَّ على الناس والفساد في الأرض، كفرعون وحزبه، وهؤلاء شر الخلق، وهم أصحاب الجحيم يوم القيامة.

والقسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلاعلو، كالسُّرّاق المجرمين من سفلة الناس.

والقسم الثالث: الذين يريدون العلوَّ بلا فساد، كالذين عندهم دين، يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

....

وأما **القسم الرابع**: فهم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، لا يتكبرون على الناس، ولا يفعلون المعاصي، ويتواضعون لله عزَّ وجل وللناس، وهؤلاء هم أصلح الناس ومن خير الخلق، وهم أهل جنات النعيم يوم القيامة.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتى يُحِبَّ لأَخيه ما يُحِبُّ لنَفْسِهِ» أخرجاه[1]. [٣٠]

---

[٣٠] قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» هذا فيه بيان صفة الذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً، أنهم يريدون الخير للناس كما يريدونه لأنفسهم فكما أنَّ المرءَ من طبيعته وفطرته أنه يحب الخير لنفسه فكذلك ينبغي له كي يكون مؤمناً أن يحبَّه للناس، وكما أنَّه يكره الشر لنفسه، فعليه أن يكرهه للناس أيضاً، أما الذي على العكس من ذلك، فهذا هو المذموم.

والمقصود بقوله: «لا يؤمن» أي: الإيمان الكامل، فليس معنى «لا يؤمن أحدكم»: أنَّ الذي لا يحب الخير لأخيه يكفر ولكن معناه لا يؤمن الإيمان الكامل.

وعليه فإنَّ مَن أحب الخير لنفسه، وأحب الشر للناس، عُدَّ عمله هذا من الفساد والعلو في الأرض، لأنه يريد أن يَخُصَّ نفسَه دون غيرِه بنعمة الله، ولا يريد لأحدٍ خيراً، وهذا من الحسد.

---

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدُكم حتى يكونَ هَوَاهُ تَبَعاً لما جئتُ به»[١]. [٣١]

---

[٣١] كما ذكرنا سابقاً أنَّ المراد بقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم» يعني: الإيمان الكامل، وليس نفي الإيمان المطلق، فمعنى هذا الحديث: لا يؤمن أحدكم الإيمان الكامل حتى تكون رغبته تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، بأنْ يرغب ما يرغبه الرسول ﷺ، وإن رغبت نفسُه خلافَه، نعم قد يكره الإنسان بعض الأشياء، ولكنها تكون كراهةً نفسية لا دينية، فلو كانت كراهة دينية فإنه يكفر، وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، أما الذي يكرهه كراهة نفسية كسلاً وحبّاً للراحة كأن يكره قيام الليل أو صيام التطوع، كان هذا نقصاً في الإيمان، بخلاف الذي يحب ما جاء به الرسول ﷺ، ولو كان يخالف هواه ورغبته فهذا من كمال الإيمان.

وهذا الحديث ذكره الحافظ النووي ـ رحمه الله ـ في كتاب «الأربعين» وقال: حديث صحيح روِّيناه في كتاب «الحُجَّة على تارك

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في «الأربعين» (٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤).

....

المحجة» للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي[1]. وقد طبع محققاً في الجامعة الإسلامية، وهو من كتب العقيدة، ويشاركه في هذا العنوان كتب أخرى، لكن المعروف منها هو هذا، قال: روّيناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح. بينما ضعّف الحديث ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»[2]، ولكن للحديث شواهد تقويه، منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، فالذين كرهوا ما أنزل الله لم يكن هواهم تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وقلنا: إذا كانت الكراهة دينية فذاك كفر، وإن كانت نفسية فذلك نقص في الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] أي: شديد عليكم وفيه مشقّة، فهم لا يكرهونه كراهة نفسية، بل كراهة نفسية، فدلَّ ذلك على أنه إذا كانت الكراهة كسلاً واستثقالاً من النفس، اعتُبر ذلك نقصاً في الإيمان، فإنَّ المؤمن الكامل الإيمان يجد نشاطاً في فعل الطاعات والعبادات.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ١٣٦.

(٢) (٢/ ٣٩٣) الحديث الحادي والأربعون.

باب العداوة والبغضاء [٣٢]

[٣٢] العداوة والبغضاء للمسلمين من كبائر الذنوب، ولكن قد يجد المرء في نفسه عداوة وبغضاء لبعض الناس، فإذا كانت العداوة والبغضاء لأهل الإيمان، فهذا من كبائر الذنوب، وأما إذا كانت لأهل الكفر والنفاق، كان هذا من الإيمان بالله تعالى، وهو مطلوب كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقد جاء في الحديث: «أَوثَقُ عُرى الإيمانِ الحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله»(١)، وقال ابن عباس: «مَنْ أحبَّ في الله، وأبْغَضَ في الله، وَوَالى في الله، وعَادَى في الله، فإنّما تُنَالُ وِلَايةُ الله بِذلِكَ»(٢)، فلا بد من الحب والبغض، ولكن ليس كل الناس يحبهم الإنسان، ولا كلهم يبغضهم، فإن كان حبه وبغضه في الله، فهو من كمال الإيمان، أما إذا كان حبه وبغضه لغير الله ولأجل الهوى فهو على العكس من ذلك، فباب الولاء والبراء أصل من أصول العقيدة، فلا بدَّ من موالاة أولياء الله، ومن معاداة أعداء الله، والتفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولهذا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله:

---

(١) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٧٤٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

....

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي حبّاً لـه مـا ذاك في إمكـانِ
وكـذا تُـوالي جاهـداً أعـداءَهُ أيـن المحبـةُ يـا أخـا الـشيطانِ

هناك من الملاحدة والكفار والمنافقين من يقول: لا تبغضوا أحداً مهما كان معتقده ودينه، لأنَّ هذا من التطرف، نقول: لا، بل هو من أصول الإيمان، فنحن نحب أولياء الله، ونعادي أعداء الله، وليس هذا من التطرف، نعم نُبغض الكفار، ولكننا لا نعتدي عليهم بغير الحق. خاصة إذا كانوا معاهدين، أو كانوا أهل ذمة أو مستأمنين، كذلك فإنَّ من أحسن منهم إلى المسلمين فإننا نحسن إليه مكافأة له، وليس ذلك من المحبة، وإنما هو من باب ردّ الجميل، فلا بأس، وأن نشتري منهم ونتعامل معهم، فهذا من باب التبادل بالمنافع، وليس من الولاء والبراء، فلا يلتبس هذا بهذا، فهناك فرق بين الولاء والبراء، وبين المعاملة مع الكفار والوفاء لهم بالعهد، فبغضهم في الله لا يُعد إرهاباً ولا غُلُوّاً بل هو عقيدةٌ، وأما التعاقد معهم في الأمور الشرعية التي أباحها الله تعالى فهو مباح، أمّا الاعتداء عليهم بغير حق فهو إرهاب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾[المائدة: ٨] والإرهاب: هو أن تقتل من لا يجوز قتله من المؤمنين أو المعاهدين، وهناك من يقول: لا تبغضوا أحداً لأنَّ الله تعالى أمرنا بالمحبة وحسن المعاملة،

. . . .

فهؤلاء يخلطون بين المحبة في القلوب والمعاملة الدنيوية، وهناك من يقول: لا تتعاملوا معهم أبداً لأن الله ينهاكم عن موالاتهم، فأدخلوا في الموالاة ما ليس منها، والطرف الآخر أدخلوا في المحبَّة ما ليس منها، فهما على طرفي نقيض، فلا بد من معرفة اللَّبْس الذي حصل في هذه المسألة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. [٣٣]

---

[٣٣] في هذه الآية الكريمة بيان أنه إذا حدث بين المسلمين أيُّ خلاف، سواء كان خلافاً عَقَدياً، أو في المعاملات، أو في أمور حياتهم، فلا بُدَّ من أن يُرجع ويُحتَكم فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكذلك في الحب والبغض، وفي الموالاة والمعاداة إنما يُرجع في ذلك كلِّه إلى الله والرسول ﷺ. فمنهم من يقول: أحبوا الناس جميعاً، فكل بني آدم إخوان في الإنسانية، ولا داعي للكراهية وزرعها في النفوس، ومنهم من يقول: قاطعوهم ولا تتعاملوا معهم أبداً، فالفيصل في ذلك ليس الهوى، وإنما الكتاب والسنة، فإن الله عزَّ وجل قد فصَّلَ في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ هذه المسألة تفصيلاً واضحاً لا لَبْس فيه، إلّا على الجهال أو أهل الأهواء الذين لا يريدون الحق.

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]. [٣٤]

---

[٣٤] هذه الآية تتحدث عن أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خليل الله، فإنه أسوة المؤمنين، فلقد أُوذيَ في الله أشدّ الإيذاء، وصبر فنصره الله وعادى أعداء الله حتى أقرب الناس إليه وهو أبوه، فأمرنا سبحانه وتعالى باتباعه والاقتداء به، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والأسوة: القُدوة، والقدوة على قسمين: حسنة وسيئة، وهذه قدوة حسنة كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: من المؤمنين، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قومهم الكفار ومما يعبدون من الأصنام والأوثان، فكفروا بهم وقالوا لهم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فإذا آمنوا بالله وحده، صاروا أحبابا لنا؛ لأنَّ موجب العداوة قد زال.

باب الفُحش

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الآية [التوبة: ٩١] [٣٥].

---

[٣٥] الفُحْش من كبائر القلوب، والفحش: هو المتناهي في القُبْح، والفحشاء: هي المعصية المتناهية في القُبْح، فالمسلم لا يكون فاحشاً ولا مُتَفحِّشاً، ولكنه يتجنب الفُحْش في القول والعمل، ولا يُشيع الفاحشة بين الناس.

والشائعة قد تكون كذباً، والذي أشاعَها قد قال كذباً وصار من الكاذبين، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فإذا بلغكَ عن أحدٍ أنه أَساء أو عمل خطيئةً، فلا تستعجل، فربما كان الذي بلَّغَك يفتري عليه الكذب، فإذا أفشيتَهُ، فقد أفشيتَ الكذب، ولذا جاء في الحديث: «كَفَى بالـمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ»(١)، فربما كانت هذه الشائعة ـ كما ذكرنا ـ كذباً،

---

(١) أخرجه مسلم (٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فإذا أشعتها فقد أشَعْتَ الكذبَ، وإذا كانت صحيحةً فالمسلم ليس معصوماً، فقد يقع في المعصية أحياناً، فلا ينبغي لك أن تُشِيعَ هذه الفاحشة، ولكن عليك أن تسترها، قال رسول الله ﷺ: «مَن سَتَرَ مُسلماً سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنْيا والآخِرة»(١). ولهذا عليك بمناصحة العاصي بينك وبينه، لقوله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحة»(٢)، فكثيرٌ من الناس الآن لا تخلو مجالسهم إلّا بالحديث عن الناس، فلان عمل كذا، وفلان أخطأ في كذا، وهذا لا يجوز بين المسلمين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩]، فإذا شاعت الفاحشة في الناس، حينها يتساهل أهل الفسق والمعاصي بأعمالهم، ولسان حالهم يقول: ما دام هذا حاصلاً ويحدث، فنحن لا لوم علينا، فيخشى حينئذٍ أن تسهل المعصية في نظرهم، وكان هذا سبباً لزيادة ارتكاب المعاصي، فالأَولى أن تُستر، فهذا هو الأفضل للمجتمع.

والحاصل أنّه إن شاعت الفاحشة سَهُلَ ارتكاب المعاصي وتساهل الفسّاق بها، وحينئذٍ تحدث العداوة والبغضاء بين المسلمين، وسوء الظن، والتفكك في المجتمع.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

....

وفي واقع الأمر فإنَّ الذي يتولى إشاعة ذلك في المجتمع هم المنافقون، فلا تَدَعوا لهم سبيلاً إلى ذلك، وهذه الآية جاءت في سياق حادثة الإفك، حيث رمى المنافقون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، في قصة الإفك وبعض المؤمنين انخدع وصدّق هذه الشائعة، وصار يتحدّث بها، يقول الله جل وعلا: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٢ – ١٤]، فالمنافقون لا يستغرب منهم هذا، لأنهم منافقون وإشاعة الفاحشة ديدنهم، ولكن بعض المؤمنين وقع في هذا وصدَّق المنافقين، وصار يتكلم بكلامهم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فدخلوا في الجريمة، وأقيم عليهم حَدُّ القذف.

والحاصل أن الفحش جريمة عظيمة ينبغي التحذير منها، لأننا نرى الكثير من شبابنا اليوم قد وقع في بعض هذه المسائل، فتراهم يشيعون الكلام بين الناس في مجالسهم، وفي حديثهم عَبْر الجوّالات، فإذا سَمِعُوا قولاً سارعوا يتناقلونه فيما بينهم دون تثبت، وهذا يُشجِّع

على انتشار الفاحشة، وهي في واقعها لا تخرج عن أحد أمرين: إما أن تكون كذباً، وحينها يكون ناشرُها كذّاباً، وإما أن يكون شيء قد حصل فلا يجوز إشاعته، بل يجب ستره، والقضاء عليه لأنَّ هذا ممّا أمر الله سبحانه به، ولأن إشاعة الفاحشة وحبها هو من خُلق المنافقين.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهؤلاء هم المنافقون، ولا يحصل هذا إلّا من منافق، ولكن ربما يقع في هذا الأمر بعض المؤمنين الغافلين، لا عن نفاق، ولكن عن غَيْرَةٍ، ولكن في حقيقة الأمر إنَّ هذه ليس غَيْرةً وإنما هذا منكر، لأنه لا يجوز إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، والله قد أمر بالستر، والمؤمن قد يقع في بعض الآثام أحياناً، فلا يجوز معالجة الخطأ بالخطأ، وإنما بالمناصحة فيما بين المسلمين دون تشهيرٍ أو تجريح.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ فقد نزلت هذه الآية عند الخروج إلى غزوة تبوك، فمن المسلمين مَنْ حبسه العذر، وهم الضعفاء والمرضى الذين ليس عندهم نفقة، وهؤلاء لم يتخلفوا عن نفاقٍ، بل إنَّ قلوبهم مخلصة لله

. . . .

ورسوله ﷺ، فهم يحبون الخروج، ولكن منعهم العُذر، ولهذا قال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فهم لم يتلذذوا بالجلوس خلف رسول الله ﷺ بالظل البارد، بل كانوا في ضيقٍ وكَدَرٍ وحزن ببقائهم خلفه ﷺ، فهؤلاء هم الناصحون لله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وأمّا الذين قعدوا لِنفاقٍ في قلوبهم، فهؤلاء ليسوا بناصحين لله ورسوله ﷺ. ولعلَّ مراد الشيخ رحمه الله من إيراد هذه الآية بعد إيراد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنَّ التخلي من المعاصي وإنكارها ليس من إشاعة الفاحشة المنهي عنه، بل هو من النصيحة الواجبة.

باب ذكر مودة أعداء الله

وقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]. [٣٦]

---

[٣٦] هذا الباب متعلق بمسألة الحب والبغض، ولكنه زيادةُ توضيح ـ والله أعلم ـ ففي الآية التي ساقها المصنف رحمه الله دليلٌ على أن محبة الكفار تنافي الإيمان، فكيف تُحِبُّ من حادّ الله ورسولَه وقد أبغضه اللهُ ورسولُه؟ فالأصل في المؤمن أن يُحِبَّ مَن أحبه الله ورسوله، فهذه هي طريقة أهل الإيمان، فالمراد أن لا تُحِبَّ مَن حادَّ الله ورسوله ولو كان أباك أو ابنك أو أخاك أو من عشيرتك، فإن أنت استجبت لأمر الله تعالى، انطبق عليك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقد قيل: نزلت هذه الآية في أبي عبيد بن الجراح ﷺ لما قتَلَ أباه يوم بَدر، حيث كان أبوه مشركاً يقاتل المسلمين، فقتله ابنه لكفره بالله ـ عزَّ وجل ـ ولم تحمله الأُبوة أو البُنوة، لأنْ يتركه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]. [٣٧]

---

[٣٧] هذه الآية فيمن ترك الهجرة شُحّاً بوطنه أو بماله أو بأولاده، أو ترك الجهاد في سبيل الله ـ عزَّ وجل ـ أو تركهما معاً لأجل ذلك، فهذا من آثر محبة الدنيا على محبةِ الله ـ عزَّ وجل ـ فليس هناك أحدٌ لا يحب هذه الأشياء الثمانية المذكورة في هذه الآية، فالكل يحبها محبة طبيعية، فالمسلم إذا ما أحبَّ هذه الأشياء فإنَّه لا يُلام على ذلك، ولكن يُلام إذا قدَّم محبتها على محبة ما يحبه الله ورسوله من الجهاد والهجرة، ولهذا قال الله عز وجلّ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ يعني: فانتظروا ماذا يحِلُّ بكم من عقابه ونَكَاله بكم، وهذا تهديد، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: يأتي الله بالنصر للمسلمين، ثم تندمون على ما حصل منكم، فهذه الآية فيمن قعد عن الهجرة والجهاد شُحّاً بهذه الأشياء الفانية.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]. [٣٨]

---

[٣٨] وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فالمراد به: أن لا تميلوا إلى الكفار، فالرُّكون: هو المحبَّة والميل بالقلب وإن قل، وهو أيضاً نهيٌ من الله ـ عز وجل ـ عن مداهنة أهل الشرك، والركون: هو الميل، أي: لا تميلوا إليهم بقلوبكم بالمحبة والموالاة والنُصرةِ والتأييد ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ وفي هذا وعيد شديد، فإن من رَكَنَ إلى الكفار فسوف تُصيبه النار يوم القيامة، فالأصل في المسلم أن لا يركن إلى الكفار، بل يركن إلى المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي هذا تبرُّؤٌ من الله تعالى ممن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومعنى تقاة: مداراة، لدفع شرهم عن المسلمين، وهذا جائزٌ عند الحاجة إليه، وخاصة إذا كان الضرر شديداً فإنه يدفع الضرر بارتكاب ما هو أخف منه. فإنه يجوز دفع أعظم الضررين بارتكاب ما هو أخف منه.

وقال أبو العالية: لا تَرْضوا بأعمالهم.

ورُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تَميلوا إلَيْهم كُلَّ المَيْل في المحبَّةِ ولِينِ الكَلامِ والمَوَدَّة.

عن ابن مسعود ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» أخرجاه[1]. [٣٩]

---

[٣٩] وأما قول أبي العالية: «لا ترضوا بأعمالهم» فمعناه: لا تركنوا، هذا وجه من وجوه تفسير هذه الآية، ومنها قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما والحاصل: لا تميلوا إليهم بِمَدْحِكم وثنائكم عليهم وتعظيمكُم إيّاهم، لأنَّ كل ما يؤدي إلى تعظيم الكفار فهو من الركون إليهم.

وهذه العبارات الواردة عن الصحابة داخلة في معاني الآية: لين الكلام والمحبة، وغير ذلك مما فيه تعظيم للكفار أو مُداهنتهم، وهناك فرق بين المُداهنة والمُداراة، فالمداهنة لا تجوز أبداً، كأن تتنازل عن شيء من أمور دينك، مثل أن يقال لك: لا تُصَلِّ، فإن قبلت، كانت هذه مداهنة منك، وكنت قد حقَّقت رغباتهم، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]،

(١) البخاري (٦١٦٨) و(٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

....

وقال: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة: ٨١]، أي: بالقرآن، وهذا إنكار لفعلهم.

أما المداراة فتجوز عند الضرورة، كما فعل عمار بن ياسر ﷺ عندما عذّبوه وقالوا له: لن نُطْلِقكَ حتى تَسُبَّ محمداً، فتلفَّظ بسبِّ الرسول ﷺ حتى يتخلص منهم. فلما تخلّص منهم، خاف وذهب إلى الرسول ﷺ يَسْتفتيه فيما حصل منه. فقال له: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال له النبي ﷺ: «إنْ عَادُوا فَعُدْ»[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، فسبب نزولها قصة عمار بن ياسر ﷺ وكان هذا منه ﷺ من باب الـمُداراة، وهو دفع ما هو أشدُّ، أي: ارتكاب ما هو أَخفُّ لدفع ما هو أشدُّ.

وأما قول ابن مسعود ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «الـمَرْءُ مَعَ مَن أَحَبَّ» فهذه قاعدة عظيمة ذكرها الرسول ﷺ: أنَّ المرء يُحشر مع مَن أحبَّ يومَ القيامة، فإن أَحَبَّ المؤمنين كان معهم في الجنة،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٤/ ١٨٢، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢) من حديث محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه ﷺ.

وإنَّ أحبَّ الكفارَ صار معهم في النّار، فمحبة المسلم لا تكون إلّا للمسلمين وبغضه لا يكون إلّا للكافرين.

وفي الحديث: أنَّ رجلاً سألَ النبي ﷺ عن السَّاعةِ فقال: مَتى السّاعةُ؟ قال: «وما أعْدَدْتَ لها؟»، قال: لا شَيءَ إلَّا أنّي أحبُّ الله ورسولَه، فقال: «أنتَ مَعَ مَنْ أحببتَ»(١).

فلا يجوز للمسلم أن يحبَّ الكفار؛ لأن المرء يُحشر مع مَن أحبَّ يوم القيامة، أما الذين يقولون: أَحِبُّوا جميع الناس، فالجميع أولاد آدم، فأين هم من هذا الحديث والآيات؟! فهؤلاء إمّا أنهم جهّال أعمى الله بصائرهم، وإما أنهم أهل نفاق وكفر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

باب ذكر قسوة القلب

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. [٤٠]

---

[٤٠] لا زال المؤلف رحمه الله في ذكر كبائر القلوب، ومنها: كبيرة قسوة القلب، وهي كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وهذا القلب هو مَلِكُ البدن كما قال ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغة إذا صَلَحَت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجسد كلُّه ألا وهي القلب»[1]، فإذا كان هذا القلب لَيِّناً بذكر الله سبحانه وتعالى لانت له الأعضاء وانطلقت في فعل الخير، وإذا كان هذا القلب قاسياً، فإن هذا يؤثِّر على كلِّ الأعضاء قسوةً وجموداً وكسلاً عن طاعة الله جل وعلا، وهذا القلب قد يقسو ويكون أشدَّ من الحجر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

....

فالقلب يكون أقسى من الحجر إذا أعرض عن ذكر الله عز وجل، وقسوة القلب لها أسباب سيأتي ذكر بعضها.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فتلاوة القرآن بتدبُّر تُليِّن القلب ولكن إذا أعرضَ القلب عن تدبُّر هذا القرآن، وعن تأمُّله فإنه يقسو، مع أنَّ القرآن لو خاطب به الله الجبلَ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، لأنَّ قلبَ ابن آدم يكون أشدَّ تجمداً وقسوةً من الجبل، فهذا هو القصد من هذا الباب: وهو التحذير من قسوة القلوب، والدَّعوة إلى اتخاذ الأسباب التي تُليِّن القلوب، ومن أعظمها تلاوة القرآن بتدبُّرٍ وحُضُور قلب، فإنَّ هذا القرآن يُليِّن القلوب.

ومن أسباب قسوة القلب: نقضُ الميثاق مع الله جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

....

فالله قد أخذ الميثاق على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم بأن استخرج ذرية آدم كالذَّرِّ، ثم أخذ عليهم الميثاق أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فمَن عبد غير الله فقد خان هذا العهد، وأخلَفَ هذا الميثاق، وهذا كما ذكر الله عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢] ثم قال بعدها: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

وبسبب هذا النقض حصل لهم أمران: الأول: أنَّ الله لعنهم، يعني: طردهم وأبعدهم من رحمته، هذا أول عقوباتِ نقضِهم ميثاقَهم أنَّ الله لعنهم، فالكفار من بني إسرائيل ملعونون: قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨].

أما المؤمنون منهم فهم صالحون، وقد أثنى الله عليهم فقال: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾، وهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون: لا تلعنوا اليهود والنصارى، مع أنه سبحانه كان قد لعنهم من قبل فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]،

....

فبسبب نقضهم العهد مع الله قست قلوبهم، ولو أنَّهم وفوا بالعهد مع الله لَلانت قلوبهم، وهذا ليس خاصّاً ببني إسرائيل، وإنما هو يشمل كل من فعل فِعْلهم من المسلمين وغيرهم. والثاني من الأمرين: أنه تعالى جعل قلوبهم قاسية، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] فلا يتّعظون بموعظة لِغِلَظ قلوبهم وقساوتها. وهو يورثُ قسوةَ القلب.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. [٤١]

---

[٤١] أما قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾.

قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يعني: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والجمال والصدق، وقوله: ﴿مَّثَانِيَ﴾ يعني: كرَّرَ الله فيه المواعظ، وكرَّرَ فيه القصص، لأجل تَليين القلوب ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أما الذين لا يخشون ربهم فهو يَمرُّ عليهم ولا يُؤثِّر فيهم، وفي هذا دليل على أن القرآن يُليِّن القلب، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فدلَّ على أن تلاوة القرآن مع التدبر وحضور القلب يُليِّن القلب، وهذا كما في الآية الأخرى حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فذِكْرُ الله يُلين القلوب، والغفلة عن ذكرهِ تُقسي القلوب، ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، فالسبب في وَصْفِ الله لهم أنَّهم مؤمنون حقاً، لأنهم إذا تليت عليهم آيات الله عزَّ وجل لانت قلوبهم بسماعها، وخشعت لها،

....

فانقادت جوارحُهم للطاعات، وبادرت بأداءِ المفروضات، وتَرْك المحرمات، هذا هو الأساس لتِليين القلوب؛ ومن هنا يُفهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فالقرآن أحسنُ الحديث، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾. ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] [٤٢].

---

[٤٢] هذا عتابٌ من الله جلَّ وعلا للمؤمنين، لئلا ينشغلوا عن القرآن فتحصل في قلوبهم شيءٌ مِنَ القسوة، فحثهم الله بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ - وهو القرآن - ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ - اليهود والنصارى - ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، انشغلوا بالدنيا وبالملذات والمأكولات والأموال والأولاد، فمضى عليهم عهدٌ طويلٌ وهم لا يلتفتون إلى كتاب الله، فطال عليهم الأَمَد، فنتج عن ذلك أن قست قلوبهم لـمّـا أعرَضوا عن التوراة والإنجيل، ولذلك حذَّر اللهُ المؤمنينَ من أن يعملوا مثل عملِهم، بأن يُعرضوا عن القرآن فتقسُوا قلوبُهم مثل ما قَسَتْ قلوب الذين مِن قبلهم.

عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «ارحَمُوا تُرحَمُوا، واغفِرُوا يَغْفِرِ الله لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْماعِ القَوْل، وَيْلٌ للمُصِرِّين الَّذينَ يُصرُّونَ على ما فَعَلوا وهُمْ يَعلَمُون» رواه أحمد[1] [٤٣].

---

[٤٣] هذا من أسباب لِين القلب، وهو الرحمة بالمستضعفين والمحتاجين والمساكين، فالعطف عليهم والإحسان إليهم ومجالستهم، يُليِّن القلب، أما الإعراض عن المحتاجين والمساكين فإنَّه يُقسي القلب، ومخالطة الفقراء والمساكين والنظر إليهم والإحسان إليهم هذا كله مما يلين القلوب ويبعث على الرحمة، والجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال ﷺ: «ارحموا تُرحموا»، يعني: ارحموا الفقراء والمساكين يَرْحَمْكُم الله عز وجل، والعكس بالعكس، فعدم الرحمة يتسبب عنه أنَّ الله لا يرحمُ مَنْ لا يَرحم المساكين والضعفاء، فإذا أساء أحدٌ إليك أو أساء في حقك، فقابله بالمغفرة والإحسان من أجل أن يغفر الله لك، فإذا كنت تريد أن يغفر الله لك، فاغفر لمن أساء إليك، لأن الجزاء من جنس العمل.

وقوله: «ويلٌ لأقماع القول»: الأقماع جمع قُمْع، وهو ما يوضع في فم الوعاء أو القِربة ثمَّ يُصَب فيه الماء أو غيره من السوائل وهو

---

(١) في «المسند» (٦٥٤١)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٣٦).

....

ما تُسمِّيه العوام الـمِحْجان، وهو ما يصب فيه الماء والأشياء المائعة، لا يمسك شيئاً مما يفرغ فيه، كذلك هؤلاء، حيث شبَّه أسماع الذين يستمعون الذِّكر والقرآن ولا يَعُونه ولا يتأثرون به بالأقماع التي لا تُمسك شيئاً ممّا يُفرغ فيها.

وقوله: «ويل للمُصرِّين الذين يُصِرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون» هذا تهديد للذين يُداومون ويستمرون في عمل المعاصي والذنوب، ولم يستغفروا وهم يعلمون بأن ما فعلوه معصية، ولكن ما من أحدٍ معصوم، فقد يقع الإنسان في المخالفات ويرتكب بعض السيئات، لكن عليه أن يتوب إلى الله، أما إذا أصرَّ ولم يتب، فإنَّ الله توعده بالعقاب، وقد ذكر الله أنَّ عباده المتقين من أبرز صفاتهم أنَّهم لا يُصرُّون على الذنب، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥]، والإصرار على الصغيرة

....

يُصَيِّرها كبيرة، وفي الحديث: «لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[1]، فالواجب على المسلم أنَّه إذا أذنب ذنباً بادر بالتوبة، أما إذا أصرَّ وبقي عليها، فقد توعَّدَه الله بالوعيد الشديد.

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

وللترمذي عنه[١] مرفوعاً: «لا تُكْثِروا الكَلامَ بغَيرِ ذِكرِ الله، فإنَّ كَثرَةَ الكَلامِ بغيرِ ذِكْرِ الله قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وإنَّ أَبْعَدَ القُلوبِ مِنَ الله القَلْبُ القاسِي»[٢] [٤٤].

---

[٤٤] هذا بيان سببٍ آخرَ من أسباب قسوة القلب، وهي كثرة الكلام بغير ذكر الله، أما كثرة الكلام بذكر الله فإنَّه كلَّما أكثر اللسان من ذكر الله لانَ القلب، وكلَّما أكثر بغير ذكر الله قسا القلب، فكثيرٌ من النَّاس يقضي أوقاته بالقِيْل والقَال، وبالكلام الذي لا فائدة فيه، وبالضحك واللهو والغفلة، وهذا ممَّا يُقسي القلب، ولهذا قال ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلْيَقُل خيراً أو لِيَصْمِتْ»[٣].

---

(١) قوله: «عنه» يعني عن عبد الله بن عمرو وهو وهم، والصواب: عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، كما سيأتي في تخريج الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولهما عن جرير ﷺ مرفوعاً: «مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسِ لا يَرْحَمْه اللهُ» أخرجاه[1]. [٤٥].

---

[٤٥] هذا كما سلف من قوله ﷺ: «ارحموا تُرحموا»، ومفهوم الحديث: أن مَن لا يَرْحم الناس بالإحسان إليهم لا يرحم من قِبَل الرحمن، وهذا المفهوم نطق به هذا الحديث: «مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْه اللهُ»، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، وهذه قاعدة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢١١٩) (٦٦) واللفظ له.

باب ذكر ضَعفِ القلب

وقول الله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [الكهف: ١٤] [٤٦].

---

[٤٦] ومن آفات القلب، أيضاً ضَعفُه، فحينما يكون القلب ضعيفاً، فإنَّه لا يصبر على الشدائد ولا يُحسن الظنَّ بالله عزَّ وجل، وإذا أصابه شيء ضَعُفَ، ولم يتحمل ولم يصبر، فإنَّ مَن يَضعف عن مقابلة الشدائد ولا يتحمل مواجهتها، فتخور قُواه، كما يقولون: تنهار أعصابه، فهو ضعيف القلب، بخلاف الذي يكون قلبه قويّاً واثقاً بالله عزَّ وجل، فهذا لا تؤثر فيه الأحداث مهما اشتدَّت، ولا تنهار أعصابه، بل يبقى شامخاً قويّاً يواجه الشدائدَ والمصاعب، ويخرج منها مرفوع الرأس بإذن الله، أما الذي ينهار عند أول شِدَّة، فهو ضعيفُ القلب، وضَعفُ القلبِ آفة تؤدِّي إلى ضعف الإيمان، وقد وصف الله تعالى أمثال هؤلاء، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [الحج: ١١] هذا نتيجة ضعف القلب، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] فهو مثل الذي يَسْتَجِير من الرَّمضاء بالنار، فهو قد

....

خرج مِـن شدَّةٍ إلى شِدَّةٍ أكبر منها، وخرج من حرارة إلى حرارةٍ أشد ـ والعياذ بالله ـ ولو أنه صبر على الحرارة اليسيرة لنجى مِن الحرارة الكبيرة ولَـخَرجَ من الفتن قَويَّ القلب قويَّ الإيمان، أما ضعيفُ القلب فهو على خطر، فكما أنَّ القلب يقسو، فهو كذلك يضعف. وأما قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[الكهف: ١٤] فهو في سياق الحديث عن أصحاب الكهف وقصتهم مشهورة، حيث ربط الله على قلوبهم، يعني: قوَّاها، ولهذا أعلنوا براءتهم من الكفار وانعزلوا عنهم ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: ١٤] أي: لن يقعَ منّا هذا أبداً؛ لأنّا لو فعلنا ذلك كان هذا باطلاً، فإنَّ قومهم كانوا يعبدون الأصنام، ولكنَّ الله ثبَّتَ هؤلاء وقوّى قلوبَهم، فلو كانت قلوبُهم ضعيفةً لانهارت، ولهذا قال تعالى في حقِّهم: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ لأجل ذلك كانت قلوبهم قوية لأنَّ الله رَبطَ عليها. ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٤ – ١٥]، ثم اعتزلوهم وما يعبدون ورحلوا لِلغار وآووا

....

إليه، وجرى عليهم ما جرى من النوم الذي ذكره الله عز وجل، ثم بعثهم الله بعد ذلك، وإذا بالناس قد تغيَّروا وجاء جيل آخر أسلمَ وآمن، والأولون كانوا كفاراً، عندما ناموا كان الناس كفاراً ولما استيقظوا ظنُّوا أنَّهم ناموا يوماً أو بعض يومٍ، وأنَّ الجيل الكافر الذي يعلَمونه باقٍ، ولذلك أرسلوا واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً على تخوُّف، ولم يعلموا أن الأمور قد تغيَّرت والوضع كذلك قد تغيَّر، وأنَّ الكفار قد ذهبوا وأتى جيلٌ آخر كان على الإسلام، لكن الشاهدَ من قوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أنَّ الله عز وجل قوّى قلوبَهم، فواجهوا هذه الأمة الكافرة، واجَهُوها بالثبات، فكانت النتيجة أن أجرى الله لهم هذه الكرامة، حيث ضرب على آذانهم في الكهف ثلاث مئة وتسع من السنوات أو ما شاء الله، ثمَّ أحياهم، فكانت كرامة لهم، لأنهم من أوليائه.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]. [٤٧]

---

[٤٧] هذه الآيات تبيّن لنا أن سُنَّة الله جلَّ وعلا لا تتغير، وذلك أن الله لا يترك المؤمنين على ما هم عليه حتى يَمِيزَ الخبيثَ من الطيب، لأن الذين يُظهرون الإسلام فيهم الصادق وفيهم المنافق، فلو لم يُمتحنوا لم يتميَّز المنافق من المؤمن الصادق، فالله جلَّ وعلا يريد أن يُميز هذا من هذا، فهو سبحانه يجري الشدائد والمحن فَيثْبتُ أهل الإيمان، ويتبيَّن أهل النفاق، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ أي: لا يمتحنون ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: فليَعْلَمنَّ الله الذين صدقوا في إيمانهم ممّن هو كاذب، والله تعالى يقول: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، أي: حتَّى يتميز المؤمن من الكافر، فلا يترككم مختلطين لا يُعرف مخلصكم من منافقكم، فأنتم لا تعرفون المؤمن الصادق مِنَ الكاذب، لأنَّه ليس لكم سوى الظاهر، وهذا غيبٌ لا يعلمه إلَّا الله، لأجل هذا فإنَّ الله يُجري الامتحان ليتبيَّن المنافق من المؤمن.

....

ومِنَ الأمثلة التي تُصدِّق هذا الواقع ما وقع في غزوة الأحزاب، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]؛ أي: باطلاً من القول، وهو قول أهل النفاق، لما جاءت الشِّدَّة قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلَّا غروراً، ظهر ما في قلوبهم من النفاق ـ والعياذ بالله ـ أما المؤمنون فقد قال الله تعالى في حقِّهم: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢] فانظر ماذا فعلت الشدّة معهم، لم يضعفوا أو يستكينوا، وإنّما زادتهم هذه الشِّدة ثباتاً وإيماناً، وعلموا أنه الابتلاء والامتحان.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ الآية [المائدة: ٢٢]. [٤٨]

---

[٤٨] هذا من ضعف القلوب، أي قولهم: إنَّ فيها قوماً جبارين، وكان رَدُّهم هذا لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة، التي هي بالتحديد بيت المقدس، وكانت بيد الكفار العماليق، وكانوا غِلاظ الأجسام أقوياء، خرج موسى ببني إسرائيل غازياً لفتح بيت المقدس، فما كان منهم إلا أن تخاذلوا وجَبنوا عن لقاء هؤلاء القوم الجبّارين، وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ كانت حُجتهم أنه لا طاقة لهم في قتالهم ولا على إخراجهم، لكن إن خرجوا بدون قتال دخلناها.

وفي النهاية قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، لما ألحَّ عليهم صرَّحوا بما في قلوبهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ انظروا موقفهم هذا مقارنةً مع موقف صحابة رسول الله ﷺ يوم بدر، فقد تواجه المسلمون والكفار، وكان عددُ الكفار ضِعفَ عدد المسلمين، المسلمون ثلاث مئة وبضعة عشر، والكفار يربون على الألف، بأسلحتهم وقوتهم وجبروتهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، فقال المقداد: أَبشِرْ يا نبي الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

....

لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن، والذي بعثك بالحق لنقاتلن بين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك، ومن خلفك، حتى يفتح الله عليك[1].

وشتَّان ما بين موقف بني إسرائيل لما قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ وذاك من ضعف القلوب وبين موقف الصّحابة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٠٩)، وأحمد (٤٣٧٦) واللفظ له.

وقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] [٤٩].

---

[٤٩] قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] هو أمامه عذابان: الأول: عذابه إن ارتدَّ عن دينه، والثاني عذاب الناس الذين يعذبونه، أيهما أشد؟ عذاب الناس أم عذابُ الله؟ لا شكَّ أنَّ عذاب الله أشدّ، فكونه يصبر على دينه وينجو من عذاب الله ـ ولو أصابه أذى الناس ـ كان هذا من العزم، أما العكس وهو أن يَخرجَ مِن عذاب النّاس إلى عذاب الله، وذلك بأن يرتدَّ عن دينه، فهذا من العجز والضعف، ولقد وصف سبحانه في كتابه الكريم حال بعض ممّن كان في إيمانهم ضعف فقال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠ ـ ١١]، فهؤلاء عند الرخاء يقولون: كنا معكم، ونحن نقاتل إلى جانبكم ونداقع عنكم، ولكنهم إذا جاءت الشِّدة انخذلوا، وتكلموا بالكلام القبيح بعد أن ارتدُّوا عن الإيمان بالله، وهذه صفة المنافقين في كل زمان ومكان، ليس فيهم إلَّا ضعف القلوب، بخلاف ما عند المؤمنين من قوةِ قلب وعزيمة وإيمان بالله وتوكُّل عليه.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «الـمُسلِمُ مَنْ سَلِمَ الـمُسلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ، والـمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عَنه»(١) [٥٠].

---

[٥٠] قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، كثرة الكلام في الناس وبالغيبة والنميمة والسُّباب والشَّتْم، كل ذلك يدخل في باب الكبائر والمنهيِّ عنها.

وفي الحديث: ذَمُّ كثرةِ الكلام، وأن المسلم ينبغي له أن يُمسك لسانه، ولا يتكلم إلَّا بخير. وفيه دليل على أنَّ من كفَّ لسانه ويده عن المسلمين أنَّ ذلك من كمال الإسلام.

وقوله: «والمهاجر: من هجر ما نهى الله عنه»، والهجر في اللغة: الترك، وهو أنواع، ومنه أن يهاجر المسلم من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فِراراً بدينه، وهذا أعظم أنواع الهجرة، وهجر المنكر بأن تترك المنكر والحرام، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، والرجز: الأصنام، وهجرها: تركها.

فقوله: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، أي من ترك ما نهى الله عنه عموماً فهذا من كمال إسلامه.

---

(١) البخاري (١٠)، وبنحوه مسلم (٤٠) (٦٤)، وهو عندهما من حديث ابن عمرو وليس ابن عمر كما ورد عند المصنف.

أبواب كبائر اللسان

باب التحذير من شر اللسان

وقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].[٥١]

---

[٥١] من صفات عباد الله التواضع، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسكنية ووقار دون تكبُّر ولا تبختر، وإنما يمشون مشيةَ المتواضع، قال تعالى على لسان لقمان وهو ينصح ابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال تعالى واصفاً حال المؤمنين في هذا المقام: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ المراد بـ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ هنا: الجاهلون في الكلام، فالجهل عدم العلم، والجهل عدم الحلم، والمراد هنا بالجهل هو عدم الحلم، فهم إذا جهل عليهم السفهاء لا يردون عليهم، بل يتركونهم وقالوا: ﴿سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: سلامٌ متاركة، أو يقولون: سلاماً، أي: كلام فيه سلامة لهم من الإثم، ولا يقابلون كلام الأحمق، ولا يَردُّون عليه بالمثل، وهذا من صفات عباد الرحمن، ووصفهم في آية

....

أخرى فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

وقول الله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. [٥٢]

---

[٥٢] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥]، هذا في وصف المؤمنين من أهل الكتاب، هذه صفة الذين آمنوا بالقرآن وآمنوا بالرسول ﷺ كما قال الله عزَّ وجل: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] هذا دليل على أن الكلام الذي يصدر كلّه يُسجَّل، الكلام الطيب يسجله ملك الحسنات، والكلام السيّئ يسجله مَلك السيئات ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ملك يسجل الحسنات، ومَلك يسجل السيئات، وهذان هما الحفظة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، حافظين: يحفظون عليكم أعمالكم وأقوالكم، ويُسجِّلون حسناتِكم وسيئاتِكم، ومنها الألفاظ التي تتلفظ بها، إن كانت ألفاظاً طيبة كذِكْر الله كتبت مع حسناتك، وإن كانت ألفاظاً سيئة كالغيبة والنميمة والسِّباب كتبت مع سيئاتك، فاحذر من كبائر اللسان، لأنها تُسجل عليك.

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمِتْ» أخرجاه(١). [٥٣]

---

[٥٣] هذه وصيّة الرسول ﷺ «مَنْ كانَ يُؤْمن بالله واليومِ الآخرِ»، يعني: الإيمان الكامل «فليقل خيراً أو لِيَصْمِت» يعني: لا يتكلم إلّا بخير، ويفكر فيما يريد أن يتكلم به، فإن كان الكلام خيراً تكلم به، وإن كان شراً سكت، فالكلمة إما لك، وإما عليك، وما من شيء أحقُّ بطول حَبْسٍ من اللسان، فالسكوت سلامة كما قالوا في المثل، ورب كلمة يقولها المرء تورد صاحِبها الموارد، ورب كلمَه تقول لقائلها: دعني.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧) (٧٤).

ولهما عن سَهلِ بن سَعدٍ رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْه، وما بينَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ له الجنة»(١).

وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما أَخوَفُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذَ بلسانِ نفسِه ثم قال: «كُفَّ عليكَ هذا»(٢) [٥٤].

---

[٥٤] قوله: «من يضمن» أي: يتكفلُ «ما بين لحيية» يعني: اللسان، أي: ما بين الفكين الأعلى والأسفل، وهو اللسان. و«ما بين رجليه» يعني: الفرج، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٦]، هذه من صفات المؤمنين، فمن حفظ لسانه وفرجه إلا ما أحله الله له، ضمن له الرسول ﷺ الجنة، ومن لم يحفظهما فهو متوعد بالنار.

وأمّا قوله: «ما أَخْوَفُ ما تخافُ عليّ....» فهذا الصحابي سفيان ابن عبدالله ﷺ الثقفي سأل الرسول ﷺ عن أكثر شيءٍ يتخوفُه النبيُّ من أن يقع فيه؟ فأخذ النبي ﷺ بلسان نفسه وقال: «كفَّ عليك هذا» دلَّ هذا على أنَّ اللسان أخطر شيءٍ على الإنسان، فعليك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) ولم يخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤١٩)، والترمذي (٢٤١٠).

....

أن تحذر من لسانك؛ لأنه سلاح ذو حَدَّين، فهو إما أن يَقْتُلَك وإما أن تَقْتُلَ به خصمك، فعليك أن تحفظه مثلما تحفظ السلاح، لئلا يقتلك، لأنه لو كان معك سلاح فإنك تتوثق منه وتُأَمِّنه لكي لا يقتُلَك، وهكذا لسانك احفظه، وأمسكه، وإلا أهلَكَكَ كما يُهلِكُ السِّلاحُ صاحبَهُ الذي لا يؤمِّنه ويَحتاطُ منه، ولقد كان لِفِعل النبيِّ ﷺ بالغُ الأثر حِينَ أخذَ بلسان نفسه، فإنه أتبع القول بالفعل، وكان فيه مزيد بيان، والشاعر يقول:

يَموتُ الفتَى مِن عَثرةٍ بلسانِهِ ... وليسَ يموتُ المرءُ من عَثرةِ الرِّجل
فعثرَتُه مِن فيهِ ترمي برأسِه ... وعَثْرَتُه بالرِّجل تَبْرا على مَهْلِ

ويقول الآخر:

احفظ لِسانَكَ أيُّها الإنسانُ ... لا يَلْدَغنَّك إنَّه ثُعبانُ
كم في المقابر مِن قَتيلِ لِسانِه ... كَانتْ تَخافُ لِقاءَه الشُّجْعَانُ

والمثل يقول: «كم كلمة تقول لصاحبها: دعني».

وللأسف أكثرُ الناس اليوم ليس لهم همٌّ إلا القيل والقال، والغيبة والنميمة، والتجريح بالناس، والتفسيق والتبديع، والتكفير بغير حق، ليس لهم شغل إلا هذا، وأَخُصُّ بذلك طلبة العلم، فمنهم من ترك طلبَ العلم الآن، وصار همُّه، ماذا تقول في فلان؟

. . . .

وهل يعجبك كلامه؟ أنتم أتباع فلان، ونحن أتباع فلان.

يا إخوان: لا ينبغي هذا للمسلم ولا سيّما طالب العلم، بل الأصل فيه أن يراقب الله في عِلْمِه، ويحفظ لسانه، ولا يتجارى مع الناس، وإذا سمع كلام جاهل أعرض عنه، ولم يُلْق له بالاً، وإذا كنتم تريدون النجاة لأنفسكم اشتغلوا بالعلم واحفظوا ألسِنتكم، فالزمان زمان فتنة وخصوصاً بعد أن كثُرت الشبهات، فقد تأتي الفتن باسم الدين، وباسم العلم والعلماء، احذروا من هذا، واشتغلوا بطلب العلم، والإقبال على طاعة الله، واحذروا من أولئك الذين يصطادون في الماء العكر، لأنهم يستخرجون الكلام منكم، وينشرونه في الناس، فيُحمَل الكلام على غير محمله، ويُقوَّل القائل ما لم يَقل. لا سيما وهناك أدوات تسجيل تسجل كلامك وأنت لا تدري لأنه خفيه بصحبة من يريد أن يوقعك.

وله وصحَّحه عن معاذ ﷺ: قُلْت: يا رَسولَ الله، إنّا لَـمُؤاخَذون بما نَتَكَلَّم به؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النَّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ـ أوْ قال: عَلَى مَناخِرِهم ـ إلّا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِم»(١).

وله عن أبي سعيد ﷺ مرفوعاً: «إذا أَصْبَحَ ابنُ آدَمَ، فإنَّ الأَعْضاء كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسان تَقولُ: اتَّقِ الله فِينا، فإنَّما نَحنُ بِكَ، إن اسْتَقَمتَ استَقَمْنا، وَإنْ اعْوَجَجْتَ اعوَجَجْنا»(٢).

قوله: «تكفِّر» أي: تَذِلُّ وتخضع. [٥٥].

---

[٥٥] هذا الكلام جاء في سياق حديث طويل أثناء سفر معاذ مع النبي ﷺ، حيث سأله عما يُدخله الجنة ويباعده عن النار، فبيَّن له ﷺ ذلك ثمَّ إنه بعد أن أخبره النبيُّ ﷺ بأبواب الخير قال له: «ألا أخبرك بمَلاكِ ذلك كلِّه؟»، قال: بلى، قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذا»، أي: اللسان. فقال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ» ثكلتك، أي: فَقَدتْك، هذا أصله دعاء على الشخص المخاطب بالموت ظاهراً، لكن الرسول ﷺ لا يقصد هذا،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧).

....

وإنما هي كلمة يُتَمَثَّل بها ولا يُقصد معناها وإنما المقصود بها هنا التعجُّب من الغفلة عن هذا الأمر مثل: ويحك وويلك، فهذه أمور يقولها الإنسان وهو لا يقصد حقيقتها.

قوله: «وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ـ أوْ قال: عَلَى مَناخِرِهم ـ إلا حَصائدَ أَلْسِنَتِهم» أي: محصوداتها، شبَّه ﷺ ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود، وهذا من بلاغته ﷺ، فكما أن المِنْجَل يقطع ولا يميِّز بين الرّطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلّم بكل نوع من الكلام، حسناً وقبيحاً، فالإنسان قد يعمل أعمالاً خيِّرة وفضيلة وجليلة ثم يُبدِّدها، والسبب لسانه، حيث يَسُبُّ الناس ويغتابهم، فيؤخذ من حسناتِه وتعطى للمظلومين يوم القيامة، ثمَّ إذا فَنِيَت حسناته حُمِّل من أوزار القوم، ثم طرح في النار، فلسانه هو الذي جنى عليه وبَدَّدَ أعماله وجعل حسناته تذهب لغيره، ولمن تذهب؟ لخصمه، لمن اغتابه، فلو أنها ذهبت لوالديه أو لمن يُحبه لكان الأمر أهون، ولكنَّها تذهب لخصمه، فعليك إذا عملت عملاً صالحاً أن تحافظ عليه، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، فإذا عملت عملاً صالحاً حافظ

....

عليه أكثر مما تحافظ على الدَّراهم، وإذا كانت لديك دراهم تخاف عليها أن تُسرق أو تَذهب، أو تخاف أن تتلف، فأعمالك أوْلى أن تحافظ عليها، فإذا كان المرء يشتري خزانة لحفظ مقتنياتهِ، فلِمَ لا يشتري خزانة لحفظ أعماله التي هي أثمن من مقتنياته!

أما قوله: «الأعضاء كلها تكفِّر اللسان...» أي: تتذلل وتخضع للسان، فهذا معناه أن الأعضاء كلها تابعةً لِلِّسان، كما قال ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدَ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه»(١).

فالقلب هو مَلِك الأعضاء، فإن طابَ طابَتْ، أي: تخضع له وتنقاد، لأنه مَلِكُهَا تقول له: «اتقِّ الله فينا، فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»، هذا كلام مَن لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وفي الحديث أنَّ الأعضاء تتكلم وإن كنّا لا نسمَعَ صوتها في الدنيا، إلَّا أنَّها يوم القيامة تتكلم بكلام مسموع، قال الله سبحانه يصور ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

....

أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢١]، وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥] في الآخرة تشهد الأيدي والأَرجُل على الأعضاء وتحاورها، وفي الحياة الدُّنيا تتكلم تخاطب القلب ـ وأنت لا تشعر ـ في كل صباح تقول له: «اتقِّ الله، فإنما نحن بك». إلى آخر ما جاء في الحديث.

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إنَّ العَبْدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَة ما يَتبيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النَّارِ أبْعَدَ ممّا بَيْنَ المَشْرِق والمَغْرِب»[1].

وللترمذي[2] وصحَّحه عن بلال بن الحارث رضي الله عنهما مرفوعاً: «إنَّ الرَّجلَ لَيَتكلَّمُ بالكَلمةِ مِنْ رِضْوان الله ما كان يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ له بها رِضْوانَه إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وإنَّ الرَّجلَ لَيَتكلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تَعالى ما كانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِها سَخَطَهُ إلى يَومِ يَلْقَاه».

ولمسلم[3] عن جُندب بن عبد الله ﷺ مرفوعاً: «أنَّ رجلاً قال: والله لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلان. فقال الله عز وجل: مَن ذا الَّذي يَتَألَّى عَلَيَّ أنْ لا أغفِرَ لِفُلانٍ؟ إنِّي قَدْ غَفَرْتُ له وأَحبَطْتُ عَمَلَكَ».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧) ومسلم (٢٩٨٨) (٤٩)، واللفظ له.

(٢) في «جامعه» برقم (٢٣١٩)، وبنحوه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في «صحيحه» برقم (٢٦٢١).

ورُويَ أن القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة: تكلَّم بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْياهُ وآخِرَتَه"(١). [٥٦]

---

[٥٦] هذه الأحاديث كلها في موضوع الكلمة الطيبة والكلمة السيئة، قال جلَّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، والكلام الطيب يَصْعَدُ لله إذا كان معه عمل صالح، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. لأنَّ القول لا يكفي دون العمل.

وفي هذه الأحاديث أن الكلمة الطيبة يَكْتبُ الله رضوانه لِصاحبها إلى يوم يلقاه، والكلمة السيئة يكتب الله بها غضبه على صاحبها إلى يوم يلقاه، وأنَّ الكلمة الطيبة يَرفعُ اللهُ بها العبدَ درجات، والكلمة السيئة يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

. . . .

وفي الأحاديث التحذير من خطورة الكلام، وأن الكلام الذي ليس فيه خير فالسكوت عنه أفضل من التكلم به.

وأما آخر حديث في هذا الباب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكأن أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصِر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصِر، فقال: خَلِّني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو: لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً، وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلَّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. وهذا سوء ظن بالله، وسوء أدب مع الله عزَّ وجل، بأن يحلف بأنَّ الله لن يغفر لهذا المذنب ذنبه؟ هذا لا يجوز، لا يجوز لك أن تحجر على الله عزَّ وجل، وتحلف بالله أنه لا يغفر ذنب العاصي، كقول القائل في هذا الحديث: «والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عزَّ وجل: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عَمَلَك»، لأنَّ هذا الرجل

....

يئس من رحمة الله وقنّط الناس منها، بل إنَّه أساء الأدب مع الله بقوله هذا، ماذا كان عاقبةُ قوله؟ يقول أبوهريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»؛ ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، كلمة واحدة أفسدت دنياه وآخرته، فكيف بمن يطلق العنان للسانه.

فعلى المسلم أن يفطن لذلك؛ لأنَّه قد يُكثر الإنسان من الأعمال الصالحة لكنه قد يهمل لسانه، ويتركه يحصد فيها، مثل الذي يزرع ويترك الحصّاد يحصد في زرعه فلا يُبقي له شيئاً، فهذا اللسان حَصَّاد يحصد أعمالك إذا تكلمت فيما لا يرضي الله، فعليك بإمساكه وعَقْلِهِ والتأكد من ضبطه، لأنَّ استقامة اللسان من خصال الإيمان، فعن أنس ﷺ، أنَّ النبي ﷺ قال: «لا يَسْتَقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتى يَسْتَقيمَ قَلْبُه، ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُه حتَّى يَسْتَقِيمَ لِسانُه»[1]. والكلام وإن لم يكن فيه مضرة لأحد، وكان مجرَّد ثرثرة وضحك، فإنَّ فيه خسارة عليك؛ لأنه يُضيِّع عليك الوقت، أما إذا كان الكلام محرَّماً فهذا ضَرَرُه واضح، لأنَّه يعود عليك بالإثم والعقوبة، فعليك بإمساك لسانك، لأنَّ الله يحصي عليك أقوالك وأفعالك، وحتى خَطَراتِ قلبك ونياتك.

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨).

باب ما جاء في كثرة الكلام

وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. [٥٧]

---

[٥٧] من جملة الكبائر ما يصدر عن الإنسان من الكلام الذي يتساهل فيه كثير من الناسِ، ويظنون أنه قد قيل وانتهى، وليس الأمر كذلك، لأنَّ هذا الكلام إمّا أن يكون لك، وذلك إن كان كلاما طيِّباً نافعاً كأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكرٍ، أو إصلاحٍ بين الناس، وإمّا أن يكون عليك، كشَتْم الناس، أو مشي بنَميمة، أو فساد في الأرض، فليس الكلام والسكوتُ سواءً، لأنَّ كلَّ ما يلفظه العبد يُسجِّله الـمَلَكانِ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشَرٌّ.

واللهُ عزَّ وجلَّ خلق الإنسان وامتنَّ عليه بأنْ جعل له اللسان وعلَّمه البيانَ، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ٩]، فالله خلق للإنسان هذا اللسان، وليس له نظير في جسمه، فلو جُنيَ عليه وقُطع، وجبت له دِيَة كاملة، وما ذلك إلَّا لأهميته، إذ من خلال اللسان يحصل للإنسان النطق بالحروف فبواسطته تخرج معظم الحروف، فهو من نعم الله على العبد، لأنه من خلاله ينطق ويتكلَّم ويبيِّن ما يريد، هذا خلاف

....

العجماوات من الكائنات التي لا تستطيع ذلك.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[الرحمن: ١ - ٤]، فالمقصود معرفة أن نعمة النطق باللسان نعمة عظيمة، وأنه يفوت العبدَ بفواتها الخير الكثير، ولذلك فإنه لو وقع على العبد ـ كما سلف وذكرنا ـ جناية فقطع لسانه بها فإنه يحرم نعمة الكلام، فصار لا يستطيع النُّطق، لوجبت له دِية تُسمَّى دية الأعضاء، ولو جنى عليه فصار لا يستطيع الكلام مع بقاء اللسان لوجبت له دية كاملة كدية الأعضاء، إذ لو قطع لسانه بالاعتداء عليه مثلاً لوجبت له الدية الكاملة، وهي دِية الأعضاء.

واللسان سلاح ذو حدَّين، إن استعمله العبد فيما ينفعه صار نعمةً، وإن استعمله فيما يضره وفيما يُبغض الله صار نقمةً، وفي كلا الحالين سيحاسب العبد يوم القيامة، فإمَّا أن يُثاب وإما أن يعذب، وسيجد كل ما قال قد سُجِّل له أو عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، فالرَّقيب مَلَك يَرقُب قوله ويكتبه، والعتيد: ملك آخر حاضر معه دائماً لا يغيب.

....

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ – ١٢] فإنَّ هذه الآيات جاء فيها مؤكِّدان، أولهما: «إنَّ» وهي نون التوكيد الثقيلة، وهي موطئة للقَسَم، والتقدير: والله إنَّ عليكم لحافظين، فهو توكيد بقَسَم مقدَّر، وثانيهما: «اللام» التي في قوله: ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾، وهي لام الابتداء، وهي لمزيد التوكيد بأن الملائكة ـ وهم الحفظة ـ يسجِّلون علينا أعمالنا وأقوالنا، حيث جاء في الحديث قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صَلاة الفجر وصلاة العصر، ثمَّ يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يُصلون»(١).

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: ملائكة يحفظون أعمالكم وأقوالكم ويكتبونها ﴿كِرَامًا﴾: هذه صفة لهم بالكرم، فإنهم ملائكة مكرَّمون، وقوله: ﴿كَٰتِبِينَ﴾ أي: يكتبون ما يصدر عن العباد في صحائف أعمالهم ليُواجَهوا به يوم القيامة، فلا يستطيعون أن ينكروا من ذلك شيئاً.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: أنهم لا يخفى عليهم شيء، فهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

....

ملازمون للعبد، يعرفون جميع أفعاله وأقواله، وهم لا يتركونه إلّا في موطنين: عند جماع الرجل أهله، وعند قضاء الحاجة.

والحاصل أنَّ هذا تحذير من الله لنا بأن نستحي من هؤلاء الملائكة الكرام، فنُجِلُّهم ونوقِّرهم، فلا نرتكب معصية يسجلونها علينا، سواء كان ذلك قولاً أو فعلاً، وفي هذا إثبات أنَّ أقوالنا محفوظة تماماً كالأعمال، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ورقيب وعتيد، ملكان موكلان بالعبد يكتبان كل ما يصدر عن العبد من خيرٍ أو شرٍّ، الذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقوله: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة، فالرسل يكونون من البشر ومن الملائكة، والمقصود بالرسل في هذه الآية: الملائكة، يرسلهم الله ليسجلوا أعمال بني آدم ويحفظوها، وهذا من رحمته وعدله سبحانه، فإنه لا يضيع شيئاً من أعمال العباد.

يقول بعض السَّلف: لو أنكم تشترون الأقلام والقرطاس من أموالكم للحفظة لأمسكتم عن كثير من كلامكم، فكما يخاف الإنسان على أمواله فلا يُبَدِّدها خوفاً على دُنياه، فالأولى أن يحافظ على آخرته الباقية فلا يتكلم بكلام يُبَدِّد فيه حسناته.

عن المغيرة بن شعبة ﷺ مرفوعاً: «إنَّ الله حرَّم عليكم عُقوقَ الأمَّهاتِ، ووَأْدَ البناتِ، ومَنَعاً وَهاتِ، وكَرِهَ لكم: قِيلَ وقال، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ» أخرجاه(١). [٥٨]

---

[٥٨] الكلام على ضربينِ: إما أن يكون محموداً، وإما أن يكون مذموماً، وهذا يرجع إلى ما يشتمل عليه، فالمذموم من الكلام ما كان غيبة أو نميمة، أو استهزاءً بالعباد، وهذا حرام لما يتضمنه من الأذى، ولما يترتب على ذلك من الآثار، وقد يكون مذموماً لصفته، وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث التي تنهى عن التفيهق والتقعُّر في الكلام. وسيأتي الكلام عليه بعدُ.

والضَّرْب الآخر هو المحمود من القول، كأمرٍ بمعروفٍ، أو نهي عن منكرٍ، أو إصلاحٍ بين الناس.

والحاصل أنه ينبغي للمسلم أن يفكِّر في كلامه قبل أن يتكلمَ به، وأن يجعلَ هذا الكلام يمر من وراء القلب لا من أمامه، فإن رأى أنه خيرٌ نطق، وإن رأى أنه شرٌّ سكت، وصمت، فالكلمة إن خرجت ملَكت العبدَ، وهو لا يملكها، ولكنه إن أمسكها وفكَّر فيها قبل خروجها ملَكها ولم تَمْلِكْه، لهذا قال رسول الله ﷺ: «مَن كانَ

---

(١) البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

....

يُؤمنُ بالله واليومِ الآخر فليُكرم ضيفه، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَصِلْ رحَمَه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُل خيراً أو لِيَصْمِتْ»[١].

أما قوله: «إنَّ الله حرَّم عليكم عقوق الأُمَّهات» إلخ، فهذا الحديث قد اشتمل على مجموعةٍ من الكبائر، وأولها: عقوق الأمهات، وليس المقصود الأمهات فحسب، بل ويدخل في هذا الآباء، وإنما ذُكرت الأُمَّهات لِبيان عظيم حقِّهن، ولأنَّ أكثر العقوق على الأمهات، وذلك لما تقاسيه الأُم من الحمل وآلام المخاض والإرضاع والتربية وغير ذلك من الأمور الـمُلقاة على عاتقها.

وقوله: «وأد البنات» وأد البنات عادة جاهلية، وهي دفن البنات وهنَّ أحياء تخلُّصاً من عارهنّ، فلقد كان أهل الجاهلية يكرهون البنات، ويحبون البنين، وتبريرهم لذلك أنَّ الأنثى لا تركب الخيل، ولا تحوز الغنيمة، ولا تحمي القبيلة، وإنما تكون عاراً عليهم فيما لو وقعت في الأسر أثناء الغارات والحروب، ولهذا كان بعضهم يتخلَّص منها بدفنها وهي حيَّة في التراب، نجاةً من العار

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

الذي يتهددهم بسببهن، ولقد قال سبحانه وتعالى مستنكراً فعلهم: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ – ٩]. وهذا سؤال استنكاري: أيُّ ذنب ارتكبته هذه الأنثى حتى تدفن وهي حيَّة؟

والله عز وجل من حكمته أنه خلق الزوجين: الذَّكر والأنثى من كلِّ شيء، وقال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وهذه حكمة الله تعالى، لأنَّ الحياة لا تنتظم إلّا باجتماع الزوجين، وهو سبحانه جعل الرحمة والمودة بين هذين الزوجين، وهذا من الآيات الدالَّة على حكمته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

واليوم أصبحنا نرى من التصرفات التي هي من عادات الجاهلية، من كُره البنات ومحبة البنين، وأهل هذه الصفة الذميمة يتذرّعون بالذرائع نفسها التي تذرَّع بها أهل الجاهلية في أنَّ البنت قد تقع في الفاحشة والإثم، فتجلب العار لأهلها، والحقيقة إنما تفسد البنت بإهمال من يقوم عليها ويُربِّيها، فلو أنَّ الآباء رَبَّوْا بناتهم

على العِفَّة والحياء والخُلق، وعدم الاختلاط المحرَّم، وسدُّوا أبواب الفتنة، لاستقامت الأمور، ولا نعني أمور الأُسَر فحسب، بل أمور المجتمع ككُل، ولقد وصف الله تعالى حال القوم الذين يكرهون البنات فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل: ٥٨ – ٥٩] فكان مَنْ يبقي الأنثى حيَّة إنما يُبقيها على هَوان وذُل، وهذا ما يبغضه الله عزَّ وجل ويَكرهه، فإنَّ قَتْل النفس التي حرَّم الله بغير حقٍّ جريمة وكبيرة من كبائر الإثم، فإذا كان المقتول من ذوي الأرحام كان أشدَّ وأعظم.

وبالإضافة لوأد البنات، فإنهم أيضاً كانوا يقتلون البنين تَخوُّفاً من مؤنتهم، وللأسف نجد هذه الصورة موجودة اليوم، متمثلة بأولئك الذين ينادون بتحديد النَّسْل، ويحذِّرون من الانفجار السكاني، وكأنهم هم الذين يرزقون ويُطعِمون، وفي هذا قال سبحانه ردّاً على أمثال هؤلاء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٣١]. فالأمر على العكس ممّا يعتقدون، فإنَّ الله جلَّ وعلا إذا خلقَ نفساً فإنه

....

يُقدِّر لها قُوتها، ففي كثرة النسل الخير الكثير، فإنَّه بالذرية الصالحة تعمر البلاد ويكثر النَّماء.

وقوله ﷺ: «ومَنَعاً وهاتِ» أي: مَنَع ما أمر الله تعالى ببَذْله، وأخذ ما ليس له فيه حق، حيث حرَّم الله تعالى أخذَ ما لا يحل من أموال الناس وعبّر بهما عن المنع والأخذ، فكُره أن يمنع الإنسان ما عنده، وأخذ ما عند غيره، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

فالمقصود النهي عن أن يكون المرءُ جَمُوعاً منوعاً، يأخذ ولا يعطي، ولا يعبأ إنْ كان من حلال أو حرام، أو كان من رباً أو غشٍّ أو تدليس، فالله سبحانه يكره من كانت هذه صفته، وهذه هي صفة اليهود، فهم أبخل الناس وأكثرهم جمعاً للمال المحرم.

وقوله ﷺ: «وكَرِهَ لكم قيلَ وقال» وهذا محل الشاهد، أي: كره من كان همُّه نَقْل الكلام دُون أن يَنسبه إلى قائله، وهذا فيه تنبيه على وجوب تجنب التسرُّع بنقل الأخبار لما فيه من هتك الأستار، وكشف الأسرار، لأنَّ هذا ليس من دَأْب الأخيار، لقول رسول الله ﷺ: «من»

....

حُسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنيهِ»(١)، والله سبحانه ستَّار، والسِّتر لا يحصل مع كثرة نقل الأخبار.

وقوله ﷺ: «وكثرةَ السُّؤال» هل المراد بكثرة السؤال في العلم أم المال؟ والحقيقة المقصود الأمران معاً، فالأصل في المسلم أن يسأل عمّا يستفيد منه وما ينفعه في حياته وفي دينه وعبادته، ويسأل بقدر الحاجة، ولا ينبغي أن يتكلف المسلم بالسؤال، ويُكره له أن يسأل عمّا لم يقع من المسائل فيما لو وقعت، وكذلك يُكره له التنطع والتَّعالي، أو أن يسأل بهدف إحراج المسؤول، أو من أجل أن يظهر علمه.

وقد عاب الله تعالى على الذين يسألون عن أمور لا تنفعهم، ولهذا كانت الإجابة لما سألوا عن الأهلَّة، أي: سألوا عن صغر الهلال وكبره، فما أجابهم الله عن ذلك، وإنما أجابهم بمنافع الأهلة وأنَّ المناسب أن يسألوا عنها، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكذلك لـمّا سألوا عن الساعة، قال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٥]، فلا فائدة من

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٣٧) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

معرفة الساعة، وإنما المطلوب الاستعداد لها والعمل من أجل النجاة من أهوالها قبل أن تقع.

وكذلك فإنه لا تجوز المبالغة في سؤال الناس من المال، وهذا لا يجوز أن يكون، إلَّا إذا احتاج المسلم لذلك، فإنَّ سؤال المال لا يحل إلّا لأحد ثلاثة كما جاء في الحديث: «أن المسألة لا تَحل إلّا لأحد ثلاثة: رجل تَحمَّل حَمالةً فحَلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيبَها ثمَّ يُمسك، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحَتْ مالَه فحلَّت له المسألةُ حتى يُصيبُ قِواماً من عَيشٍ، ـ أو قال: سِداداً من عَيشٍ ـ ورجلٌ أصابتهُ فاقةٌ حتى يَقومَ ثلاثةٌ من ذَوي الحِجَا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلَّت له المسألةُ حتى يُصيبُ قِواماً من عَيشٍ، أو قال: سِداداً من عَيشٍ»[1].

فالأوَّل: «رجلٌ تحمَّل حَمالة» يعني: احتاج المال للإصلاح بين الناس، فإنَّه لا يُترك يتحمل ذلك وحده، وإنما يُعطى حتى وإن كان غنيّاً.

والثاني: «رجلٌ أصابته جائحةٌ، يعني: آفة أتلفت ماله، فله الحق

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٤) من حديث قبيصة بن مُخارق ﷺ.

....

أن يسأل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥] والمحروم هنا: هو الذي تَلِفَ ماله، فيأخذ ما يقوم به أمره، ثم يُمسك عن المسألة والطلب من الناس.

والثالث: «رجل أصابته فاقة» يعني: فقراً، فهو إنسان معسر معروف أنه فقير، فهذا له أن يسأل الناس حتى يسد حاجته ثم يمسك، ولا يستمر في السؤال، أما الذي يسأل تكثُّراً بدون حاجة فهو آثم، يقول النبي ﷺ: «من سأل الناس أموالهم تكثُّراً فإنَّما يَسأل جَمْراً، فليستَقِلَّ أو ليستكثر»(١).

وقوله ﷺ: «وإضاعةَ المال» أي: صرفه في غير محلِّه، وبذله في غير وجهه المأذون فيه شرعاً، أو تعريضه للفساد والتلف، والله لا يحب الفساد، أو السَّرف في إنفاقه بالتوسُّع في لذيذ المطاعم والمشارب، ونفيس الملابس والمراكب، وغير ذلك مما ينشأ عنه غِلَظُ الطَّبع وقسوة القلب المُبعدين عن الله سبحانه وتعالى.

فالأصل في هذا أن يحافظ المسلم على ماله، وينفق على نفسه وأهله، وعلى الفقراء فإنَّ لهم فيه حقّاً، والله قد أنعم على الإنسان

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

بالمال، وجعله ابتلاءً وامتحاناً له، فإن بدَّد المال كان مسرفاً وإن بخل بإنفاقه كان آثماً وكان مضيِّعاً لمن يَقُوت، والمال هو مال الله، والعبد مستخلف فيه إلى أجلٍ، ثم ينتقل هذا المال إلى غيره بالوراثة، وغيرها.

وقد حرَّم الله الإسراف والبخل على حدٍّ سواء، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وعن جابرٍ ﷺ مرفوعاً: «إنَّ مِنْ أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحسَنَكُم أخلاقاً، وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي مجلساً يومَ القيامةِ الثَّرثارون الـمُتشدِّقون الـمُتَفَيْقهون». حسَّنه الترمذي[١]. [٥٩]

---

[٥٩] المقصود بحُسن الخُلق: هو طيب التعامل بالقول والفعل، والذي يُوفق لهذا يكون أقرب الناس مجلساً من النبي ﷺ يوم القيامة، ومن أحبِّهم إليه، والخُلق الحَسَن هو صفة النبيِّ ﷺ، فقد وصفه الله عز جل فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] والمؤمنون من حيث الإيمان محبوبون، ولكنهم يتفاضلون في صفات الخير وشُعب الإيمان، فيتميَّز الفاضل بزيادة محبَّة، وقد يتفاوتون في الرذائل فيصيرون مبغضين بسبب ذلك، ويصير بعضهم أبغض من بعض، وقد يكون الشخص الواحد محبوباً من وجه ومبغضاً من وجه آخر. وعليه فإنَّ النبي ﷺ يحب المؤمنين من حيث هم مؤمنون، وحبُّه لأحسنهم خلقاً أشد، ويبغض العصاة من حيث هم عاصون، وبغضه لأسوئهم أخلاقاً أشد.

---

(١) في «جامعه» برقم (٢٠١٨).

....

وقد ذكر ﷺ في هذا الحديث أصنافاً من الذين يُبغضهم، وأولهم: «الثرثارون». والثرثار هو الكثير الكلام، والمهذار، كثير الصيّاح، والثرثرة: كثرة الكلام وترديده تكلُّفاً وخروجاً عن الحق.

والمقصود هو كثير الكلام بفائدة أو غير فائدة، وهو الذي يتكلم بمناسبة أو غير مناسبة، فلا شكَّ أن من يتكلم كثيراً لا بد أن تكثر سقطاته وأخطاؤه، إضافة إلى أنَّ الناس تَمَلُّ كثير الكلام وتُعرض عنه.

وذكر كذلك «المتشدِّقون» أي: المتكلمون المتفيصحون الذين يتوسّعون في الكلام، من غير احتراز واحتياط، وقيل: المتشدق هو المستهزئ بالناس يلوي شدقه عليهم، أي: يتفاصح عليهم، والشِّدقُ: جانب الفم، والأصل في المسلم ـ حتى وإن كان عنده شيء من فصاحة اللغة ومعرفة البلاغة ووحشي الكلام ـ أن يتواضع ولا يتكبَّر ويترفع على الناس، وإنما عليه أن يكلِّم الناس بما يعرفون، بكلام معروف، فيخاطب العوام بما يفهمون، وقد قال عليٌّ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله[1]، فإذا خاطب العلماء أو أهل الاختصاص فعليه أن يخاطبهم بما يليق

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

....

بهم، فإن فعل خلاف ذلك كان هذا من الكبر والإعجاب بالنفس، وهو كبيرة من كبائر الذنوب.

ثم ذكر ﷺ «الـمُتَفيهقون»: وهم المتوسّعون في الكلام، الفاتحون به أفواههم للتفصُّح، وأصله مأخوذ من الفَهَق: وهو الامتلاء والاتساع، كأنه ملأ به فاه، وكل ذلك راجع إلى معنى الترديد والتكلُّف ليُميل قلوب الناس وأسماعهم إليه، وهذه صفة في الكلام مذمومة، والمقصود عدم التكلف بالخطاب، وعدم مخاطبة الناس بما يُشتبه عليهم ولا يعرفونه، وأنه ينبغي مراعاة مخاطبتهم بما يفهمونه من الكلام.

باب التَّشدُّق وتكلُّف الفَصَاحة

وقوله الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الآية [المنافقون: ٤]. [٦٠]

---

[٦٠] هذا الباب وصف للمنافقين الذين يعتنون بمظاهرهم وبكلامهم فيُجَمِّلون القول ويُنمِّقونه ويتفاصحون فيه، ولكن مع ذلك فهم ـ والعياذ بالله ـ قلوبهم حاقدة، فما نفعهم حسن المنظر ولا فصاحة اللسان، لا سيَّما وقد استعملوا ذلك في الباطل، لذلك جاء تحذير الله المسلمين من المنافقين في غير ما موضع من كتابه الكريم، وكذلك حذَّر النبيُّ ﷺ منهم فقال: «إنَّ أَخوَفَ ما أخافُ على هذه الأمُّة كلُّ منافقٍ عليمِ اللِّسان»(١). فعليمُ اللِّسان عنده فصاحة في القول، وليس في قلبه خشية لله، ولهذا فإنه يُخشى منه أن يخدع من يستمع إليه، وعليه فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتصَّف بصفة من صفات المنافقين التي ذمَّها الله تعالى من خلال الآية المذكورة في أول هذا الباب وفي غير ما موضع من كتابه الكريم، أو التي حذَّر منها ﷺ في أكثر من حديث.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما مرفوعاً: «إنَّ من البَيانِ لَسِحْراً»(١). رواه البخاري. [٦١]

---

[٦١] وفي حديث آخر: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشِّعر حِكمة»(٢). فالشِّعر فيه حكمة، حيث تتعدد أغراضُه ولا سيَّما المستحسنة كالحثِّ على الكرم والشجاعة، وإغاثة الملهوف، والمروءة وحُسن الجوار، ولا شكَّ أن المرء ينتفع بهذا الكلام ويكون له تأثير في تحفيزه على الصفات الفاضلة، إضافة إلى الفائدة في اللغة والبلاغة والفصاحة، صحيح أنَّ في الشعر غير ذلك من الأغراض غير المحمودة، فحَسَنُه حَسَنٌ وقَبيحُه قَبيحٌ، والمقصود من الشِّعر الشِّعرُ القديم الفصيح؛ لأنَّ بعض الشعر في هذه الأيام تأثر بالشعر الغربي من حيث الحداثة والمفاهيم الغريبة التي أفسدت ما كان عليه الشعر قديماً.

فكما أنَّ «من الشعر حكمة» كذلك فإنَّ «من البيان وهو الكلام المنثور غير المنظوم سحراً»، أي: إنَّ منه لنوعاً يحِلُّ من العقول والقلوب في التَّمويه محل الشِّعر، فإنَّ الساحر بسحره يُزيِّن الباطل في عين المسحور حتى يراه حقاً، وكذلك المتكلم بمهارته في البيان

---

(١) في «صحيحه» برقم (٥٧٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥) من حديث أُبيّ بن كعب ﷺ.

....

والشعر، وتفنُّنه في البلاغة وترصيف النظم، فإنه يسلب عقل السامع، ويشغله عن التفكُّر والتدبُّر فيه، حتى يُخيَّل إليه الباطل حقاً والحق باطلاً، فتجد مثلاً بعض الخطباء الذين أُعطوا حظّاً من البلاغة والفصاحة والبيان ما يستميلون به قلوب الحاضرين فيسحرونهم ببلاغتهم وفصاحتهم، ولهذا تسمّى البلاغة سحراً، ولكنه سحر حلال إذا ما استُخدم في الحق، أما سحر الساحر فهو حرام قطعاً.

ولذلك اختلف أهل العلم في هذا الأمر فقالوا: هل قول النبي ﷺ في البيان «وإنَّ من البيان لسحراً» هو من باب المدح أم الذَّم؟ والصحيح أن البيان على قسمين، الأول: أنْ يستخدم لنصرة الحق ودحر الباطل، فهذا بيان ممدوح، وأمّا إن كان يستعمل للوقيعة بين الناس ونصرة الباطل، وقلب الحقائق، والتحريض على ولاة الأمور فهو مذموم. قال الشاعر:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مُجاج النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما ... قولُ البليغ يجعلُ الظلماء كالنور

وعن عبدِ الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما مرفوعاً: «إنَّ الله يُبغِضُ البَليغَ مِنَ الرِّجال الذي يَتَخلَّلُ بلسانِهِ كما تتخلَّلُ البقرةُ» حسَّنه الترمذي(١). [٦٢]

---

[٦٢] قوله: «البليغ من الرجال» أي: المظهر للتفاصح تِيْهاً على الغير واستعلاءً ووسيلةً إلى الاقتدار على تصغير عظيمٍ، أو تعظيمِ حقيرٍ، أو بقصد تعجيزِ غيره، أو تزيين الباطل في صورة الحق، أو عكسه، أو لأجل إجلال الحكام له ووجاهته وقبول شفاعته.

وقوله ﷺ: «يتخلَّل بلسانه»: هو الذي يُدير لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلُّم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل، وخصَّ البقرة من بين البهائم بالذكر، لأنَّ سائر البهائم تأخذ النبات بأسنانها أما البقرة فهي لا تحتشُّ إلّا بلسانها.

وهذا الكلام ليس على إطلاقه يعني: لا يشمل كل بليغ إنما المقصود الذي يتِّخذ من لسانه سبباً للكسب وأكل أموال الناس، فيمدح من لا يستحق، ويذم من لا يستحق، وينافق ويداهن، وكل هذا من أجل التكسب فقط لا من أجل إحقاق حقٍّ، أو إبطال باطلٍ.

---

(١) في «جامعه» برقم (٢٨٥٣)، وأخرجه أحمد (٦٥٤٣) وأبوداود (٥٠٠٥).

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ تعلَّم صَرْفَ الكلام لِيَصرفَ به قُلوبَ الرِّجالِ أو النَّاس، لم يَقبَلِ الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً» رواه أبوداود[1]. [٦٣]

---

[٦٣] قوله ﷺ: «مَن تعلَّم صَرْفَ الكلام» أي: ما يتعلَّمه من الزيادة، والتكلُّف فيما هو غير ضروري، وإنما كُره هذا لما يدخله من الرِّياء، والتصنُّع ولما يخالطه من الكذب والتزيد.

وهذا الحديث كالذي قبله جاء في بيان أن الإنسان إذا أعطاهُ الله فصاحة وبلاغة، أو أنَّه تعلَّم صَرْف الكلام، أي: تكلُّفه والزيادة فيه، فإنَّه لا يَحِلُّ له أن يستخدم هذا كلَّه في خداع الناس وتضليلهم وتغيير الحقائق، فإن فعل ذلك «لم يقبل الله منه صَرْفاً» يعني: فَرْضاً، «ولا عَدْلاً» يعني: نافلة، وقيل: فِدْيةً، يعني: لا يقبل الله منه يوم القيامة أن يفتدي نفسه من العذاب.

---

(١) في «سننه» برقم (٥٠٠٦).

ولأحمد[١] عن معاوية ﷺ: لَعَنَ رسولُ الله ﷺ الذين يُشَقِّقُونَ الكلامَ تَشْقيقَ الشِّعْر. [٦٤]

---

[٦٤] هذا الحديث جاء فيه اللَّعن لمن «يُشقِّقون الكلام»، أي: يلوون ألسنتهم بألفاظٍ متكلِّفة يميناً وشمالاً، استعلاءً على الغير. واللَّعن يدل على أنه كبيرة، فمن الكبائر أن يشقِّق المرء الكلام من أجل استمالة الناس لصرفهم لهواه ورغباته.

وتشقيق الكلام لا سيَّما عند الخطيب أو المتكلم الذي يتكلف الكلام الموزون والسَّجع، حرصاً منه على التفاصح واستعلاءً على الغير تِيْهاً وكِبْراً مذمومٌ غاية الذم، ولهذا يقال: تشقَّق في الكلام والخصومة: إذا أخذ يميناً وشمالاً وترك القَصْدَ وتكلَّف ليخرج الكلام أحسنَ مخرج، فيما لا يُرضى الله جلَّ وعلا.

فالواجب على المسلم أن يتحفَّظ في كلامه غاية التحفُّظ من كل الوجوه، فإنَّه إن استعمله في الخير كان خيراً، وإن استعمله في الشر وفيما لا يرضي الله كان شرّاً له لا سيَّما في آخرته.

---

(١) في «مسنده» برقم (١٦٩٠٠).

باب شدَّة الجِدال

وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وعن عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً: «إنَّ أَبغَضَ الرِّجالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ»(١).

وللتِّرمذيِّ(٢) عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً: «كَفى بكَ إثماً أن لا تَزالَ مُخاصِماً».[٦٥]

---

[٦٥] الجدال آفةٌ من آفات الكلام، وقد ساقه المصنِّف ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب «الكبائر» ليُشيرَ إلى أن الجدال والخصومة كبيرة من كبائر الذنوب لِـما يترتَّب عليهما من آثار سيِّئةٍ، وهذا بخلاف ما إذا كان الجدال لِبيان حقٍّ، أو كَشْف شُبهةٍ، أو دَفْعِ مضرَّةٍ، فهو مطلوب كما قال سبحانه في محكم كتابه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالمذموم منه ما كان لغير ما ذكرنا، كأنْ يكون لهوًى، أو رياء وسُمعة. وقوله تعالى في الآية: ﴿أَلَدُّ﴾.

والحاصل أن الأَلَدَّ شديد القسوة في معصيةالله تعالى، فهو الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) في «جامعه» برقم (١٩٩٤).

....

يجادل بالباطل، فهو عليم اللِّسان، تارك العمل، يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]، فهؤلاء قد أُنذروا لأجل أنْ يتركوا هذه الصِّفة المذمومة.

وقوله: «عن عائشة رضي الله عنها: إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ» يُفهم من هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى يُوصَف بأنه يُحب ويُبغض، فهو سبحانه يحب المتَّقين والمحسنين والمتطهرين ويُبغض الكافرين والمنافقين والفُسَّاق، فمِن الناس من يُبغضهم بُغضاً كاملاً، وهم الكافرون والمنافقون، ومن الناس من يُبغضهم على ما فيهم من الشَّرِّ، ويُحبُّهم على ما فيهم من الخير، وهم المؤمنون العصاة.

وليس معنى قوله: «أَبغضُ الرِّجال» أنَّ هذا خاصٌّ بالرِّجال دُون النساء، بل والنساء كذلك فهن داخلاتٌ في هذا المعنى، ولكن ذكر الرِّجال من باب التغليب، فأشدُّهم بُغضاً عند الله «الأَلَدُّ الخَصِمُ»؛ أي: الذي عنده لَدَد في الخُصومة؛ أي: شدَّة فيها، فهو كلّما احتُجَّ عليه بحُجَّة أخذ في جانبٍ آخر، الخَصِم هو الحاذق بالخُصومة؛ والمذموم منها الخصومة بالباطل، سواء في دَفْع حقٍّ، أو إثباتِ باطلٍ.

....

وقد قال سبحانه في حقِّ الكافرين: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، فهذه هي صفة الكافرين الكثرة في الجدال، ولذلك لَـمَّا نزل قول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فرح المشركون بها فقالوا: أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عُزيراً، وقوم يعبدون الملائكة، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠١]، فمن رضيَ أن يعبد من دون الله يكون في النار، أما الذي يُعبد وهو لا يَرضى، فلا يَدخل في مفهوم الآية، فالأنبياء لا يَرضون أن يُعبدوا من دون الله عز وجل، وعيسى عليه السلام ما عُبد إلا بعد أن مات، وكذلك نبيُّنا ﷺ كان ينكر الغلو فيه واتخاذه نداً لله، فلمّا مات ﷺ غالى فيه القُبوريون وجعلوا له تصرفاً في الأمور التي لا يقدر عليها إلَّا الله عزَّ وجل، فهم جعلوه إلهاً بذلك.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾

---

(١) انظر «تفسير» ابن جرير الطبري ١٧/ ٩٦ فيما أخرجه عن ابن إسحاق.

....

يعني ما ذكروا عيسى إلاّ من باب المجادلة بالباطل [الزخرف: ٥٧-٥٨]، فهم يعرفون أنَّ عيسى عليه السلام لا يدخل النار، لأنَّه نبي الله، وهو الذي ينهى عن الشرك، ولهذا قال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «كفى إثماً أن لا تزال مخاصماً»[١]. وهذا كالحديث الذي قبله، فإنَّ كثرة المخاصمة تُفضي غالباً إلى المخاصمة بالباطل، وللأسف فإنّا نجد بعض الناس لا يكون همُّه إلّا الاعتراض دائماً على الغير وإثارة الشُّبهات، وهذا لا يفعله إلّا بعض المتعالمين، فتجده يخالف الناس ويتَّهمهم بالخطأ وما ذاك إلّا لهوًى، أو كبرٍ في نفسه.

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (١٩٩٤) وهو حديث الباب.

باب مَن هابَه النَّاسُ خوفاً من لِسانه

وقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنزلَةً عند الله يومَ القيامةِ مَنْ وَدَعَه النَّاسُ ـ أو تَركَه النَّاسُ ـ اتِّقاءَ فُحْشِه»(١).[٦٦]

---

[٦٦] قوله: «من خافه الناس خوفاً من لسانه» المراد به الرَّجل الذي يترك الناسُ مخالطتَه ومجالستَه خوفاً من سلاطة لسانه، فهو لا يتورَّع عن الشَّتم والوقوع في الأعراض بالهَمْز واللَّمز والفاحشِ من القول، لذلك تجد الناسَ يبتعدون عنه.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذا وعيد شديد من الله لكل همّاز لَـمّاز؛ والهَمْزُ يكون بالفعل، واللَّمز يكون بالقول، كما قال سبحانه: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنَّميمة. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، يعني: إذا مرَّوا بالمؤمنين فإنهم يتنقَّصونهم، كأن يتلَمَّسوا مَعاييهم فيُبدونها، أو يحرِّكوا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).

....

ألسنتهم أو شفاههم مغتابين لهم، وهذا كله حرام لا يجوز في حق المسلم، فالله سبحانه قال: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يطعن بعضكم في بعض، وانظر إلى التعبير القرآني في قوله: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾، يعني: أنَّ نفسك كنفس أخيك، فالمؤمنون كالنفس الواحدة، فما ترضاه لنفسك فارْضَهُ لأخيك، وما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لأخيك، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتعاطفهم، وتراحُمِهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تَداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»(١). ويقول عليه الصلاة والسلام: «المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لِسانه ويده»(٢).

وأما حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إنَّ شرَّ الناسِ مَنزلةً عند الله يومَ القيامة مَنْ وَدَعه الناسُ، أو تَركه الناسُ اتِّقاءَ فُحْشِه» فإنَّه يُفهم منه أن الناس يوم القيامة درجات عند الله، كلٌّ حسب عمله، وقد يرفع الله بعض المؤمنين درجات تفضُّلاً منه وفَضْلاً، وشرُّ الناس منزلة وأبعدهم من الله سبحانه هو ذاك الذي يتركه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) (٦٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (٤١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

....

الناس لأجل قبيح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فُحْشه، والفحش: مجاوزة الحدّ الشرعي قولاً أو فعلاً.

وبعض الناس يعتبر أنَّ الناس إذا دارُوه واتَّقوه كان ذلك تعبيراً عن مدى قوته ورجولته، والحقيقة أنَّ هذا هو الذُّل بعينه، فإنَّه إن أظهر قوته وتكبَّر على إخوانه فإنَّه سَيُذلُّ يوم القيامة كما قال النبي ﷺ: «يُحشر المتكبِّرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ»[1]، وإنَّ الذي يتواضع للناس يرفعه الله عزَّ وجل كما قال النبي ﷺ: «مَنْ تواضعَ لله درجةً رَفَعه الله درجة حتى يجعله في عِلِّيين، ومَن تكبَّر على الله درجةً، وَضعَه الله درجةً حتى يجعلَه في أسفل السافلين[2]».

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١١٧٢٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

باب البَذاء والفُحْش

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «ليس المؤمنُ بالطَّعّانِ ولا اللَّعّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيِّ» حسَّنه الترمذي(١). [٦٧]

---

[٦٧] «البَذاء» هي قلَّة الحياء، و«الفُحش»: هو الكلام الفاحش الذي يؤذي الناس ويمقته الله سبحانه ويبغضه، فإنَّ النبي ﷺ وصف المؤمن فقال: «ليس المؤمنُ بالطَّعان، ولا اللّعّان، ولا الفاحشِ ولا البَذيِّ»، فالأصل في المسلم أن يكون سَلْماً لأخيه المسلم فلا يؤذيه.

والفاحش: هو كثير الفُحْش، والفُحش: هو القبح المتناهي، والمسلم يتنزَّه عن هذا كُلِّه، فإنَّ الذين يُحرَّمون على النار إنما هم أصحاب الأخلاق الحسنة، قال عليه الصلاة والسلام: «حُرِّم على النَّار كلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ، سهلٍ قريبٍ منَ النَّاسِ»(٢).

---

(١) في «جامعه» برقم (١٩٧٧)، وأخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٣٩٤٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٣٩٣٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

وأما قوله تعالى في الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ المصنِّف ـ رحمه الله ـ ساق هذه الآية لبيان أبرز صفات المؤمن، حيث إنّ سورة الفرقان تضمَّنت هذه الصفات، فمن صفاتهم كما ذكر سبحانه أنهم ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾، أي: مشية المتواضع دون تكبُّر أو علوٍّ في الأرض ولا فساد، وقد قال سبحانه ناهياً عن التكبُّر: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، ومن صفاتهم أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أي: يتحمّلون ما يحصل لهم من أذى أهل الجهل والسَّفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا يُسافهون أهل السَّفَةِ، وإنما يقولون: ﴿ سَلَٰمًا ﴾، وهذا ليس من التَّسلِيم عليهم، إنما هو تركهم للسلامة من شرهم، تقول العرب: سلاماً، أي: قالوا قولاً يسلمون به من شرهم، فهذا إسلامُ مُتارَكةٍ وليس سلام تحيةٍ، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

ومن صفتهم التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ الزور: أعياد المشركين، فالمسلمون لهم عيدان: عيد الفطر وعيد

. . . .

الأضحى، وهما يأتيان بعد ركنين من أركان الإسلام، فلهم أعياد شرعيَّة وليست بِدْعيَّة، أما الأعياد المبتدعة وأعياد الجاهلية، مثل عيد النَّيروز والمهرجان، وأعياد الفرس والروم، فالواجب على المسلم أن لا يُقرّها ولا يحضرها ولا يشجِّع عليها، ولا يُهنِّئ أصحابها، ولا يهدي إليهم، ولا يأكل من الطعام الموجود فيها؛ لأنها أعياد جاهلية بِدْعيَّة.

وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بالطّعّانِ ولا اللَّعّانِ، ولا الفاحشِ ولا البذيِّ» هذه الأمور التي ذكرت في الحديث تنقص في الإيمان، وهي تَسلِبُ كماله، فالنفي هنا نفي الكمال وليس نفي أصل الإيمان، وهذا يدل على أن الإتيان بهذه الأمور من الكبائر، فلا يكون المؤمن طعّاناً يطعن في أنساب الناس وأعراضهم، أو بأشكالهم وهيئاتهم، و«لا اللِّعانِ» أي: ليس كثير اللعن، واللَّعن: هو الطَّرد من رحمة الله سبحانه وتعالى، فمِن الناس من تجده يلعن لأتفه الأسباب، فإن طلب من أولاده شيئاً قال: هاتوا لعَنكم الله، أو حتى إن أراد أن يُمازح شخصاً لعنه ـ والعياذ بالله ـ وحتى الذين يقعون في معصية تجدهم يلعنون إبليس وكأنهم يحمِّلونه الذنب وينفونه عن أنفسهم، صحيح إنَّ إبليس يوسوس بالمعصية ويدعو إليها ولكن هـذا ليس

....

عذراً، وإنما تجب ـ والحالة هذه ـ التوبةُ من العبد والندم على الذَّنب، لأنَّه إنْ لعن إبليس فإنَّه يفرح بذلك ويقول: أنا أطغيته. وألحقت به الضرر.

والفاحش: هو الذي يَفحش في أقواله وأفعاله، والفُحش ما تناهى قُبحه، ولذلك سمّى الله الزنى فاحشة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والبذيّ: هو السيء في منطقه، فالواجب على المسلم أن يكون هيِّناً ليِّناً، سهلَ الكلام، وأن لا يؤذي أخاه بقول أو فعل، بل وحتى غير المسلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢].

وله(١) وصحَّحه عن أبي الدَّرداء ﷺ مرفوعاً: «مَا مِن شيءٍ أثقَلُ في مِيزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ، وإنَّ الله ليُبغِضُ الفاحشَ البذيءَ الذي يتكلَّم بالفُحْشِ».[٦٨]

---

[٦٨] قوله ﷺ: «ما مِنْ شيءٍ أَثقلُ في ميزان العبد يومَ القيامة من خُلُقٍ حَسَنٍ» من المقطوع به أنَّ أعمال العباد تُوزن يوم القيامة، صغيرَها وكبيرَها، فمَن رجحت حسناتُه على سيئاته فقد فاز ونَجا، ومن خفَّت موازينه هلك وتعس، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[القارعة: ٦ – ١١]، وأثقلُ ما يُوضع في الميزان يوم القيامة حُسن الخُلق، وحُسن الخُلق مع الناس يكون بكفِّ الأذى وبَذْل النَّدى، والصَّبر على الأذى، وليس المقصود أن يكون حُسن الخُلق مع المسلمين فقط، بل ومع غيرهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة: ٨٣]، وهذا لا يكون إلّا بالكلام الطيِّب والمعاملة الحسنة، وبَذْل النَّصيحة، والعَدْل في القول والفعل.

---

(١) في «جامعه» برقم (٢٠٠٢) دون قوله: «الذي يتكلم بالفحش».

. . . .

ولقد كان النبي ﷺ أعظمَ الناس خُلُقاً، ولقد زكّاه الله عزَّ وجل فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وفي الحديث بيانٌ لصفة من صفات الله، فمن صفاته الفعلية البُغض، فهو يُبغض المشركين والمنافقين، وبُغض الله ليس كبُغض المخلوقين، فهي صفة تليق بجلاله سبحانه.

ولـمُسلمٍ[1] عن عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً: «إنَّ الرِّفْقَ لا يكون في شيءٍ إلّا زانَهُ، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلّا شَانَهُ».

وللترمذيِّ[2] وحسَّنه عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعاً: «ألا أُخْبِرُكُم بمَن يَحرم على النَّارِ أو بمَن تَحرُم عليه النارُ، على كلِّ قريبٍ هيِّنٍ سَهلٍ».

ولـمُسلمٍ[3] عن جريرٍ ﷺ مرفوعاً: «مَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ يُحرَم الخيرَ كلَّه». [٦٩]

---

[٦٩] الرِّفق: هو حُسن الخُلق وعدم العجلة، فإن كان الإنسان عنده رفق زانه هذا الرِّفق، إذ هو سببٌ لكلِّ خيرٍ، فإن نُزع منه «شانَه» أي: صارت أعماله شينة، والنبي ﷺ قال هذا الحديث لعائشة رضي الله عنها وقد ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت تضربه، فقال يصف ربَّه أنه: «رفيق يُحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه»[4]، أي: لطيف

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٥٩٤) (٧٨).

(٢) في «جامعه» برقم (٢٤٨٨).

(٣) في «صحيحه» برقم (٢٥٩٢) دون قوله: «كلَّه».

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

....

بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، فلا يكلِّفهم فوق طاقتهم، بل يسامحهم سبحانه وتعالى ويلطف بهم، وهو سبحانه إن أسرع العباد إليه بالمعصية لم يعاجلهم بالعقوبة، بل يُمهلهم ويفتح لهم باب التوبة، ولذلك يجب على الدُّعاةِ أن يتخلَّقوا بهذا الخُلق، فيرفقوا بالناس، ويتصبَّروا عليهم، ويرفقوا بهم حتى يأخذ الله بنواصيهم إلى الخير.

وأما قوله ﷺ: «ألا أُخبركم بمَن يَحرُم على النار، أو بمَن تَحرُم عليه النارُ، على كل قريب هيِّن سَهلٍ» التحريم هنا معناه: المَنْع، وسُمِّي الحرام حراماً لأنه ممنوع، والمعنى: أن الذي يَحرُم على النار ولا يصله من عذابها شيء، فتُمنع النار مِنْ أن تُعذِّبه، وهذا الذي تُمنع النار من تعذيبه هو الهيِّن، يعني: الوقور السهل المحبَّب القريب، فهو قريب في تعامله مع إخوانه، قريب في مكانه، لا يترفَّع على الناس، ولا يمتنع عن الاختلاط بهم وقضاء حاجاتهم، والتوسط لهم عند الآخرين.

والهيِّن: هو الرَّفيق في تعامله، فلا يعامل الناس بغلظه وشدَّة، وإنما يتواضع لهم، قال سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

....

وأمّا قوله ﷺ: «من يُحرم الرِّفق يُحرم الخير كلَّه» معنى قوله ﷺ: «يُحرم الرفق» يعني: لا يوفَّق له، بل تكون فيه الشِّدة، والعُنف وسرعة الغضب والاشتداد، فإنه يُحرم الخير النّاشئ عن الرِّفق، وهذه عقوبة لمن استعجل الأمور، وطاش واشتد، وتعجَّل ولم يتصبَّر، فهو فوَّت على نفسه الخير الذي يناله لو أنه تحلَّى بالرِّفق واللين.

وفي الحديث دعوة للعلماء والدُّعاء والمصلحين بأن يرفقوا ويرحموا الآخرين ليُوصلوهم إلى بَرِّ الأمان، قال سبحانه لنبيِّه موسى وأخيه هارون عليهما السلام حينما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، أي: قولا لفرعون ـ وهو أفجر الناس وأكفرهم ـ قولاً لطيفاً وليناً وغير خَشِنٍ، فكيف إذا كان الخطاب مع المسلمين؟! وولاة أمور المسلمين.

باب ما جاء في الكذب

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[النحل: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].[٧٠]

---

[٧٠] قوله: «باب ما جاء في الكذب» الكذب: هو ضد الصِّدق، وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به في الواقع، فإن كان متعمِّداً في إخباره فهو آثم، وإن لم يكن متعمِّداً فلا إثمَ عليه، وإنما يُسمَّى حديثه كذباً لأنه خلاف الواقع. والكذب كبيرةٌ من كبائر الذنوب، لأنَّ الله سبحانه توعَّد عليه فقال: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[آل عمران: ٦١].

والكذب على أقسام:

أوله: الكذب على الله جلَّ وعلا، وهذا أعظمُ الكذب، كأن يقول: إنَّ الله حرَّم كذا، أو أحلَّ كذا بغير علم، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ

....

لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦ - ١١٧].

ومن الكذب على الله ـ وهو أشدُّ مما سبق ـ الكذب عليه بالشِّرك بأنْ يُقال: إن لله شريكاً يستحق العبادة معه، أو قول من قال من اليهود والنصارى: إنَّ الله اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عمّا يقولون.

ومن الكذب على الله الكذب على الله في أسمائه وصفاته، وذلك بأن تُأوّل وتحرَّف عن معانيها، ثم يقال: هذا مراده بها، نسأل الله العفو والعافية. أو يجحدها وينفيها عنه.

ثانياً: الكذب على رسول الله ﷺ، كأن يقول: إن النبي ﷺ حرَّم كذا أو أحلَّ كذا، وليس الأمر كذلك، ويدخل في هذا رواية الأحاديث المكذوبة عليه ﷺ ونسبتها إليه وهو ﷺ لم يقلها، لأنَّ كلامه ﷺ إخبار عن الله سبحانه، قال عليه الصلاة والسلام: «من كَذَبَ عليَّ مُتعمِّداً فليتبوَّأ مَقعدَه من النَّارِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١) من حديث المغيرة ﷺ، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

ثالثاً: الكذب على أهل العلم: بأن يُنسب لهم الأقوال في المسائل والأحكام والفتاوى وهم لم يقولوها، وإنما نقلها الناقل ليؤيد رأيه أو فكره، أو ما يدعو إليه، فإنَّ الكذب على العلماء هو كالكذبِ على الله تعالى ورسوله ﷺ، «فالعلماء وَرَثةُ الأنبياء»[1].

رابعاً: الكذب على الناس، كالكذب في البيع والشراء والنكاح وسائر المعاملات، وإذا كان الكذب في شريعتنا لا يجوز على مَن خالفونا في ديننا، فهو من باب أوْلى لا يجوز على المسلمين، وكذلك فإنَّ من الكذب على الناس نَقْل الأخبار دون تثبُّت وتحقُّق، فمِن الناس من يستمتع بنقل الأخبار، حتى وإن كانت كاذبة ومختلقة، يريد أن يُشبع نهمته ويضيِّع وقته، وما عَرف أن خبراً كاذباً قد يكون سبباً في إراقة الدماء، أو يكون سبباً في هَدم البيوت والأُسر، أو قطع حِبال المودة والقُربى، أو حدوث ما لا تُحمد عُقباه، ولذلك قال الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، لهذا جاءت الآيات التي ساقها المصنِّف ـ رحمه الله

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥)، وأبوداود في «سننه» برقم (٣٦٤١)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

....

ـ لِتُبيِّن حَجم العقاب الذي ينتظر الكاذبين بأنه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع مهين، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، والويل: هو وعيد شديد، والأفّاك: هو كثير الإفك، وهو الكذب.

عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعاً: «إنَّ الصِّدقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجل لَيَصْدُق، حتى يكون صِدِّيقاً، وإنَّ الكذبَ يَهْدي إلى الفُجور، وإنَّ الفُجورَ يَهْدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجلَ لَيكذبُ حتَّى يُكتبَ عند الله كذَّاباً». أخرجاه[١].

وفي «الموطأ»[٢]: «لا يَزالُ الرَّجلُ يَكذبُ ويتحرَّى الكذبَ، فيُنكَتُ في قَلْبِهِ نكْتةٌ سَوداءُ، فيَسْوَدُّ قلبُه، فيُكتبُ عند الله من الكاذبين». [٧١]

---

[٧١] قوله ﷺ فيما رفعه ابن مسعود ﷺ: «إنَّ الصِّدق يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة..» الصدق: هو مطابقة الخبر للواقع، فإنَّ المسلم إن بقيَ ملتزماً بالصِّدق فيما يقول ويفعل، فإنه إذا أراد أن يقول تحرَّى وتثبّت، لأنَّ هذا الصدق يقوده إلى البِرِّ، والبِرُّ هوجماع الخير، فالبِرُّ والتَّقوى والإيمان كلُّها بمعنًى، والبِرُّ من أعلى مراتب الدِّين، وهو يهدي إلى الجنَّة، أي: إنَّ الالتزام به سببٌ في دخول الجنَّة، ثم إنه بعد ذلك يستحق وصف الصِّديقيَّة، وهي درجة عالية من درجات

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٣).

(٢) برقم ٢/ (٩٩٠) برقم (١٧٩٤) بنحوه، من رواية يحيى الليثي.

....

الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء: ٦٩]، فهم بعد النبيِّين في الدرجة، فالأصل في المسلم أن يُربِّي ويُوطِّن نفسه على الصِّدق في القول والعمل حتى يألفَه، فيكون في زُمرة الصدِّيقين، فلقد سُمِّيَ الصدِّيق أبوبكر بذلك لكثرة صدقه وتوطين نفسه عليه، ففاز بهذا اللقب ﷺ.

وقوله ﷺ: «الكذب يهدي إلى الفجور» أي: إن المرء إذا أصبح الكذب عادةً له، فإنَّ هذا الكذب سيقوده إلى الميل عن الاستقامة والانبعاث في المعاصي، والخروج عن طاعة الله، ومن ثم فهو طريق إلى النار، والفاجر لا تُقبل منه شهادة ولا يُستأمن، والناس لا يُصدِّقونه في كلامه، فيصبح عند الناس ساقط المنزلة، وهو عند الله كذّاباً.

والحاصل أنَّ الصِّدق وسيلةٌ لدخول الجنة، والكذب وسيلةٌ لدخول النار، فعلى المرء أن يتنبَّه لنفسه من هذه الآفة القاتلة، لا سيَّما في زمانٍ انتشر فيه الكذب وتهاونَ الناس فيه، فلا غَضاضة عند أحدهم إن كذب حتى يحصِّل منفعة أو مصلحة، فقد يكذب أصحاب الهوى ليفرِّقوا بين الناس بعضهم عن بعض، أو بين الرعيَّة والراعي، فليحذر المسلم من ذلك أشدَّ الحذر.

....

وقوله ﷺ: «لا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب، فيُنكت في قلبه نُكتة سوداءُ، فيَسْوَدُّ قلبُه، فيُكتب عند الله من الكاذبين» هذا كالحديث الذي قبله، لكن فيه إضافة على ما تقدم: وهو أنه «يُنكت في قلبه نُكتة سوداءُ حتَّى يسودَّ قلبُه» والعياذ بالله، والنُّكتة السوداء: هي الأثر أو النُقطة السوداء تشبه الوسخ على المرآة، فكل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نَكْت ونُكْته، والمراد بها هنا: سواد القلب.

وفيه[١] عن صَفْوَانَ بنِ سُليمٍ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكونُ المؤمنُ جَباناً؟ قال: «نعم» قيل: أيكونُ المؤمنُ بَخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: أيكونُ المؤمنُ كذَّاباً؟ قال: «لا».

وللتِّرمذيِّ[٢] وحسَّنه عن ابن عُمرَ: إذا كَذبَ العبدُ تباعَدَ عنه المَلَكُ مِيْلاً من نَتْنِ ما جاءَ به. [٧٢]

---

[٧٢] قوله ﷺ لما سئل: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» قيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم» قيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا» معناه إنَّ المؤمن قد يكون جباناً، أي: بالطبع فهو شيء نفسي لا يُعاقب عليه، وقد يكون بخيلاً بالطبع، لأنَّ النفس مجبولة على حب المال، قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فهي صفة نفسية ليست من اكتسابه، ولكنه يستطيع أن يتغلَّب عليها بالمجاهدة وحَمْلها على التصدُّق والإنفاق، وهو غير مؤاخذ بذلك، إلّا إذا حمَلته هذه الصفة أن يَمنع الواجب كإخراج الزكاة والإنفاق على من يَعُول، أما أن يكون المؤمن كذّاباً فلا؛ لأنَّ الكذب صفة للمنافقين، قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذبَ، وإذا

---

(١) في «الموطأ» ٢/ ٩٩٠ برقم (٣٦٣٠).

(٢) في «جامعه» برقم (١٩٧٢).

وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتُمن خان»[١]، ولقد تقدَّم معنا في بداية الباب نَفْيُ الإيمان عن الذين يكذبون، فإما أن يُنفى أصل الإيمان فيكون كافراً، وإمّا أن يُنفى كمال الإيمان فيكون مؤمناً، ولكنه ناقص الإيمان، فالمؤمن إن كذب كان ناقص الإيمان؛ يعني: لا يُنفى عنه أصل الإيمان، والحاصل أنَّ المؤمن يجب أن يَبتعد عن الكذب سواء في القول أو الفعل.

وأما قوله ﷺ في حديث ابن عمر: «إذا كذب العبد تباعَدَ المَلَكُ مِيْلاً من نَتْنِ ما جاء به». المعنى: أنَّ العبد إذا كذب ولو مرَّةً واحدةً «تباعَدَ عنه المَلَكُ» الذي يسجل أعماله وأقواله، بسبب نَتْنِ ما جاء به، لأنَّ الكذب له رائحة معنوية لا نشعر بها، ولكنّ المَلَك يشعر بها.

وفي هذا الحديث إضافة لما سبق أنَّ من مساوئ الكذب: أنَّ الملائكة الحفظة يَنْفِرون منه من سوء ما جاء به العبد العاصي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٩)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب ما جاء في إخلاف الوَعْد [٧٣]

[٧٣] إخلاف الوعد من الكبائر، وهو على نوعين:

أحدهما: أن يَعِدَ ومِنْ نِيَّتِه أن لا يَفي، وهذا أشرُّ الخلق، ولو قال: أفعل إن شاء الله تعالى ومن نِيَّته أن لا يفعل كان كاذباً.

والثاني: أن يَعِدَ مع نيَّته أن يَفي، ثم يبدو له، فيُخلف من غير عُذر له في الخُلْفْ، قال رسول الله ﷺ: «إذا وَعَد الرجل أخاهُ ومن نِيَّتِه أنْ يَفِيَ له فلم يَفِ ولم يجئْ للميعاد، فلا إثمَ عليه»(١).

وأما إذا كان إخلاف الوعد مع الله، فهذا والعياذ بالله، نفاق، فالإخلاف للوعد من أبرز صفات المنافقين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فقوله ﴿مِّنْهُم﴾ يعني: من المنافقين، فهم أعطوا الأيمان والعهد إن أعطاهم الله من فضله أن يتصدَّقوا، ولكنهم لما أعطاهم أخلفوا العهد، فزادهم الله نفاقاً إلى نفاقهم.

---

(١) أخرجه أبوداود في «سننه» برقم (٤٩٩٥)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٣٣) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

. . . .

والحاصل أن المؤمن إذا وعد الله يجب عليه أن يصدق، وإذا وعد الناس فهذا محل خلاف، فمنهم من يقول: يجب، ومنهم من يقول: يُستحب، لأنه من جنس التصدق وليس بواجب، ولكن الصحيح الوجوب، لأنَّ الله تعالى توعَّد هؤلاء الذين يُخلفون في وعودهم، والوعيدُ لا يكون إلّا على تَرْكِ واجبٍ.

وقول الله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية [التوبة: ٧٧].

عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذبَ، وإذا وَعَدَ أَخلفَ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ» أخرجاه[1].

ولهما[2] عن ابن عُمرَ مرفوعاً: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهنَّ كانت خَصْلةٌ مِنَ النِّفاقِ حتّى يَدَعها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَرَ». [٧٤]

---

[٧٤] قوله تعالى: ﴿بِما﴾ «الباء» سببيَّة و«ما» مصدرية، أي: بإخلافهم الوعد وبكذبهم، فيكون المعنى: أنَّ كذبهم وإخلافهم الوعد أعقبهم نفاقاً إلى نفاقهم.

وقوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمِن خان».

النفاق يقسم إلى قسمين:

---

(١) البخاري (٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩) (١٠٧).

(٢) البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

....

الأول: النِّفاق الأكبر، وهو الاعتقادي: وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويُبطن ما يُناقض ذلك كله، أو بعضه، فهذا في الدرك الأسفل من النار، لأنه مخرج من المِلَّة. وهذا لا يجتمع مع الإيمان.

الثاني: النِّفاق الأصغر، وهو العملي: وهو أن يُظهر الإنسان علانية صالحة ويُبطن ما يخالف ذلك، كالإتيان بالأمور التي ذكرها ﷺ في الحديث، وهذا لا يخرج من المِلَّة ولكنه يُنقِص الإيمان.

وقوله: «إذا اؤتُمِنَ خان» هذه الخصلة من خصال النفاق العملي: وهي أن يخون المرء الأمانة، والأمانة مفهومها واسع، فليست الأمانة في الأموال فحسب، فالمحافظة على العبادات أمانة، والصِّدق في الحديث أمانة، بل ويدخل في ذلك الغُسل من الجنابة، وكذلك العمل الوظيفي أمانة، فإذا لم يقم الموظف بعمله كما ينبغي وضيَّع الوقت، وعطَّل أعمال الناس فقد خان الأمانة، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائْتَمَنك ولا تَخُن مَنْ خانَك»[1]. فهذه علامات النفاق، فمن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

كان فيه شيء منها كان فيها خصلة من النفاق حتى يَدَعَها.

وقوله ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر» هذا كالحديث الذي مرَّ سابقاً، ومعنى قوله «كان منافقاً خالصاً» يعني: النفاق العملي لا الاعتقادي، فلقد عرفنا أنَّ من خصال النفاق خيانة الأمانة، والكذب، وأما قوله ﷺ: «إذا عاهد غدر» المقصود نَقَضَ العهد، كالعهد مع وليِّ الأمر، فإذا ما بايعه فلا يجوز له أن ينقض البيعة، أو عاهد أحداً من الناس، أو حتى مع المخالفين لنا في الملَّة، فلا يجوز للمسلمين إذا ارتبطوا بعهد مع الكفار أن ينقضوا العهد ابتداءً، إلا إذا هم بدؤوا بالنقض، وإذا خِيْفَ منهم خيانة فلا يجوز نقض العهد إلّا بعد إعلامهم بذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فانظر إلى عظمة هذا الدين في حفظ العهود حتى مع أعداء الله، فالذي لا يفي بالعهد فيه خصلة من خصال النفاق حتى يَدَعَها.

وقوله ﷺ: «إذا خاصم فجر» أي: مال عن الحق وقال الباطل والكذب، كأن يُخاصم عند القاضي فيفجر، والفجور في الخصومة

....

على نوعين: أحدهما: أن يدَّعي ما ليس له، والثاني: أن ينكر ما يجب عليه. فتجده يأتي ببيِّناتِ زُورٍ، ويحلف أيماناً مغلَّظة كذباً من أجل أن يكسب القضية، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ هو فيها فاجرٌ ليقتطع بها مالَ امرئٍ مسلمٍ لَقِيَ الله وهو عليه غضبانُ»[1].

فالفجور في الخصومة حرام، كثيراً كان أو قليلاً، والأصل في المؤمن أن يصدق في قوله، سواء كان الحق له أو عليه، فلو أخذ حقَّ أخيه في الدنيا فإنَّه سيؤدِّيه يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وستكون هناك الاقتصاص من الحسنات لا الدراهم والدنانير.

والقاضي حينما يقضي فإنَّه لا يُحلُّ حراماً ولا يُحرِّمُ حلالاً، وإنما يقضي بنحو ما يسمع، وبما توفر له من الأدلة والقرائن والشهادات، فلو أنَّ القاضي قضى لك بحقِّ أخيك وأنت تعلم، فإنَّ قضاءه لا يُحِلُّ لك ذلك، وإنما تكون قد أخذت قطعة من نار، كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إنكم تختصمون إليَّ ولعلَّ بعضكم أَلْحَنُ بحُجَّتِهِ من بعض، فمن قَضيتُ له بحقِّ أخيه شيئاً بقوله، فإنَّما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٦ و٢٦٦٧)، ومسلم (١٣٨) (٢٢١) بنحوه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

باب ما جاء في زعموا

وقول الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

عن أبي مسعود أو حذيفة رضي الله عنهما مرفوعاً: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَموا» رواه أبوداود بسند صحيح[1]. [٧٥]

---

[٧٥] تقدم في شرح الأحاديث السابقة أن من جملة الكبائر الكذب، والدليل على ذلك أنَّ الله رتَّب عليه اللعنة، فقال تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وأخبر أن الكاذب على الله من أظلم الظالمين فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، ويدخل في هذا السياق الكذب على الرسول ﷺ، قال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقعدَهُ مِنَ النَّار، إنَّ كَذِباً عَلَيَّ، ليسَ ككذبٍ على أحدٍ»[2]، ويدخل في هذا أيضاً الكذب

---

(١) أبوداود (٤٩٧٢)، وأحمد (٢٣٤٠٣)، وأبو مسعود هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة، وحذيفة هو ابن اليمان، وكنيته أبو عبد الله.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

....

على الناس، وهو من علامات النفاق، فقد ذكر ﷺ علامات النفاق، فقال: «آيَةُ الـمُنافِقِ ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أؤتُمِنَ خَانَ»(١) والله ـ جلَّ وعلا ـ أخبر أن مأوى المنافقين ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[التوبة: ٩٥] أي: بدعواهم الإيمان، والكذب من كبائر الذنوب، ومن أنواع الكذب: الاعتماد على الزعم، أي: يتكلم الكلام دون تثبت ثم يقول: هكذا يزعم فلان، فالأصل في المسلم أن يتثبَّت، ولا يتكلم بشيء أو يخبر به قبل أن يتثبت من صحته حتى يبرأ من الكذب.

وقوله: «بئسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَموا» المقصود بالزعم: الظن، أو هو قريب منه، ومن أسوأ عادات المرء أن يتخذ لفظة «زعموا» مَرْكَباً إلى مقاصده، فيتحدث عن أمرٍ تقليداً من غير تثبت فيخطئ، والله تعالى يقول: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] فقد وردت هذه اللفظة في معرض الذَّم لهؤلاء القوم المنافقين، فعلى الإنسان أن يتثبت قبل أن ينقل الأخبار.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولمسلم(١) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «كَفَى بالْـمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحِدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ». [٧٦]

---

[٧٦] هذا كالحديث الذي قبله جاء في سياق النهي عن القول دون تثبت، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سَمِعَ» وذلك أنَّ الذي يُحدِّث بكل ما سَمِع مع أنه يَسمعُ الصِّدق والكذب، فالتحديث بكل ما سمع مفسدة للصدق، ولو لم يكن للرجل كذب إلّا تُحدثّه بكل ما سمع من غير مبالاة لكفاه من جهة الكذب، لأن ما يسمعه ليس بصدقٍ كله، فلا يتحدث إلّا بما تيقن من صِدْقِه.

والواقع أن نقل الكلام هكذا على عواهنه دون تثبت يوقع الناس في خصومات لا تُحمَد عقباها، ومن جهة أخرى فربما وقع هو في المحذور.

قال الشاعر:

لم تُعْطَ مَع أذنيكَ نُطقاً واحداً   إلا لِتَسمَعَ ضِعفَ ما تتكلمُ

يشير الشاعر هنا أنَّ الإنسان لا يملك إلّا لساناً واحداً، في حين أنَّه يملك أذنين اثنتين ليسمع ضعف ما يتكلم، ولهذا عليه أن يتثبت

---

(١) في «صحيحه» برقم (٥).

....

قبل نقل الحديث، وفي هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النساء: ٩٤] فالإنسان يبقى في عافية وخيرٍ ما لم يتكلَّم، فإذا تكلَّم فقد أَلْزَمَ نفسه بما قال، وفي الحديث: «مَنْ كان يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمِت»[1]، فإذا سمعت كلاماً لا خير فيه فمن الحكمة أن تغفل عنه، وإن كان خيراً نقلته ونشرته.

ومن المعلوم أنَّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين قد توعدهم الله بالعذاب العظيم حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النور: ١٩]، وهذه الآية نزلت في حادثة الإفك، بحيث وقع البعض في عِرض أم المؤمنين عائشة بنت الصدِّيق، فكان الذين تحدثوا في حادثة الإفك يُحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا[2]، وقد توعَّدهم الله بالعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر حديث الإفك عند البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

....

ومن هنا نقول: إنه لو ثبت لديك حصول شيء غير محبب لواحد من المسلمين فعليك أن تستر عليه، امتثالاً لقول النبي ﷺ: «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»(١) ثم عليك أن تنصحه فيما بينك وبينه، فإنَّ «الدين النصيحة»(٢) كما قال ﷺ، هذا هو العلاج، أما الكلام بمجرد الظن والوقوع في أعراض الناسِ ولا سيما ولاة الأمور والعلماء في المجالس فهذا مـمّا لا يجوز، وعلى المسلم أن يكفَّ لِسانه إلا عن شيءٍ فيه مصلحة أو إصلاح وخير، فقد بَيَّن لنا الرسول ﷺ الضابط في القول وعَدَمِهِ حيث قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٣).

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب ما جاء في الكذب والمزح ونحوه

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها مرفوعاً: «لَيْسَ الكَذّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فيقولُ خَيْراً أَوْ يَنْمي خَيْراً» أخرجاه[١].

ولمسلم[٢]: «قالت: ولَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّص في شَيءٍ مما يَقولُ النَّاس، إلّا في ثلاثٍ: في الحَرْبِ، والإصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرأَتَهُ، وحَدِيثُ الـمَرْأَةِ زَوْجَها». [٧٧]

---

[٧٧] من أشد أنواع الكذب الاستهزاءُ بالناس واحتقارهم، وعدم إنزالهم منازلهم، لأن الأصل في المسلم أن يكون جاداً فيما يقول، ولا يمزح بتسفيهه الآخرين وانتقاصهم، وفي قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سورة البقرة مزيدُ بيانٍ، وذلك أن رجلاً من بني إسرائيل قُتل، ولم يُعرف قاتله، فَحدَثَ بسبب ذلك مشكلة،

---

(١) البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) في «صحيحه» (٢٦٠٥).

....

فأهله يطالبون بدمه، ولكنهم لا يعرفون القاتل، فأمر الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يكشف لهم الأمر بمعجزة، فدعاهم عليه السلام لأنْ يذبحوا بقرة، ثمَّ يأخذوا قطعة منها، ويضربوا بها المقتولَ، فإذا ضربوه قام بإذن الله، وأخبرهم مَن القاتل، فلما أمرهم عليه السلام بما أمره الله ـ عز وجل ـ قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ يعني: ما علاقة ذبح البقرة بقصة القتل؟ وهذا من تنطعات بني إسرائيل، وتطاولهم على أنبياء الله، يقولون هذا الكلام لرسول الله موسى عليه السلام، إلّا أنَّ موسى قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فالاستهزاء بالناس من صفات الجاهلين وليس من صفات الأنبياء، ولا المؤمنين، ثم إنهم شدّدوا على أنفسهم فطلبوا صفة البقرة، ولو أنهم عَمَدوا إلى أيّ بقرة فذبحوها لأجزأهم ذلك، ولكنَّهم شدَّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، وقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ هذا فعلُ أمر، حيث أمرهم أن ينصاعوا لما طلبه الله منهم ويَدَعُوا التنطعات، ولكنهم قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ وهذا أشد من الأول، لما فُصّل لهم النوع، انتقلوا إلى ما هو أشد وهو

....

اللون، فضيقوا فرص إيجاد البقرة بهذه المواصفات عندما سألوا عن اللون، فقال لهم كما قصَّ الله علينا: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ وهذا تشديد آخر عليهم، ولم يعثروا عليها بهذا الوصف، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ قال المفسرون: لو لم يقولوا: «إن شاء الله» لما توصلوا إلى شيء، ولما اهتدوا إليها أبداً، ولكن قالوا: «إن شاء الله»، مما سهّل الأمر عليهم، قال لهم موسى كما ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا عيب فيها، وليس فيها لونٌ آخر ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا من تهكمات بني إسرائيل، يعني: أن موسى لم يأتِ بالحق إلّا حينذاك؟! ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ثم ذكر تعالى أنه قال لهم موسى كما أمره تعالى بذلك: ﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ أي: خذوا قطعة منها فاضربوا بها القتيل ففعلوا فعادت إليه الروح وقال: فلان قتلني، يقال: إنه كان ابن عمه، وكان القتيل لديه مال، فأراد القاتل أن يتعجَّل أخذ المال بالميراث فقتله، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا شاهد على إحياء الله الموتى فقد رأوه في الدنيا، وهذا من علامات ودلائل

. . . .

كمال قدرته تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ فهم مع مشاهدتهم هذه الآية العظيمة قست قلوبهم، وهذا من جفاء بني إسرائيل، وخبث طوياتهم، وهم لا يزالون بهذه الصفات، وهذا من سفههم وجهلهم وتعنُّتهم والعياذ بالله.

والشاهد في هذه الآيات قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فدلَّ هذا على أنه لا يجوز اتخاذ الناس هزواً وسخرية.

وقوله ﷺ: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس» راوية هذا الحديث هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كان أبوها كافراً، شديد العداوة للنبيِّ ﷺ، وقُتل بعد وقعة بدر، وهذه البنت منَّ الله عليها بالإسلام، فأسلمت وحسن إسلامها وهاجرت، وصارت صحابية جليلة، تروي هذا الحديث الذي فيه أنه استثنى ﷺ من الكذب ما كان فيه إصلاح ذات البين، وذكرت مسائل أخرى يُرخَّص فيها بالكذب للمصلحة: الأولى: الإصلاح بين الناس، والثانية: في الحرب، فيحق للقائد أن يورِّي في الكلام للخدعة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلَّا ورَّى بغيرها»[1] وهذا من السياسة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٢٧٦٩) (٥٤) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

الحربية، فيجوز الكذب في الحرب على العدو لمصلحة المسلمين، وكذلك يجوز الكذب على الزوجة من أجل دوام العشرة كأنْ يقول الرجل لزوجته بأنه يُحبها، ويُريد أن يشتري لها أو يَصنع لها أمراً وهو لا يريد أن يفعل، إما لقِلة ذات اليَدِ، أو لعدم إمكانية تحقيق ذلك، وهي تقول له بأنها تحبه، وأنه أحبُّ الناس إليها، فإنَّ هذا لا بأس به، ويكون من أسباب دوام العشرة وبقاء المحبة.

فدلَّ الحديث على أن الكذب محرَّم إلّا في هذه الخصال الثلاث لرجحان المصلحة وقد مضى ذكر اثنتين، والثالثة أن تصلح بين اثنين متخاصمين أو جماعة، فتسعى بينهم بالإصلاح، وتستعمل الكذب للتقريب بينهما حتى يحصل الصلح، هذا من الكذب المباح.

هذا الأصل في المسلم أن يسعى لإطفاء نار العداوة بين إخوانه، فإن «فساد ذات البَيْن هو الحالقة» كما ورد في الحديث[1]، وللأسف تجد بعض الناس ـ بَدَل من أن يُصلحوا بين المتصارعين ـ يكونون عوناً للشيطان على أخيهم، لأنَّ الشيطان هذا دأبه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ٩١]، وقد

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

....

يقع هذا كثيراً ولا سيما بين طلبة العلم والعلماء، فينتج عن ذلك إشعال نار الفتنة وتقسيم الناس إلى أحزاب، كل حزب يسبُّ الآخر، وبالتالي وتحصل الفرقة بين المسلمين، وتشتعل العداوة بينهم، فالفرقة مرتع خصب للشيطان.

وعن عبد الله بن عامر ﷺ قال: دَعَتْني أُمِّي يَوْماً ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في بَيْتِنا، فقالت: ها تعالَ أُعطِكَ، فقال رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أنْ تُعطِيهِ؟» قالت: أُعْطِيهِ تَمراً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَمَا إنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ، لكُتِبَتْ عليكِ كَذْبةٌ» رواه أحمد وأبو داود[1].

ولأحمد[2] عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ قال لِصَبيٍّ: هَاكَ تعالَ أُعطِكَ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فهي كَذْبَةٌ».

وله[3] عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قلت: يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيءٍ تَشتَهيهِ: لا أَشتَهيهِ، أَيُعَدُّ ذلك كَذِباً؟ قال: «نعم، إنَّ الكَذِبَ يُكْتَبُ كَذِباً حَتَّى تُكْتَبَ الكُذَيْبَةُ كُذَيْبَةً». [٧٨]

---

[٧٨] أما حديث عبد الله بن عامر، وفيه: «قال: دعتني أمي يوماً..» إلخ، هذا شيءٌ تَساهل فيه الناس، وهو الكذب على الصغار، والكذب

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٠٢)، وأبوداود (٤٩٩١).

(٢) في «المسند» برقم (٩٨٣٦).

(٣) في «المسند» برقم (٢٧٤٧١) من حديث أسماء بنت عميس، ولعل الصواب أنه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، لأنَّ الراوي عن أسماء هو مجاهد بن جبر، لم يذكروا له سماعاً من أسماء بنت عميس، وإنما يروى عن أسماء بنت يزيد. والله أعلم.

....

لا يجوز بحالٍ من الأحوال، فهذه المرأة نادت ابنها ـ وكان صغيراً ـ فقالت له: تَعالَ أُعطك؛ تطمِّعه في المجيء، فالنبي ﷺ قال لها: «وما أردتِ أن تُعطيه؟» قالت: أعطيه تمراً، قال: «أما إنك لو لم تعطيه شيئاً لكتبت عليك كذبة»، فدلَّ ذلك على أنه لا يجوز الكذب على الصغار ولا على الكبار، لأنَّ هذا من سوء التربية، لأنَّ التعليم إنَّما يكون بالقدوة، فإن رآك الصغير تكذب فإنك تكون قد ربَّيته على الكذب في حقيقةِ الأمر، وإن لم تُلقِّنه ذلك تلقيناً، فيستسيغ الكذب، ويُربّى عليه، وهذا يشمل جميع المربِّينَ، سواء كانوا آباء أو معلِّمين، فَعلى المربي أن يتجنب الكذب على الأطفال.

وفي حديث أسماء ما يؤكد على عظيم تحريم الكذب، حتى إنه ﷺ عَدَّ قول القائل لِطعامٍ يشتهيه: لا أشْتهِيهِ، كذباً، بل ويُكتب كذَّاباً في ديوان الحفظة، رغم تهوين الناس لهذا الأمر، فلا ينبغي أن يُهوَّن شأن الكذب، وإن دَقَّ، أو كما يقول البعض: كذبة بيضاء، فالكذب ليس فيه أبيض بل كله أسود.

وللترمذي[١] وحسّنه مرفوعاً: «وَيلٌ للَّذِي يُحدِّث بالحديثِ ليُضْحِكَ بهِ القومَ فيَكْذِبُ، ويلٌ له، ويلٌ له». [٧٩]

---

[٧٩] هذا نوع آخر من أنواع الكذب يقع فيه كثير من الناس المتفاكهين، لأجل أن يُضْحِكوا الناسَ، ولا سيّما في التمثيليات والمسرحيات التي كثرت الآن، وهذا من الكذب والعياذ بالله، فيخترعون الكذب من أجل إضحاك الناس، فتراهم يقولون شيئاً لم يحدث، مع أنَّ الكذب لا يجوز بأيِّ حال من الأحوال، وديننا دين صدق ـ ولله الحمد ـ وليس دين هزل وكذب، أما المزح الذي لا بأس به، فهو ما كان من جنس مَزْح الرسول ﷺ، الذي هو من باب التورية، كأنَّه يقول شيئاً على خلاف ظاهره وهو حقّ، كما ورد في بعض الأحاديث: أنه ﷺ جاءته امرأة كبيرة في السِّن، فقالت له ﷺ: «يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني من أهل الجنة، فقال ﷺ: «إنَّ الجنة لا تدخلها عجوز» فأصابها الهمُّ والحزن، فقال لها: «أما سمعت الله عزَّ وجل يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾»[٢]، فالمسلمة الكبيرة تُعاد يوم القيامة شابة،

---

(١) في «جامعه» برقم (٢٣١٥)، وأخرجه أحمد (٢٠٠٤٦) وأبوداود (٤٩٩٠) من حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده.

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٤١) من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن البصري مرسلاً.

. . . .

وتدخل الجنة شابة، فالرسول ﷺ مزح معها ولم يقل إلّا حقاً، ولم يقل كذباً، ومرَّة جاءه رجل يطلب منه أن يحمله على بعير، فقال له النبي ﷺ: «إنّا حاملوك على ولد ناقة» ففهم الرجل أنه يريد أن يحمله على بعير صغير، قال: وماذا أصنع بولد الناقة؟ قال ﷺ: «وهل تلد الإبلَ إلّا النّوقُ»[1]، فهذا مزح ولكنه حق، وليس من الكذب المذموم.

(١) أخرجه أبوداود (٤٩٩٨) والترمذي (١٩٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

وروى الإمام أحمد عن أبي داود، عن شعبة، عن قيس ابن مسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدث عن عبد الله يقول: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِن بَيْتِهِ وَمَعه دِيْنُه، فيَلْقى الرَّجُلَ ولَه إليهِ حاجةٌ، فيقول له: أَنْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، يُثْني عَلَيْهِ لَعلَّهُ أَنْ يَقْضِي مِنْ حَاجتِه شَيْئاً، فَيَسْخَطُ اللهُ عَلَيْه، فَيَرْجِعُ وما مَعَهُ مِنْ دِيْنِهِ شَيْءٌ»[1]. [٨٠]

---

[٨٠] التملُّق من أشد أنواع الكذب ـ والعياذ بالله ـ وهو: مدح الإنسان بما ليس فيه، ومدحه في وجهه، وهذا لا يجوز، لأنك تمدحه في وجهه، وتذُمُّه في قلبك، وهو من أقبح أنواع الكذب، فالأحسن أن تسكت ولا تكذب، هذا من ناحية.

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب «العلل ومعرفة الرجال» (١٨١٦)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٨٢)، وهناد بن السري في «الزهد» (١١٥٣) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

ومن ناحية أخرى فإنَّ مدح الإنسان في وجهه قد يُخجِلُه ويُحرجه، أو يحمله ذلك على الإعجاب بنفسه، فالرسول ﷺ يقول: إذا رَأَيْتُم المدَّاحينَ فاحْثُوا في وُجوهِهم التُّراب»[(١)]، ولما مدح رجل رجلاً آخر عند النبي ﷺ، قال: «ويحك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبَك»[(٢)]، ومن هنا لا يجوز التملق، فالأَوْلى بالمرء أن يقول الحق أو يسكت، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يمدح أخاه في وجهه بما فيه من الخصال الطيبة، والصفات الحميدة، ومكارم الأخلاق لئلا يخجله أو يدخل العجب على نفسه فيتكبر، أما مدح أهل الكرم والجود بما فيهم من الخصال الطيبة فلا بأس به، لأن هذا من الاعتراف بفضلهم من غير تملّق، فقد كان الشعراء يمدحون النبي ﷺ بشعرهم وقصائدهم، وقد أقرَّهم ﷺ على ذلك، وقد كانوا يمدحون ذوي الكرم والشجاعة، ولم يحصل من ذلك إنكار عليهم، لأن هذا من الحث على فعل الخير والتمسك بالخصال الطيبة ونشر المكارم.

وأما قول الله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ جاء قبله قوله جل جلاله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾[الحج: ٣٠] الرجس:

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) (٦٩) من حديث المقداد بن الأسود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة ﷺ.

....

النجس، والأوثان كل ما عبد من دون الله، وهي نجسة نجاسة معنوية، وليست نجاسة حِسيَّة؛ لأنها مصنوعة من الحجارة والخشب. ومادّتها طاهرة، إنما نجاستها معنويّة، وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، «مِنْ» تبيينية وليست تبعيضيّة، فكلها رجس.

والشاهد من ذلك كله هو قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾، فقول الزور: هو الكذب، والزور مأخوذ إما من التَّزوير، وهو: التحسين والتزيين، وإما من الإزورار، وهو: الانحراف عن الاعتدال، وقول الزور يشمل الشرك بالله عزَّ وجل، وكذلك شهادة الزور عند القاضي، ويشمل أيضاً الكلام المنمّق الذي ليس له حقيقة، وإنما يُزوّر ويُنمق ويُحسّن، وليس له حقيقة، كل ذلك من أجل خداع الناس، فالرسول ﷺ يقول: «إنَّ من البيان لسحراً»[1]، فالـمُزور يَقلِبُ الحقائق على الناس ببلاغته، فإذا استعمل البلاغة في الخير فهذا أمر طيب، أما إذا استعملها في الشر، فهذا أمر قبيح، فالبلاغة سلاح ذو حدين، يجب استعماله في الخير والدعوة إلى الله، لا أن يُستغل في الشر.

أما قوله ﷺ: «إنَّ الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه». هذا من التملّق كما سبق، وهو أن تلقى الرجلَ لك إليه حاجة، فتمدحه بما

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

....

ليس فيه، فتكون بذلك قد كذبت، والكذب يضر بالدين والإيمان، ولهذا قال ﷺ: «إنَّ الرَّجل ليخرج من بيته ومعه دينه» أي: معه إيمانه، فيخلعه عند هذا الرجل بالتملّق، والواجب على المسلم أن يتجنّب هذه الخُصلة، فالرسول ﷺ قال: «إنَّ الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»[1]، وقد خصَّ ﷺ البقرة من بين البهائم لأنَّها تأخذ النبات وتحتشُّه بلسانها، وكذلك البليغ المتشدِّق يدير لسانه وفمه حال التكلم، كما تفعل البقرة بلسانها.

---

(١) أخرجه أبوداود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

باب ما جاء في النهي عن كون الإنسان مداحاً

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

ولمسلم[١] عن المقداد ﷺ أن رجلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عثمانَ، فجَثى الـمِقْداد على رُكبَتَيْهِ فجَعَلَ يَحْثُو في وَجهِه التُّرابَ، فقال له عُثمانُ ﷺ: ما شَأْنُكَ؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رَأَيْتُم الـمَدَّاحينَ فَاحْثُوا في وُجُوههم التُّراب».

وفي «المسند»[٢] عن معاوية ﷺ مرفوعاً: «إيَّاكُمْ والـمَدْحَ، فإنَّهُ الذَّبْح». [٨١]

---

[٨١] التزكية للنفس على قسمين: تزكية مذمومة وهي المدح، وتزكية محمودة: وهي تزكية النفس بالطاعات والأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، أي: يزكّون أنفسهم بالطاعات، أما تزكية النفس بالمدح، فإنها لا تجوز، لأنك لا تعلم هل قَبِلَ الله منك أم لا؟! وهو

---

(١) في «صحيحه» برقم (٣٠٠٢).

(٢) برقم (١٦٩٠٣).

. . . .

يَحملُ على التكبُّر والعُجب، فلا تمدح نفسك وإنما زَكِّ نفسك بالطاعات والأخلاق.

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩] فقوله: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: أي: يمدحونها ويُبَرِّئُونها من الذنوب، وهؤلاء ذمّهم الله عزَّ وجل، ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فالله تعالى يعلم الأتقياء الطيبين ولو لم يمدحوا أنفسهم، أما إذا مدحوا أنفسهم وزكّوها، يريدون بذلك الرِّفعة فهذا لا يجوز؛ لأنَّ هذا بيد الله سبحانه، فإنَّ الله يزكي من يشاء. بأن يوفقه للأعمال الصالحة.

أما حديث مسلم عن المقداد، وفيه قال النبي ﷺ: «فاحثوا في وجوههم التراب»، ذكرنا فيما مضى أن المدح في الوجه فيه محاذير، فهو إما أن يُدخل في قلب الـمَمْدُوح العُجب فيتكبر، أو أنه قد يُخْجِل الـمَمْدوح، أو لا يكون المديح في مكانه فيكون كذباً، وفي هذا الحديث أمر النبي ﷺ أن يُحثى في وجوه الـمَدَّاحين التراب، والمقصود بذلك الذين صِناعتُهم الثناء على الناس، ومعنى «فاحثوا في وجوههم التراب» أي: ازجروهم لكي يرتدعوا عن المدح، لأنه سَبَبٌ في الغرور والتكبر، أو إنَّ المقصود أن يُخَيَّب الـمادِحُ ولا يُعطي

....

ما قصد، أو معناه: أعطوه قليلاً، وخَصَّ: التراب، لِقلَّة قيمته وخِسته، فكأنه أخذ أُجرة مَدْحه تراباً، وهذا الحديث فيه التحذير من المدح في الوجه.

وفي حديث معاوية ﷺ قال النبي ﷺ عن المدح: «فإنه الذَّبح» ذلك لما يؤثر في دين المادِحِ والـمَمْدوحِ، وسماه ذبحاً لأنه يُميت القلب فيخرج من دينه، ولأنَّ فيه كذلك ذبحاً للـمَمْدُوح، فإنه يَغُرُّه بأحواله ويُغْريه بالعُجب، وسمي هذا المدح بالذبح لأنه يُفتِّر عن العمل، ويورث العجب، نسأل الله العافية.

باب ما يمحق الكذب من البركة

عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «البَيِّعان بالخِيار مَا لم يتفرَّقا، فإن صَدَقا وبَيَّنا بورك لهما في بَيْعهما، وإن كَتما وكَذَبا مُحِقت بركةُ بَيْعهما»(١). [٨٢]

---

[٨٢] تقدَّم في الأبواب السابقة التحذير من أنواع الكذب، وفي هذا الباب بيان ما يترتب على الكذب من العواقب الوخيمة، ومن ذلك أنه يمحق البركة في البيع والشراء، فإذا دخل الكذب في البيع والشراء، فإنه يمحق بركتهما، ولا شكَّ أنَّ مَقْصُودَ الناس من البيع والشراء هو استثمار الأموال وتنميتُها، والأموال إنما تنمو بالبركة من الله سبحانه وتعالى، وليست العبرةُ بالكثرة فقد تكون كثيرة العدد، ولكنها قليلةُ البركة، وقد تكون قليلة العدد، ولكنها كثيرة النفع بما وضعه الله فيها من البركة، فتنمية المال إنما تكون بالصدق في المعاملات وليست في الكذب.

والواجب التنبه لهذا، فقد يكذب بعض الناس ليروِّجَ سلعته، ويخدع المشتري ليربح، ويظنُّ أنه رَبِحَ، ولكن هذا في الحقيقة مَحْقٌ لِبركة مالِه، وكسب محرّم يَـجُرُّ له التَّعب والشقاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٢)، ومسلم (١٥٣٢).

....

وفي حديث حكيم بن حزام ﷺ من الفوائد: أنَّ الصدق في المعاملة سببٌ للبركة وطيب الكسب.

وقوله ﷺ: «البيعان» أي: البائع والمشتري «بالخيار» أي: خِيار المجلس بين الإمضاء أو الفسخ ما داما في المجلس. «ما لم يتفرقا» أي بأبدانهما من المجلس، فإذا تفرقا لزم البيع، «فإن صدقا في بيعهما»، أي: صدق البائع في وَصْف السلعة ولم يكتم عيوبها، ولا كذب في بيان سِعرها، وصدق المشتري في الشراء وأداء الثمن، فإن الله يبارك لهما في بيعهما، ويجعل فيه البركة والنمو جزاءً لصدقهما، وإن كذبا، أو خانا في بيعهما وشرائهما، فإنَّ الله لا يخفى عليه شيء، فهو مطلّع عليهما، فإنه يمحق بركة بيعهما، ويُصبح مالاً ممحوق البركة، وإذا مُحقت بركةُ المال، لم يَنتَفع به صاحبه، فإن تصدَّق لا يُقبَل منه، وإن أكل منه أكل حراماً، وإن تركه للورثة حُوسِب عليه يوم القيامة، فصارَ زادَه إلى النار كما في الحديث.

وفي هذا الحديث التحذير من الكذب في المعاملات، والحث على الصدق، وهذا ممّا يجب أن يُبيَّنَ للتجار وأصحاب المحلات والمعارض، فلا يكون هذا الحديث مَخْفيّاً في الكتب، أو في صدور طلبة العلم، بل يجب على الدعاة إلى الله أن يذهبوا إلى الأسواق،

....

والمجمَّعات التجارية، وأن يوضحوا للناس إرشادات الرسول ﷺ كي يكونوا على بيّنة، لكنَّ أغلب الدُّعاة يذهبون إلى المساجد أو المدارس ـ وهذا شيء طيب ـ ولكنهم يغفلون عن الأماكن الأخرى التي هي بحاجة إلى الدعوة إلى الله، فلقد كان علماء نجد إلى عهد قريب، ومنهم الشيخ محمد بن إبراهيم، رحمه الله ـ يعقدون دروساً في السوق، يتكلمون عن أحكام المعاملات وينصحون الناس، والآن اختفت هذه الخصلة الطيبة، ويجب أن تُحيا وتعاد، ويجب على الدعاة الذهاب إلى الأسواق والمجمّعات التجارية، لكي يرشدوا الناس فيما يحِلُّ ويحرم، وحتى تكون معاملاتهم نزيهة، وهكذا يؤدي العلماء ما أمرهم الله به من بيان للعلم، وعدم كتمانه.

وفي الحديث أيضاً فائدتان:

الأولى: ثبوت خيار المجلس، فإذا تعاقدا على البيع، فلكل واحد منهما الخيار، إن شاء أمضى وإن شاء فسخ قبل أن يقوم من المجلس.

والثانية: الأمر بالصدق في المعاملة، والنهي عن الكذب، فبعض التجار أو بعض أصحاب المحلات يعتبرون عدم بيان موصفات السلعة، وكتمان بعض عيوبها، واستخدام الكذب إنما هو من الحنكة

. . . .

في البيع والشراء، وهذا ليس صحيحاً، إنما هو من الغش والخديعة، وأمّا الذي يَصْدُق ويبيّن ولا يخدع، فإنهم يعتبرونه مغفّلاً، وأنه لا يُحسنُ الاتجار!!

باب من تحلّم ولم يَرَ شيئاً

روى البخاري[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَنْ تَحَلَّمَ بحُلْمٍ لم يَرَهُ كُلِّفَ أن يَعقِدَ بَيْنَ شعيرتَينِ، ولنْ يَفْعَل». [٨٣]

---

[٨٣] وهذا نوع آخر من أنواع الكذب وهو: الكذب في الرؤيا، فالرؤيا حق، فقد جاء في الحديث: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[2]، وفي الحديث: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح»[3].

فالرؤيا إمّا أن تكون رؤيا خير أو رؤيا شر، ولا يجوز للإنسان أن يكذب فيها، لأنه يُخبر عن الله تعالى، والرؤيا الحق للعبد من الله عزَّ وجل أَرَاهُ إيّاها، فإذا قال: رأيت كذا ولم يرَ شيئاً، فقد كذب على الله، واللهُ لم يُرِهِ شيئاً، فلهذا يُكلَّفُ يوم القيامة عقوبة له بأن يعمل شيئاً مستحيلاً، وهو العقد بين حبّتي شعير، وهذا أمر متعذِّر لا

---

(١) في «صحيحه» برقم (٧٠٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

يمكن فعله، ولكن يكلف ذلك عقوبة له أن يفعل ذلك المستحيل والعياذ بالله، وهذا فيه التحذير من الكذب في الرؤيا، وذلك بأن يقول: رأيت كذا وكذا في المنام، وهو كاذب.

ومعنى لفظ «تحلَّم» الذي جاء في الحديث أي: ادّعى الحلم وهو لم ير شئياً، فيكون كَذَبَ على الله عزَّ وجل، فيكلّف بالمستحيل عقوبةً له، مثل أن يكلَّف المصوِّر يوم القيامة أن ينفخ الرَّوح في كل صورة صوَّرها تعذيباً له وليس بنافخ كما قال ﷺ: «كُلِّف يوم القيامة أن يَنفخ فيها الروح وليس بنافخ»[1]، لأنَّ نفخ الروح إنما هو من أمر الله جلَّ وعلا، وكذلك العقد بين شعيرتين، فهذا من باب المستحيل.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠) من حديث النضر بن أنس بن مالك.

باب ذكر مرض القلب وموته

وقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١]. [٨٤]

---

[٨٤] قال ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهي القَلب»(١)، فالقلب هو ملك الأعضاء والجوارح، والأعضاء كلها كالخدم له، والسمع والبصر منافذ للقلب، فإمّا أن تُدخل إليه الخير، أو تُدخل إليه الشر، وكذلك المآكل والمشارب، فإنها تؤثر على القلوب، فإن كانت طيبة فإنها توثر تأثيراً طيباً، وإن كانت سيئة أثّرت تأثيراً سيئاً؛ ولهذا قال ﷺ: «إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن»(٢)، فالحلال يصفّي القلب ويطيِّبه، ويُعينه على مخافة الله عزَّ وجل، وعلى التفقُّه والتدبّر والتذكّر، فهو غذاء قيّم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) هذه قطعة من حديث النعمان بن بشير السابق.

أمّا إذا كان الغذاء من الحرام، أو من المشتَبه الذي لا يُعرف العوام أَهو من الحلال أم من الحرام، فإنه يؤثّر تأثيراً سيّئاً على القلب، وكذلك الكذب يؤثر على القلب، فإذا كذب نُكِت في القلب نكتة سوداء، ثم إذا كذب الثانية والثالثة، زادت هذه النكت حتى تغطي القلب كلّه، فيصبح أسودَ والعياذ بالله، والقلب يمرض ويفسد ويموت، وهذه كلها من آفات القلب، فالقلب يمرض مرضاً معنويّاً، كما يمرض مرضاً عضوياً، وهذا الثاني يعالج عند الأطباء، لكنَّ المرض المعنويّ يعالج بالتوبة والاستغفار وذكر الله عز وجل فلو عالجته عند أمْهَر الأطباء، فلن يتمكّن من تشخيصه؛ لأنه مرض ليس بعضوي، فعندها يزداد مرضه مرضاً، كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ حتى يموت القلب أو يقسو كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

فالقلب يقسو حينما يكون بعيداً من الله تعالى، وأبعد القلوب من الله تعالى القلب القاسي كما في الحديث[1]، فحينئذٍ يُختم عليه بخاتم،

(١) انظر «جامع الترمذي» الحديث (٢٤١١). وانظر باب ذكر قسوة القلب.

....

فلا ينفذ إليه الخير، وهذا في الكفار حيث قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وسبب هذا الختم أنهم لم يقبلوا الدّعوة التي جاءهم بها الرسول ﷺ فكذّبوه، فختم الله على قلوبهم، فصارت لا تقبل خيراً ولا يصل إليها النور بسبب رفضهم الحق، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فالقلب يُختم ويُطبع عليه، ويغطّى بالرَّان، والران: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] فالإثم والمعاصي، غطت على قلوبهم، ثم هناك ما هو أشدُّ من الرَّان، وهو أن يُقفل على هذه القلوب كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فهي مقفلة لا يَدخلها ولا يخرج منها شيء، هذه هي بعض أنواع الأمراض التي تعتري القلب، وبعضها أشدُّ من بعض، وسببها كسب العباد، فإذا أردت أن يَصلُح قلبك فعليك بالأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ

....

قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨]، وإذا أردت أن يظلَّ قلبك سليماً، فعليك بذكر الله والعبادة من صلاة وصيام وتلاوة القرآن، كل هذا يُصلحُ الله به القلب، وكذلك كُلْ من الحلال واترك الحرام إلى غير ذلك من الالتزام بالطاعات والابتعاد عن المنهيات، فصلاح القلب وفساده له أسباب يفعلها الإنسان، فعليك أن تأخذ بأسباب صلاح القلب، فإذا صلح القلب صَلَحَ الجسد كُلّه، واحذر من أسباب فساده، وقلّ من يتنبّه لهذا إلّا مَنْ رحم الله عز وجل، ولهذا على المسلم أن يهتم بقلبه، ويُبعد عنه ما يؤثر عليه سلبيّاً من أنواع المعاصي القولية والعملية، والعقائد الباطلة، والشكوك والأوهام، ويستمع إلى كلام الله ورسوله، ويحضر مجالس الذكر حتى يحيا قلبه.

أما الغفلة فإنها تختم على قلب صاحبها، قال ﷺ: «ليّنتهيَنَّ أقوامٌ عن وَدَعِهِمُ الجُمُعات أو ليختمنَّ الله على قلوبهم، ثم ليَكونُنَّ من الغافلين»[1]، والشاهد من هذا الحديث أنَّ تَرْكَ صلاة الجمعة متعمداً سببٌ للختم على القلب، فإن حياة القلوب تكون في عِبادة الله وطاعته.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٥) من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم.

....

وأما قول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فهذا حديث عن المنافقين، ولقد ذكر الله في مطلع سورة البقرة ثلاثة أصناف من الناس، وذكر موقفهم من القرآن والدعوة حيث قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء هم الصنف الأول، وهم الذين تقبّلوا القرآن ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون.

والصنف الثاني: الكفار الذين رفضوا القرآن ظاهراً وباطناً وقد ذكر تعالى وصفهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.

أما الصنف الثالث فهم المنافقون، وهؤلاء وإن أطاعوا في الظاهر، فقد عصوا في الباطن، كانوا قد أعلنوا الإسلام في الظاهر، وأبطنوا الكفر في قلوبهم لأجل المخادعة، ورفضوا الإيمان باطناً، وهذا هو النفاق الأكبر، وهو النفاق الاعتقادي الذي يجعل صاحبه في الدَّرْك الأسفل من النار، وهم أيضاً مندرجون تحت الصنف الذي قبله، أي: الكفار وفي بيان وصف المنافقين، قال تعالى:

....

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي: بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان وهم غير صادقين، فذكر الله ـ عز وجل ـ في المنافقين بضع عشرة آية في هذه السورة وذكر صفاتهم القبيحة، فدلَّ هذا على خطر النفاق ـ والعياذ بالله ـ وهو ناشئٌ عن مرض في القلب، وهذا المرض ليس بمرض عضوي، فربما كان صحيحَ القلب عضويّاً، لكنه مريضٌ معنويّاً، وهو مرض الشك والكفر والنفاق. وهذا أشد من المرض العضوي.

وأمّا الآية التي في سورة الأحزاب فقد ذكر الله قصة الأحزاب ومجرياتها، وما انتهت إليه من نصر المسلمين، بعدما أصابهم من الشدة والكرب، وكيف أنَّ الله فرَّج عنهم ونصرهم وردَّ عدوهم من غير قتال، ولم ينل عدوّهم خيراً، فالذي هزمهم هو الله ـ عزَّ وجل ـ حيث أرسلَ عليهم ملائكة وريحاً أكفأت قُدورهم، وقلعت خيامهم، وحَصَبَتهم بالحصباء مع ما أصابهم من الرعب، فأسرعوا إلى الرحيل والقفول إلى مكة خائبين، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ إذا أذنَبَ ذَنْباً كانت نُكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تابَ ونَزَعَ واستغفر، صُقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى تَعلُوَ قَلْبَهُ، فذلك الرَّانُ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح[1]. [٨٥]

[٨٥] من أسباب مرض القلب وقسوته وموته وإصابته بتلك الآفات القلبية: الذنوب، فإذا أذنبَ العبد نُكت في قلبه نُكتة سوداء، فأصل قلب المؤمن أبيض نظيف، لكنه إذا أذنب صاحبه نُكت فيه نكتة سوداء، فإن عاد إلى الذنب زادت هذه النكتة حتى تغطي قلبه، وذلك الرَّان الذي قال الله جلَّ وعلا فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، يعني: غطَّاها ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والسيئات، وليس هناك أحدٌ معصوم من الذنب، ولهذا قال ﷺ: «كلّ ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون»[2]، ليس هناك أحدٌ معصوم إلّا الرسل عليهم الصلاة والسلام بما عُصموا به، وإلّا فالكلُّ معرَّضٌ

(١) برقم (٣٣٣٤)، وأخرجه أحمد (٧٩٥٢)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والترمذي (٢٤٩٩)، من حديث أنس ﷺ.

....

للخطأ، فالمؤمن إذا تاب من الذنب تاب الله عليه، وذهبت هذه النكتة وعاد القلب أبيض كما كان، وهذا مما يَحثُّ المسلم على المبادرة إلى التوبة لأجل أن يُنقِّي قلبه مما أصابه.

والواجب على المسلم أن لا يتساهل في الذنوب، أو يقول في نفسه: الناس تعمل أكثر من هذا، وأنا سأتوب لاحقاً، ويعطي نفسه المهلة بالتسويف، لأنَّ الشيطان هو الذي سوَّل له هذا، فعلى المسلم أن لا يؤجل التوبة، بل يبادر بها، حتى ينظّف قلبه من هذه الآفة.

وفي الحديث بيان مدى خطر الذنوب على القلب، وفيه أن علاج ذلك بالتوبة إلى الله عزَّ وجل، فالمرض العضوي نعالجه عند الأطباء بالأدوية، بينما المرض المعنوي لا يحتاج إلى التردد على الأطباء وإنفاق الأموال، لأنَّ التوبة كلمة واحدة تقولها بصدق فتجلوا بها قلبك من هذه الآفات الخطيرة.

وقال الأعمش: أرانا مجاهدٌ بيده قال: كانوا يَرَونَ أنَّ القلب في مثل هذا ـ يعني الكَفَّ ـ فإذا أذنبَ العبد ذنباً ضُمَّ منه، وقال بإصبَعه الخنصر هكذا، فإذا أذنبَ ضُمَّ، وقال بإصبَعه الأخرى هكذا، فإذا أذنبَ ضُمَّ، وقال بإصبَعٍ آخرَ هكذا، حتى ضَمَّ أصابعَه كلَّها، قال: ثم يُطْبَع عليه بطابَع، وكانوا يَرَونَ أنَّ ذلك هو الرَّانُ. رواه ابن جرير(١)، عن أبي كريب عن وكيع عنه بنحوه.

وعن مجاهد أيضاً قال: الرَّانُ أيسَرُ من الطَّبْع، والطَّبعُ أيسَرُ من الإقفالِ(٢). [٨٦]

---

[٨٦] هذا يفسر الحديث الذي قبله، فكلما أذنبَ العبد انطبق إصبع من أصابع يده حتى تنطبق الخمسة أصابع، وهذا تمثيل أراهم إيّاه مجاهد لتقريب المعنى، وبيان كيفية ملء القلب بالنكت السوداء، نكتة بعد أخرى، فأَخذ يده وبسطها، وكلما أذنبَ ذنباً قبض إصبعاً

---

(١) في «تفسيره» ٣٠/ ٩٩.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ١/ ٢٥٩ (٣٠٣). وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١/ ١٧٤ عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة.

....

حتى تكاملت الخمسة أصابع، وكذلك الذنوب تتوارد على القلب، وكل ذنب يغطي جزءاً منه، كما يغطي الإصبع جزءاً من الكف، حتى إذا تكاملت الخمسة أصابع، غطت جميع الكف، فكذلك القلب عندما تكثر الذنوب، يتكامل غطاؤه بالنكت السوداء، فيكون هذا هو الران، ثم يطبع على القلب، ثم هناك ما هو أشد من ذلك، وهو الإقفال على هذا القلب، قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فهي مقفلة لا يدخلها شيء من نور الإيمان، ولا يخرج منها شيء من الخير، والعياذ بالله.

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجْرَدُ فيه مثلُ السِّراج يُزهِر، وقلبٌ أَغلَفُ مَربوطٌ بغلافِهِ، وقلبٌ مَنكوس، وقلبٌ مُصْفَحٌ، فأما القلب الأَجرد فقَلبُ المؤمن، فسِراجُه فيه نور، وأمّا القلبُ الأغلَفُ فَقلبُ الكافرِ، وأما القلبُ المَنْكوس فقلبُ المنافقِ الخالصِ، عَرَفَ الحقَّ ثم أَنكَر، وأمَّا القلبُ المُصْفَح فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، ومَثَلُ الإيمان فيه كمَثَل البَقْلةِ يُمِدُّها الماءُ الطيِّب، ومَثَلُ النِّفاقِ فيه كمَثَل القَرْحَةِ يَمِدُّها القَيْحُ والدمُ، فأيُّ المادَّتين غَلبتْ على الأخرى غَلبتْ عليه»(1). [٨٧]

---

[٨٧] القلوب أربعة أنواع: قلب أجردَ يعني: أبيض ليس فيه غلّ ولا غش، فهو على أصل الفطرة، فيه مثل السِّراج يزهر، أي: يتلألأ، وهذا الأصل في قلب المؤمن أن فيه نوراً من الله تعالى، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٢٩)، والطبراني في «الصغير» (١٠٧٥).

....

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا هو قلب المؤمن، وهذا مثال لنور الله في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الفتحة في الجدار ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأنَّ المصباح عندما يكون في كوَّة فإنَّ النور يجتمع، ويكون أقوى، أمّا إذا كان السراج في الفضاء تبدَّد نوره وتشتَّتَ، فنور الله في قلب المؤمن مثل المصباح في الكُوَّة، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: في قنديل من الزجاج الصافي. وهذا أصفى للنور أيضاً، فإذا كان المصباح داخل الزجاجة فإنَّه يجتمع النور في المشكاة وينتشر عبر الزجاجة صافياً، وقد وصف الله نور الزجاجة فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الضياء والصفاء والحسن، فهذا مَثَلُ نور الله في قلب المؤمن، وهو النور المخلوق، فالنور على قسمين: نور مخلوق، وهو نور الإيمان والشمس والقمر والنجوم، ونور آخر: وهو نور الله تعالى، ونور وجهه، ومن أسمائه تعالى النُّور، ووصفه نور، وكلامه نور.

أما النوع الثاني من القلوب: فهو الأغْلف المربوط بغلافه يمنع دخول الحق فيه، وهذا قلب الكافر، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، أي: عليها أغطية وغشاوة، فإنَّ

....

قلوبنا لا تسمعك يا محمد، قلوبنا مغلّفة فلا يصل إليها الكلام، وهم يكذبون، فالله ـ جلَّ وعلا ـ لم يغلِّف قلوبهم، ولكنَّهم هم الذين غَلَّفوها فلم يعد يدخل الخير فيها، ثم قال سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو أنهم استجابوا لرسول الله ﷺ لأكرمهم الله، ولكنهم هم الذين تسببوا بتغلفة قلوبهم وإقفالها.

والقلب الثالث: «قلب منكوس» وهو قلب المنافق، لأنه عرف الحق ثم رفضه، يعني: أنه انتكس، أي: انقلب فخرج منه ما دخل فيه من الخير، أما الكافر فهو أصلاً لم يُرِد الحق ولم يقبله، والنفاق نوعان:

النفاق الأصغر: وهو نفاق العمل وهو قد يقع من المؤمن، كالكذب، أو إخلاف الوعد، فيكون فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعها.

والنفاق الأكبر: هو النفاق الخالص، وليس فيه إيمان أصلاً، ويسمّى النفاق الاعتقادي.

والنوع الرابع: «قلب مُصْفَح»، وهذا هو القلب الذي اجتمع فيه الإيمان والنفاق الأصغر، أي: العملي، فكما أسلفنا فالنفاق قسمان: نفاق اعتقادي، ويكون قلب صاحبه منكوساً ـ والعياذ بالله

....

ـ أي: مقلوباً رأساً على عقب، ونفاق عملي، ويكون قلب صاحبه مُصْفَح، أي: مائل عن الحق، ويكون عند صاحبه بعض صفات الإيمان، وبعض صفات النفاق، ويكون حسب ما يغلب عليه، فإن غلب عليه الإيمان سَلِمَ، وإن غلب عليه النفاق... هلك، وهذا النوع من النفاق خطير؛ لأنَّ صاحبه وإن لم يكن عنده نفاقٌ اعتقادي، فإنه يُخشى عليه أن يُجرَّ إليه إن لم يتب من النفاق العملي، هذا ما خافه الرسول ﷺ على أمته كما في الحديث الذي رواه أبوسعيد الخدري ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بما هو أَخوفُ عليكم عندي من المسيح الدَّجال؟» قال: قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخَفيّ، أنْ يقوم الرجل يصلي فيُزين صلاته لما يرى من نَظَر رَجُلٍ»[1]، هذا نفاق خفي، ويقع من بعض المؤمنين، وهو خطير جدّاً، ولكن إذا غلب عليه الإيمان صار من أهل الإيمان، وإن غلب عليه النفاق صار من أهل النفاق، وفي هذا دليل، على أن النفاق العملي يَجرُّ إلى النفاق الاعتقادي.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وأحمد (١١٢٥٢).

باب ذكر الرضا بالمعصية

رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: هَلَكْتَ إنْ لَمْ يَعرَفْ قَلْبُكَ المَعرُوفَ ويُنكِرِ المُنكَرَ[١].

ولمسلم[٢] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلِي إلّا كان له مِنْ أُمَّتِهِ حَوارِيُّون وأَصْحابٌ، يأْخُذُون بِسُنَّتِهِ، ويَقتَدُونَ بأَمْرِهِ، ثُمَّ إنَّها تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يقولون ما لا يَفْعَلونَ، ويَفْعَلُون ما لا يُؤمَرُونَ، فَمَنْ جاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ومَنْ جاهَدَهُمْ بِلِسانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ومَنْ جاهَدَهُم بقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولَيْسَ وَرَاءَ ذلك مِنَ الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». [٨٨]

---

[٨٨] قول الإمام الشيخ رحمه الله-: «باب ذكر الرضا بالمعصية»، أي ما يجر من الشر والرضا: ضد الكراهية، فالرضا والكراهية متضادان، والرضا معناه: أن تقبلَ النفسُ الشيء ولا تنفر منه، والكراهية: هي نفور النفس من الشيء وعدم قبوله، والمعصية هي:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٥/ ١٧٤ (٣٨٧٣٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/ ١٣٥.

(٢) في «صحيحه» برقم (٥٠).

....

هي: المخالفة لأمر الله تعالى أو لأمر رسوله ﷺ، أو لأمر ولي أمر المسلمين إذا كان بغير معصية الله، قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، فالله أمر بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ وبطاعة ولاة أمور المسلمين، وقوله تعالى: ﴿ مِنكُمْ ﴾ أي: من المسلمين، فإذا كان ولي الأمر مسلماً، فإنه تجب طاعته في غير معصية الله ـ عزَّ وجل ـ، والمعصية هي المخالفة، والله ـ جل وعلا ـ يبغض المعاصي ويكرهها، قال تعالى في حقِّ نفسه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، والمؤمن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، فتكون محبة المؤمن وكراهيته تبعاً لمحبة الله وكراهيته، فهذا هو منهج المؤمن في الحب والبغض، فالله يكره العصاة والمخالفين، بسبب معاصيهم، ويحب التوابين والمتطهرين والمحسنين، فمحبة المؤمن وكراهيته تدوران مع محبة الله وكراهيته، وهذا من علامات الإيمان. فمن يرضى بالمعصية فإنَّه يحب ما يكره الله، ويرضى به، ويكون مخالفاً له ـ عزَّ وجل ـ فيكون هذا إما منافياً للإيمان أو مُنقصاً له، وهذا أصل عظيم، فإن محبة المؤمن وبغضه تكونان تبعاً لمحبة الله وبغضه، فقد جاء في الأثر عن بعض السلف: «لا يكون الإنسان مؤمناً حتى يكون ما يكرهه الله أمرَّ عليه

....

من الصَبْر»، وسواءً كانت المعصية منه أو من غيره، وسواءً رآها أو بلغته، فإنه يبغضها ولا يرضاها.

وقول ابن مسعود: «هَلكتَ إن لم يَعرف قلبك المعروف وينكر المنكر»، فمن لم يكن في قلبه إنكار المنكر، فهو ليس بمؤمن، قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]، وفي رواية «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2]، فمدار الحديث على القلب، فلا يستطيع أحد أن يمنعك من أن تنكر المنكر بقلبك وتكره المعصية بقلبك، لأنه ما من أحد له سيطرة على قلب الإنسان إلَّا الله عزّ وجلّ، وقد اعتُبر الإنكار بالقلب من التغيير؛ لأنه بداية للتغيير باللسان واليد، فإن من لم ينكر بقلبه، فإنه لن ينكر بلسانه ويده. والإنكار بالقلب لا يعجز عنه أحد، كلٌّ يستطيعه.

وأما الإنكار باليد واللسان فهو حسب الاستطاعة، فإنكار المنكر بالقلب كلٌّ يستطيعه، وعلامة إنكار المنكر بالقلب هو الابتعاد عن المنكر، أما إذا لم يبتعد عنه، فإنه يعتبر راضياً به، وإذا كان منكراً بقلبه

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

فإنه يبتعد عنه، ولا يجالس أهل المنكر ولا يحبهم، وعليه أن ينصحهم، ويدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجل ـ أما إذا كان يجالسهم ويقول: أنا أنكر في قلبي، فهذا ليس بصادق، فإنَّ بني إسرائيل كان ينهى بعضهم بعضاً عن المعصية، ثم بعد ذلك يجالسون ويؤاكلون ويشاربون العاصي، فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩]، وقد بيَّن النبي ﷺ هذه الآية بأن أحدهم كان يَلْقَى أخاه على المعصية فينهاه، ثم يلقاه فينهاه، ثم بعد ذلك يترك النهي ثمَّ يجالسه ويشاربه، فلما رأى الله ذلك منهم لَعنهم على لسان داود وعيسى عليهما السلام، وهذا أمر واضح، فإنَّه لا بُدَّ من إنكار المنكر بالقلب، وأن علامة ذلك أن يبتعد عن مواطن المنكرات ولا يجالس أهلها ولا يستأنس بهم، وإنما يجلس معهم من أجل أن ينهاهم، ويدعوهم إلى التوبة وإلى الرجوع إلى الله، أما الاستئناس بهم فقد رتَّب الله عليه اللعنة، كما قال ﷺ: «كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوّن عن المنكر، ولتأخذنّ على يد الظالم،

....

ولتأطرنَّه على الحق أطراً، ولتقصرنّه على الحق قصراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»[1].

والحاصل أن الإنكار باليد يحتاج إلى سلطة، وهذه مهمة الولاة والإنكار باللسان يحتاج إلى قدرة ـ وهذا من مهمة العلماء ـ فيبقى الإنكار بالقلب، وهذا الكل يستطيعه، ولا يستطيع أحد أن يمنعك منه.

أما حديث مسلم الذي في أول الباب وفيه قوله ﷺ: «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن» فالأمرُ بالمعروف مرتَّب حسب الاستطاعة، وأول ذلك التغيير باليد، وهذا هو المقصود بالجهاد، وهذا يكون فاعله قد اكتسب صفة المؤمن، ثم التغيير باللسان، وهذا كذلك يكون فاعله قد اكتسب صفة المؤمن، ومعناه البيان والتحذير والنهي عنه.

ثم قال: «ومن جاهدهم بقلبه» أي: كره ما هم عليه، ولم يقدر على الأمرين الأوَّلين وهما التغيير باليد أو اللسان، فأنكر بقلبه، وهـذا كلٌّ يستطيعه فمن كره بقلبه فهو مؤمن إذا ابتعد عن أهل الشر،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٣)، أبوداود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧) و(٣٠٤٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

فلا يكلف الله نفساً إلّا وسعها، فهو مؤمن، ولكن من خلا من هذه الخصال الثلاث تجاه المنكر، فلم ينكر بيده، ولا بلسانه ولا بقلبه، فليس في قلبه من الإيمان حبة خردل، فدلَّ على أنه لا بد من الإنكار ولو بالقلب، وكلٌّ أحد يستطيع ذلك، وأما باليد وباللسان، فهذا بحسب الاستطاعة، فإذا لم يستطع فقد سقطا عنه، أما الإنكار بالقلب فلا يسقط عنه بحال.

وقوله: «ما من نبي بعثه الله في أُمَّةٍ قبلي إلّا كان له من أمته حواريون» المقصود بالحواريِّن: الأتباع والتلاميذ، ومنهم الحواريون الذين كانوا مع المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام الذين أخذوا عنه واستنُّوا بسُنَّته واهتدوا بهديه، وهذا سَمْتُ الأنبياء وأتباعهم جميعاً عليهم السلام، ومنهم نبينا محمد ﷺ، فقد كان له حواريون، وهم أصحابه الذين صحبوه واتبعوه وحملوا عنه العلم والدعوة والجهاد، ثم يجيء من بعدهم خلوف كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩]، خلوف: جمع خَلْف بإسكان اللام وهم مَن لا خير فيهم من الناس، فأما «الخَلَف» بالفتح فهو محمود، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وهذا ذمٌّ لهم، فهم قد رضوا بالدنيا، وتركوا

....

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقولون ما لا يفعلون، وتتكلم ألسنتهم بالعلم والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهم يقولون بألسنتهم، ما لا يفعلونه بجوارحهم، والأصل فيمن يتكلمون بالعلم أن يلتزموا بما يقولون، وأن يكونوا أول من يعمل بذلك، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وقد قال الله ـ جلَّ وعلا ـ لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فالواجب على العالم والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والداعي إلى الله أن يكون هو أول من يَمتثل ما يصدر عنه من أقوال، ويكون هو القدوة الصالحة، فالشاعر يقول:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

فكيف تنهى عن خُلقٍ وتفعل مثله! هذا عارٌ، نعم من العار أن تنهى عن أمر قبيح، ثم تفعل مثله.

فعلى المسلم أن يكون متَّبعاً لا مبتدعاً، فلا يفعل إلّا ما أمر الله به ورسوله، ولا يُحْدِث شيئاً من عنده، قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[1]، وفي رواية: «من أحدث في أمرنا هذا ما

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً قبل (٢١٤٢) وقبل (٧٣٥٠)، ومسلم (١٧١٨) (١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

ليس منه فهو ردٌّ»(١)، وقال ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(٢)، وقد قال جلَّ وعلا: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فالمبتدعة يقولون ما لا يؤمرون.

فهؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، «من جاهدهم»، أي: من أنكر عليهم، وهو نوع من أنواع الجهاد، فالجهاد يكون باللسان والسلاح، قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التحريم: ٩]، فالكفار يجاهَدون بالسلاح، وأمّا المنافقون فيجاهَدون باللسان، ينكرُ عليهم ما يفعلون من المعاصي بالقول والكتابة ورد الشبهات التي يُدلون بها، فهذا من الجهاد في سبيل الله.

والجهاد أنواع، الأول: مجاهدة الإنسان نفسه، والثاني: جهاد الشيطان بمخالفة أمره، وفعل نهيه، والثالث: جهاد العصاة والمخالفين وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرابع: جهاد المنافقين

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) (١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبوداود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢) و(٤٦)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

....

وذلك بالردِّ عليهم، وكشف شبهاتهم، وفضح سرائرهم، حتى يُعرفوا بين الناس ولا يُغتر بهم، والخامس: جهاد الكفار والمشركين وذلك بالسلاح وخوض المعارك، ومعنى الجهاد باللسان في هذا الحديث: الإنكار، فقوله: «جاهدهم»: أي: أنكر عليهم.

وقوله: «بيده» أي: منعهم وأدبهم إذا كان له سلطة باليد لإزالة المنكر، فالسلطان لا يكفي أن ينهى عن المنكر بلسانه فقط، بل لا بد من إزالته بيده، من هدم أوكار الفساد، وإتلاف أدوات العصاة، وضربهم تعزيراً وتأديباً لهم، وإقامة الحدود عليهم إذا اقتضى الأمر ذلك، إما أن يقوم بذلك بنفسه أو من ينوب عنه من رجال الحِسْبة، فلا أحد يعترض عليهم، لأن هذا من صلاحياتهم، وكذلك صاحب البيت ينكر على مَنْ في البيت بيده، لأن له سلطة في بيته، يضرب ويؤدب، فالرجل راعٍ في بيته ومسؤول عن رعيته، هذا هو الإنكار باليد.

أما الإنكار باللسان فالذي ليس له سلطة، وعنده علم ومعرفة، يكون إنكاره ببيان الحق والردِّ على الباطل، سواء كان ذلك بالخطب أو المحاضرات أو الدروس، أو النهي عن المنكر والتحذير منه، فإذا رأى العاصي يفعل المنكر ينصحه ويعظه ويذكره بالحكمة

....

والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، فإن عجز عن الإنكار باليد واللسان، فلا بُدَّ من الإنكار بالقلب، وهذا هو الأصل.

وقوله: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» أي: إن مَنْ لم ينكر بقلبه، كان قلبه خالياً من الإيمان.

وفي الحديث دليل على أنَّ العمل من الإيمان وأنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينقص حتى يصير مثل حبَّة الخردل، والخردل: نبات له حَبٌّ صغير، وهو تمثيل للقِلَّة وأنه يزيد حتى يكون كأمثال الجبال.

وله عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها مرفوعاً: «إِنَّه يُستَعمَلُ عَلَيكُم أُمَراءُ فَتَعْرِفُون وتُنْكِرونَ، فَمَن كَرِهَ فقد بَرِئَ، ومَنْ أَنْكَرَ فقد سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابَع»[١]، أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه.

وفي رواية غير «الصحيح» بعد: وتابعَ: «فأولئك هُمُ الهالِكون»[٢]. [٨٩]

---

[٨٩] ولاة الأمور ليسوا معصومين، وقد تصدر منهم مخالفات ومعاصٍ، فلا يُتركون دون أن يُناصحوا، قال ﷺ: «الدينُ النَّصِيحَةُ» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابِهِ ولرسولِه ولأئمةِ المُسلمين وعامَّتِهم»[٣]، فوليُّ الأمر يجب أن يُناصح، بمعنى أن يُبيَّن له الخطأ الذي حصل منه، ويكون ذلك سرّاً بين الناصح والمنصوح، كما جاء في الحديث: «مَنْ كانت عندَهُ نصيحةٌ لذي سُلْطانٍ فلا يكلِّمه بها عَلانِيَةً، ليأخُذْ بِيَدِه وليخْلُ به، فإن قَبِلها قبلها، وإلّا كان قد أدَّى الذي عليه»[٤]، فنصيحة

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) (٦٢).

(٢) أخرجه ابن وضاح في «البدع» (٢٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٣٣)، والحاكم في «المستدرك» ٣/ ٢٩٠، والبيهقي في «الكبرى» ٨/ ١٦٤ من حديث عياض بن غنم ﷺ.

....

ولي الأمر لا تكون علانية بين الناس، لأنَّ هذا يزيد الشر شراً، وهذا هو بذرة الخوارج، فإنَّ أول من بَذَرَ هذه البذرة الخبيثة هو ابن سبأ اليهودي الخبيث الذي صار يتكلم في أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد، وصار أتباع ابن سبأ يتكلمون عن عثمان في المجالس، حتى تبعه من تبعه ممَّن صدّقوه وتأثروا به، بحجة أن هذا من إنكار المنكر، وهذا هو المنكر، فإن إنكار المنكر مع الولاة لا يكون بهذه الطريقة، ولكن تكون سرّاً بأن تكون المناصحة بينك وبينه دون التشهير به، فإن قبل فهذا هو المطلوب، وإن لم يقبل برئت ذمتك، هكذا تكون نصيحة ولي الأمر، أما الإنكار في المجالس والمحاضرات والخطب، وإثارة الناس على ولاة الأمور، فهذا هو المنكر بعينه، وهو أشد من المنكر الذي فعله ولي الأمر، لأنه يسبب الفتنة ويثيرها في الخروج على وليّ الأمر.

ومعلوم أن ما يترتب من المفاسد بالخروج على ولي الأمر أعظم من المنكر الذي يرتكبه وليُّ الأمر، كما حصل من الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا علانية، فحصل ما حصل من سفك للدماء، وإثارة للفتن، وتفريقٍ للكلمة وما تبع ذلك من مصائب على الأمة.

....

ومما يجدر ذكره أن من أصول المعتزلة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن سمع هذا يقول: هذا أمر طيب، لكن هم لا يقصدون هذا، وإنما يقصدون الخروج على ولاة الأمور ويسمون هذا أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر!. ومن أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة أنه تجب طاعة ولاة الأمور ويحرم الخروج عليهم ما لم يرتكبوا كفراً بواحاً عليه من الله برهان ولو جاروا ولو ظلموا ولو فسقوا ما لم يخرجوا من الدين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب لكن يكون على ما توجبه الشريعة لا على ما تراه الفئات الضالة.

باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها

في «الصحيحين»[1] عن أبي بكرة ﷺ، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى الـمُسلِمانِ بِسَيفَيهِما فالقاتِلُ والـمَقْتُولُ في النَّارِ» قالوا: يا رسول الله، هذا القَاتِلُ، فَمَا بالُ الـمَقْتُول؟ قال: «إِنَّه كانَ حَرِيصاً على قَتْلِ صَاحِبِهِ». [٩٠]

---

[٩٠] الشاهد من حديث أبي بكرة على العنوان أنه ـ أي: المقتول ـ كان حريصاً على قتل صاحبه، جازماً بذلك مُصمِّماً عليه حال الـمُقاتلة فلم يقدر على تنفيذه كما قَدَر صاحبُه القاتل، فكان مثله، حريصاً على المعصية، لكنه لم يتمكن من القيام بها، وقُتل وهو على هذه النية، وهي تمني المعصية والحرص عليها، فعذبه الله بنيته، والعياذ بالله.

قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» نهى الله ـ جل وعلا ـ عن قتل المسلم لأخيه المسلم، ونهى الرسول ﷺ كذلك فقال: «سِبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر»[2] وقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]. والمراد بالكفر هنا: الكفر

---

(١) البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

الأصغر الذي لا يخرج من الملة، فلا يجوز للمسلمين أن يتقاتلا لأنهما أخوان في الإسلام، فإذا حدثت فتنة بين المسلمين، فالواجب السعي لإصلاح ذات البين، وإخماد نار الفتنة، وإذا اقتضى الأمر أن نُقاتَل الفئة التي لا تقبل الحق قاتلناها كفاً لشرِّها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، ومن هنا لا يجوز القتال بين المسلمين، وإن حصل فالواجب السعي لإصلاح ذات البين وكف بعضهم عن بعض، فإن لم يُجْدِ الإصلاح، فتُقاتل الفئة التي لم تقبل بالإصلاح حتى ترجع عن غيِّها، وهذا هو قتال البغاة الذي بوَّب له العلماء في كتبهم.

وعن أبي كَبْشَة الأنماري - ﷺ - مرفوعاً: «مَثَل هذه الأُمَّة كَمَثَل أربعةِ رجال: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل في ماله بعِلْمه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فقال: لو كان لي مالٌ مثل مالِ فلان لعملتُ فيه مثلَ عملِه، فهما في الأجر سواءٌ، ورجلٌ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يتخبَّط في ماله لا يدري ما له مما عليه، ورجلٌ لم يؤته الله مالاً ولا علماً فقال: لو كان لي مثلُ مالِ فلان لَعملتُ فيه مثلَ ما عمل فلان، فهما في الوِزْر سواءٌ. وصحَّحه الترمذي(١). [٩١]

[٩١] هذا الحديث فيه أن من تمنَّى أن يكون مثل أهل الخير، فإنه يلحق بهم، وإن لم يعمل مثل عملهم لعجزه عن ذلك، فهو يلحق بهم بنيَّته، فلو تمنى الفقير أنه لو كان عنده مثل ما عند الغني من المال كي يتصدق مثل الغني لكان مثله في الأجر، وكذا رجل لم يؤته الله علماً ويتمنى أن يكون مثل العالم الذي يعلّم الناس ويرشدهم، لكنه لا يملك الإمكانية، فإنه يؤجر على نيَّته، وعلى العكس، فإنَّ الذي يتمنى أن يكون مثل أهل الشر لو استطاع يكون مثلهم في الإثم، كأن يكون مثل الرجل الغني الذي يبذِّر في المعاصي والسيئات،

(١) في «جامعه» (٢٣٢٥)، وأخرجه أحمد (١٨٠٢٤)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

....

فيقول: لو أنَّ لي مثل ماله لعملت مثله، فهو واقعٌ في الإثم مثله، والعياذ بالله، فهذا دليل على أن تمني المعصية يُلْحِق الذي تمنّاها بمن فعل المعصية.

وقوله ﷺ: «مَثَل هذه الأُمة كمثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل في ماله بعلمه» وهذا الرجل يراه رجلٌ آخر ليس عنده مالٌ وعنده علم، لكنه يتمنى أن يكون مثله لو استطاع، فهذا له مثل أجره.

وقوله: «ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط في ماله لا يدري ما له ممَّا عليه»، فالذي يتمنى أن يكون مثله، يلحق به في الإثم.

والرابع: «رجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فقال: لو كان لي مثل مال فلان لعملتُ فيه مثل ما عمل فلان» هذا كان يتمنى أن يكون مثله في الشر، فيكون في الإثم مثله، لقوله ﷺ: «فهما في الوزر سواء» ففي هذا دليل على أن تمني المعصية يُلحق صاحبها بأهل المعاصي ولو لم يعمل بالمعصية عجزاً، ولكنه دخل في ذلك بحسب نيته.

باب ذكر الريب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ - ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. [٩٢]

---

[٩٢] الريب: هو الشك، فالأصل في المؤمن أن لا يكون عنده شك ولا يكون متردداً في إيمانه، وإنما يكون صادقَ الإيمان، أما الذي عنده شكٌّ وتردد فهذا لا يكون مؤمناً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، فهم آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، ثم أتبعوا هذا بالعمل، كما قال في الآية نفسها: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، أي: حاربوا الكفار، وأعدّوا القوة لقتالهم بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله ونصرة الدين، وهذه علامة صدق إيمانهم، فليس الإيمان مجرَّد النطق فقط، ولا بالقلب فقط كما يقول المرجئة، وإنما الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولا يكون المؤمن مجاهداً في سبيل الله إلَّا إذا

....

أخلص نيّته، وكان قصده إعلاء كلمة الله، ولما سئل الرسول ﷺ: عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل من أجل المغنم، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1]، والذين تكون فيهم هذه الصفات وصفهم الله تعالى في الآية نفسها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، لأن هذا ردٌّ على الأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] يعني: أنهم دخلوا في الإسلام، وأما الإيمان فلم يدخل في قلوبهم، ولذلك قيل: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، بل أحياناً يكون منافقاً، وهو أن يكون مسلماً في الظاهر، وكافراً في الباطن. فدلَّ هذا على أنَّ الذي يرتاب في إيمانه ليس مؤمناً، والشك هو التردد بين أمرين، لا مرجِّح عنده لأحدهما على الآخر، فيقول مثلاً: من الممكن أن يكون القرآن حقّاً، ومن الممكن أن لا يكون حقاً، أو يمكن أن يكون هذا الرسول صادقاً، أو غير صادق وهكذا، فهو شاكٌّ متردد، فهذا ليس بمؤمن، أما المؤمن فهو صادق الإيمان ليس بمتردد ولا شاكّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

....

وهذا فيه دليل على أنه يجب على المسلم أن يتفقد إيمانه، فإن حصل له شك، فإنه ينبغي له أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويتجاهل وسوسته في نفسه ويكتمها ولا يتكلم بها، فإنها لا تضره، أما إذا نطق بها ضرته.

والمؤمنون هم الذين ذكر الله صفاتهم في أول سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يؤمنون بما لم يروه من أمور الآخرة، كالجنة والنار، وأمور الماضي والمستقبل اعتماداً على الخبر الصادق من الله ورسوله ﷺ، فهم لم يروا الله تعالى عياناً، لكنهم رأوا آياته الدالة عليه سبحانه وتعالى فآمنوا به، فهم اعتمدوا في إيمانهم على الآيات والدلائل التي تدل عليه سبحانه، مثل الآيات الكونية، وخلق السماوات والأرض، وخلق الليل والنهار، وكذلك هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى أنه كلام الله عز وجل، فهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن هذا الكلام الذي أنزله على رسوله ﷺ كلامه، لا يشكون في ذلك، وأنه دالٌّ عليه سبحانه، فهم يؤمنون بالغيب وإن لم يشاهدوه، والغيب: هو كلُّ ما لم نره، ولكنّا نؤمن به، اعتماداً على ما أخبرنا به الله ورسوله، والشهادة: هو ما نشاهده ونراه بأعيننا.

....

ومن صفات المؤمنين أنهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال تعالى في أول سور البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: القرآن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ أنه من عند الله، فنؤمن بكل ما أخبر عنه من علوم الغيب، ونصدِّق بكل ما جاء فيه، فالذي يتشكك بصدق القرآن ليس بمؤمن، كالذي يقول: إن العلم الحديث يخالف القرآن، فهذا في قلبه شك وريب، فإذا حصل تعارض بين القرآن وبعض النظريات العلمية، فإننا نأخذ بما جاء في القرآن، لأن ما جاء به القرآن صدق وحق، وأما النظريات فهذه تحتمل الصحة والخطأ، وأما الحقائق فيستحيل أن تتعارض مع القرآن، فإذا تعارضت النظريات مع القرآن، فهذا دليل على أنها باطلة، فالقرآن يحكم عليها، ولا تحكم هي عليه، فالذي يُشكك ويقول: القرآن ظنِّي الدلالة، والعلم الحديث قطعي الدلالة، كما يقول أهل الضلال، فهذا هو الشك والريب، ونقول لهؤلاء: كذبتم، فالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما النظريات البشرية فإنها عرضة للخطأ والصواب، فإذا تعارضت مع القرآن أخذنا بالقرآن، واعتقدنا أنها باطلة، فالقرآن لا يعارضه شيء، قد تكون بعض الأمور التي ذكرها القرآن لم تحصل بعد، ولكنها ستحصل في المستقبل، فإن القرآن لا تنقضي عجائبه ولكن القوم يستعجلون.

....

وكذلك قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: بإخراج الزكاة والصدقات والإنفاق في سبيل الله، وهذا من الإيمان أيضاً، فالإيمان ليس قولاً فقط، وإنما قول وعمل أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هذا، والله أعلم، في مؤمني أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل السابقين، ولما بعث سيدنا محمد ﷺ آمنوا به، فجمعوا بين الإيمان بالرسول والإيمان بمن قبله، ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: بالبعث والجزاء والجنة والنار وإن لم يشاهدوها، لأنها من الأمور المستقبلية، ولكنهم اعتمدوا على الأخبار الصادقة مِنَ الله ورسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهؤلاء لم يتطرق إليهم شك في هذا الإيمان فهم على هُدًى من ربهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أما الكفار فإذا قيل لهم: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الجاثية: ٣٢] كذّبوا وقالوا: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وهذه الآية توبيخ للكفار يوم القيامة، لما قالوا هذه المقالة، وأنهم عاشوا في الدنيا على الشك، وأنهم كانوا يظنون ظنّاً، فصاروا من أهل النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ

....

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٦]، وإذا قيل لهم في الدنيا: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الجاثية:٣٢]، أي: إنَّ وَعْدَ الله بالجنة والنار حق لا شك فيه فآمنوا به، ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الجاثية:٣٢] قالوا: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، أي من الممكن أنه حق، ومن الممكن أنه غير حق، فعاشوا على الشك، فصاروا من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فهذا فيه دليل على أنَّه يجب على المسلم أن يكون صادقاً في إيمانه، وأن يرفض الشكوك، وأن لا يسمع للمشككين في دين الله ـ عزَّ وجل ـ فكيف يسمح الإنسان للمشككين ودعاة الضلال من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون: إنَّ نصوص الوحي من الأمور السمعية التي تفيد الظنّ، وأما علم المنطق والجدل فهو القواعد اليقينيَّة، ولذلك فهم يحكِّمونها ويردُّون الآيات، ومثْلهم في ذلك أصحاب النظريات الحديثة الذين اغتروا بها، واعتقدوا بها القداسة، فهي لا تقبل عندهم الشك، ولكن القرآن في نظرهم يقبل الشك والتردد، وهؤلاء هم الذين ذكرهم الله ـ عزَّ وجل ـ بقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الجاثية:٣٢-٣٣] أي: يظهر لهم في الآخرة سيئات ما عملوا في الدنيا ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أهلكهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ

....

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: نترككم في العذاب والنار، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية:٣٤] ليخرجوهم ممّا هم فيه من العذاب، هذا هو مآلهم، والعياذ بالله. وهؤلاء هم الذين إذا سئلوا في قبورهم: (من ربك، وما دينك، ومن نبيك) يقولون: هاه. هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. والواجب على المسلم أن يعيش على يقينٍ بالله واليوم الآخر، فهذا هو حال المؤمن الذي يؤمن بأن الله حق، والجنة حق، والنار حق. وأنَّ الله يبعث من في القبور.

وأمّا إذا كان لا يسمع كلام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والعلماء والمصلحين، كان هذا من فساد قلبه ـ والعياذ بالله ـ أو كان يشكُّ في صدق دعوتهم، فهذا ليس بمؤمن، لأن مُجَرَّدُ الشك هو تكذيب لما جاء به النبي ﷺ، لأنَّ الله وصف المؤمنين بأنهم ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥]، فإذا عَرَضَ للمسلم عارضٌ استعاذ بالله من الشيطان، وترك الوساوس وتجنب دعاة الضلال، وعليه أن لا يستمع إلى شبهاتهم لا سيّما وأنهم قد نَشِطوا في هذه الأيام مع تعدد وسائل الإعلام وسرعة انتشارها، فأثاروا الشبهات في الصحف والمجلات، والمؤلفات، والندوات،

....

وعلى الفضائيات، فهم يشكِّكُون في الدين، ودعوة الرسل، ويلقون بالشبهة على عواهنها، فيتلقفها مرضى القلوب والجهلة فتنتشر، فالواجب على المسلم الحذر من ذلك.

وكان معاذ ﷺ يقول في مجلسه كلَّ يوم قلَّما يخطئه: الله حَكَمٌ قِسْطٌ، هَلَكَ الـمُرْتابون[1]. [٩٣]

---

[٩٣] معاذ بن جبل ﷺ صحابي جليل، وهو أعلم الصحابة بالحلال والحرام بشهادة رسول الله ﷺ[2].

قوله: «الله حكم» أي: أن الله يحكم بين عباده، قِسْطٌ: عدل، أمّا المخلوق فإنه يكون عنده جور وظلم وهوى، أما الله ـ عزَّ وجل ـ فإنه حكم قِسْط، قال سبحانه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [المائدة: ٤٢] أي: بالعَدل. فهناك القِسْط وهناك القَسط والقُسُوط: وهو الجور، يقال: قَسَط، يَقسِط قُسوطاً وقَسْطاً فهو قاسط، أي: جائر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥]، أي: الجائرون، أما الـمُقسِط فهو العادل، يقال: أقسط فهو مُقْسِط، أي: عادل، والله ـ جلَّ وعلا ـ حَكَم قِسْطٌ، يعني: عادل.

وقوله: «هلك المرتابون» هذا هو الشاهد هنا، فالمرتاب: الذي يشك في حكم الله، فهو كافر بربه ـ عزَّ وجل ـ فهو إذن هالك في دينه ودنياه وآخرته، فالمؤمنِ لا يتهم الله ـ جلَّ وعلا ـ في حكمه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١١)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٧٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، وابن ماجه (١٥٥)، والترمذي (٣٧٩٠) من حديث أنس ﷺ.

....

وقضائه وقَدَرِه، فمن فعل ذلك، فشكَّ وتردَّدَ وظنَّ بالله ظن السوء وظن بما جاء به النبي ﷺ، وكان الأمر عنده يحتمل الخطأ والصواب، فهذا هو الشاكُّ بربِّه عز وجل. وبنبيه ﷺ.

وقال ابن مسعود ﷺ: إنَّ من اليقين أن لا تُرضي أحداً بسَخَط الله، ولا تَحمَد أحداً على ما آتاك الله، ولا تَلُوم أحداً على ما لم يؤتك الله، وإنَّ الله بعِلْمه وقِسْطه جعل الرَّوْح والفَرَح في اليقين، وجعل الهَمَّ والحَزْن في الشك والسُّخْط، وإنَّ رزق الله لا يَجُرُّه حرْصُ حَريصٍ، ولا يَردُّه كَراهيةُ كارِهٍ[1].

وقال عمر ﷺ يوم الحديبية: فعَمِلْت لذلك أعمالاً[2].

[٩٤]

---

[٩٤] «إنَّ من اليقين» اليقين ضد الشك، أي: إذا تعارض إرضاء الله سبحانه وإرضاء المخلوق، فالواجب على المسلم أن يقدم رضا الله حتى وإن سخط عليه الناس، فإنك إن فعلت رضي الله عنك وأرضى عباده عنك، وإن أسخطته سَخِطَ الله عليك وأسخطَ العباد عليك، وفي الحديث: «من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٥١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما.

....

عليه وأسخط عليه الناس»[١]، وهذا الحديث كتبت به عائشة رضي الله عنها إلى معاوية لما طلب منها النصيحة، عندما تولّى أمر المسلمين[٢]، وهو منهج يسير عليه الحاكم، في مراقبة الله ـ عز وجل ـ ولا يراقب الناس، فيتبع ما يَرضى الله ـ عز وجل ـ عنه سواءً رضي الناس أو سخطوا، وهذا المنهج هو الأصل الذي يسير عليه الوالي المسلم وغيره من عامّة الناس، فعلى المسلم يكون حريصاً على رضا الله ـ عز وجل ـ في أقواله وأفعاله، ولا يتملق الناس ويمدحهم بما ليس فيهم من أجل إرضائهم، ونيل عطائهم حتى وإن كان يسخط الله عزَّ وجل.

وهناك بعض الناس لا يهمهم إلَّا إرضاء الناس، ولا يهمهم إن كان ما يقومون به يسخطِ الله أم لا! فيعملون بما يرضي الناس من أجل أن يحصلوا على حاجاتهم، وكسب ودّهم، ونسيَ هؤلاء أنَّ القلوب بيد الله عزَّ وجل يقلبها كيف يشاء، وأنَّ الله سيوغر عليك هذه القلوب التي أرضيتها بسخطه، وهذا أمر يحتاج إلى صبر وتيقن بأنَّ النافع والضار هو الله، وأنَّ العباد جميعاً لا يملكون لأنفسهم

---

(١) أخرجه ابن حِبَّان في «صحيحه» (٢٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «جامع الترمذي» (٢٤١٤).

. . . .

نفعاً ولا ضراً، وهذا منهج واضح سليم، أن تجعل الله دائماً بين عينيك، فإذا عرض لك أمر فانظر فيه، فإذا كان مما يرضي الله فافعله ولو سخط الناس عليك، إذْ إنهم سيرضون عنك فيما بعد، وإذا كان فيه سخط الله وإرضاء الناس فتجنبه، وهذ لا يكون إلَّا ممن خلا قلبه من الريب والشك.

وقوله: «ولا تحمد أحداً على ما آتاك الله» أي: لا تحمد الناس على ما آتاك الله، ولكن احمد الله ـ عزَّ وجل ـ وقل: الحمد لله، فهي أول لفظة في المصحف بعد البسملة، أي: أن جميع المحامد لله ـ عزَّ وجل ـ فلا يستحق المحامد المطلقة إلّا الله، لأنه هو المنعم بجميع النِّعم، أما المخلوق فإنه يُحمد على قدر صنيعه فقط، فالحمد المطلق لا ينبغي إلَّا لله عزَّ وجل.

وقوله: «ولا تَلُومَ أحداً على ما لم يؤتك الله» أي: إنك إذا طلبت شيئاً من أحدٍ من الناس، ولم يتحقق، فاعلم أنَّ الله لم يقدِّره لك، فلا تلم الناس في عدم تحقيقه، فلو أنَّ الله قدَّره لك لم يمنعكَ منه أحد كما قال جلَّ وعلا: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢]، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن عباس: «واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت

....

على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك»[1]، فالأمور بيده سبحانه، فهو الذي يُحمد في كل حال، في السراء والضراء، لأنَّ الضراء قد تحمل الخير وإن كان ظاهرها شر، فلربما يكون الخير في عاقبتها، ولهذا جاء في الحديث: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[2]، فهو راضٍ من الله ـ جلَّ وعلا ـ سواء أصابه خير أو أصابه شر، فلا يسخط ولا يجزع، وفي الحديث: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل»[3]، فأرجع الأمر إلى الله، ولا ترجعه إلى الناس بأن تلومهم، ولكن علِّق قلبك بالله، فهذا هو اليقين.

وقوله: «وإنَّ الله جل وعلا بعلمه وقسطه جعل الرَّوْح والفرح في اليقين» أي: إنَّ الله تعالى بقِسْطِهِ وعدله جعل الرَّوْح، أي: الراحة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٣٩) من حديث صهيب ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

. . . .

والفرح في اليقين، فالمستيقن مرتاح في دنياه، لا يجزع ولا يسخط، فإن أصابه خير شكر الله، وإن أصابه غير ذلك صبر عليه، لأنه يعلم أنه في كلا الحالين مأجور، أما الذي عنده شك، فهذا إن أصابه خير أو نعمة بطر وتكبر، وإن أصابه ضرر جزع وسخط على الله، وهذا نتيجة الشك والريب في القلوب.

وقوله: «وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» الهمُّ: ما يصيب الإنسان من كدر وقلقٍ وحزن وتندُّم بسبب هذا الشك، أما الإنسان المتيقن، فهذا لا يصيبه هم ولا حزن، فهو يعلم أنه عبدٌ لله، وأنَّ ما قدَّره الله سيجري عليه مهما فعل وتحصَّن، فلذلك لا يرتاب ولا يتزعزع قلبه مع الأحداث، فهو ثابت القلب، أما الشاكّ والمرتاب فقلبه متزعزع وخاصة عند الأحداث.

وقوله: «وإنَّ رزق الله لا يجرُّه حرص حريص ولا يردُّه كراهية كاره» وهذا مثلما ذُكر في بداية الأثر، فإنَّ الله إذا قدَّر لعبده رزقاً فإنه لن يستطيع أحد أن يمنعه رزقه، وإن سعى في ذلك الساعون واستخدموا سلطاتهم، فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، يقول الله تعالى واصفاً كيد أعدائه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]،

....

فهم في الدنيا يتمنُّون الضرر على المسلمين، لكنهم لا ينالون مرادهم، فيتحسرون والعياذ بالله، ـ لأنَّ الحاسد يظل في همّ وضيق وقلق، وخصوصاً إذا رأى نعم الله على عباده، ويتمنى أن تزول عنهم النعمة، ولن يجد إلى ذلك سبيلاً، فهو يرى النعم على الناس فيزداد حِقداً وغيظاً وشكّاً بالله ـ عزَّ وجل ـ واتهاماً للقضاء والقدر، فيودُّ منع الخير عن الناس من شدة الحسد.

وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ يوم الحديبية: «فعملت لذلك أعمالاً» ويوم الحديبية هو الذي سماه الله تعالى فتحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، أي: صلح الحديبية، حيث مَنَعَ المشركون الرسول ﷺ وأصحابه من أداء العمرة، بعد أن نزلوا بالحديبية على حدود الحرم، ليس بينهم وبين الحرم إلّا مسافة يسيرة، منعوهم من دخول الحرم، ومنعوا الهدْي الذي معهم من الوصول إلى الحرم أيضاً، فحدثت مفاوضات بين المسلمين والمشركين، ومن ذلك أن الرسول ﷺ أرسل عثمان ـ رضي الله عنه ـ، ثم أشيع أن عثمان قد قُتل، وعندها طلب الرسول ﷺ أصحابه للبيعة على القتال قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا

....

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩]، وهذا جزاءٌ عادل في الدنيا من الله تعالى، وما عنده من الجزاء في الجنة أعظم، ولقد كان هذا الجزاء لِما صدقوا مع الله وبايعوا الرسول ﷺ على الموت والجهاد، ولما رأى المشركون أن الرسول ﷺ وأصحابه مصممون على أحد أمرين: إمّا العمرة وإما القتال، أرسلوا رسولاً ليتفاوض مع الرسول ﷺ على الصلح، فتم الصلح فصار هذا الصلح فتحاً، سمّاه الله ـ عز وجل ـ فتحاً، وتبيَّن لعمر أنه المخطئ في تَصَلُّبه أمام هذا العقد حين قال للنبيّ ﷺ: علامَ نعطي الدنيّة في ديننا[1]؟! هو لم يفعل هذا شكّاً ولا رَيباً، ولكنه فَعَلَه عن قوة، فهو من قوته لا يريد أن يعطي الكفار شيئاً أبداً، لكنَّ الحكمة تقتضي في بعض المواقف أن يتنازل المسلمون مؤقتاً من أجل مصلحة مستقبلية، وبالطبع هذا يعود لتقديرات معينة، أما في هذه الحادثة تحديداً، فإنَّ الله كان يُعدُّ للنبي ﷺ وأصحابه فتحاً قريباً، فكان ظاهر الأمر أنَّ فيه شيئاً من الذِّلة، ولكنَّ العاقبة كانت فتحاً قريباً، وعندها تبيَّن لعمر أنه المخطئ. وأمَّا الصحابي الجليل سهل بن حنيف فهو من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما.

....

يقول: يا أيها الناس، اتهموا الرأيَ، فلقد رأيتني يوم أبي جندل - يعني يوم الحديبية - أن أردَّ على رسول الله ﷺ أمره لرددت[١].

لقد حاول عمر ﷺ رفض الصلح، لأنه رأى فيه غضاضة على المسلمين، ولم ينظر ولم يعلم ما هي المصالح التي تترتب عليه، لذلك ندم على موقفه، وصار يحسبُ لذلك حساباً، وصار من أحرص الناس في نقد آرائه، وأحرص الناس في الاتباع والاقتداء بالرسول ﷺ، فأكسبه والمسلمين درساً في عدم اعتراضهم على أحكام الله ورسوله، ولو ظهر لهم للوهلة الأولى أنَّ في الانصياع للأمر إجحافاً وظلماً، فإنما العبرة بالنتائج لا بالمقدمات، هذا هو التقويم السليم، وهذا هو الإيمان، ولذلك شكا عمر إلى أبي بكر، فقال: كيف نرضى بهذا؟ فقال له: أليس هو رسول الله؟ قال: بلى، قال: فاسْتمسك بغَرْزِهِ[٢]، أي: عليك ألَّا تعترض أبداً، فهو رسول الله وما ينطق عن الهوى، فعلى المسلم أن يكون مستسلماً لله ورسوله، هذا هو منطق أبي بكر، وهذا موقف اليقين والثبات عند الحق والشدائد، فالناس يتفاوتون أمام المحن والابتلاءات حتى المؤمنين، فهم متفاوتون في قوة إيمانهم عند ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنهما.

وفيه معنى قوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبّاً، وبالإسلامِ دِيناً، وبمحمدٍ رسولاً» أخرجه مسلم(١). وعن العباس رضي الله عنه مثله. [٩٥]

---

[٩٥] هذا فيه تشبيه المعنوي بالحسّي، حيث شبّه ﷺ الإيمان بشيء يذاق له طعم، لكن ليس كل مؤمن يذوق طعم الإيمان، أو حلاوة الإيمان، لا ينالها إلّا خواص المؤمنين، ولكن متى يذوق الإنسان طعم الإيمان؟ عندما يرضى بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، ولم يَجُل في خاطره شك ولا ريب، فتجده مطمئن القلب والنفس، راضٍ عن الله، يملأ قلبه اليقين والإيمان.

وفي الحديث الآخر: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»(٢)، فكما أنه يكره أن يقَذف في النار ويحترق وهو حيٌّ فهو كذلك يكره أن يعود إلى الكفر، هذا هو المؤمن القوي الإيمان، الذي لا يتزعزع إيمانه، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان.

---

(١) مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

باب السخط

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة(١): هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى بها ويسلِّم. [٩٦]

---

[٩٦] السُّخط عند المصيبة من الكبائر، والمعنى: أن يسخط الإنسان من قضاء الله وقدره لا يرضى به. والأصل في المسلم أن يتلقى قضاء الله وقدره بالرضا والصبر والاحتساب، وأن يؤمن بأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وكون الإنسان يرضى بقضاء الله وقدره ولا يجزع فهذا خيرٌ له من وجوه، منها: أنَّ الله يُكفِّر عنه خطاياه، ويرفع من درجاته، ويذكره بالتوبة، وأن ما أصابه إنما هو بسبب ذنوبه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠] والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، فالمؤمن إذا أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، فيكون ذلك خيراً له، أما غير المؤمن، فإنَّه عند النعم يطغى ويتكبر، وإذا أصابته النقم جزع وسخط.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨/ ١٢٣.

....

وفي هذه الآية التي ذكرها الشيخ ـ رحمه الله ـ وهي قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، قد بيَّن سبحانه وتعالى أن المصائب إنما تقع بإذن الله، أي: بقضائه وقدره، وإذنه سبحانه وتعالى على قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي: وهو ما أذن الله بفعله شرعاً، من فعل الطاعات والقربات، والإذن الكوني هو المراد بهذه الآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ الإيمان كما سبق له أركان، ومنها الإيمان بالقضاء والقدر، فدلَّت هذه الآية على أنَّ الذي يجزع ويسخط ولا يستسلم لقضاء الله، لا يكون مؤمناً بالله، أما جزاء المؤمن الذي يؤمن بقضاء الله، فإنه يَهْدِ قلبه، بمعنى أنه يوفقة للخير والاطمئنان والراحة، ولهذا يقول علقمة ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلّم؛ أي: فلا يعترض ولا يسخط، فهذا الذي يهدي الله قلبه، فيدله على الخير ويوفقه للثبات عليه، وهذا من فوائد الصبر على المصائب، وهو حصول هداية القلب ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: بالقلوب وأحوالها، فلا مَفَرَّ للإنسان من التسليم للقضاء والقدر، مهما حاول.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فَمَن رَضِيَ فله الرِّضا، ومن سَخِطَ فعليهِ السُّخَطُ» رواه الترمذي(1) وحسّنه. [٩٧]

---

[٩٧] قوله: «إن الله إذا أحبَّ قوماً» هذا فيه إثبات المحبة لله ـ عزَّ وجل ـ وأنه يحب ويبغض ويكره، ويرضى ويسخط، وهذا من صفات الله سبحانه وتعالى، فمن علامات محبة الله لعباده: الابتلاء؛ أي: الاختبار، فإن الله يختبرهم بالمصائب، فإن رضوا بقضاء الله وقدره، فإنَّه ـ جل وعلا ـ يرضى عنهم، ويجعل المصائب مِنحاً لهم، ويُصيِّر الـمِحنَةَ مِنْحة، فتكون خيراً لهم، فهم من بعد اختباره لهم يتبيَّن موقعهم من هذا الابتلاء، ولهذا قال: «فمن رضي فله الرضا» فهم رضوا بقضاء الله وقدره، والجزاء من جنس العمل، «ومن سخط» بقضاء الله وقدره وجزع، فعليه «السخط» من الله تعالى.

وهذا الحديث فيه إثبات لبعض صفات الله ـ عزَّ وجل ـ كالمحبَّة والرِّضا والسخط، فيرضى على أهل الإيمان الذين رضوا بالقضاء والقدر، ويسخط على أهل الجزع الذين لم يرضوا بقدره.

---

(١) في «جامعه» (٢٣٩٦م)، وابن ماجه (٤٠٣١).

....

وفيه أنَّ الابتلاء علامة من علامات محبة الله للعبد الذي يرضى بقضائه، فالمؤمن يعلم أن المصائب من الله، وأنَّ الله لم يقدّرها عليه لأنه يكرهه، وفي هذا دليل آخر على أن المصائب ليست علامة على بغض الله للعبد، وإنما هي دليل على محبته له، ليمحِّص ذنوبه، ويكفِّر عنه سيئاته، أما غالب الكفار فإنهم يُستدرجون في هذه الدنيا، ولا يصيبهم ما يكرهون، ويفرحون في هذه الدنيا، ثم يفجؤهم القدر فيؤخذون على غِرَّة، والعياذ بالله. أما المؤمن، فإنه يُبتلى لأجل أن يخرج من هذه الدنيا وقد غُفرت له ذنوبه، ونال قسطه من الجزاء في الدنيا، فيخرج منها نقيّاً مطهَّراً من ذنوبه وسيئاته، ويخرج الكافر محمَّلاً بذنوبه وسيئاته، ولذلك شبه النبي ﷺ حال المؤمن فقال: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كَفَأَتها، فإذا اعتَدلتْ تكفَّأُ بالبلاء، والفاجرُ كالأَرزة صَمَّاءَ معتدلةً حتَّى يقصِمُها الله إذا شاء»[1]، فالزرع يُقلبّه الهواء، وقد شبّه الكافر بالأرزة، وهي شجرة صلبة لا يميلها الهواء، ولا يمكن إمالتها إلَّا بالكسر بخلاف المؤمن الذي شُبِّه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٨١٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

....

بالخامة، وهي الطريّ الليّن الرطب من الزرع، يُميلها الهواء يميناً وشمالاً؛ ولكنَّ الكافرين يُستدرجون، وهو سبحانه يملي لهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقد يسأل السائل فيقول: ما لنا نرى المسلمين في مصائب ومجاعات وقتل وخوف وقلق، وأما الكفار ففي رخاء ونعمة وقوة في هذه الدنيا؟ نقول: هذه حكمة الله - جلَّ وعلا - وهذا فيه خير للمسلمين لما سبق بيانُه، وأمَّا ما يحصل للكفار من الإمداد والنعم، فهو دليل شرٍّ لهم واستدراج.

باب القلق والاضطراب

وقول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ – ٢٨]. [٩٨]

---

[٩٨] هذا الباب كأنه تفسير للباب الذي قبله، فالقلق والاضطراب عند وقوع القضاء والقدر يُعدُّ من الكبائر، وأما الرضا بقضاء الله وقدره فهو من علامات الإيمان، ولهذا إذا أصيب المسلمون بمصيبة، أو سُلِّطَ عليهم عدوٌّ، أنزل الله عليهم السكينة والاطمئنان وعدم القلق، كما حدث للنبي ﷺ حينما أخرجه الكفار من مكة، قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فالمسلم في جميع أحواله مطمئن في السّراء والضرَّاء، وهذا دليل على الإيمان بقضاء الله وقدره، ولهذا لما أصاب المسلمين ما أصابهم في وقعة أحد، بعض أهل الإيمان قد أُصيبوا بالنعاس، لأنهم مطمئنون، وفي النوم أمان، فهم مع ما أصابهم

....

من القلق والجراح والقتل، غشيهم النعاس أمنةً من عند الله، كما قال سبحانه يصف المسلمين يوم بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

وفي وقعة أُحد كذلك، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهذا يبين أنَّ وجود المرء في ساحة المعركة ليس هو الذي يُدني أجله، بل إنه لو كان في بيته ثم حَلَّ أجله لم يستقدم ساعة ولا يستأخر، إنها آجال مضروبة، ولهذا كان المؤمنون مطمئنين وهم في وسط الوغى حتى إن أحدهم ليسقط منه السوط من شدة النعاس، وفي هذه الحالة فرق بين المؤمن والمنافق، فالمؤمن مطمئن، ليس عنده قلق ولا اضطراب عند حدوث المصائب، فهو ينام مطمئناً، قرير العين راضياً بقضاء الله وقدره، ينتظر الفرج من الله ـ عزَّ وجل ـ ويحتسب

....

في المكاره والمصائب في سبيل الله ـ عزَّ وجل ـ وأما المنافق فعلى العكس من ذلك، لأنَّ رضاه وغضبه من أجل الدنيا فقط.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا قَسَم من الله تعالى بنفسه الكريمة أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، نفى عنهم الإيمان ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: حتى يحكِّموا الرسول ﷺ في الاختلاف فيما بينهم، فالاختلاف يقع بلا شك، ولكنه يُحسم بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسُّنة، فمن شهد له الكتاب والسُّنة بأنَّ الحق له حُكِمَ له بذلك، وعلى الطرفين أن يرضيا بالحكم، هذه هي صفات المؤمنين، وهذه الآية جاءت في أعقاب آيات أنكر الله عزَّ وجل فيها على من يدعي الإيمان بما أنزل على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في حَلِّ الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله.

حصلت خصومة بين يهودي ومنافق، أما المنافق فأراد أن يذهب ليبحث عن مخرج من الحكم الشرعي، ومن كان هذا موقفه

....

فهو ليس بمؤمن، وفعله هذا من الكبائر الموبقة التي تنزع عن صاحبها صفة الإيمان، ولهذا قال المنافق: نختصم إلى يهود لأنهم يأخذون الرشوة، في حين قال اليهودي: نختصم إلى محمد، لأنه يعرف أنَّ محمداً لا يقضي إلّا بالحق ولا يأخذ الرشوة، ولذلك كان اليهود يرضون به، فالله قد فضح هذا المنافق بقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾، والرسول ليس محكَّماً في أمور الأموال فقط، وإنما في كل الأمور، وفي كل خلاف، وسواء في العقيدة ـ وهذا أهم من الأموال ـ أو في غيرها من المسائل والقضايا، فلا بُدَّ أن نرجع في كل القضايا التي ينشأ عنها الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأنَّ الله أنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولا يكفي أن يحكِّموا الرسول فيما اختلفوا فيه لحل النزاع فحَسْب ولكن كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، فإذا حكّموا الرسول ﷺ، وحكم لهم أو عليهم، ثمَّ وجدوا في أنفسهم حرجاً، ولم يسلِّموا، أي: لم يرضوا بذلك، فهذا دليل على عدم وجود الإيمان في قلوبهم، لأنه من صفات المؤمن أنه يرضى بحكم الرسول ﷺ له أو عليه.

وقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ المراد بذلك صاحب النفس المطمئنة بقضاء الله وقدره، والتسليم بحكم الله جلَّ وعلا، واطمئنان

....

النفس إنما يكون بالإيمان واليقين، ليقال لها: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٨]، فيقال للنفوس المؤمنة: ارجعي إلى صاحبكِ، أي: إلى الجسد الذي كنت تسكنين فيه، راضيةً عن الله، مرضيةً عند الله سبحانه وتعالى، هذه خير عاقبة لمن كانت نفسه مطمئنة في هذه الدنيا بالإيمان، وبقضاء الله وقدره، تخاطبُ يوم القيامة عند البعث والنشور، فيقال لها: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، أي: إلى جسدك الذي كنت فيه أو إلى خالقك راضية مرضية ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ والشاهد في ذلك هو قوله: «المطمئنة»؛ أي: بقضاء الله وقدره، وإلى أحكامه الشرعية، المسلّمة لله عزَّ وجل.

ولهما[1] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَة، إنما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفسَه عِند الغَضَبِ». [٩٩]

---

[٩٩] كون المسلم يُمسك نفسه عند الغضب فلا تحصل منه مبادرات سيئة ولا تصرفات خاطئة، فإنَّ هذا من الاطمئنان الذي يرزقه الله لمن يشاء من عباده، فلا يَنساقُ وراء غضبه، ولا ينفعل مع الغضب، بل يُمسك بزمام نفسه حتى يذهب غضبه، أما ضعيف الإيمان، أو عديم الإيمان، فإنه إذا غضب لا يُبالي ماذا فعل أو ماذا قال، لأنه يَنجرُّ وراء غضبه.

والحديث فيه إرشاد إلى أنَّ من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبها أن يجاهدها ويمنعها مما طلبت، حتى يزول عنها الغضب، فالله ـ جلَّ وعلا ـ وصف المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥]، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، لأنَّ الشيطان

---

(١) البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

....

يحضر عند الغضب، والغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم، وهو يحمل الغضبان على أن يعصي الله، وربما حمله على الكفر ـ والعياذ بالله ـ أو على القتل، أو على السب والشتم والقذف والكلام القَبيح، أما المؤمن فإنه يملك نفسه، وهذا شبهه النبي ﷺ بأنه أقوى الناس، فليس الشديد بالصرعة، الذي يصرع الناس بقوته، وإنما هو الذي يملك نفسه عند الغضب، بما أعطاه الله من قوة الإيمان، وهي أقوى من قوة البدن.

والحاصل مِنْ هذا أنَّ الانفعال مع الغضب يُعَدُّ كبيرة من كبائر الذنوب لا سيّما إذا ترتب عليه معصية، أو نتج عنه قتل، أو كلام قبيح كأن يَسبَّ الله عزَّ وجل أو رسوله ﷺ أو يسب الدين.

وللبخاري[1]: أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أَوْصِني، قال: «لا تَغضبْ» فردَّد مراراً قال: «لا تَغضَبْ». [١٠٠]

---

[١٠٠] هذا رجل طلب من النبي ﷺ الوصيَّة، فقال له النبي ﷺ: «لا تغضب» وكان الرجل يريد أكثر من هذا، فكرر على الرسول ﷺ السؤال بطلب الوصيَّة، فقال له: «لا تغضب»، ثم كرَّر عليه الثالثة، فقال: «لا تغضب»، وهذا ـ والله أعلم ـ لأنَّ النبي ﷺ عرف أن هذا الرجل كثير الغضب، فالنبي ﷺ أعطاه من الوصيَّة ما يناسب حاله، وهذا من وفور عقله ﷺ بأن وصف العلاج المناسب للشخص المناسب، فإن المسلم إن تجنب الغضب سلم من أمور كثيرة، وإذا غضب كان على خطر عظيم، فإنَّ المرء إن غضب لم يَدْرِ ما يقول أو يفعل، وقد يقول كلمة الكفر، أو قد يقتل وقد يطلِّق زوجته فهو قد لا يستطيع أن يمسك لسانه ولا يده، ثم إذا ذهبت ثورة الغضب ندم حيث لا ينفع النَّدم.

فعلى المسلم إذا غضب أن يمسك بزمام نفسه، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فالغضب يعالج بعدَّة طرق، فعليه أولاً: أن يستعيذ بالله من الشيطان، لأنَّ الغضب من الشيطان.

---

(١) في «صحيحه» (٦١١٦) من حديث أبي هريرة.

....

ثانياً: أن يتوضأ، لأن الغضب من الشيطان، والشيطان مخلوق من نار، والماء يطفئ النار.

ثالثاً: إذا كان قائماً فليقعد، وإذا كان جالساً فليضطجع.

تخاصم رجلان وصارا يتجادلان، والنبي ﷺ يراهما، وكان يسب أحدهما الآخر، فغضب الآخر واحمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم»[1]، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الشعراء: ٢٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صرد ﷺ.

وعن أبي ذر ﷺ مرفوعاً: «قد أفلحَ مَنْ أخلَصَ الله قَلْبَه للإيمان، وجعلَ قلبه سَليماً، ولِسانَه صادقاً، ونَفْسَه مُطمَئِنّة، وخَليقتَه مُستقيمةً، وجعل أُذُنَه مُستَمِعةً، وعينَه ناظِرةً، فأمَّا الأُذُنُ فقِمْعٌ، وأمَّا العينُ فمُعبِّرة لِما يُوعي القلبُ، وقد أَفلَحَ مَنْ جَعلَ اللهُ قَلبَه واعياً». رواه أحمد[1]. [١٠١]

---

[١٠١] هذا الحديث يشتمل على صفات تدلُّ على سعادة مَن اتَّصف بها.

أولها: يتمثل في قوله ﷺ: «أفلح من أخلص قلبه لله» والفلاح ضد الخسارة، وهذه الصفة المذكورة لا تكون إلّا فيمَن كان قلبه مخلصاً بالإيمان ليس فيه نفاق، لأنَّ الإنسان ربما اجتمعت به صفتا الإيمان والنفاق، أو يكون مؤمناً خالصاً، أو منافقاً خالصاً، فالمؤمن الخالص هو أفضل هذه الأنواع، ثم بعده المؤمن الذي فيه إيمان ونفاق، أما أشقى الأنواع فهو المنافق الخالص والعياذ بالله. وهذا المؤمن الخالص الإيمان جعل الله قلبه سليماً كما قال ـ جلَّ وعلا ـ حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا

---

(١) في «مسنده» (٢١٣١٠)، وفيه: والعين مُقِرَّة بما يوعي القلب، أي: مثبته في القلب ما يحفظه من المعاني.

....

مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، والمقصود: أنه سليم من الأمراض المعنويَّة، فقد يكون القلب سليماً من الأمراض العضوية، لكنه مريض بأمراضٍ معنوية، وهي أشدُّ من المرض العضوي، والقلب السليم خالٍ من الغش والحقد، وفي الحديث الذي يرويه أنس ﷺ أنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلَّق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إنِّي لاحَيْتُ أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي، فعلت، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارّ وتقلَّب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلّا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أَحقِر عمله، قلت: يا عبد الله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هَجْرٌ،

....

ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مِرارٍ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث مرارٍ، فأردتُ أن آوي إليك لأنظرَ ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ. قال: فلما ولَّيت دعاني، فقال: ما هو غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشّاً، ولا أَحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نُطيق[1]. فهذا الذي أوصله إلى هذه المكانة الرفيعة، سلامة قلبه، فهو لم يكن من أكثر الصحابة أعمالاً، ولكنه كان سليم القلب، لا يحقد على أحدٍ من المسلمين، ولا يحسد أحداً على نعمةٍ أنعمها الله عليه.

ثاني الصفات تتمثل في قوله: «ولسانه صادقاً»، فهذه الصفة هي أبرز ما يميز المسلم عن غيره، فهو لا يتكلم إلّا صادقاً، ويتجنب الكذب والغيبة والنميمة، والكلام الذي لا فائدة منه، فالصدق هو شعار المسلم.

وهذا فيه الحث على الصدق في القول والعمل، وأنَّ الصادق يكون في زمرة المفلحين، وأنَّ نجاة المسلم تكون بحفظ لسانه، فهذا

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧).

....

العضو الصغير شأنه خطير، ولهذا قيل: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال ﷺ: «وهل يكُبّ الناسَ على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلَّا حصائدُ ألسنتهم»(١)، فالكلام خطير لا سيما إذا كان كذباً أو خداعاً وغشّاً للآخرين.

ثالثها في قوله ﷺ: «ونفسه مطمئنة» وهذا هو الشاهد هنا، أن تكون نفس المؤمن مطمئنة بالإيمان، ومطمئنة لِقضاء الله وقدره، لا تتأثر إذا أصابها ما تكره، وإنما تصبر وتحتسب رجاء الثواب، وإن أصابها خير شكرت وحمدت على النعماء، فهذا معنى الاطمئنان الذي يكون في الرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

رابعها في قوله: «وخَليقته مستقيمة»، أي: كان حَسَنَ الخُلُق، قال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن»(٢)، وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: احرص على أنْ تُحسِّن أخلاقك مع الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

. . . .

خامسها في قوله: «أُذنُه مُستَمِعَة» أي: للخير، فالأُذن مستمعة بطبيعة الحال، ولكن أذن المؤمن مستمعة للمفيد من ذكر الله تعالى وقراءة القرآن والعلم النافع، ولا تستمع إلى ما يضرُّها ويُغضب الله، مثل الكذب والنميمة والسبّ والشتم وسماع اللهو والأغاني، فكما ينزّه المسلم لسانه لا بُدَّ له من أن ينزّه سمعه.

سادسها في قوله: «وعَينَه ناظرة». أي: إلى دلائل صنع الله في الآفاق والأنفُس وناظرة إلى ما ينفعها، نظر اعتبار وتفكُّر وانتباه، لا نظر البهائم، التي لا تفقه شيئاً، وإنما نظر انتباه وتبصر، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ولكن عليك أن تستعمل بصرك بما فيه خيرك في الدنيا والآخرة، ولا تستعمل بصرك في النظر إلى ما حرَّم الله من الفتن، مثل النظر إلى النساء ومحارم الله ـ عزَّ وجل ـ ومثل العين الأذن أيضاً، فقد شبَّه ﷺ الأذن بالقِمْعِ: وهو «الـمِحْقَن» الذي يوضع في فم الوعاء أو القِربة، ثم يُصبُّ فيه الماء، فالأُذن مثل المحقن الذي يصب فيه الماء، فهي تصب في القلب ما تسمعه حسناً كان أم سيئاً، كالماء الذي يُحقَن في السقاء ويُصَب فيه، وأما العين فهي معبرة لما يوعي القلب،

. . . .

فعينك ينبغي عليك أن تنظر فيها إلى ما يُفيد قلبك نظر اعتبار وتفكُّر، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فالأصل في الإنسان أن ينظر نظر اعتبار وتفكُّر، ولكن الناس في هذه الأيام يكثرون من السياحة، ولكن أيُّ سياحةٍ؟ هل هي سياحةُ معاصٍ أم سياحة إيمان؟ المطلوب سياحة الإيمان التي فيها نظر وتأمل وتدبر وتعقل في ملكوت الله عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فالذي يسيح في الأرض من أجل الاعتبار والتوبة والرجوع إلى الله تعالى، فهو الناجي، أما الذي يسيح في الأرض لإشباع رغباته وشهواته وأهوائه، والاستمتاع بالمحرمات، ولا يتعظ ولا يرتدع، فهذه سياحة محرمة، وإن كانت سياحته لأجل الاستمتاع المباح والنزهة النزيهة، فهي سياحة مباحة.

....

وقوله ﷺ: «وقد أفلح من جعل الله قلبه واعياً» أي: متيقظاً لذكر الله، ومعتبراً فلا يكون قلبه ميتاً، فالقلوب ثلاثة أقسام: قلب مستنير بنور الله عزَّ وجل، وقلب مريض: وهو قلب المنافق، وقلب ميت وهو قلب الكافر، فقلب المؤمن قلب حي مستنير صادق، فانظر قلبك من أي القلوب هو؟

باب الجهالة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩].

وعن ابن عباس ومعاوية وغيرهما رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «من يُرِدِ الله به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين»(١).

وفي حديث البراء بن عازب ﷺ: «أنَّ الـمُرْتابَ هو الَّذي يقول إذا سَأَله الـمَلَكانِ: ها هاه، لا أدري سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقُلته»(٢). [١٠٢]

---

[١٠٢] قوله: «باب الجهالة» الجهالة من الجهل: وهو ضد العلم، فلا يجوز للإنسان أن يبقى جاهلاً في أمور الدين، بل يجب عليه تعلّم ما لا يستقيم دينه إلاّ به، لأنَّ ترك هذا التعلم يُعدّ كبيرة من الكبائر، لأنَّ هذا فيه حرمانٌ للفرد من العلم، والله وصف المنافقين بأنهم

---

(١) حديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٧٩٠)، والترمذي (٢٦٤٥)، وحديث معاوية أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، وأخرجه ابن ماجه (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهم

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء رضي الله عنها، وحديث البراء أخرجه أحمد (١٨٦١٤) بطوله بسياق آخر.

....

لا يفقهون فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، وذلك لأنهم لا يهتمون بطلب العلم وسماع الخير المفيد من القرآن والسنة، ولذلك فهم يبقون على جهالتهم وعلى ضلالهم، نسأل الله العافية، وقد يصل الإعراض عن التعلم إلى حدّ الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، أو يصل إلى حد النفاق، وقد كان المنافقون يحضرون مجالس الرسول ﷺ ويستمعون له في خطبة الجمعة، ولكنهم عندما يخرجون من عنده كان حالهم كأنهم ما حضروا، وفي هذا يقول الله على لسانهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾[محمد: ١٦] فهم حضروا بأجسامهم، لكنّ عقولهم وقلوبهم كانت غائبة، فكانوا إذا حضروا خُطبَ النبي ﷺ وخرجوا بعدها يسألون الصحابة: ماذا قال النبي؟ كما سألوا ابن مسعود، فهم لا فهم لا يحفظون ولا يفقهون ما سمعوا.

والرسول ﷺ شبَّه الناس مع سماعهم العلم بالأرض يصيبها المطر، فالمطر يصيب جميع الأرض، ولكنَّ قسماً منها هو الذي يمسك الماء ويُنبت الكلأ، فيرعى الناس ويشربون وهذا أطيب الأقسام، ومنها قسم يمسك الماء ولا ينبت الكلأ، وهذا أيضاً طيب

....

لأنه يُمسك الماء للنَّاس لشربهم كالأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء، فالناس كذلك عند سماع العلم من القرآن والسنة، فمنهم من يعي ويحفظ ويفهم، ومنهم من يحفظ ولكنه لا يفهم، أو أن فهمه قليل، لكنه يعتني بما سمع ويبلِّغه للناس، وقسم ثالث لا خير فيه، وهو الذي لا يقبل هُدى الله وما جاء به الرسول ﷺ، قال ﷺ: «مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضاً، فكان منها نقيَّةٌ قَبِلَت الماء فأنبتت الكَلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أَمْسكت الماءَ فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ الله ونفَعَه ما بَعَثني الله به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلكَ رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسِلت به»[1]، هكذا ضرب رسول الله ﷺ مثلاً، وقسّم الناس وصنَّفهم تجاه الوحي والقرآن والسنة حين يسمعونها.

الصنف الأول: هم الفقهاء المحدثون، والصنف الثاني: هم الحفّاظ غير الفقهاء، والصنف الثالث: هم الذين لا خير فيهم، لا

(١) أخرجه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

....

هم فقهاء ولا حفّاظ، فهم مثل الأرض السَّبِخَة: التي لا تُنبت نباتاً لملوحة أرضها، أو مثل الأرض المستوية الملساء التي يزل عنها الماء، فلا تقبل الماء في باطنها، ولا تمسكه على ظاهرها حتى يُنتفع به فكلٌّ الأصناف أصابها المطر، ولم ينتفع به إلّا الأرض الطيبة، فكذلك الناس ينقسمون إلى هذه الأقسام في تلقي العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ اللام في «لقد» موطئة للقَسَم، ففيه قَسَم محذوف، تقديره «والله» و«قد»: أداة تحقيق، أي: والله لقد خلقنا لجهنم، وهذا إنذار، أي: خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، ولم يقل: قليلاً، فأكثر الخلق من أهل النار، فلا تغترّ بالكثرة وتقول: إن أكثر الناس على ذلك، فقد قدَّرنا دخولهم جهنم بسبب أفعالهم، فهم لا يدخلون النار لأن الله خلَقهم لجهنم، لا، وإنما دخلوها بأعمالهم السيئة، وقد جاء في الحديث أنه يقال لآدم: «أَخرِجْ بعث النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألفٍ تسع مئةٍ وتسعةً وتسعينَ»[1]، كلهم في النار، وواحد في الجنة، فلا تغترّ بالكثرة.

وليس الإنس وحدهم يدخلون النار ولكن الجن أيضاً، وهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

....

عالم غيبي نؤمن بوجودهم وإن لم نكن نراهم، وهم مكلّفون مثلنا، ومأمورون ومنهيون، ورسالة محمد ﷺ عامّة للجن والإنس، وهو مبعوث للثقلين بشيراً ونذيراً، والإنس: هم بنوا آدم، فأهل جهنم كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي لم يفهموا ما سمعوا ولم ينتفعوا بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، وهذا محل الشاهد هنا أنهم تركوا تعلّم العلم، وأعرضوا عن الكتاب والسنة، فحُرموا من الفقه، وفائدة القلب التي أنعم الله بها عليهم متعطلة، فهم لا يفهمون، لأن قلوبهم لا تفهم، لأنها لا تُقْدِمُ على الخير، فهي مُعرِضة عنه، وقال تعالى أيضاً: ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فهم لهم أعين كذلك، لكنّهم لا يبصرون بها الإبصار الذي ينفعهم، وإنما يبصرون بها إبصار أصحاب الشهوات والغفلة، ولهم كذلك آذان كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، لهم إذن يسمعون بها وليسوا صُمّاً، ولكنهم يسمعون ما يضرهم ولا ينفعهم، فهم يستعملون قلوبهم وآذانهم وأعينهم فيما لا ينفعهم، وهذا ما عليه كثير من الناس والعياذ بالله، والقليل هم الذين لهم قلوب تفقه، وأعين تبصر، وآذان تسمع الخير، هؤلاء هم القليل من الناس، وهؤلاء هم الذين

....

يخرجون من الجهل المظلم إلى الهدى والنور والعلم النافع، وذلك لأنهم أحضروا قلوبهم، ونظروا بأبصارهم نظر اعتبار واتعاظ، وسمعوا بآذانهم ما ينفعهم من القول الطيب والكلام النافع، هؤلاء الذين فقهوا وعقلوا.

ثم قال تعالى في آخر هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وهذا ذمٌّ لهم، فالأنعام لا تعرف هذه الأشياء، لأنَّ همّها الأكل والشرب فقط، لأنَّها ما كُلفت وهم مكلفون، ولهذا زاد ذمّاً لهم بقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ هم أضلّ من الأنعام، لأنَّ الأنعام لم تُكَلَّف وهم مكلفون، فمهمة الأنعام في هذه الدنيا هي المنافع للناس، فلا حساب عليها ولا تدخل جنة ولا ناراً.

أما الجن والإنس الذين أعطاهم الله عقولاً، فهؤلاء لهم الجنة ولهم النار، لذلك كانت الأنعام خيراً من هؤلاء، وهم أضل منها، لأنها عرفت مسؤوليتها في هذه الحياة، أما هؤلاء فلم يعرفوا مسؤوليتهم، مع أنه سبحانه وتعالى فضلّهم على البهائم، ولكنهم أَبَوْا إلّا أن يكونوا مثلها، بل أضلّ منها، فكان همُّهم الطعام والملذات. والإعراض عمّا فيه نفعهُم في دُنياهَم وآخرتهم، وبهذا صاروا أقل منزلة من البهائم، نسأل الله العافية.

....

وأمّا حديث ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم فهو حديث عظيمٌ، فقد ذكر فيه النبي ﷺ علامة الخير، أو علامة إرادة الله الخير للعبد، وهذه العلامة هي التفقه في الدين، والفقه في اللغة معناه: الفهم، وأما الفقه في الاصطلاح فهو: معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة، والله ـ جلَّ وعلا ـ حثَّ على التفقه في الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقوله: «فلولا» فيه حث، أي: هلاّ نفر، أي: سافر لطلب العلم، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: قوم ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أي: جماعة سواء كانت قليلة أم كثيرة، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: ليتعلموا الأحكام الشرعية من الرسول ﷺ، وليس هذا خاصاً بزمن الرسول ﷺ، بل هو عام إلى أن تقوم الساعة، فيُشرع لمن لديه القدرة على السفر لطلب العلم أن يسافر.

وفي هذا دليل على أنَّ العلم يُتلقى عن العلماء، وأنَّ الرِّحال تُشَدُّ إليهم، ولو كان العلم يُتلقى من الكتب لاشترى كل واحد منهم مجموعة من الكتب وجلس يقرأ، ولا حاجة للسفر، لكن هذا

. . . .

لا يُعدّ تعلّماً، بل إنه يضر أكثر مما ينفع، والعلم بالتعلّم، والتعلم إنما يكون على يد العلماء الذين تحمَّلوه وفهموه من أصوله وأدلته، وتناقلوه جيلاً بعد جيل، فهذا هو العلم.

ثم هل يكفي أن يتفقهوا في الدين فقط؟ لا، وإنما كما ذكر سبحانه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فمهمة المتعلّم ليست اختزان العلم في صدره، وإنما ليعلم به ويبلِّغه، لأنَّ العلم أمانة، وفي قوله: ﴿قَوْمَهُمْ﴾ دليلٌ على أن أول من يبدأ العالم بتعليمهم هم قوم العالم، فيبدأ بأهل بيته ثم أقاربه ثم أهل بلده، فهم أولى بتبليغهم العلم من الأبعدين، فقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهم بذلك ينذرون قومهم، لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، أي: يحذرون من الشرك والمعاصي والبدع والجهل، ويحذرون من أهل الضلال، ومن دُعاته، ومن المذاهب الهدّامة، خاصّة في هذا الزمان، فهم بحاجة ماسَّة لمن يرشدهم إلى الطريق الصحيح والمنهج السليم. وأما الذين يذهبون إلى البلدان للدعوة ويتركون أهل بلدهم فهم مخالفون للمنهج الصحيح في الدعوة.

فدلّت هذه الآية على أنه لا يجوز للإنسان أن يعلّم أو يدعو إلى الله

....

دون أن يتفقه، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فالبصيرة هي: العلم، وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة: هي الفقه والعلم والفهم.

وفي هذا الحديث الذي رواه أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وابن عباس - رضي الله عنهم - حيث قال فيه النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى وأنها صفة من صفاته، والإرادة قسمان:

القسم الأول: إرادة كونية قدريَّة، وقد قال تعالى مثالاً على هذه الإرادة الكونية: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

والقسم الثاني: إرادة شرعية دينية كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، والإرادة الكونية لا بُدَّ من وقوعها، أما الإرادة الشرعية، فقد تقع، وقد لا تقع.

قد اشتمل هذا الحديث على الإرادة الكونية، فإذا أراد الله بعبده الخير إرادة كونية، فإنه يوفقه للتفقه في الدين، ومن لم يرد به خيراً فإنَّه لا يفقهه في الدين، ويحرمه من العلم، والحرمان من العلم الشرعي

....

علامة على أن الله لم يرد بهذا العبد خيراً، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

وأيضاً قال: «في الدين»، فالفقه يكون في الدين، وذلك بمعرفة الأحكام الشرعية، وليس الفقه الذي يُسمُّونه الآن: فقه الواقع الذي هو معرفة أمور السياسة وما يجري في العالم، ونقول لهؤلاء إنك لن تفقه الواقع إلّا بعد أن تتفقه في الدين، أما بدون ذلك فلا.

أما حديث البراء بن عازب ﷺ، فهو حديث طويل، جاء فيه وصف الاحتضار عند الموت، وطريقة نزع الروح من الجسد، وما يجري على العبد إذا وُضِع في قبره، حيث يأتيه ملكان، وتعاد روحه إلى جسده فيحيا حياة برزخية، تختلف عن الحياة في الدنيا، فيقعدانه ويسألانه: من ربك؟ ما دينك ومن نبيك؟ فالمؤمن الذي تفقه في دين الله وعمل به في الدنيا، واستقام على الحق في حياته، يكون الجواب عليه يسيراً فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيوسّع له في قبره مدّ بصره، ويأتيه من رَوح الجنة وريحها، وينوّر له في قبره، ويصبح في روضة من رياض الجنة، نسأل الله الكريم من فضله.

وقوله: «وأنَّ المرتاب»، المرتاب: هو الشاكّ في دينه الذي لم يدخل

....

الإيمان في قلبه، وإنما تابع الناس على ما هم عليه، وعاش معهم دون اقتناعٍ بهذا الدين، وإنما التزم به ظاهراً، ليعيش مع الناس، وهذا حال المنافقين ـ والعياذ بالله ـ الذين أسلموا في الظاهر، وهم كفار في الباطن، فإذا جاء أحدَهم الملكان وسألاه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ لا يستطيع الجواب وإن كان متعلّماً في الدنيا، ويملك الفصاحة، ومتبحراً في العلم، لأنَّه كان عنده شك في دينه، وفي عقيدته، فهو لا يستطيع الجواب فيقول: ها ها لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، وهذا من باب التقليد، ومعايشة الناس بلا علم، لا بالدين ولا بالله، فيُنزع منه العلم في القبر، ويبقى متحيِّراً كما كان متحيِّراً في الدنيا، ومات على الشك والنفاق، فهو لا يستطيع الجواب، فينادي منادٍ: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّها وسَمومها، ويُضيِّق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه ـ والعياذ بالله ـ ويكون في حفرة من حفر النار، فالقبر روضة من رياض الجنة على المؤمن، وحفرة من حفر النار على الكافر والمنافق، وهذا سببه أنه لم يتفقه في دينه قبل أن يموت ويعمل به، فهذه عاقبته.

وأمّا المؤمن فإنَّه يرى في قبره مقعده في الجنة، ومنزلته فيها، ويتمنى

....

أن تقوم الساعة كي يذهب إلى منزله، والمنافق يُفتح له بابٌ إلى النار، فيرى منزله فيها، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة، لأنه يعلم أن ما بعد القبر أشد، ويتمنى أن لا تقوم الساعة، لأنه يرى مآله، والعياذ بالله.

فهذا الحديث فيه التحذير من الجهل والشك في الدين، وفيه الحث على تعلُّم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع، لأنَّ مَن لم يعرف أمور دينه على بصيرة لا يكون فقيهاً، وفيه الحث على العمل بطاعة الله، حتى يؤول إلى المآل الطيب.

باب القِحَة(١)

وقول الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨].

وفي البخاري(٢) عن أبي مسعود عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلامِ النبوَّةِ الأُولى: إذا لم تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئْت». [١٠٣]

---

[١٠٣] قوله: «القِحة»: هنا تعني: قلة الحياء، أما القُح في الأصل: فهو الشيء الخالص، يقال: هذا قُح؛ يعني: خالص، يقولون: هذا عربيٌّ قُحٌّ، أي: عربي خالص في نَسَبه، أما المراد هنا بقوله: «القِحَة» فالأصل وقَح، وهي كلمة تدل على صلابة في الشيء، فالحافر الصلب وَقَاح، شبه به الرجل القليل الحِياء، فقيل: وقح بيِّن القِحة والوقاحة، أي: قلَّ حياؤه واجترأ على اقتراف القبائح ولم يعبأ بها.

---

(١) جاء في طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية التي حققها الأستاذ باسم بن فيصل الجوابرة، ما نصه: ورد هذا اللفظ في المخطوطات الثلاث هكذا «القحة»، وورد في النسخ المطبوعة بلفظ «الخفية»، والقَح: الجافي من الناس كأنه خالص فيه.

(٢) في «صحيحه» (٣٤٨٤).

....

وهذه الآية نزلت في المنافقين حيث قال الله عزَّ وجلّ في شأنهم: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ يستخفون بقبائحهم عن الناس، فهم يسترونها عنهم، لئلا يعرفهم الناس، ويتجنبوهم من باب الخداع، وفي المقابل هم لا يستخفون من الله تعالى، وإنما يبادرونه بالمعاصي، وإذا كانوا مع الناس أظهروا لهم الخير والعبادة والتمسك بالدين، وإذا خلوا استحلوا الحرمات وارتكبوا الآثام، لأنَّ الذي يهمهم أمر الناس وليس الله سبحانه، هذه هي صفة المنافقين، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، وصنيعهم هذا من الجفاء في الدين وعدم الرغبة والمحبة فيه، وهذا شأن المنافق دائماً مع الدين فهو يعتنقه ظاهراً ليعيش بين الناس، لمصالحه الدنيوية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ فالله معهم لا يخفى عليه سرَّهم، لأنه سبحانه يعلم ظاهرهم وباطنهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وما يبطنون وما يعلنون، وهذه معية عامة، ومعناها: الإحاطة والعلم، فهو سبحانه مطَّلع عليهم أينما كانوا، ويحصي عليهم أعمالهم، مهما حاولوا التستر والخداع والمكر، لأنهم مهما حاولوا خداع الناس لأنَّ الناس ليس لهم إلَّا الظاهر، فلن يستطيعوا خداع الله عزَّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ

....

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: يستدرجهم ويملي لهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، وخداع الله تعالى محمود، لأنَّه في محله، وهو عدلٌ منه سبحانه وجزاء على أعمال المنافقين السيئة، وخداع البشرِ مذموم، لأنه بغيرِ حقٍ.

قوله ﷺ: «إن مَمَّا أدرك الناس من كلام النبوّة» أي: مما بقيَ من حكمتهم على ألسنة الناس، ولم يُنسَخ فيما نُسخ من شرائعهم.

«إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ظاهر هذا الحديث أنَّ الذي لا يبالي بالذنب ولا يستحي من الناس ولا من الله تعالى، يصنع ما يشاء من القبائح، لأنه ليس عنده حياءٌ يحجزه، فمَن فقد الحياء، صنع ما شاء من القبائح، وقوله: «فاصنع ما شئتَ» فيه توبيخٌ شديد، أو هو للتهديد، أي: افعل ما شئت فسوف ترى عاقبة ذلك الصنيع، وهذا فيه أيضاً ذم عدم الحياء، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها: قول لا إله إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]، فالحياء هو الذي يمنع الإنسان من عمل ما لا يليق، ولهذا فهو شعبة من الإيمان وهو محمود، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً يعظ أخاه في الحياء فقال

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

له: «دعه، فإنَّ الحياء لا يأتي إلَّا بخير»[1].

والحياء خلق محمود جعله الله في الإنسان ليمنعه عما لا يليق فِعْلَه، فهو شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهو خُلُقٌ يكف الإنسان عن الرذائل والذنوب والمعاصي والسخافات، فإذا فقد الإنسان هذا الخلق، فإنه لا يبالي أن يصنع ما يشاء، وهذا واقع ونراه في مجتمعاتنا، فبعضهم من قلة حيائه لا يبالي بما يفعل من المعاصي والقبائح والرذائل، أو حتى الفواحش أو التكلم بالكلام القبيح، كما يفعله بعض الصحفيين من الكلام في الأحكام الشرعية وتنقص العلماء وهو لا يفهم من الدين شيئاً.

وفي الحديث الحثُّ على التخلّق بخُلق الحياء، وهذا النوع من الحياء هو الحياء المحمود، أما الحياء الذي يمنع صاحبه من التعلم وسؤال أهل العلم فيسمى خجلاً وليس حياءً وهو مذمومٌ، فالمسلم لا ينبغي له أن يخجل من سؤال ما أشكل عليه، فإن منعه الخجل فهو قصور ونقص في حقه، وهذا هو المتبادر من معنى الحديث، وأما بعض العلماء ففسره تفسيراً آخر، فقال: إذا كان الذي تفعله لا يُسْتَحيا منه فافعله، أما إذا كان مما يُستحيا منه فاتركه، وهو لا يختلف تقريباً عن المعنى الأول.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤) ومسلم (٣٦) من حديث ابن عمر ﷺ.

باب الحرص على المال والشرف

عن كعب ﷺ مرفوعاً: «ما ذِئْبانِ جائِعانِ أُرْسِلا في زَرِيبَةِ غَنَم، بأفسَدَ لَهَا مِنْ مِنْ حِرْصِ المَرْءِ على المالِ والشَّرَفِ لِدينه» صحَّحه الترمذي[1] [١٠٤]

---

[١٠٤] وفي هذا الحديث بيان مضرة الحرص على المال والشرف على الدِّين، فالحرص على المال والشرف يضر بالدين، لأن الحرص على المال يحمل الإنسان على الكسب الحرام، من الربا والقمار، والغش والسرقة والغصب وغير ذلك، أي: إن محبة المال تحمل الإنسان على الكسب الحرام، وليس المراد أن لا يحب الإنسان المال، فلقد قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

والخير: هو المال، وإنما المقصود حب المال الذي يحمل الإنسان على المكاسب المحرّمة، فهذا هو الحرام، وإلَّا فالله ـ جلَّ وعلا ـ قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فالكل يحب المال، ولكن إذا خرج حب المال عن حدّه، وحَمَل صاحبه على عدم

---

(١) في «جامعه» برقم (٢٣٧٦)، وأخرجه أحمد (١٥٧٨٤).

....

المبالاة بأي وسيلة يأخذه، فهذ هو الحرام المذموم الذي يضر بالدين، لأنَّ صاحبه لا يتقيد بأوامر الله سبحانه وتعالى، ونواهيه، بل يكسب المال من أية طريقة كانت.

والشرف: هو الجاه والرفعة، والكل يحب الشرف والرفعة، ولكن إذا خرج عن حدِّه، فبلغ حب الشرف بالإنسان أن يتعدى على غيره ويتكبر، ويظلم غيره من أجل الحصول على هذا الشرف، فقتل وتعدّى على غيره، فهذا مذموم يضر بالدين، فكلُّ شيء له حدود يجب أن لا يتعداها.

وفي حديث كعب هذا مثال ضربه النبي ﷺ على خطر الحرص على المال وعلى الشرف، حيث شبَّه الرَّجل الحريص على جمع المال وتحصيل الشرف والجاه بالذئبين الجائعين اللذين وَجَدا غنماً في زريبة، أي: حظيرة، فإذا أتى عليها الذئبان الجائعان فتكا بهذه المجموعة من الغنم، فشبّه حُبَّ المال، والحرص على الشرف بذئبين دَخَلا على زريبة غنم، وإذا اجتمع في الإنسان حب المال وحب الشرف، اجتمع فيه ذئبان يفتكان بدينه كما يفتك الذئبان في الغنم، فما ظنكم بذئبين جائعين وجدا غنماً محصورة في زريبة، ماذا سيفعلان؟ إنهما سيفتكان بها فتكاً شديداً، وهذا مثل رائع يضربه ﷺ، يبيِّن فيه

....

خطر حرص المرء على تحصيل المال والشرف والمبالغة في ذلك دون أن يُبالي من أين وكيف اكتسبه ليحصل على المال والشرف، فمن فعل ذلك فقد أهلك دينه كما يهلك الذئب الشياه إن تمكن منها.

وهذا فيه تحذير من حب المال الذي يحمل صاحبه على الجشع والطمع، وعدم المبالاة من أين يأخذ المال، ومن المبالغة في حب الرفعة والرئاسة، أو الجاه الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر وظلم الناس والتعدي عليهم، فالإنسان المسلم متواضع، رفيق بالناس، وإذا نال شيئاً من الشرف أو الولاية، سَخَّرَ ذلك لخدمة الرعيَّة والرفق بها، وإلّا كان كالذئب الذي يهلك الغنم.

ثم إنَّ المغالاة في حب المال قد يحمل الإنسان على تحصيله بأيَّة وسيلة دون تفريق بين حلال وحرام، والحقيقة أن هذا واقع أكثر الناس اليوم، حيث يسعون إلى تحصيل المال وتكثيره دونما نظر إلى الأحكام الشرعية في البيوع وغيرها، فلربما يقعون في الربا، أو يتعاملون بالرشوة والتدليس والغش، واستخدام الطرق الملتوية حتى لو أدى ذلك إلى أكل حقوق الناس بالباطل، ثم الطامة الكبرى أنك إن بيّنت الحكم الشرعي قالوا لك: كل الناس يفعلون هذا، وأنت متشدد ونحو ذلك.

باب الهَلَع والـجُبْن

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩- ٢٢].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «شَرُّ ما في الرجل شُحٌّ هالِعٌ، وجُبْنٌ خالِعٌ» رواه أبو داود بسند جيد[١]. [١٠٥]

---

[١٠٥] ذكر الله تعالى الهَلَع في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، أي: جَزوعاً لا يصبر على ما ينزل به من بلاء، والمراد: جنس الإنسان وليس كلُّ إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى هلوعاً، ومَنْ هو الهلوع؟ الهلوع: هو الذي ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، فإذا أصابه شرٌّ جزع ولم يصبر، ولم يؤمن بالقضاء والقدر، وإذا أصابته النعمة والخير والسعة والسعادة، منع الخير والصدقة والنفقة في سبيل الله، وهاتان خصلتان مبغوضتان في الإنسان:

الأولى: أنه إذا أصابه الضر فزع وانخلع قلبه من شدة الفزع، وما علم أن ذلك بسبب ذنوبه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، فالواجب على المسلم في مثل هذه الحالة أن يحاسب نفسه ويتوب إلى الله تعالى، ويحتسب

---

(١) في «سننه» برقم (٢٥١١)، وأخرجه أحمد (٨٠١٠).

....

المصيبة عنده جلَّ وعلا.

والخصلة الثانية: أنَّه إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله فيها، في حين أنَّه ينبغي له إن أحدَثَ الله له نعمة أن يشكره عزَّ وجل، ويعطي المحتاجين مما أعطاه الله، لأجل أن يبارك له في ماله في الدنيا وفي الآخرة، فهو مُثاب على ذلك، وله الأجر والثواب عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فكما يستثمر الإنسان ماله في الدنيا وينميه في العقارات وغيرها، فلماذا لا يستثمره في الآخرة بالقصور والبساتين والمساكن في الجنة التي هي خير وأبقى مما في الدنيا؟ وليس المطلوب من المسلم أن ينفق ماله كله، وإنما عليه أن يتصدَّق ويخرج منه في سبيل الله، فلا يجعل ماله كله للدنيا، ولكن عليه أن يجعل جزءاً منه للآخرة، فإن المانع من الإنفاق والجود خوف الفقر، هو جهلٌ بالله وعدم وثوق بوعده، وفي المقابل فمَن تحقق أنه هو الرزاق وهو المعطي لَـم يثق بغيره.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، فاستثنى المصلين من هاتين الصفتين، فالمصلِّي الذي يحافظ على صلاته يسلم من هاتين الخصلتين المذمومتين، لأنَّ الصلاة كما قال تعالى: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وكذلك فإن الصلاة تعين

....

على تحمّل المصاعب والمشاقّ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالصلاة هي خير عمل الإنسان، فلذلك استثنى الله المصلين من الجزع عند المصيبة والمكروه، ومن المنع عند حصول النعمة، فإنهم إذا أصابتهم ضرّاء صبروا، وإن أصابتهم سرّاء شكروا الله ـ عزَّ وجل ـ لأنَّ الصلاة تأمر بذلك وتعين عليه، وهذا من الفوائد العظيمة في الصلاة.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «شَرُّ ما في الرجل شح هالع، وجُبْن خالع» الشُّح: هو البخل الذي يحمل الإنسان على منع الخير من زكاة وصدقة، ومعنى هالع، أي: جازع، فهو يحمل صاحبه على الحرص على المال، والجزع عند ذهابه، وقيل: هو أن لا يشبع كلما وجد شيئاً بلعه، ولا قرار له، ولا يتبيَّن في جوفه، ويحرص على تهيئة شيء آخر، فالشحّ بخل مع حرص، والحاصل أن لفظ الشح أبلغ من البخل، لأنَّ البخل مَنعُ ما وجب بَذْلُه في المال، والشُّح عامّ في كل شيء من المال والأفعال والأقوال، وهذا لا ينبغي أن يكون خُلقاً للمسلم.

وقوله ﷺ: «جُبْن خالع»، الجبن: ضد الشجاعة، كأن يخاف الإنسان أن يجاهد في سبيل الله من شدة خوفه من القتل، أو خوفه

من الجراح، فهذا من الجُبن، ومعنى: خالع؛ أي: شديد كأنه يخلع قلبه من الخوف والرعب، والمراد به ما يعرض من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف، وهذه سمة المنافقين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله، لأنهم يحرصون على الدنيا ويَذَرون الآخرة، ويريدون البقاء، وقد قال الله تعالى يصف المنافقين أصحاب القلوب المريضة عند ذكر الجهاد: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [محمد: ٢٠]، أي: كالذي يعاني سكرات الموت تتقلَّب عيناه من شدة الألم، أي: خلع قلبه ذكر الجهاد، والعياذ بالله، كالذي يُغشى عليه من الموت، فهو لا يريد ذكر الجهاد ولا يريد أن يجاهد، ويحب البقاء في الدنيا، وما هو بباقٍ فيها، فهو ميت لا محالة، سواء مات في المعركة أو بأي سبب آخر، فلا نجاة من الموت، فلماذا لا يكون موتاً في سبيل الله؟ فمن يُقتل في سبيل الله ينال حياة دائمة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] هم أحياءٌ ولكن لا ندري حقيقة حياتهم لأنها في البرزخ، فالشهادة حياة، ولهذا يقول أبوبكر الصديق ﷺ: احرص على الموت توهب لك الحياة، يعني: حياة الشهداء، ومن ترك شيئاً لله، عوّضه الله خيراً منه.

....

في المقابل يصف الله المؤمنين وتحرقهم للجهاد وسعيهم له، لما يعلمون من عظم أجره فيقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠]، تنزل سورة في الجهاد تأمرهم به فيبادرون إليه طمعاً في الأجر والثواب فهم يستبطئون حصول الأمر بالجهاد ويطلبون سرعة الأمر به وهذا دليل على أنَّ الجهاد يرجع في شأنه إلى الكتاب والسنة لا إلى مجرد الرغبة فيه لأنه عبادة والعبادات توقيفية.

ولمسلم[1] عن جابر ﷺ مرفوعاً: «اتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُم، حَمَلَهُم عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِماءَهُم، واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُم». [١٠٦]

---

[١٠٦] في هذا الحديث حذَّر النبي ﷺ من الشُّح، وهو أشدُّ من البخل، لأنَّه يحمل الإنسان على منع ما عنده والطمع فيما عندَ غيره، هذا هو الفرق بين الشح والبخل، فالبخل أن يمنع الإنسان ما عنده، أما الشح، فإنه يدفع الإنسان إلى التطلع إلى ما عند غيره مع منع ما عنده.

وقوله: «أهلك من كان قبلكم» يعني: الأمم السابقة، فكيف أهلكهم؟ حملهم حب المال والشح على «أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» وهذا كله من أجل المال، فقد يقتل الإنسان قريبه أو أخاه المسلم لأنَّ الشحيح لا يكفيه ما عنده بل يتطلع إلى ما عند غيره من أجل أن يحصل على ماله، وقد يحتال كما فعل اليهود لـمّا حرَّم الله عليهم أكل الشحوم فجملوها وباعوها، واستحلو كل وسيلة ليحصلوا من خلالها على المال، فاستحلوا الربا والرشوة والميسر، وهذه صفة الأمم السابقة كاليهود، فإنَّ اليهود لا يبالون

---

(١) في «صحيحه» (٢٥٧٨).

....

بأخذ المال بأي وسيلة، وهم لا يزالون كذلك، وهم أقبح الناس في استغلال وسائل جمع المال وأبخلهم في الإنفاق، فالرسول ﷺ حذَّرنا من هذا المسلك الخطير.

باب البخل

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ الآية [النساء: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ سَيِّدُكُم يا بني سَلِمَة؟» قُلْنا: الجَدُّ بنُ قَيْسٍ، على أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قال: «وأيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ؟ بل سَيِّدُكُم عَمرُو بنُ الجَمُوحِ» رواه البخاري في الأدب المفرد[1]. [١٠٧]

---

[١٠٧] البخل: خُلُقٌ ذميمٌ يكون في بعض الناس، وهو: إمساك المال وعدم إنفاقه في الخير، فإنَّ الله سبحانه وتعالى وهب عباده المال ليختبرهم ويبتليهم، ومعلوم أنَّ الإنسان يحب المال ويحرص عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ – ٨]، والمراد بالخير هنا: المال، وقال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ فحبُّ المال غريزة في الإنسان، ولذلك فإنَّ الله تعالى يبتلي عباده بالإنفاق من هذا المال الذي يحبُّه الإنسان، وقد أكَّدَ سبحانه على هذا المعنى في الآية المذكورة: والإنسان

---

(١) برقم (٢٩٦).

قد يغلب عليه البخل، فلا ينفق شيئاً لا واجباً ولا مستحباً، ويطيع البخلَ الذي في نفسه، وقد يكون الإنسان مجبولاً على الجود والكرم، فيتغلب على البخل الذي في نفسه، وينفق من ماله، فهذه مواهب يقسمها الله بين عباده، فمنهم البخيل، ومنهم الكريم الجواد.

واعلم أن الإنفاق في سبيل الله عبادة، سواء كان واجباً أو مستحباً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فالله ـ عزَّ وجل ـ حثَّ على الإنفاق في سبيله، والإنفاق في سبيل الله على نوعين: الأول: واجب: كالزكاة، والنفقة على الأولاد وعلى الأقارب المحتاجين.

والثاني: مستحب: كالصدقات والتبرعات الخيرية، وهذا يدل على أن المنفق في سبيل الله آثر رضا الله على ما تحبه نفسه، لذلك فإنه يؤجر أجراً عظيماً، ويُثاب ثواباً جزيلاً، وقد مدح سبحانه المؤمنين الأبرار المنفقين، وأنهم إنما يفعلون ذلك ابتغاء مرضاته فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٨-٩] وقال تعالى ذاكراً أن الإنفاق من المال الذي يحبُّه المرء ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

....

وأما إذا كان الإنفاق في غير طاعة الله، كان هذا من باب الإسراف والتبذير المذموم، فالله جلَّ وعلا لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، أي: إنَّ شَرع الله عَدْل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، فعلى الإنسان أن يتوسط في الإنفاق بين البخل والإسراف، وكلاهما سيئ، والخير هو في الاعتدال ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧]، فقد جعل الله المبذِّر في غير حق من إخوان الشياطين، لأنهم أتباعهم، والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم.

وقد حذَّر ﷺ من الذين يتصرفون في المال كيفما يحلو لهم وغير مبالين في كيفية تحصيله كيفما أمكن فقال ﷺ: «إنَّ رجالاً يتخوّضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»[1]، فالمسلم مستخلف

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣١٨) من حديث خولة الأنصارية رضي الله عنها.

....

في هـذه الأموال وسيسأل عنها يوم القيامة، وفي الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع وذكر منها: «وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه»[1]، نعم، يُسألُ العبد من أين اكتسب المال؟ وفي أي شيء أنفقه؟ فالمسلم يمتحن ويبتلى بهذا المال كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] أي: مَنْ سَلِمَ من الشح فقد أفلح وأنجع، والمرء ممتحن إزاء هذا المال ما يصنع به، فهذا وجه عَقْدِ المصنف رحمه الله هذا الباب بكتاب الكبائر، فالبخل كبيرة، فإذا كان في منع الزكاة، فهو كبيرة من كبائر الذنوب، وفي عدم إنفاقه على أهله وزوجته ومَنْ تجب نفقتهم عليه، فعدَّ المصنف البخل كبيرة حتى يأخذ المسلم حِذره من البخل، لينجو من مسؤوليته وتبعته يوم القيامة.

وقول المصنف: وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ الآية [النساء: ٣٧] هذا فيه ذمٌّ للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من برّ الوالدين والإحسان للأقارب وفي غير ذلك من وجوه الإنفاق، فهم علاوة على ذلك

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

يأمرون الناس بالبخل أيضاً، يقولون لهم لا تنفقوا أموالكم وأمسكوها ولا تخرجوا زكاتها، وهذه صفة اليهود، فاليهود يأخذون ولا يعطون، حيث وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، فاليهود هم أصل البخل في العالم، ولا يزالون يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، والله لا يحب هذه الصفة ولا من اتصف بها، فهو الكريم الجواد سبحانه.

ثم أورد المصنف رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، فالله عز وجل أوجب في هذا المال فرضاً، يؤديه صاحبه عبادة لله ـ عز وجل ـ طُعمة للفقراء والمساكين، فجعله حقّاً لهم يُطالَبون به، وإخراج هذا الحق جعله الله من صفات المؤمنين، فقال الله في وصفهم: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] ففي أموالهم حق، وهذا الحق هو للسائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي لا يسأل، فيُحرم العطاء، وقيل: المحروم هو الذي أصابته جائحة، بعد أن كان غنيّاً ثم أصابته جائحة، فذهبت بماله، فَحُرِمَ منه، وهذا له حق أيضاً، والآية عامة للذي لا يسأل وللذي أصابته آفة، فذهبت بماله

....

فأصبح فقيراً، فصار بحاجة إلى مواساة، فسمّاه الله حقّاً، يعني: واجباً وليس تبرعاً.

والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله، ومن امتنع عن إخراجها وكان جاحداً لوجوبها فهو مرتد ويُستتاب، فإن لم يتب فإنه يُقتل، وإن كان يقرُّ بوجوبها ولكنه يمنعها بخلاً، فإنها تؤخذ منه قهراً، وهذا من مسؤولية ولي الأمر، ويعطيها للفقراء والمستحقين، فإن كان من منعها معه شوكة وقوة، فإنَّ الإمام يقاتله، كما قاتل أبو بكر الصديق ﷺ مانعي الزكاة، حتى أخرجوها، لأنَّ هذا حق واجب عليهم للفقراء، فالزكاة واجبة في أصناف الأموال الأربعة، وهي: بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض، والنقود، وعروض التجارة التي تُباع وتُشترى، هذه هي الأموال التي تجب منها الزكاة، فإما أن يدفعها هو ـ وهذا هو الواجب عليه ـ أو تؤخذ منه قهراً.

أما حديث جابر الذي أورده المصنف رحمه الله، ففيه أنَّه سأل النبيُّ ﷺ بني سَلِمَة، «مَنْ سَيّدكم»؟ أي: رئيسكم، لأنه من عادة القبائل أن يعيِّنوا لهم رئيساً يرجعون إليه، يتكلم عنهم، ويَسُودُهم، فقالوا له: الجدّ بن قيس هو سيدنا على أنّا نُبَخِّلُه أي: نصفه بالبخل، فقال النبي ﷺ: «وأيُّ داءٍ أَدْوَأ من البخل!» أي: إن النبي ﷺ اعتبر

....

هذه الصفة منقصة تحط من قدر من اتصف بها فلا يصلح للسيادة وهذا هو الشاهد في الحديث.

فالبخل عيب عظيم، وهو لا يصلح أن يكون فيمن تصدَّروا وسادوا القوم، لذلك عيَّن لهم النبي ﷺ سيّداً، فقال: «سيدكم عمرو بن الجموح» أي: بديلاً عن الجد بن قيس؛ لأنَّ عمراً كان جواداً.

والحاصل أن البخلَ من الأخلاق الرديئة.

باب عقوبة البخل

وقول الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وفيه: «لا تُوعي فيُوعي الله عليك»(١). [١٠٨]

---

[١٠٨] لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ التحذير من البخل، أتبعه بذكر باب عقوبة البخل، ولقد توعَّد الله تعالى هؤلاء بأنَّه سيجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: يبخلون بحق المال الذي أعطاهم الله إيّاه ظانين أن هذا الفعل خيرٌ لهم، وهو شرٌّ لهم، ثم بيَّن عاقبة فعلهم هذا فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾أي: يأتون يوم القيامة مطوّقين بهذه الأموال يحملونه على أعناقهم، وقد جاء في هذا المعنى ما يفسره في الحديث، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ آتاه اللهُ مالاً ولم يُؤَدِ زَكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعاً أَقْرَع، يأخُذُ بِلِهْزِمَتَيهِ»(٢)، والمراد بالشجاع:

---

(١) البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

هو الثعبان العظيم، والأقرع، يعني: أقرع الرأس ليس عليه شعر من شدّة السُّم الذي فيه، وقوله: «يأخذ بلهزمتيه» يعني: بشِدْقَيه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ ثم يلدغه ويخرج ما به من سم، ولا يزال هذا حاله حتى يُبعث يوم القيامة والثعبان مطوَّق في عنقه، وهذا وعيد شديد لمن يَبخل بماله.

أما من كان ماله من المواشي وبهيمة الأنعام ولا يخرج زكاتها، فإنه ورد في الحديث: أنَّه يبطحُ لها يوم القيامة بقاع قَرْقَر ثم تردُ عليه تطؤه بأظلافها، وخفافها وتنهشه بأنيابها، فإذا أتى عليه آخرُها، رُدَّ عليه أولها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار[1] والعياذ بالله، فالبخل كبيرة من كبائر الذنوب، لأنه يحمل صاحبه على منعِ ما أوجب الله عليه مِن الزكاة المفروضة، والحقوقِ الواجبة.

وأمّا حديث أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوّام الذي ساقه المصنف رحمه الله، ففيه أنه ﷺ، قال لها: «لا توعي فيوعي الله عليك» أي: لا تمسكي المال في الوعاء من غير إنفاق، وتوكي عليه أي: لا تربطي رأس الوعاء بالوكاء، وهو الخيط الذي يُربط به، أي:

---

(١) انظر نصَّ الحديث في «صحيح مسلم» (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

لا تمسكي المال عندك وتشُدِّي على وعائه برباط كي لا تنفقي منه بخلاً وحرصاً عليه، فتحرمي الرزق.

يقول الله سبحانه فيمَن جمع المال بعضه على بعض وأحصى عدده، وجعله في وعاء وكَنَزَهَ حرصاً وتأميلاً: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، أي: غلَّفَ المال وأوثقه في الوعاء فلم ينفق منه شيئاً، وإنما بَخِل وضَنَّ بماله عن الفقراء، فعاقبه الله بنظير عمله كما قال ﷺ: «فيوعي عليك» أي: يمنع الله عنك الرزق، عقوبةً لك، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أنفق أنفق الله عليه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، فمن أوعى المال ظنّاً منه أنه أحفظ للمال فقد أخطأ التقدير، بل على العكس، فإنَّ الله يمنع عنه الرزق ويحرمه البركة في المال، وقد يسلِّط الله عليه الآفات، أو الإفلاس، أو يتعرض المال للسرقة أو للاحتراق فيسلّط عليه سبحانه وتعالى ما يتلفه.

وقد ذكر الله مثلاً لذلك في قصة أصحاب الجنة، أي: البستان، في سورة «القلم»، فإن الأب كان يفتح البستان وقت الجداد للفقراء، ليأكلوا منه، وكان يُخرج ما أوجب الله عليه، فتنزل البركة في هذا البستان، فلما مات أبوهم همَّ أولاده بأمر سوء، واتفقوا على

....

أن يمنعوا الفقراء من حقهم، وأن يجدُّوه في الليل، حتى لا يدخل الفقراء بستانهم ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ [القلم:٢٣- ٢٤]، اتفقوا على هذا في الليل، ولما ذهبوا في الصباح وجدوا بستانهم قد احترق، وصار كالصريم وفي هذا قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩ – ٢٠]، أي: أصبح البستان أسودَ محترقاً، حتى إنهم ضلُّوا بستانهم وشكّوا أنه هو، ثم عرفوه وأيقنوا أن هذا إنما هو بجريرة أعمالهم، فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣١]، وأيقنوا أن سبب احتراقه هو نيتهم في عدم إدخال الفقراء إليه ليأكلوا منه، فمجرد نيتهم أحرقت بستانهم، والله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والشاهد في الآيات الكريمة: أنَّ هؤلاء أرادوا أن يوعوا فأوعى الله عليهم، أرادوا أن يستأثروا بالرزق ولا يخرجوا حق الله، فعاقبهم الله من جنس فعلهم حيث حرمهم الرزق.

كما في الحديث الآخر: «ارضَخِي يَرْضَخْ لك»[1]؛ أي: وسِّعي يُوسِّع لك.

وقوله عليه السلام: «اللهم أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً، وأعطِ منفقاً خَلَفاً»[2] [١٠٩]

---

[١٠٩] قوله: «ارضخي» الرضخ هو: العطاء اليسير؛ أي: أعطي الناس يعطيكِ اللهُ، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن يعطي يعطيه الله، ومن يوعي يوعي الله عليه، وقد سلف قريباً شرح ذلك وبيانه، ووجه إيراد الروايتين أن الذي يُوعي ويبخل، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يوعي عليه ويمسك عنه، وأنَّ الذي يعطي يعطيه الله ويبارك له في رزقه.

وأما قوله ﷺ، كما صح في الحديث: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[3]، فالمنفق يخلف الله عليه ويبارك له في رزقه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ

---

(١) البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وعندهما بلفظ: «ارضخي ما استطعت».

(٢) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وأمّا الممسك فإنَّ الله يتلف ماله، وهو يظن أن الإمساك أحفظ لماله، ولكن على العكس فهو أتلف لماله، والجزاء من جنس العمل.

باب ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله(١) [١١٠]

[١١٠] قوله: «ازدراء النعمة»: أي: احتقارها، فلا يجوز للإنسان أن يحتقر النعمة، بل عليه أن يحترمها ويجلّها؛ ولهذا قال ﷺ: «انظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر ألّا تزدروا نعمة الله عزَّ وجلّ»(٢). في الدنيا انظر إلى هو من دونك من الفقراء والمساكين وارحمهم، ولا تنظر إلى الأغنياء وأصحاب الأموال والثروات، فإنَّ النظر إلى الفقراء يُعرِّفك نعمة الله عليك، فتشكره ـ عزَّ وجل ـ على ما أعطاك، أما إذا نظرت إلى الأغنياء وما هم فيه من الترف، فإنك ستحتقر ما أنت فيه، فتزدري نعمة الله عليك. ومن ازدراء نعمة الله إهدارها وإلقاؤها في النفايات والطرقات خاصةً إذا زادت عن الحاجة، فعلى المسلم أن يُجِلَّ النعمة ويقدّرها، وإذا كان عنده فضل من طعامٍ فإنه ينبغي أن يدفعه إلى المحتاجين والفقراء، فإنَّ من الناس من هو بحاجة إليه ولا يجده، أو يحتفظ به لمرَّة قادمة، فإنَّ عدم شكر النعمة سببٌ لزوالها، يقول سبحانه وتعالى:

---

(١) لم يورد المصنف ـ رحمه الله ـ في هذا الباب شيئاً، فهو بياض في الأصل، وربما سقط من النسخ الموجودة في هذا الباب، أو أن المؤلف بيّضها ليرجع إليها، ولكنه لم يرجع إليها، على كل حال فالترجمة كاملة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (١١٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

....

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي قصة سبأ ما يبيِّن أن ازدراء نعمة الله سببٌ في سلبها منهم، فقد أنعم الله عليهم بطيب بلادهم، وراحة السفر، فكانوا يسيرون من اليمن إلى بيت المقدس فيبيتون في قرية ويقيلون في أخرى، وكانوا لا يأخذون معهم زاداً ولا ماءً، فالقرى متصلة ببعضها، والأمن والطعام متوفر فيها بالإضافة إلى جوها الطيب، فاحتقروا هذه النعمة ولم يقدِّروها وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ: ١٩] فازدروا نعمة الله ـ عزَّ وجل ـ عندئذٍ دمَّرَ الله عليهم بلادهم، وخرَّب ديارهم، ومزَّقهم كل ممزَّق، وبدَّلَ النعمة نقمة، قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ: ١٩]، أي: يتحدث الناس بما حصل لهم من النكبة، كل هذا بسبب عدم شكر النعمة وعدم الاعتراف بها وتقديرها.

وهكذا حال الناس اليوم فهم في بحبوحة من العيش، قد منَّ الله عليهم بنعم لا تعدّ ولا تحصى، بعد أن كانت حلماً للناس من قبل، سواء في المساكن، أو المطاعم، أو المشارب أو المراكب، فإن هم شكروها فإنها ستدوم لهم، وإن كفروها وازدروها، فحريٌّ أن يغير الله هذه النعمة فيُبدِّلها نقمة، ويجعل الأمن خوفاً، فنعوذ بالله من فُجَاءَة نقمته وتحوُّل عافيته.

باب بُغْض الصالحين

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحشر: ١٠].

عن أبي هريرة ﷺ تعالى مرفوعاً: «يقول الله تعالى: مَنْ عادَى لي وليّاً فقد بارَزَني بالحَرْب»[١] معناه: إذا خرج رجلان من الصَّفينِ للقتال، وهاهنا من عادى وليَّ الله فهو مبارزٌ الله بالحرب.

عن أبي هريرة مرفوعاً: « لا يُبْغِضُ الأنْصَارَ رَجُلٌ يُؤمِنُ بالله واليَومِ الآخِرِ»[٢]. [١١١]

---

[١١١] قوله: «باب بُغض الصالحين» بغض الصالحين ومحبتهم يدخل في باب الولاء والبراء، فالواجب على المسلم محبة الصالحين وموالاتهم، وبغض أعداء الله والبراءة منهم، فالمؤمنون متحابون، قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»[٣]،

---

(١) البخاري (٦٥٠٢) بلفظ «فَقَدْ آذَنْته بالحرب».

(٢) مسلم (٧٦).

(٣) مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ – ٥٦]، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، فالبراءة إذاً تكون من الكفر وأهله، والولاء يكون لله ورسوله وللمؤمنين، فالمؤمن يحب أهل الإيمان، ويبغض أهل الكفر والنفاق، ومن أبغض المؤمنين فهو منافق، والعياذ بالله.

أما الحديث القدسي الذي رواه البخاري وغيره، وأورد المصنِّف طرفاً منه حيث قال النبي ﷺ: «من عادى لي وليّاً فقد بارزني بالحرب» فالولي: هو المؤمن التقي، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢ – ٦٣].

وقوله: «من عادى لي ولياً» «فقد بارزني بالحرب» المبارزة معروفة عند العرب، وهي أن يخرج اثنان من الجيشين يتبارزان ويتقاتلان ليظهرا الشجاعة والقوة، وقد حصل هذا في غزوة بدر، فقد طلب المشركون المبارزة، فانتدب لهم النبي ﷺ ثلاثة من

....

أصحابه رضي الله عنهم، فقتل المسلمون الكفار، وكانت هذه أول الهزيمة للمشركين؛ والمراد: أنَّ الذي يبغض وليّاً من أولياء الله، فكأنه بارز الله بالمحاربة، فهو محارب لله، وهل يستطيع أحدٌ أن يحارب الله سبحانه وتعالى؟ فبغض أولياء الله بغض الله ومعاقبته لمن أبغضهم، فأن الله يسلّط عليه الآفات والأمراض وغير ذلك من الأسباب المهلكة فيهلكه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وهذا لبيان مكانة الوليّ عند الله عز وجل، فكان من عاداهم كأنه بارز الله عز وجل بالمحاربة، ولا أحد له طاقة بحربه سبحانه وتعالى.

ثم قال جلَّ وعلا في هذا الحديث القدسي: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه»[1] إذن هذا هو سبب الولاية، إنه التقرب إلى الله بالفرائض، ثم التقرب إليه بالنوافل، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣]، وليس معنى الولاية أنه يمكن

(١) هذه قطعة من حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

....

للأولياء التصرف في الكون، كما يعتقده القبوريون، فهم لا يملكون ضرّاً ولا نفعاً ولا يلزم أن يكون لهم كرامات. كما أنه لا يلزم أن يكون من تجري على يديه الخوارق ولياً لله بل قد يكون ولياً للشيطان وتكون هذه الخوارق سحرٌ وليست كرامة، بل إذا كان معهم خوارق وهم غير مستقيمين على الدين كالدجاجلة والسحرة وغيرهم، الذين يدَّعون أنَّ هذه الخوارق والتدجيلات التي تجري على أيديهم علامة على الكرامة التي منحهم الله إيَّاها لأنهم أولياء الله، فكيف يكونون أولياء الله وهم لا يصلّون ولا يصومون، ويفعلون الفواحش، ويأتون الكبائر! بل هم في الحقيقة أولياء للشيطان وحزبه، فالولاية تكون بسبب: التقرب إلى الله كما قال: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» بمعنى أن الله يكون معه، يسدّده في أقواله وأفعاله، ويبارك له في سمعه وبصره ويوفقه، ولو سأل الله لأعطاه، ولئن استعاذ الله من شيء لأعاذه الله منه كما ورد في نهاية هذا الحديث.

والشاهد من الحديث قوله: «من عادى لي وليّاً فقد بارزني بالحرب» ففيه تحريم بُغض أولياء الله، وأنَّ بغضهم كبيرة من كبائر الذنوب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، فالمؤمنون يتحابُّون من أول الخلق إلى آخر الخلق، ولذلك فالأحياء منهم يدعون للأموات الذين سبقوهم بالإيمان، فهم يدعون ربهم لهم بالمغفرة، ومن أول هؤلاء الذين سبقوا صحابة رسول الله ﷺ، لأنَّ الضمير الذي في قوله: «بعدهم»: يرجع إلى المهاجرين والأنصار منهم، فمن جاء بعدهم من المؤمنين يحبونهم ويتولّونهم ويدعون لهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]، وقوله: ﴿غِلّٗا﴾؛ أي: بغضاً، وفي الآية دليل على أنَّ الذي يبغض المهاجرين والأنصار يكون منافقاً وليس مؤمناً.

ثم قال تعالى بعدها: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ [الحشر: ١١]، فالذي يوالي الكفار هو منافق نفاقاً أكبر، والذي يتولّى الصحابة

....

والصالحين ويُثنى عليهم ويستغفر لهم، ويسأل الله ألا يجعل في قلبه بغضاً لهم هو المؤمن، أما الذين يبغضون الصحابة والصالحين فهؤلاء منافقون، وفي ذلك دليل على أن الرافضة ـ والعياذ بالله ـ منافقون، لأنهم يسبّون الصحابة ويبغضونهم بغضاً شديداً ويكفرونهم ويلعنونهم، فهم أخوان الذين كفروا من أهل الكتاب، كالذين سبقوهم وقت نزول الآية، فهم يتولون الكفار ويبغضون الصحابة والمؤمنين، نسأل الله العافية. وقد قال تعالى عن الصحابة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» هذا يؤكد ما قلنا من أن بُغْضَ المهاجرين والأنصار إنما هو النفاق بعينه، فالأنصار من خواص أولياء الله، لأنهم صحبوا الرسول ﷺ وآووه وآووا المهاجرين، ونصروهم وواسوهم بأموالهم وأنفسهم رضي الله عنهم، فهم كما ذكر سبحانه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، فسُمُّوا بالأنصار، وهذا لقب مدحٍ لهم، فالذي يبغضهم يبغض الرسول ﷺ لأنهم أنصاره وأصحابه.

باب الحسد

وقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

عن أنس ﷺ مرفوعاً: «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِهِ»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إِيَّاكُمْ والحَسَدَ، فَإِنَّه يأكُلُ الحَسَناتِ كما تَأْكلُ النَّارُ الحَطَبَ، أو قال: العُشْبَ» رواه أبو داود(٢). [١١٢]

---

[١١٢] هذا الباب في بيان كبيرة من كبائر الذنوب وهي الحسد، والحسد هو: تمني زوال النعمة عن المَحْسود، سواء تمنى زوالها عن المحسود فقط أو تمنى أن تُسلب منه وتُعطى للحاسِد، وهو كبيرة؛ لأنه اعتراض على الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يقدِّره ويقضيه، فإنَّ الله سبحانه يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويؤتي فضله من يشاء، فلا أحد يعترض عليه، وهو أعلم سبحانه بمن هو أهلٌ لفضله، فالحاسد معترض على الله، يريد أن يمنع عطاء الله عن عباده

---

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) في «سننه» (٤٩٠٣).

....

ويحاول أن يرد ما قدَّره الحقُّ سبحانه، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، فلا يجوز للعبد أن يعترض على خالقه، ولكن إذا رأيت نعمةً على عبد فاسأل الله أن يعطيك من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[النساء: ٣٢]، فالأفضل للعبد أن يسأل الله ليعطيه من فضله، ولا يتمنى زوال النعمة عن الغير، فإن فضل الله واسع، وإذا تمنى الإنسان أن يكون عالماً ينتفع الناس بعلمه، أو غنيّاً ينفق على الفقراء من ماله، فهذا أمرٌ حسن يثاب عليه وهذا ما يُسمى بالغبطة، ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: «لا حسد إلَّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسُلِّط على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها»[1]، فهذا يدلُّ على الرغبة في الخير ولا يدلُّ على الحسد.

والحسد يحمل على الكفر كما حمل إبليس عندما حسد آدم عليه السلام فإنَّ الله أمره بالسجود لآدم فأبى وتكبر، وقال: أنا خيرٌ منه،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

فسبَّب له ذلك اللعنة والطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وجعله داعية إلى كل شرّ.

والحسد حَمَلَ اليهود كذلك على الكفر، فحين بعث الله محمداً ﷺ نبيّاً وأمرهم باتباعه، وهم يعلمون بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة، ولكنهم جحدوا رسالته بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق، والذي حملهم على ذلك هو الحسد؛ لأنَّ الرسول ﷺ من بني إسماعيل، وهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل، وليس في العرب، فحسدوا النبي ﷺ وكفروا برسالته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، فحسدوا رسول الله ﷺ، وحسدوا هذه الأمة على ما آتاهم الله من الفضل، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[البقرة: ١٠٩] فقد حملهم الحسد على الكفر كما حمل إبليس من قَبلُ.

وكذلك قد يحملُ الحسدُ الإنسانَ على قتل قريبه، كما حصل لابن آدم عندما قتل أخاه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ

....

لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠]، وكان أول من سنَّ القتل ظلماً وعدواناً، ولهذا جاء في الحديث: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها؛ لأنه أول من سَنَّ القتل»[1].

والحسد يسبب العداوة والبغضاء بين المسلمين، ويقوض أواصر المحبة بينهم، والله ـ جلَّ وعلا ـ أمر المسلمين بأن يكونوا أخوة متحابين، فالحاسد إذا تغلغل الحسد في قلبه فإنه يبغض المحسود ويقاطعه لا لشيء إلّا أنَّ الله فضّله عليه، ولا يكتفي الحاسد بهذا، بل إنه قد يتكلم في عرضه ويغتابه في المجالس ويذمُّه، وكلُّ هذا يدخل في المظالم التي يُقتصُّ لها في الآخرة، فتُذهب بحسنات الحاسد، ولهذا سيأتي في الحديث أنَّ الحسد «يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وفي قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ «أم» هنا بمعنى: «بل» نزلت في اليهود الذين حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

النبوة والرسالة، وكانوا يريدون النبوة في بني إسرائيل لا في بني إسماعيل ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وفضل الله في هذه الآية هو الرسالة ونزول القرآن والوحي على نبينا محمد ﷺ.

وأهل الكتاب يعرفونه ﷺ حق المعرفة، فهم يجدون صفته في كتبهم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فحملهم هذا الحسد على الكفر بمحمد ﷺ، وعلى الكفر بالتوراة أيضاً التي تأمرهم باتباع محمد ﷺ، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠١]، أي: نبذوا التوراة التي تأمرهم باتباع محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فهم نبذوا كتاب الله ولم يتبعونه، واستبدلوه بالسحر عوضاً عن التوراة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فلما تركوا التوراة ابتُلوا بالسحر الذي هو من عمل الشيطان والعياذ بالله، كل هذا بسبب حسدهم لمحمد ﷺ،

....

وهذا أيضاً يدلُّ على خطورة الحسد، وأنه قد يؤدِّي بالإنسان إلى الكفر بالله عزَّ وجل.

وقوله ﷺ في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» هذا هو الواجب على كل مسلم أن يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه، لأن المؤمنين أخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فكما تحب الخير لنفسك، أحِبّه لأخيك، وهذا لا يتأتَّى من الحاسد، فإن الحاسد لا يحب الخير لأخيه، فلذلك لما رأى نعمة الله عليه حسده، وهذا لا يليق بالمؤمن؛ وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم»، أي: لا يكمل إيمانه حتى يتصف بهذه الصفة.

والحاصل أن الحسد يتنافى مع كمال الإيمان، فمن حَسَدَ أخاه اعتُبر ناقص الإيمان، وليس معناه أنه كافر، وإنما يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، والمراد إذا نفَّذ ذلك بقول أو فعل يؤذي به المحسود، أما إذا كان خاطراً في النفس وعمل على صَدِّ نفسه عنه، وترك التمادي في ذلك فإنه لا يضره، وأما إذا نفَّذ، بأن تكلم في عرض أخيه، أو قلَّل من شأنه، أو قال: هو لا يستحق هذا الذي هو فيه، فهو معترض على الله، ومعاندٌ له ـ عزَّ وجل ـ في تقديره أرزاق العباد وحاجاتهم، فهذا هو الحسد المذموم.

....

فالواجب على المسلم أن يحب الخير لأخيه ويكره الشرّ له كما يكرهه لنفسه، فمن كان كذلك كان كامل الإيمان، حتى إنَّ الله أمر المسلم أن يدعو لنفسه ولإخوانه، حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[محمد: ١٩]؛ فكما تحب المغفرة لنفسك، فأحبها لإخوانك، وادعُ لهم، وهذا هو شأن المؤمنين فيما بينهم، فلا ينبغي لهم أن يكون في أنفسهم حرج مما أعطى الله لإخوانهم من الخير، وإنّما يسألون الله تعالى أن يعطيهم من فضله مثلما أعطى إخوانهم.

وجاء في حديث أبي هريرة ﷺ: «إياكم والحسد» هذا تحذير من آفة الحسد، مثل قوله ﷺ في حديث آخر: «إياكم ومحدثات الأمور»[1]، أي: احذروا الحسد، والسبب أنَّ الحسد يأكل الحسنات، بمعنى أنه يقضي عليها، لأنَّ الإنسان إذا حسدَ أخاه أبغضه، وقد يحمله على الغيبة والنميمة والقتل والقطيعة وغيرها، وهذه ذنوب وكبائر تقضي على الحسنات، ثم ضرب ﷺ لذلك مثلاً واضحاً

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

....

محسوساً، فقال: «كما تأكل النار الحطب» فماذا يبقى من الحطب إذا اشتعلت فيه النار؟! لا يبقى شيء، وفي رواية: «كما تأكل العشب»، والعشب إذا أُضرمت فيه النار أتت عليه، سواء كان ثابتاً في الأرض، أو مجموعاً مع بعضه، فالحسد يأكل الحسنات، وهذا أكل معنوي، كما تأكل النار الحطب، وهذا أكل حسي، فشبه النبي ﷺ الأمر المعنوي بالأمر الحسي من باب التوضيح والتحذير لنا، والرسول ﷺ قال: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[1]، فلقد وصفه بأنه داء، فهو من الأمراض النفسية التي كانت في الأمم السابقة ـ لا سيّما اليهود والنصارى ـ وقد دبّ في بعض هذه الأمة، لهذا حذَّرَ النبي ﷺ من هذا المرض الخطير.

(١) أخرجه أحمد (١٤١٢) والترمذي (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام ﷺ.

باب سوء الظن بالمسلمين

وقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إيّاكم والظنَّ، فإنَّ الظَنَّ أكذَبُ الحَدِيثِ» رواه مسلم[1]. [١١٣]

---

[١١٣] ومن الكبائر سوء الظن بالمسلمين، فالأصل في المسلم الخير والعدالة، فلا تسيء الظن بأخيك المسلم إن لم يكن عندك دليل على ما ظننت فيه، فمجرد الاتهام لأخيك المسلم دون دليل على ذلك، يعدُّ كبيرة من كبائر الذنوب، فالله ـ جلَّ وعلا ـ أمرنا باجتنابه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، قال سبحانه: ﴿كَثِيرٗا﴾ لأنَّ، بعض الظن يكون إثماً، فأنت تجتنب الكثير خوفاً من الوقوع في القليل، وهذا يدل على خطر سوء الظن بالمسلمين، فإذا بلغك عن أخيك شيء، أو حاك في نفسك شيء، فعليك ألّا تستعجل وأن تتثبت في الأمر، فقد يكون الذي بلَّغك فاسقاً كذَّاباً، أو قد يكون الخاطر الذي جال في نفسك من الشيطان،

---

(١) برقم (٢٥٦٣)، وأخرجه البخاري (٥١٤٣).

....

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

وليت بعض الإخوان الآن من طلبة العلم يَحْذَرون من سوء الظن بالمسلمين والوقوع في أعراض العلماء وطلبة العلم، فترى كثيراً منهم يتهمونهم ويصفونهم بأوصاف حزبية أو مذهبية بدون تحقق، وحتى لو ثبت أن فلاناً من الناس عنده بعض الأخطاء أو الملاحظات، فعلاج ذلك يكون بالمناصحة والاستفسار والتوضيح، أما الاعتماد على الأقوال والظنون، فإن هذا مما حذَّر الله ـ جلَّ وعلا ـ منه، وهو يُسبِّبُ قطيعة وتنافساً بين الإخوان، وهذا الأمر خطره عظيم.

أما إذا كان الدافع هو الغيرة على الدين، فعليك التثبت خوفاً من أن تصيب أخاك بجهالة، فبعض الأخوان تدفعه الغيرة على الدِّين في أن يذمَّ بعض العلماء وطلبة العلم، وأشد من ذلك أن يقع في أعراض ولاة الأمور، فعلى المسلم ـ ولا سيَّما طالب العلم ـ أن يتأنّى ويتمهل، وإذا ثبت عنده شيء من المحذور، فإنه يعالج بالنصيحة، لا بالغيبة وإشاعة المساوئ في المجالس، قال ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله

....

ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]، وسميت نصيحة، لأنَّ الناصح هو الشيء الخالص، لأنها: تدل على خلوص الإنسان من الغش للمسلمين.

إنَّ المنهج السليم والأقوم إزاء ما يسمع المسلم من الأقوال في حق إخوانه:

أولاً: إذا سمع قولاً في حق أخيه، فعليه أن لا يُبادر ويستعجل ويُسيء الظن، إنما عليه أن يلتمس العذر ما أمكن.

ثانياً: إن ثبت شيء من المحذور، فالواجب أن لا نشيع الأمر، بل نتناصح فيما بيننا، فإنَّ الدين النصيحة.

وفي الآية التي قال الله فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فبعض الظن إثم، لأنه: يوقعك في الإثم والعقاب من الله سبحانه وتعالى، والظن هو الاحتمال الراجح مع احتمال النقيض، أي: هو تردد بين أمرين أحدهما راجح، والآخر مرجوح، أما الشك، فهو التردد بين أمرين لا مرجح لأحدهما على الآخر، فإذا ترجَّح أحدهما على الآخر كان هذا ظناً، وإذا لم يكن في الأمر

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

....

احتمال، كان هذا هو اليقين، فلا تظن بإخوانك إلّا خيراً، ما لم يتبين خلاف ذلك، فإذا تبين عالجته بالنصيحة كما سبق، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا باجتناب كثير من الظن، لأنَّ بعضه إثم، فهذا دليل على خطورة الظن.

وجاء حديث أبي هريرة ليؤكد ما سبق تأكيده، حيث قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» فلفظ «إياكم» بمعنى التحذير، ولذلك نُصب الاسم بعده، بالتحذير «إياكم»، ومعناه: احذروا سوء الظن بالمسلمين، ولا تظنوا بهم إلَّا خيراً، لأن هذا هو الأصل في المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، ويصلي ويصوم ويطلب العلم، فإذا رأيناه كذلك ظننَّا به خيراً، فلا يجوز أن نقول عن فعله إنه نفاق ومراءاة، فنحن لنا الظاهر، أمّا السرائر فَنَكِلُها إلى الله علّام الغيوب.

ثم علَّل الرسول ﷺ هذا التحذير بقوله: «فإن الظن أكذب الحديث» يعني: حديث النفس، فأعظم كذب حديث النفس هو الظن بالناس، فعلى المسلم أن لا يبني آراءه وأقواله وأفعاله على الظن وينتهك حرمة أخيه، فدلَّ هذا التحذير على أنه كبيرة من كبائر الذنوب، فما لم تشاهده ولم تسمعه ثم وقع في قلبك، فإنما هو من الشيطان يُلقيه إليك فينبغي تكذيبه، والاستعاذة بالله منه.

باب ما جاء في الكذب على الله أو على رسوله

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ الآية [الزمر: ٦٠].

وفي «الصحيح»[١] عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ كذباً عليّ ليس ككذبٍ على غيري، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ولمسلمٌ عن سَمُرة بن جندب ﷺ مرفوعاً: «مَنْ حدَّث عني بحديث يَرى أنَّه كذب فهو أحدُ الكذابين»[٢]. [١١٤]

---

[١١٤] الكذب صفة ذميمة، وقد نهى الله عنه، والمؤمن لا يكون كذاباً، فإذا كان هذا الكذب على الله كان أعظم جرماً، فالكذب على الله أو على رسوله ﷺ من أكبر الكبائر، كأن يقول أحدهم: إن الله أحلّ كذا، أو حرّم كذا بدون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله،

---

(١) البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٢) في «صحيحه» برقم (١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

....

فينسب إلى الله شيئاً لم يقله، فهذا أعظم الكذب، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦ - ١١٧]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٥]، فالكذب على الله يتنافى مع الإيمان وهو أعظم أنواع الكذب، فمن الكذب على الله أن يخبر عن الله أمراً خلاف الواقع لغرضٍ من الأغراض، إما لنيل شيء تطمع به نفسه، أو نصرة لمذهبه أو رأيه، فهذا من أعظم الكذب، لأنه من الافتراء على الله عز وجل، ثم يليه الكذب على الرسول ﷺ، ثم الكذب على الناس.

فالكذب عامةً محرم ويعدّ كبيرة، ولكن بعضه أشد من بعض، فأشدُّه الكذب على الله تعالى، ثم الكذب على الرسول ﷺ، ثم الكذب على الناس، فلا يجوز بأيِّ حالٍ من الأحوال القول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فالآية التي ساقها المصنف رحمه الله، وهذه الآية تدلان على أنَّ القول على الله بغير علم من أعظم الكذب.

....

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ هذا وعيد آخر، فالوعيد في الآية الأولى ذكر أنه أظلم الناس، وفي الآية الثانية أنه يوم القيامة يأتِ وجهه مسوداً أمام الخلائق يُفضح بهذه العلامة والعياذ بالله.

والكذب على الله يكون في العقيدة كقول النصارى: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف: ٤] فينسبون الولد لله ويقولون: إنَّ عيسى عليه السلام ابن الله، والكفار كانوا يقولون: الملائكة بنات الله فينسبون له البنات مع أنهم يكرهونها لأنفسهم، قال الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النحل:٦٢] و﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٣ - ١٥٤]، مع أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يتخذ ولداً لا ذكراً ولا أنثى؛ لأنه غنيٌّ عن ذلك لأنَّ الوالد يفتقر إلى ولده، ولأنَّ الولد شبيه بالوالد، ومن شابه أباه فما ظلم، وهو سبحانه ليس له شبيهٌ، والولد جزء من الوالد، والله ـ جلَّ وعلا ـ ليس له جزء من الخلق، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، يعني: ولداً، وهذه كلها محاذير عظيمة.

ومن أشكال الكذب على الله أيضاً: الشرك بالله واتخاذ الشركاء في عبادته، مثل قولهم: إنَّ الله اتخذ شريكاً يُعينه ويساعده، فالله لا

....

شريك له في الخلق والأمر والتدبير، ولا شريك له في الألوهية لأنه المستحق لأنواع العبادة.

ومن الكذب على الله أيضاً ما يقوله البعض: إن الله شرع لنا أن نتخذ وسائل من الخلق بيننا وبينه، يعني: شفعاء، كقول المشركين كما ذكر سبحانه عنهم: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]، فالله جلَّ وعلا نفى عن نفسه الشريك، فكيف يقولون بعد ذلك: إن له شريكاً من خلقه في قضاء حوائجهم هم الشفعاء والوسطاء بينه وبينهم؟! فهذا من الكذب على الله، فالله تعالى لم يُشرِّع أن يكون بيننا وبينه وسائل في قضاء حوائجنا، بل شرع لنا سبحانه أن ندعوه مباشرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] فلم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو فلان، وهو سبحانه القائل أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالله سبحانه قريب يسمع ويبصر عباده ويعلم حوائجهم ويجيبهم، وما على العبد إلَّا أن يسأل ربه مباشرة دون وسائط، لأنَّه يعلم الجهر وما يخفى، فلا حاجة لهذه الوسائط، لأنَّ هذه إنما تكون عند الملوك في الدنيا والرؤساء الذين لا يعلمون

....

إلَّا ما يبلغون من أمور الخلق والرعية فيحتاجون لمن يبلِّغهم، أما الله ـ عزَّ وجل ـ فإنه غني عن ذلك فهو سبحانه يخبر أنه ليس بحاجةٍ إلى وسائط بينه وبين عباده، وهؤلاء يقولون: لا بُدَّ من من الوسائط!! ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والوسيلة إنما هي: العمل الصالح، وليست الأشخاص، أي: توسلوا إليه بالأعمال الصالحة لا بالأشخاص، وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالوسيلة معناها: التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالطاعة، وليس الأشخاص، فهذا ونحوه إنما يدخل في باب الكذب في العقيدة.

وأما الكذب في الحلال والحرام، كقول البعض: إن الله حرَّم كذا، أو أَحَلَّ كذا دون دليل، فهؤلاء القائلون مثل هذه الأقوال سوف يأتون يوم القيامة سُود الوجوه كما أخبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وبقوله ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وهذا إنما يكون يوم القيامة، عند البعث والنشور، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

....

ويدخل كذلك في هذا الوعيد: الذين يكذبون على النبي ﷺ، لأنه مبلِّغ عن الله، فلا يجوز أن يُكذب عليه ﷺ في الحديث، فتنسب إليه أحاديث لم تصدر عنه ﷺ ولا سيّما مِن قِبَل الوضاعين الذين يضعون الأحاديث المكذوبة عليه ﷺ لأغراض دنيوية، إما لأجل أن يتظاهروا أمام الناس بالعلم، أو لنيل مطامع يأخذونها من الناس، أو يضعون الأحاديث ليفسدوا الدين على المسلمين مثل الزنادقة والملاحدة، ويدخل في هذا الذين يضعون الأحاديث لنصرة مذهبهم، أو ليؤلفوا بين أفراد جماعاتهم وأحزابهم، أو ليرغِّبوا الناس في الخير كما فعل بعض الجهلة حيث قالوا: نحن نكذب للرسول لا عليه، وذلك حينما رأوا الناس متكاسلين عن فعل الخير فراحوا تارةً يضعون الأحاديث التي تحث على أمر ما وترغِّب فيه، وتارة يضعون أحاديث في الترهيب من فعل المعاصي والمنكرات، وهذا كلُّه كذب محض، فالتحليل والتحريم لا يجوز أن يصدر إلّا من الله جل وعلا بالقرآن وبما صحَّ من الحديث من رسوله ﷺ: بل إنَّ بعضهم ذكر: أنه رأى الناس لا يقرؤون القرآن ولا يقبلون عليه، فوضع أحاديث في فضائل السور والآيات ليحثَّ الناس على قراءته، وهذا أعظم الكذب بعد الكذب على الله عزَّ وجل.

....

ولكنَّ الله جلَّ وعلا حمى سنة رسوله ﷺ، كما حمى القرآن الكريم من التحريف والزيادة والنقصان، فقيّض للحديث حفَّاظاً متقنين نقَّاداً، ينقدون الحديث ويبينون الزائف من الصحيح، وكل ذلك مدوَّن في كتب الجرح والتعديل، وهذا من حفظ الله لهذا الدين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وهؤلاء الحفّاظ النقّاد حصروا الأحاديث الموضوعة، ودونوها في مؤلفات لئلا تلتبس بالأحاديث الصحيحة مثل كتاب «الموضوعات» لابن الجوزي، و«اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للسيوطي، وكتاب «تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الموضوعة» لابن عراق، وكتب كثيرة غيرها، وهذا من لطف الله عزَّ وجل بهذا الدين وحمايته له، فمهما حاول الدّساسون والمغرضون النيل من هذا الدين، فإنَّ الله يقيّض لهم من يبطل كيدهم، وبالتالي فإنَّ علماء الحديث وعلى مرِّ العصور بقوا حرّاساً للسنة يذبون عنها، ولهذا فهم ميزوا بين الصحيح والضعيف والموضوع من الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ حيث وضعوا ضوابط وشروطاً دقيقة لمعرفة الصحيح من الأحاديث تطبق على سند الحديث، فإذا انطبقت عليه هذه الشروط فهو الصحيح، وإذا لم تنطبق عليه فهو الضعيف مثل الميزان تماماً الذي توزن به الأشياء، وهذا

....

كما قلنا من لطف الله تعالى وحمايته لهذا الدِّين، حتى حُفظت سُنة رسول الله ﷺ من الكذب والدَّسِّ، لأنَّ الكذب عليه ﷺ يأتي بعد الكذب على الله تعالى، لذلك يقول النبي ﷺ في الحديث: «إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد»[1]، فالكذب كله محرم سواء كان على الرسول ﷺ أو على غيره، ولكن الكذب على الرسول ﷺ أشد، لأنَّه مُبلِّغ عن الله عز وجل.

ويقول ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوا مقعده من النار» وهذا تهديد ووعيد شديدين، لأنَّ قوله: «فليتبوأ مقعده من النار»[2]. معناه: فليتخذ من النار مكاناً ومَباءة يُحشر فيها ويعذب بها، والمباءة: هي المكان، وهذا فيه تهديد ووعيد شديد كما ذكرنا لمن كذب على الرسول ﷺ، ولهذا يجب على الإنسان أن يتحرز حينما يذكر حديثاً عن الرسول ﷺ في خطبته أو درسه أو موعظته وإذا لم يكن متأكِّداً من صحة الحديث، فليقل: يُروى عن الرسول ﷺ كذا وكذا، أو ورد كذا وكذا، فيأتي بصيغة التمريض لا بصيغة الجزم، فلا بد من هذا حتى يعرف الناس أنَّ هذا الحديث محل نظر،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) التخريج السابق.

....

أما إذا قلت: قال رسول الله ﷺ كذا على طريقة الجزم، فلا بُدَّ من التأكد من صحة الحديث المذكور.

وأمّا ما روى «مسلم» عن سمرة بن جندب ﷺ مرفوعاً إلى الرسول ﷺ: «من حدَّث عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين» فهو دليل على عدم جواز رواية الأحاديث التي نرى أنها كذباً، فلا تقل: هذا على ذمّة غيري، أو هو موجود في الكتب، فما دمت ترى أنه كذب ولو كان موجوداً في الكتب، فلا يجوز لك أن ترويها، لأنك تكون ـ والحالة هذه ـ أحد الكذابين أو أحد الكاذبَينِ، بالتثنية، أي: الذي رواه والذي نقله وهو يعلم أنه كذب، فيكونا كاذبينِ، فعلى المسلم أن ينتبه لهذا الأمر، سيَّما وأننا نرى الآن في هذه الأيام بعض طلبة العلم الذين يصحِّحون الأحاديث ويتناقلونها أو يضعِّفونها وهم غير مؤهلين لذلك، وفي هذا خطر عظيم ينبغي التنبُّه له والتحذير منه، فعلى المرء أن يعرف قدر نفسه، فلا يتكلم على أحاديث الرسول ﷺ بغير علم ودراية ولم يتلق علم الحديث عن العلماء في دراسته عليهم وحمله العلم عنهم لأنَّ هؤلاء المتعالمين تتلمذوا على أنفسهم وعلى الكتب والأشرطة، أو على جهال أمثالهم، وخرجوا على الناس محدِّثين، وهم في الحقيقة مُحْدِثين

....

بإسكان الحاء وتخفيف الدال مكسورة. ولم يكتفِ هؤلاء بالتعالم، بل صاروا يغلِّطون الأئمة ويستدركون عليهم من غير حياء ولا خجل ولا خوف من الله.

والحاصل أنه ينبغي لـمَن لم تكن لديه الأهلية الصحيحة لعلم الحديث، أن ينأى بنفسه عن هذا الأمر، ويترك العلم لأهله، ولكن إن أراد الاستدلال بحديث فلا بُدَّ له أن يأخذه من مظانِّه الصحيحة، فيعلم صحة الحديث ومعناه حتى لا يتكلّم بما لا يعلم فيكذب على الله وعلى رسوله ﷺ.

باب ما جاء في القول على الله بلا علم

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال أبو موسى: مَن علَّمه اللهُ عِلْماً فَلْيُعَلِّمْهُ النَّاسَ، وإيَّاهُ أنْ يقولَ ما لا عِلْمَ له بهِ فيكونَ مِنَ المُتكلِّفينَ، ويَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ(١).

وفي «الصحيح»(٢) عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «إنَّ الله لا يَقبِضُ العِلْمَ انْتِزاعاً يَنتَزِعُه مِنْ قُلُوبِ الرِّجال، ولكنْ يَقبِضُ العِلْمَ بمَوتِ العُلَماءِ، حتَّى إذا لَمْ يَبْقَ عالِمٌ، اتَّخَذَ النّاسُ رُؤوساً جُهّالاً، فَسُئِلوا فأَفتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا». [١١٥]

---

[١١٥] هذا الباب جاء بعد باب الكذب على الله تعالى أو على رسوله ﷺ، وذلك لأنَّ القول على الله بلا علم يدخل في باب الكذب، لكن

---

(١) أورده ابن القيم في «إعلام الموقعين» ١/ ٦٥.

(٢) البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

....

الذي يقول على الله بغير علم لم يتعمّد الكذب، وإنَّما قال ذلك جهلاً، والكذب: أن ينسب الإنسان إلى الله أو إلى رسوله ﷺ متعمداً شيئاً لم يَرِد عن الله ولا عن رسوله ﷺ، وهذا من أخبث أنواع الكذب.

والقول على الله بغير علم، يدخل في الكذب على الله لأنَّ قائله لا يملك مؤهلات الفتوى من العلم الشرعي ومعرفة أحكام الدين، فيقول: هذا حلال وهذا حرام من غير علم، وإنما اعتمد في ذلك على رأيه، والأصل أن لا يُقال عن الله إلّا بعلم، ولا ينبغي أن يُحلَّل أو يُحرَّم بغير علم، لأن القائل بذلك إنما يتكلم عن الله وعن رسوله، وهذا ينبني عليه أحكام شرعية، وثواب وعقاب، فإذا لم يكن عنده علم فليسكت، والله ـ جلَّ وعلا ـ قد جعل القول عليه من غير علم فوق الشرك، ولهذا أورد المصنِّف رحمه الله، قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾، فجعله فوق الشرك، مما يدل على خطورته، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فإذا لم يكن عندك علم فلا تتكلَّم، ولا ضير عليك إن قلت: لا أدري فإن من قال: لا أدري فقد سلم، وهذا فضيلة، لأنكَّ إذا خُضت في الكلام

....

الكلام بغير علم من كتاب عن الله ولا سُنَّة رسوله، فقد ارتكب ذنباً ورذيلة.

وقد كان الصحابة والأئمة إذا سُئلوا عن أمر ولم يحضرهم عنه جوابٌ صحيح توقّفوا، ولم يحطّ ذلك من قدرهم شيئاً، بل زاد ذلك من فضلهم وقدرهم بتحرّيهم للصدق، فهذا الإمام مالك سُئل عن أربعين مسألة، وكان الذي يسأله قادماً من بعيد فأجاب عن أربعٍ منها، وقال عن الستة والثلاثين: لا أدري، فقال له الرجل: جئتك من بعيد، وأتعبت راحلتي، وتقول: لا أدري! قال: نعم، اركب راحلتك واذهب إلى بلدك، وقل: سألت مالكاً، فقال: لا أدري، فإنَّ قول مالك هذا رفَعَ من قدره وأعلى من منزلته، وأعلى شأنه بين الناس وجعل الناس يذكرون له هذه الكلمة من باب الإجلال، فالحاصل أنَّ القول على الله بغير علم هو من أكبر الكبائر، فليحذر المسلم من ذلك.

وأما الآية التي أوردها المصنِّف رحمه الله في أول هذا الباب، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الفواحش: جمع فاحشة، وهي: المعصية المتناهية في القُبح ـ (ما ظهر منها وما بطن) ما ظهر للناس مـن الفواحش (وما بطن) منها بين العبد وبين

....

الله، فكلُّه سواء، فعلى الإنسان أن يتجنب الفواحش في كل أحواله سواء كان بين الناس، أو كان خالياً، فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لأنَّ بعض الناس يتورَّع إذا كان يراه أحدٌ من الناس، فيتجنَّب ما لا يليق به، فإذا ما خلا بنفسه تجرأ على المعاصي، وهذا في الحقيقة إنما يخشى الناس ولا يخشى الله تعالى، لأنَّ الذي يخشى الله حقيقة، هو الذي يخشاه في الغيب والشهادة، وفي السرِّ والعلن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٢ – ١٣]. أمّا الإثم: فهو جميع المعاصي لأنها تؤثِّم صاحبها، والبغي: هو التعدّي على الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، فالبغي حرام، ثم قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] أما إذا كان ذلك قصاصاً فهو حق كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالقاتل يقتل قصاصاً.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فهذا أعظم المحرمات، كما أنَّ التوحيد هو أعظم الواجبات. والشرك بالله: هو أن تجعل معه شريكاً في عبادته كدعاء غير الله، والاستغاثة بغيره فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، والذبح والنذر لغير الله، فهذه الأمور كلها شرك بالله، لأنَّ العبادة حقٌّ لله وحده لا ينبغي أن يشاركه فيها أحد.

....

وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة وبُرْهاناً، فالله تعالى لم ينزل حجة للمشرك أبداً، وبخلاف الموحِّد فإنَّ عنده سلطاناً وبرهاناً وحجةً على توحيد الله تعالى، أما المشرك فليس عنده إلَّا الشُّبهات والخرافات التي يتعلق بها، في حين نرى أنَّ التوحيد براهينه ظاهرة وجَلِيَّة في الوحي المنزل وفي الكون المشاهد، ولله الحمد والمنَّة.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا محل الشاهد هنا، أي لا تقولوا في دين الله ما لا تعلمون، أي: بدون دليل وعلم، وهذا عامٌّ في تحريم القول في أمور الدِّين من غير يقين، فهذا ممَّا حرَّمه الله ونهى العباد عن تعاطيهِ لِما فيه من المفاسد، فلا يجوز للمسلم أن يقول ما لا يعلم، والذي لا يعلمه عليه أن يسكت عنه ولا يتخرص فيه، فإنَّ الله لم يكلِّفه ما لا يقدر عليه، فإن سُئلت عن مسألة لا تدري عن جوابها فإمّا أن تؤجل الجواب حتى تبحث وتسأل، وإمّا أن تحيله إلى غيرك وإلى من هو أعلم منك، فأنت عندئذٍ في عافية.

قد تكون لدى بعض الناس أهواءٌ، فينتحل أحدهم الجواب عنها لأجل أن يستدل لرغبته وهواه، فيصطنع شيئاً من الأقوال أو

....

الشبهات ليروِّج باطلَه، ولينتصر على خصمه، وهذا أيضاً قولٌ على الله بغير علم، وهذا هو حالُ بعض الذين يتجرؤون على الفتوى الآن في الفضائيات وفي الصحف دون أن يكون لديهم العلم الكافي الذي يؤهِّلهم للتصدِّي لإصدار هذه الفتاوى، فهؤلاء في خطر عظيم، لأنهم إما أن يكونوا جهّالاً ليس لديهم رصيدٌ من العلم وإنما يتكلمون بالتخَّرص، وإما أن يكونوا أصحاب هوىً فيقولون ما يوافق أهواءهم من غير دليل ولا برهان.

وليحذر المسلم من ذلك، ولا سيما طلاب العلم غاية الحذر من القول على الله بغير علم.

وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: «من علّمه الله علماً فليعلِّمه الناس» أي: إذا علّمه الله من الكتاب والسُّنة، فلا يجوز له أن يبخل به ويكتمه، وإنما عليه أن يعلّمه غيرَه وينشره في الناس، فالناس بحاجة إلى العلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، لأنَّه قد يكتم بعض الناس العلم ولا ينشروه، إما من باب الكسل أو لطلب الراحة ـ وهذا أمر مذموم ـ وإما أن يكون له هوًى فلا يقول الحق،

....

وإنما يقول غير الحق ليوافق هواه، وهذا كتمان للعلم وكذب على الله، وهذا أعظم جرماً من كَتْم العلم، فالواجب على العالم أن يعلّم غيره ممّن يحتاجون إلى علمه، وينشره بين الناس ليستفيدوا من علمه، ويؤجر هو على ذلك، والله لا يُضيع عَمَل عاملٍ. وأما من لم يعلّمه الله فعليه السكوت، وهذا هو محل الشاهد: أن من ليس عنده علم فعليه أن يسكت ولا يُفتي ولا يدرس الناس وهو جاهل، فالمصيبة كلُّ المصيبة أن يتصدر للفتوى والتدريس الجهال من الناس، فلا ينبغي الرجوع إلى مثل هؤلاء، لأنَّ مَن رجع إليهم كان شريكاً لهم في الإثم، وعلى من يريد النجاة لنفسه، أن يتعلّم قبل أن يتكلّم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فالله ـ جلَّ وعلا ـ طلب من نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فالرسول ﷺ لا يقول إلّا ما يُوحَى إليه، وما ينزَّل عليه، ولا يأتي بشيء من عنده لأنَّ هذا تكلف وهو بريء من المتكلفين، فالمتكلِّف هو: من يقول على الله بغير علم في أمور الدين، ثم إنه قد «يمرق من الدين» كما قال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه، فيجرؤ على الكذب وعلى القول على الله بغير علم، ومعنى: «يمرق من الدين»: يعني: يخرج من الدين.

....

وأمّا الحديث الآخر الذي أورده المصنِّف رحمه الله في هذا الباب فهو حديث ابن عمرو رضي الله عنهما وهو حديث عظيم، إذ بيَّن فيه ﷺ كيفية قبض العلم.

فقد ورد أن العلم يُقبض في آخر الزمان، فكيف يكون قبضه؟ هل معناه أن العلم يرفع؟ لا، ليس هذا معناه، لأنَّه ما دام القرآن والسنة موجودين، فإنَّ العلم باقٍ فيهما، وإنما يُقبض العلم بموت العلماء الذين يحملونه ويأخذونه من الكتاب والسنة أخذاً صحيحاً، وإنما يُقبض العلم بموتهم، فلا يُمحى العلم من الصدور، ولكن بموت حَمَلته، فهم في النهاية سيموتون كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذه سنة الله ـ عز وجل ـ في خَلْقه، وما زال الأنبياء والعلماء يموتون، ولكن المشكلة تَكْمُن بتصدُّر الجهّال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم، فيفتون بالجهل بعد الفراغ الذي تركه رحيل العلماء.

وفي هذا يَحسُن بنا القول: إنَّ الطالب مهما حصّل من الدراسات في الجامعات، فهذا وحده لا يكفي ولا يليق بصاحبه أن يقتصر عليه بل يواصل التزود من العلم، والدراسة التي درسها مفتاح ومدخل إلى العلم، ولأنَّ صاحب الشهادة في النهاية سينسى ما درس، فالأصل

....

في طالب العلم أن يواصل التحصيل العلمي والمدارسة والاطلاع ومجالسة العلماء هذا من ناحية. ومن الناحية الأخرى أن العلماء يموتون ولا يخلفهم أحد يقوم مقامهم، كما كان الحال في أول الإسلام، فكان العالم إذا مات خَلفَه طلابٌ وتلاميذ وذرية يحملون علمه وينشرونه بين الناس، لكن في آخر الزمان يُفقد هذا، فإذا لم يبقَ عالم يرجع إليه الناس، فماذا يفعلون وهم محتاجون إلى مرجع؟ سيتخذون رؤوساً جهالاً يجعلونهم في مكان العلماء، فإذا سُئلوا أفتوا بغير علم فضلّوا في أنفسهم، وأضلّوا غيرهم، وهذا خطر على الأمة يجب أن نتنبه له، وهذا يؤكد أنه ينبغي على المسلمين أن يهتموا بالعلم ودراسته، والعمل على إبقائه لئلا ينسوه بموت العلماء، ولهذا كان المسلمون يهتمون بالتعليم عناية تامة، وكانوا يفتحون له المدارس والحلقات.

ولقد تنبّه ولاة الأمور إلى أهمية ذلك، ففتحت المعاهد والكليات، وقُررت فيها المقررات، وأجرى ولي الأمر الإعانات المالية للطلاب، وهذه ميزة عظيمة لهذا البلد، كل هذا من أجل الحفاظ على العلم من الضياع، في حين نرى أنّه في الدول الأخرى، التي يوجد بها دور علم أنَّ الدراسة تكون على نفقة الطالب، فالدولة لا

....

تدفع له شيئاً، أما في هذه الدولة فقد أَجْرَتْ للطالب ما يكفيه، حتى الكتب تطبعها له مجاناً، وهذا من نعم الله سبحانه وتعالى علينا.

فالواجب على الشباب وطلاب العلم أن ينتهزوا هذه الفرصة ويتفرغوا لطلب العلم وتحصيله، لأنَّه بموت العلماء، قد يتخذ الناس رؤوساً جهالاً، يجعلونهم مراجع لهم، يُحكِّمونهم في خُصوماتهم ويستفتونهم في مشكلاتهم، فماذا يفعلون وهم ليس عندهم علم وقد تبوَّءُوا هذه المناصب ليس أمامهم إلّا أن يحتفظوا بهذه المناصب، فيفتوا بغير علم، ويقولون على الله ما لا يعلمون، فَيَضلّون ويُضِلُّون غيرهم.

وهذا الحديث من علامات النبوّة، فإن النبي ﷺ أخبر عن أشياء ستقع في المستقبل، وقد كان الأمر كما أخبر النبي ﷺ، ولكن الرسول ﷺ يريد بهذا الخبر التحذير من إهمال العلم، والحثّ على التعلّم والإقبال على طلب العلم، وفيه تحذير ولاة الأمور من أن يُسْندوا المناصب الدينية للجهال، وأنَّ عليهم أن يختاروا أفضل من يجدونه لهذه المناصب لئلا يقع المحذور الذي أسلفنا بيانه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والمناصب العلمية هي أعظم الأمانات.

باب ما جاء في شهادة الزور

وقول الله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ الآية [الحج: ٣٠].

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: «إنَّ الطَيْرَ لَتَخْفِقُ بأَجنِحَتِها، وتَرْمي ما في حَواصِلها مِنْ هَوْلِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وإنَّ شاهِدَ الزُّورِ لا تَزولُ قَدَماهُ حَتّى يَتبَوَّأ مَقعَدَه مِنَ النّارِ»[1].

ولهما[2] من حديث أبي بكرة ﷺ: «أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلا وَشَهَادَةَ الزُّورِ» فما زال يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتْ». [١١٦]

---

[١١٦] شهادة الزور من الكبائر الموبقة ـ والعياذ بالله ـ وهي الشهادة التي يُدلي بها الشاهد وهو كاذب فيها، إمّا لأجل مساعدة المشهودِ له ـ والناس اليوم يعتبرون أن الشهادة من المساعدة، وأنَّ الذي لا يشهد ليس فيه خيرٌ، وهو في الحقيقة يضر من شهد له شهادة الزور، لأنه يقطع حقوق الناس بهذه الشهادة ـ، وإمَّا أن يشهد

---

(١) أخرجه أبويعلى في «مسنده» (٥٦٧٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٦١٦) بنحوه، وابن ماجه مختصراً (٢٣٧٣). وانظر «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٢١٧-٢١٨.

(٢) البخاري (٥٩٧٦)، مسلم (٨٧).

....

وهو كاذب انتقاماً من المشهود عليه، أو يشهد جاهلاً بحكم الشهادة كأن يظن أنّها لا تضر، أو جاهلاً بعواقب ومآل شهادة الزور، والزور والتزوير: هو تزيين الشيء حتى يصبح كأنه حقيقة. ويزوِّره، أي: يُنَمِّقُه ويُحسِّنه حتى يظهر للناس كأنه حقيقة.

فالزور: هو إظهار الشيء على غير حقيقته، أو أنَّ أصله من الإزورار، أي: الانحراف، لأن شهادة الزور فيها انحراف عن الحق.

وقد أورد المصنِّف في أول هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] ليظهر أنَّ قول الزور عديلٌ للرجس من الأوثان، والرجس هو: النجس، لأنَّ الأوثان نجسة نجاسة معنوية؛ لأنها مظاهر الشرك بالله عزَّ وجل، والشرك من أعظم الذنوب.

والنجاسة هنا معنوية، وليست حسيّة، أي: نجاسة الاعتقاد، وإلا فالحجارة والأخشاب والقبور ليست نجسة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] ونجاستهم في الاعتقاد، وقوله: «الأوثان» جمع وَثَن: وهي كل ما يعبدُ من دون الله عزَّ وجل من قبر أو شجر أو حجر أو إنسان، فالله عزَّ وجل أمر باجتنابه، كما أمر

....

باجتناب شهادة الزور، فقال: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ أي: الكذب في الشهادة، وهذا كله زور أمرنا الله باجتنابه، أي: بالابتعاد عنه، فلا ينبغي أن تقترب منه، فالله تعالى: لم يقل: «لا تزوّروا»، لكن قال: «اجتنبوا» وهذا أبلغ، مثل قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وهذا أبلغ من قوله: «لا تزنوا» والمعنى: اتركوا طريقه والوسائل التي تؤدي إليه فابتعدوا عنها، وكذلك قول الزور، سواء كان شهادة أو قولاً بغير علم، أو كذباً، أو غير ذلك، فالواجب الابتعاد عـمّا يؤدي إلى الزور ويقرّب منه.

وقوله في حديث ابن عمر: «إن الطير لتخفق بأجنحتها وترمي ما في حواصلها من هول يوم القيامة» قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، فقيام الساعة أمر عظيم تذهل من شدته الخلائق، والعياذ بالله، وقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الزمر: ٦٨] فهو فزع وجزع، وقد سماه الله تعالى الفزع الأكبر فقال: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]،

....

فمن شدة هوله تكون هذه هي حالة الطيور، وهي غير مكلفة ولا ذنوب عليها، فما بال المذنبين والكفار والمشركين، والعياذ بالله.

وقوله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «وإنَّ شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يتبوَّأ مقعده من النار» هذا هو الشاهد من الحديث وهذا وعيد شديد لشاهد الزور، أن مصيره إلى النار فيجب على المسلم أن يتجنب شهادة الزور، وقد ورد أنَّ النبي ﷺ سئل عن الشهادة فقال: «هل ترى الشمس؟» قال: نعم قال: «على مثلها فاشهد»[1]، فلا تشهد إلّا إذا كنت متيقناً لما تشهد به قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أما إذا لم تكن متيقناً ولم تكن عالماً بما تشهد فإيّاك أن تشهد، واحذر أن تبني شهادتك على الظن، لأنَّ الظن كما قال تعالى: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، إذاً لا بُدَّ من اليقين في الشهادة، وإلا فاتركها لتكون في عافية، فإن شهدت وأنت ليس عندك علم بما شهدت به، كانت هذه شهادة زور توجب لك النار يوم القيامة.

وأما الحديث الآخر الذي أورده المصنِّف رحمه الله في هذا الباب، فهو حديث أبي بكرة ﷺ، فقد جاء في «الصحيحين» وفيه أنَّ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٩٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

....

قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاث مرات، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجَلَسَ، فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور، وقولُ الزُّور، وشهادةُ الزُّور» فما زال بقولها حتى قلت: ليته يسكتُ، أي: إشفاقاً عليه لما رأى من تأثره ﷺ عند إلقاء هذه الكلمة، مما يدلُّ على خطرها.

الكبيرة الأولى: الشرك بالله: فهو عبادة غير الله ـ عزَّ وجل ـ لأنَّ العبادة حق لله لا يُشرك معه أحد، وهذا أعظم الذنوب.

والكبيرة الثانية: عقوق الوالدين، فالواجب بر الوالدين والإحسان إليهما، وحق الوالدين يأتي بعد حق الله تعالى، وعقوقهما يأتي بعد الشرك بالله في المرتبة، والمراد بالعقوق: القطعية، والعاق هو القاطع لوالديه غير البارِّ بهما، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك.

والكبيرة الثالثة شهادة الزور.

وفي الحديث: أنه ﷺ كان متكئاً ثم لَـمَّا أراد أن يذكر قول الزور جلس، واعتدل لأهمية الأمر، فغيّرت هيئة جلوسه ﷺ ثم ردَّد الكلام، وهذا فيه حالتان للرسول ﷺ: الحالة الأولى: أنه غيّر جلسته ﷺ، والحالة الثانية: أنه كرَّر وردَّد هذه الكلمة، وهذا مما يدلُّ على غلظ شهادة الزور، فلماذا فعل الرسول ﷺ ذلك عند

....

قوله: «ألا وشهادة الزور» ولم يفعل ذلك عند قوله: «الشرك»؟، الجواب: لأنَّ الشرك يتجنبه المسلم بإسلامه، وكذلك عقوق الوالدين يتجنبه أيضاً بمروءته ودينه، لكن شهادة الزور قد يتساهل فيها، ويظن أنه يفعل ذلك لأجل «المساعدة» أو للحَميَّة، أو يظن أنه لا يلزم من شهادته هذه مسؤولية أمام الله تعالى، ولكون مفسدة الزور متعديَّة إلى غير الشاهد اهتمَّ ﷺ بالتحذير منها، بخلاف الشرك، فإنَّ مفسدته قاصرة غالباً على المشرك، فلذلك غلَّظ الرسول ﷺ من شأنها لأنها مما يتساهل بها الناس، وأبدى لها اهتماماً خاصاً، وهذا يدلُّ على أنَّ شهادة الزور من أكبر الكبائر.

باب ما جاء في اليمين الغموس

عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «مَنْ حَلَفَ على مالِ امرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّه، لَقِيَ الله وهو عَليهِ غَضْبَانُ»، ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾[1] [آل عمران: ٧٧].

ولمسلم[2] عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً: «مَن اقتَطَعَ حَقَّ امرِئٍ مُسلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَقِيَ الله وهوَ عَلَيْهِ غَضْبانٌ» وفي رواية: «فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ له النَّارَ وحَرَّمَ عليه الجنَّةَ، وقال رَجلٌ، وإنْ كانَ شَيئاً يَسِيراً يا رَسُولَ الله؟ قال: «وإنْ كَانَ قَضِيْباً مِنْ أَرَاكٍ». [١١٧]

---

[١١٧] ومن الكبائر أيضاً اليمين الغموس، واليمين الغموس: هي اليمين التي يحلف صاحبها على أمر ماضٍ وهو كاذب متعمد، كأن يقول: والله إنَّ هذه السلعة اشتريتها بكذا وكذا وهو كاذب ليغرِّر بالزبون، أو أنَّ قيمتها كذا وكذا، ويحلف بالله كاذباً، وسميّت غموساً لأنها تغمس صاحبها غمساً بالإثم ثم في نار جهنم والعياذ بالله.

---

(١) البخاري (٢٣٥٦،٢٣٥٧) بنحوه، ومسلم (١٣٨) (٢٢٢).

(٢) في «صحيحه» برقم (١٣٧) (٢١٨).

....

فاليمين تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولها: اليمين اللغو: وهي التي تأتي على لسان الإنسان من غير قصد، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] في قَوْلِ الرَّجُل: لا والله، وبَلَى والله(١)».

ثانيها: اليمين المنعقدة أو اليمين الـمُكَفِّرة: وهي التي يُقصد عقدها على أمر مستقبل، كأن يقول: والله لأفعلنَّ كذا، والله لا أفعل كذا، يعني: في المستقبل، وهي التي تَجبُ فيها الكفّارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ثالثها: اليمين الغموس: وهي الحلف على أمر ماضٍ كاذباً متعمداً، وهذه ليست فيها كفّارة، إنما فيها التوبة إلى الله ـ عز وجل ـ والاستغفار، فإذا لم يتب الإنسان منها، فإنها تغمسه في الاثم، ثم في النار، كأن يحلف أنه رأى فلاناً يفعل كذا وهو لم يره، أو يحلف على سلعة أنَّ ثمنها عليَّ بكذا وهو كاذب متعمداً لذلك، فهذه هي اليمين الغموس التي تجري على ألسنة كثير من التجار والباعة في الأسواق،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١٣).

....

يروّجون بها سلعتهم، وقد جاء في الحديث أن من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم: «والـمُنَفِّقُ سِلْعَتَه بالـحَلِفِ الكاذِبِ»[1]، لا يشتري إلّا بيمينه، ولا يبيع إلّا بيمينه، وقال عليه الصلاة والسلام: «الحَلِفُ مَنْفقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ»[2]، فالحَلِفُ مروِّج للسلعة، ولكنه سببٌ لذهاب المال، إمّا بتَلَف يلحقه في ماله أو بإنفاقه في غير ما يعود نفعُه إليه في العاجل، أو ثوابه في الآجل جرّاء هذا اليمين، وهو يأتي بعد شهادة الزور في غِلَظ تحريمه وعِظَم إثمه، ويدخل في هذا اليمين في الخصومات، فالبيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر، فإذا حلف وهو كاذب ليأخذ مال أخيه في الخصومة فإنه كما قال الرسول ﷺ: «إنّما أَقْطَعَ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[3]، وفي حديث أبي أمامة الذي سيأتي «يلقى الله وهو عليه غضبان»، ومن الذي يطيق غَضبَ الرب سبحانه وتعالى؟

وتكون اليمين الغموس في ثلاثة أمور، وهي: اليمين في الأخبار الكاذبة، واليمين في البيع والشراء، واليمين في الخصومات.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠٦)، وأحمد (٢١٣١٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

....

وأما حديث ابن مسعود ﷺ فقد جاء في الخصومات، ونزلت فيه هذه الآية الكريمة، وسبب النزول: أن رجلين اختصما عند النبي ﷺ، فطلب النبي ﷺ من المدّعي البيّنة، فلم يكن عنده بيّنة فقال له: «شاهِداكَ أوْ يَمينُه»[1]؛ أي: يمين صاحبه، قال: يا رسول الله يحلف ولا يبالي، فقال رسول الله ﷺ: «مَن حَلَفَ على يمينٍ يستحقُّ بها مالاً، وهو فيها فاجرٌ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ» فأنزل الله تصديقَ ذلك، ثم اقتَرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: ليس لهم نصيب من الجنة، وهذا وعيدٌ شديد، فهم ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ في الآخرة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم نظرَ رحمة وإكرام، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾: أي: لا يطهّرهم من ذنوبهم، وأيضاً ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فانظر إلى هذه العقوبات القاسية التي هي بسبب الحلف الكاذب، فلو أنَّ إنساناً حلف كاذباً وكسب القضية ـ سواء كان ذلك في مال أو أرض أو في خصومة ـ فماذا يساوي ما حصل عليه أمام غضب الله عليه وأمام هذه العقوبات؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٥، ٢٥١٦)، ومسلم (١٣٨).

....

بل إنَّ النبي ﷺ لم يحصر الأمر في الأموال الكبيرة أو الأراضي الشاسعة، بل قال: «من اقتَطع مالَ امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنَّة» فقال له رجلٌ: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»[1]، أي: عوداً من شجر الأراك الذي يستاك به الناس، فلا يجوز التساهل في اليمين في أيِّ أمرٍ مهما بَدا صغيراً أو حقيراً، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِها مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبان»[2]، ولهذا يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: لا تكثروا الحلف، فلا تحلفوا إلّا عند الاضطرار، وحين تكون صادقاً فيما تحلَف به، أما الذي يكثر الحلف، فهو متساهل في حق الله سبحانه وتعالى، لا يُعظِّمه حق تعظيمه.

وقوله في حديث أبي أُمامة: «مَنِ اقتطع مال امرئٍ مسلم» أي: باليمين عند القاضي، أو أن خصمه طلب منه اليمين، فحلف وأخذ مال أخيه فهذا فيه وعيد شديد، وفي الحديث غلظ تحريم أَخْذِ حقوق المسلمين، وأنَّه لا فرق بين قليل الحق وكثيره في ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) (٢١٨) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٩، ٤٥٥٠)، ومسلم (١٣٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

باب ما جاء في قذف المحصنات

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية [النور: ٢٣].

ولهما(١) عن أبي هريرة مرفوعاً: «اجْتَنِبوا السّبْعِ الموبِقاتِ» قالوا: ومَا هُنَّ يا رَسولَ الله؟ قال: «الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّم الله إلّا بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ الـمُحْصَناتِ الغافِلَاتِ المؤمنات» [١١٨]

---

[١١٨] من الكبائر قذف المحصنات، فقوله في الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات» أي: الكبائر المهلكات، وعدّ منها قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ – ٢٥]، والقذف في اللغة معناه: الرمي، ومنه القذيفة: أي: الرمية، والمراد به

---

(١) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

....

هنا: رمي المحصنات بالزنى، والمحصنات: هن العفيفات، فهذا من أكبر الكبائر، والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه عن مثل هذه الجريمة، فإن اللسان له آفات مهلكة، فإذا لم يحفظ الإنسان لسانه أهلكه، فما من شيء أحق بطول حبس منه، وليس القذف مقتصراً على النساء، بل ويكون في الرجال، فلا يجوز رمي الأبرياء في أعراضهم، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، فيقال: إنهم يفعلون الفواحش كالزنى واللواط، هذا هو معنى القذف، والعياذ بالله.

وقوله رحمه الله: «باب ما جاء في قذف المحصنات» يعني من الوعيد في الكتاب والسنة في هذا الأمر الفظيع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣]، أي: العفيفات و﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ أي: البعيدات عن هذه الأمور، النزيهات عن الفواحش، والنزيهات في أعراضهن، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فالمؤمن له حرمة سواء كان ذكراً أو أنثى، وقد جاءت الشريعة بحفظ الأعراض وصيانتها من أن تنتهك أو تقذف، والمؤمن حرام دمه وماله وعرضه، كما جاء في الحديث: «كُلُّ الـمُسْلِمِ عَلَى الـمُسْلِمِ حَرامٌ دَمُه وَمالَه وعِرْضُه»[1]، ولذلك فإنَّ قذف المسلم بالفاحشة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

. . . .

جريمة رتَّبَ الشارع عليها الحدَّ والعقوبة، وقد قال ﷺ: «إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عَلَيكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هذا، في بَلَدِكُم هذا، في شَهرِكُم هذا»[1]، فالمؤمن يهون عليه ماله، أو قد يهون عليه أن يقتل، لكن لا يهون عليه عرضه، لذلك فإن الإسلام جعل المحافظة على العرض من الضرورات الخمس: وهي حفظ الدِّين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العَرْض، ودين الإسلام أمر بالستر، حتى لو وقع مِنَ المسلم شيء من هذه الأمور، فالواجب ستره، قال ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مُسلِماً سَتَرَهُ الله في الدُّنيا والآخِرَة»[2]، أي: الواجب ستره مع نصيحته، وعدم إشاعة ما حدث منه بين الناس حتى لا يكون من الذين قال فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، هذا إذا كان واقعاً في المعصية، فكيف إذا كان بريئاً منزّهاً، ثم قُذف في عرضه؟ فالأمر خطير جدّاً، ولهذا رتَّب الله عليه الحد، فقال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (٢٦٩٩) (٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، فدلَّ هذا على أنَّ القذف كبيرة من الكبائر.

والسبع الموبقات هي: أولاً: «الشرك بالله»، فهو أكبر الكبائر: وهو أن تجعل مع الله نداً وهو خلقك كالاستغاثة بالأموات والاستعانة بهم والذبح لهم وغير ذلك، ولو سمِّي بغير اسمه كما يسمونه الآن بالتوسل، وأنه من باب محبة الصالحين، وغير ذلك من التسميات الباطلة، فمهما سُمي هذا التوسُّل بأسماء مختلفة فهو شرك، وهو من أكبر الكبائر ولا يغفره الله إلّا بالتوبة، وإذا مات الإنسان عليه كان مخلَّداً في النار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالشرك ظلم عظيم، بل هو أعظم أنواع الظلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلو أن الإنسان كان مصلياً ليلاً ونهاراً وصائماً ومؤدياً للفرائض ومجاهداً في سبيل الله، إلّا أنّه يشرك مع الله في عبادته لأَحْبَطَ الله عمله، ولكانت أعماله هباءً منثوراً، فانظر لهذا الخطاب الوارد في الآية،

....

فسترى أنَّه حتى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لو أشركوا لحبط عملهم وصاروا من الخاسرين، فكيف بغيرهم؟! وهذا يبيّن مدى خطورة الشرك، وأنه لا ينفع معه عمل عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ حتى لو كان الإنسان مصلّياً وصائماً ومنفقاً، فإنَّ أعماله باطلة، لأنها لم تؤسس على أصل وهو التوحيد، ولذلك صار الشرك أعظم الموبقات، وهو أعظم ما نُهِيَ عنه، ومن هنا يجب الاهتمام بأمور العقيدة، ومعرفة ما يجب في حق الله، وما لا يجوز، ومعرفة الشرك وأنواعه لكي يُجتَنب، فكيف يجتنب المسلم ما لا يعلمه. فالبعض يقول: إن الشرك هو أن تعتقد أنَّ هناك من يخلق ويدبر مع الله، نقول: نعم هذا شرك في الربوبية وأكثر المشركين لا يقولون به، وهذا قليل وقوعه في العالم، فأكثر المشركين يوحّدون الله توحيد الربوبية، وإذا سألتهم: مَنْ خلقهم؟ فسيقولون: الله، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]، فهؤلاء لم يقولوا: إنَّ هناك من يدبّر الأمور مع الله سواء كان في الأولياء والصالحين أو الأصنام، هم يعترفون بهذا، يعني: بتوحيد الربوبية، إنما يخالفون في توحيد

....

الألوهية، أي: توحيد العبادة، وهذا هو الذي وقع فيه الخلاف بين الأنبياء والأمم، ولكن لا ينفع أن يُقرّ العبد بتوحيد الربوبيّة دون توحيد الألوهية، ولذلك جاءت الرسل تدعو إلى توحيد الألوهية وتجاهد من أنكره، والذي يقول: إنَّ الشرك هو أن تعتقد أن أحداً يدبر ويخلق مع الله، أو ينفع أو يضر، نقول له: إنَّ هذا كلام باطل لم يقُله أهل الجاهلية قط، فهؤلاء كانوا إذا نُهوا عن عبادة القبور والأولياء، قالوا: نحن نعلم أنَّ الأموات لا ينفعون ولا يضرون، ولكننا نتخذهم وسائل بيننا وبين الله، أي: هم يدعونهم ويستغيثون بهم، ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، فهم يعترفون أنهم لا يضرونهم ولا ينفعونهم إنما حجتهم أنهم شفعاء لهم عند الله، ووسيلة عنده سبحانه وتعالى، ويسمون هذا توسلاً وليس شركاً!!

الموبقة الثانية: «السِّحر» والسحر في اللغة: العمل الخفيّ الذي له تأثير وهو لا يُرى، ومنه سُمي السَّحَر سَحَراً لأنه يأتي آخر الليل، أما في الشرع فالسِّحر: عبارة عن رُقى وعزائم وطلاسم يعملها الساحر، وعُقَداً يعقدها وينفث فيها، وعزائم يقرؤها بأسماء

....

الشياطين، ثم ينفث من ريقه الخبيث ويستعين بالشيطان، فيؤثر في بدن المسحور إما بالموت أو المرض أو بتخييل العقل؛ وحُكم الساحر أنه كافر بالله عزَّ وجل، ولهذا حكم الله على تعلِيم السحر وتعلُّمِه بالكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢] فاليهود قد اتهموا سليمان بأنه سخَّر العفاريت بالسحر ـ قبحهم الله ـ وإنما سخَّرها الله سبحانه وتعالى له، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾[البقرة: ١٠٢] أي: ما سحر كما تقول اليهود فسمي السحر كفراً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[البقرة: ١٠٢]، وهاروت وماروت ملكان نزلا من السماء يُعلِّمانِ السحر لا لذات السِّحر، وإنَّما للابتلاء والامتحان، ولذلك ينصحان من يأتيهما لأجل التعلُّم، قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر، فدلت الآية على أنَّ السحر كفر، تعلّمه وتعليمه، لماذا؟ لأنَّ فيه استعانة بالشياطين في عَمِلهم وتعليمهم، لذلك صار كفراً، والكفر أكبر الكبائر، وهو كفر مخرج من الملَّة.

....

الموبقةالثالثة: «وقَتْل النَّفْسِ التي حرَّم الله إلَّا بالحق»، فالله تعالى حرَّم قتل النفس، والاعتداء عليها، وسواء كانت نفس مؤمن أو نفس أو معاهَدٍ من الكفار، أما المؤمن فقد قال تعالى بشأنه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، وأما الكافر المعاهد قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعاهَداً لم يَرِحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أربَعينَ عاماً»[1]، وهذا وعيد شديد، فقتل المؤمن أو المعاهَد من السبع الموبقات، والعياذ بالله.

الموبقة الرابعة: «أكل الربا»، فالكسب الحرام خبيث من أي نوع كان، لكن أشدُّها هو أكل الربا، ولذلك عدّه ﷺ من السبع الموبقات، والحديث عنه في وقتنا الحاضر أمرٌ ضروري بعد أن أصبح اليوم اقتصاد العالم مبنيّاً على الرِّبا، ولا ينجو من الرِّبا إلّا من سلّمه الله منه وعرفه وابتعد عنه، وإلّا فأكثر الناس واقعون في الربا تبعاً للاقتصاد العالمي كما يقولون! وهذا أمرٌ خطير جدّاً على الأفراد والمجتمعات لأنَّ الله جلَّ وعلا قد حذَّر منه وتوعَّد المتعاطين له بالمحق ونزع البركة فقال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

....

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، وفي الحديث: لَعَنَ رسولُ الله ﷺ آكلَ الرِّبا ومُوكِلَه وكاتِبَه وشاهدَيه وقال: «هُمْ سَواء»[1]؛ فلعن آكل الربا، وهو الذي يأخذ ولعن موكله الذي يدفعه للآكل، ولعن الكاتب والشاهدين، لأنهم يوثقون عقد الربا ويتعاونون مع المرابين في شهادتهم وكتابتهم، فالجميع ملعونون على لسان رسول الله ﷺ، وعُبِّرَ بالأكل هنا، لأنه أغلب وجوه الانتفاع وإلَّا لو أخذه ولم يأكله بل جعله في بناء العمارات أو شراء السيارات، أو جعله أرصدة في البنوك لكان ملعوناً، سواء أكله أو لم يأكله، وقد قال الله سبحانه عن اليهود لما كانوا يتعاملون الربا: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ [النساء: ١٦١]، فأخذ الربا موبقة من الموبقات، وملعون من تعامل به، سواء أكله أو لبسه، أو حفظه في رصيده أو غير ذلك.

الموبقة الخامسة: «وأَكْلُ مال اليتيم» واليتيم: هو الذي مات أبوه وهو صغير، فهو بحاجة إلى من يحفظ له ماله وينمِّيه له، لأنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر ، والبخاري (٥٩٦٢) مختصراً من حديث أبي جحيفة .

....

والده الذي يتولّاه ويربيه قد مات، فأصبح ماله عُرضةً للضياع لأنه قاصر، فيحتاج إلى وليٍّ ناصحٍ يحفظ له ماله، فدل ذلك على عظم حرمة مال اليتيم، وعلى عدم الاعتداء عليه أو التساهل في المحافظة عليه وصيانته، فيجب أن يُبادر الثقات لِيَلوا أمر اليتيم حتى يكبر ويأخذ ماله، فمن استغل ضعف وغفلة اليتيم وعدم إدراكه، فأكل ماله، فقد ارتكب كبيرة من الموبقات، وهي قرينة لأكل الربا، وقرينة للشرك والسحر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦]، أي: يستغل ضعف وصغر اليتيم ليأكل ماله، وهذا لا يجوز.

الموبقة السادسة: «التَّولي يوم الزَّحفِ»، وهو: الفرار من قتال الكفار، فإذا التقى المسلمون والكفار فيجب على المؤمن أن يثبت ولا ينهزم من أرض المعركة، سواء انتصر أو استشهد، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦]، وهذه إحدى الحالات التي يجب فيها القتال على الأعيان، فمن حضر القتال وهو يقدر عليه، لم يجز له أن ينهزم، بل عليه

....

أن يثبت ويقاتل، حتى لو قتل فهو شهيد، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠] وإن انتصر فهذه نعمة من الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾[الأنفال: ١٥]، أي: لا تفروا وتتركوا أصحابكم، ثم استثنى ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي ينحرف للقتال في جهة أخرى من جهات المعركة (أو متحيزاً إلى فئة) أي: لينظم إلى جيش المسلمين.

الموبقة السابعة: «وقذف الـمُحْصَناتِ الغافلات المؤمنات» وهذا محل الشاهد من الحديث، وهو: رمي المحصنات بالزنى، وهن عفيفات عنه غافلات، بعيدات عن الريبة، وقوله: «المؤمنات» لأنَّ المؤمنة لا يمكن أن تفعل الزنى، فالأصل في المؤمن البراءة والخير، فلا يجوز أن يلطَّخ بجريمة دون تثبُّت ودون بيِّنة، لأنَّ مجرَّد الاستناد على قول الناس لا يُعتدُّ به، وبالتالي فلا يجوز أن تُشاع الفاحشة، ويقال: هكذا سمعنا الناس يقولون، فإن حديث الناس لا يعتبر مستنداً أو بيّنة يُقام على أساسه الحدُّ، وإنما يعتبر هذا الكلام قذفاً أو اتهاماً ـ والعياذ بالله ـ فالواجب أن يحفظ الإنسان لسانه عن هذه الجريمة الخطيرة، فالله ـ جل وعلا ـ رتَّب على جريمة قذف المحصنات الغافلات المؤمنات عقوبة في الدنيا: وهي أن يجلد ثمانين

....

جلدة موجعة تتوارد على جسده، حتى يلتهب جلده، ويكون الجلد على مرأى من الناس حتى يكون رادعاً لمن تسوّل له نفسه أن يقع في أعراض الناس، ولأجل أن يشعر بالخزي أمام الناس، وأما عقوبة الآخرة: فهي اللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥]، هذه هي عقوبة القاذف، وكما قلنا فهذا ليس خاصاً بقذف النساء، بل وقذف الرجال كذلك.

باب ما جاء في ذي الوجهين

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤].

وقوله: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ولهما(١) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «تَجِدُون شَرَّ النَّاسِ يَومَ القِيامَةِ ذا الوَجهَينِ الَّذي يَأْتي هَؤُلاءِ بوَجْهٍ وهؤلاءِ بوَجْهٍ».

وعن أنسٍ ﷺ مرفوعاً: «مَنْ كان ذا لِسانَينِ جَعلَ اللهُ له يَومَ القِيامَةِ لِسانَينِ مِنَ النَّارِ».(٢) [١١٩]

---

[١١٩] «ذو الوجهين» هو المتلون مع الناس، حيث يقول في المجلس ما يرضي أهله، ثم يذهب عند آخرين فيمدحهم ويرضيهم ويشتم الأولين، فهو يبدو عند قوم بوجه وعند آخرين بوجه آخر، وهذا هو النفاق ـ والعياذ بالله ـ وهذه هي المداهنة المحرَّمة، فيُظهِر لأهل

---

(١) البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٧٧١)، والطبراني في «الأوسط» (٨٨٨٥).

. . . .

المنكر أنه عنهم راضٍ فيلقاهم بوجهٍ سمح وبالبشر، وكذلك يظهر لأهل الحق، ولهذا فهو قد استحقَّ الوعيد الشديد، وقد وصف الله تعالى هؤلاء بقوله: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

أما المسلم فهو صادق لا يتلوّن ولا يرائي، ويعامل كلاً بما يستحق شرعاً، ويلتزم تقوى الله والصدق في كل مقام ومجلس في جميع أحواله، فهو إنما يعامل الله ويطلب رضاه ولا يطلب رضا البشر.

وقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ هذا في أول سورة البقرة: قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهو هدًى، لا ريب أنه من عند الله، وهو كلامه - جلَّ وعلا -، ولكنَّ الناس تجاه هذا القرآن انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً وهم المؤمنون وفي هؤلاء يقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤ - ٥]، ذكر الله في حقهم آيتين، وذكر صفاتهم، ثم ختم ذلك

....

بأنهم هم المفلحون سواء من العرب، أو من أهل الكتاب الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به وبالرسل والكتب كلها.

ثم ذكر القسم الثاني: وهم الذين يكفرون بالقرآن ظاهراً وباطناً، وهم الكفار الذين لم يدخلوا في الإسلام وحاربوه، وفي هؤلاء قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ - ٧]، فقد ذكر فيهم آيتين أيضاً، وبيَّن أنهم جحدوا الحقَّ وستروه، فهم لا يؤمنون بما جاءهم من الحق، سواء أُنذروا أو لم يُنذروا، لأنهم لا تؤثر فيهم ذلك.

ثم ذكر الصنف الثالث: وهم الذين آمنوا بالقرآن ظاهراً وكفروا به باطناً فهم لا مع المؤمنين ولا مع الكفار: وهم المنافقون، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٨ - ٩]، فقد ذكر الله فيهم بضع عشرة آية إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، ومن صفاتهم أنَّ لهم وجهين، حيث وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وشياطينهم: هم اليهود الذين قال

....

لهم هؤلاء المنافقون إنّا معكم ضد محمد، ولكننا نظهر الإيمان به خداعاً ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: يستهزؤون بالإيمان، وهم في المقابل إذا التقوا بالمؤمنين أظهروا لهم الإيمان نفاقاً ومصانعةً وتقيَّةً، في حين أنهم إذا ذهبوا إلى سادتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس الشرك أخبروهم أنهم ما زالوا مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وفي هذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦] فهذه صفة المنافقين سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، وهم الذين يستغلُّون الوجهين مع النَّاس والعياذ بالله.

وقد قال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٢ – ١٤٣] فهم متأرجحون، يتبعون مصالحهم الدنيوية، ويدورون حيث تدور مصلحتهم، أمَّا المؤمن فليس كذلك، فهو صادق مع الله، صادق مع العباد، لا يتأرجح ولا يتغير أبداً، غايته رضا الله حتى وإن تعارض ذلك مع مصالحه.

....

ومن صفات المنافقين أيضاً: أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس، فهم إنما يصلون مخادعةً، يريدون بذلك المنزلة في قلوب الناس، وهم في الحقيقة لا يريدون معنى الصلاة، وما أكثر هذا الصنف الذي يندسُّ في صفوف المسلمين، ويُظهر ودّه وحُبَّه لهم، فتراه يصلي إن حضرت الصلاة معهم، ولكنه إن خلا بارز الله بالمعاصي وترك الصلاة، فالصلاة عنده موضعيَّة، أي: يصلي في موضع ويتركها في آخر، وهذه صفة المنافقين، نسأل الله العافية.

ومن أبرز صفات المنافقين أيضاً أنهم لا يذكرون الله إلَّا قليلاً، وذلك من أجل المخادعة، وفي هذا قال سبحانه بشأنهم: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٢]، فقوله: «جُنّة» أي: سُتْرة، فشهادتهم أن محمداً ﷺ رسولٌ من الله إنما هي سترة يتسترون بها ـ نسأل الله العافية ـ فهم ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: متأرجحين، إن ساروا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، وإن ساروا مع الكفار أظهروا الكفر، فهم يصلحون مع كل جنس،

....

ويسمّون هذا دبلوماسية ولباقة، يقولون: إنَّ فلاناً يصلح مع كل أحد، ليس متشدداً ولا مُتزِّمتاً، وإنما يساير الأحوال والناس، وهذه في حقيقة الأمر صفات ذمٍّ لا مدح، لأنها من صفات المنافق، أمَّا المؤمن فإنه لا يساوم على دينه وإنما يثبت عليه، والثبات على الدين والتمسك به ليس تشدداً، فالتشدد هو: الزيادة في الدين، أما الذي يتمسك بأحكام الدين ولا يزيد عليه ولا ينقص منه، فهذا هو المؤمن الصادق، ودين الإسلام هو دين الاعتدال والوسطية، فكيف يكون المؤمن متشدداً ومتزمِّتاً؟ ومن الأسماء التي يطلقونها على المؤمن الملتزم أنه متطرف، والتطرف والغلو لا يكون عند المؤمن، وإنما هذا عند بعض الفرق الضالة كالخوارج وغيرهم، فالحاصل أنهم يصفون المتمسك بدينه بالتطرف والتزمُّت والواجب عليه مسايرة الوضع فإذا كان الوضع يقتضي أن يترك الدين لكي يصبح مرناً سهلاً غير معقد تركه، والحقيقة أنَّ هذه مغالطة، ولو كانوا يقصدون بالتطرف والغلو والتشدد المعنى الصحيح لقلنا: نعم هذا لا نقرُّه ولا نرضاه وليس هو من الدِّين، لأنَّه خروج عن الدين ولكنهم يقصدون معنًى آخر وهو الاستقامة على الدين، ولذلك سُمي الخوارج بهذا الاسم، لأنهم خرجوا عن هذا الاعتدال،

....

فنحن لا نقرُّ التشدد والتطرف والغلو، لكن لا نسمّي التمسك بالدين تطرفاً كذلك، فالتمسك بالدين ليس تشدداً ولا تطرفاً ولا تزمُّتاً، فيجب التنبه لهذا.

ثم قال تعالى في سياق الآية التي ساقها المصنف رحمه الله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، لأنه ذكر قبل ذلك أنهم: ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١] فهؤلاء المنافقون ينتظرون متى يحصل للمسلمين «فتح» أي: نصر، ليقولوا لهم: نحن مسلمون مثلكم، وإذا كان للكافرين «نصيب» أي انتصار على المسلمين بسبب تفريطهم انحازوا مع الكفار ضد المسلمين، والله سبحانه عبَّر عن انتصار الكفار بالنصيب لأنَّ انتصارهم على المؤمنين نادر وحينئذ قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فهم مع الذي له الغلبة، لأنهم أصحاب مصالح دنيوية وليسوا أصحاب دين، بخلاف المؤمنين الثابتين على دينهم في الشدة والرخاء والعسر واليسر.

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ الأدلة من القرآن على ذم ذي الوجهين والوعيد الشديد في حقه، ذكر دليل السنة عن النبيِّ ﷺ

....

بقوله: «تجدون شر الناس» أي: أشد الناس شرّاً، والكافر المصرِّح بكفره وإن كان شراً فشره أخف من شر المنافق، لأنه يُعرف بأنه عدو، وتتخذ معه الأسباب الواقية من شره، كأن يكون معاهداً أو مُسْتأمناً، فيكون بينه وبين المسلمين عقد وعهد، أمَّا المنافق فهو أشد خطراً من الكافر، لأنه مظهر للإيمان مبطن للكفر، ويطعن المسلمين من الخلف، فهو يعيش بين ظهرانيهم ويعرف أحوال المسلمين وأسرارهم ويبديها لأعدائهم.

وقوله ﷺ: «ذي الوجهين» ولم يقل: الكافر، بل قال: «الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» يعني أنه متذبذب، فهو إذا كان مع طائفة من الناس بيّن لهم أنه يودهم وأنه يحب لهم الخير، وإذا انقلب إلى الطائفة الأخرى أخبرهم: أنه معهم وذم الطائفة الأولى وتكلّم في حقهم.

وفي حديث أنس ﷺ بيان لمعنى «ذي الوجهين»، حيث ذكر أنَّه الذي يكون له لسانان مع الناس، إن أتى مع طائفة مدحها بما يرضيها، وإن أتى مع عدوها مدحها وذم الأولى، فهو يستغل لسانه فيما يرضي كل طائفة، ولو على حساب دينه، هذا هو ذو اللسانين، أما لسان المؤمن فهو لسان صدق وحق، فلا يقول إلَّا الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

والمراد باللسان هاهنا: الكلام المتنوع المتلون.

باب ما جاء في النَّميمة

وقول الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

عن حذيفة ﷺ مرفوعاً: «لا يَدخلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ»[١].

ولهما[٢] في حديث القبرين: «إنَّهما لَيُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كَبيرٍ، بَلَى إنَّه كَبيرٌ، أمّا أحَدُهُما فكانَ لا يَستَبْرِئُ مِنَ البَوْلِ، وأمَّا الآخَرُ فكانَ يَمشِي بالنَّمِيمَة» الحديث.

ولمسلم[٣] عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «ألا هَلْ أُنبِّئُكم ما العَضْهُ؟ هي النَّميمَةُ، القالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». [١٢٠]

---

[١٢٠] النميمة من الكبائر أيضاً، والنميمة معناها: نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية، يأتي لفلان ويقول له: فلان يشتمك ويتكلم في حقك ويذهب إلى الآخر ويقول له مثل ما قال للأول، فينقل كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم، وجاء

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥)، والبخاري (٦٠٥٦) بلفظ: «لا يدخل الجنة قتّات»، وهو النّمام.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وعندهم بلفظ: «لا يستتر» بدل «لا يستبرئ».

(٣) في «صحيحه» برقم (٢٦٠٦).

....

في الأثر: إنَّ النمام يفسد في ساعة ما يفسده الساحر في سنة، فهذا أشد إفساداً من الساحر، نسأل الله العافية.

فالواجب على المؤمن أنَّه إذا سمع كلاماً يقال في حقِّ مسلم أن لا يكتفي بالسماع والسكوت، بل لا بد له أن ينصح المتكلّم ويبيِّن له أن هذا حرام وغيبة، ولا يذهب لينقل الكلام للمتكلَّم فيه، هذه هي صفات المؤمن، أما المنافق فإنه يفرح بما حدث من أجل أن يفسد ويوقع العداوة بين الناس. والنميمة شر وفساد، وهي تقوض دعائم المجتمع، وتشيع العداوة والبغضاء بين الناس وقد تثير الحرب، ولهذا جاء الوعيد الشديد بحق النمام.

ومن صفات النَّمّام أنه يُكثر الحَلِفَ بالباطل، ولهذا فقد نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عن طاعة هؤلاء الذين يكثرون الحلف بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، والحلاّف: كثير الحلف، وإذا أصبح الإنسان كثير الحلف، كان هذا دليلاً على كذبه، ولذلك فهو يعمدُ إلى كثرة الحلف حتى يصدقه الناس، وهذا يدلُّ على عدم تعظيمه لله بإكثاره الحلف بالباطل وتساهله باليمين، ثم قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، والهمّاز: هو الذي يغتاب الناس، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]،

....

وقوله: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾، هذا محل الشاهد، أي: يمشي في الناس بالنميمة، فينقل حديث بعضهم إلى بعض، من أجل الإفساد بينهم، والعياذ بالله، لذلك جاء هذا النهي من الله تعالى بعدم إطاعة النَّمام، وأخذ الحذر منه، وعدم تصديقه فيما يقول، وأن لا يُتخَّذ صديقاً، لأنَّ هذا النمام كما أنه قال عندك عن غيرك، فإنه لن يتورع عن الكلام عليك عند غيرك.

وفي حديث الباب، وعيدٌ شديد للنمام، فقد قال ﷺ: «لا يَدخُلُ الجَنَةَ نمَّـامٌ»؛ أي: كثير النميمة، فهذا ليس معناه: أنه لا يدخل الجنة لأنه كافر، ولكن هذا من باب الوعيد لأنه سيدخل النار ويعذّب فيها طويلاً، ثم يخرج ويدخل الجنة، فهو من أصحاب الكبائر التي هي دون الشرك، والنميمة فيها حق للمخلوق، فلا يسلَم النَّمام من الإثم إلّا إذا سامحه المخلوق.

وفي ثاني حديثي الباب وهو حديث القبرين: أنه مرَّ ﷺ على قبرين، فأطلعه الله ـ عزَّ وجل ـ على ما في داخل القبرين من العذاب العذاب، وهذا من معجزاته ﷺ، لأنَّ أحوال القبور من أمور الغيب التي لا يعلمها إلَّا الله، فنحن لا نعلم ما في القبور ولا ندري من يعذّب ومن ينعَّم فيها، وربما يدفن اثنان في قبر واحد، ويكون

....

القبر في حق أحدهما نعيم وروضة من رياض الجنة، وفي حق الآخر حفرة من حفر النار، فهذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلَّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن الله أطلع رسوله ﷺ من باب إظهار المعجزة له ﷺ، ولأجل نصيحة الناس بهذين الأمرين الذين عُذِّب أصحاب القبرين بسببهما، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٧]، فحينما قال ﷺ: «إنَّهما ليُعَذَّبانِ» لم يكن الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا معه ﷺ يرون شيئاً، ثم قال: «وما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ» أي: لا يعذبان في أمر كبير عليهما تَرْكُه، ولكن تَرْكَه سهلٌ عليهما لو تركاه، لكنهما تساهلاً فيه، فصار كبيراً، وهذا يعني أنه إذا تساهل المرء في الذنب حتى ولو كان من الصغائر صار عظيماً.

وقوله ﷺ: «بلى إنه كبير» يدل على أن النميمة كبيرة من كبائر الذنوب، ثم ذكر ﷺ أن أحدهما كان يمشي بالنميمة، وهذا محل الشاهد من الحديث، فدلّ على أن المشي بالنميمة من أسباب عذاب القبر.

وقوله ﷺ: «أمَّا أحدهما فكان لا يستبرئ من البول» وهذا أيضاً من أسباب العذاب في القبر، فالبول نجس، فعلى المسلم الاستنزاه من

....

القذارات، ثم يجب التجنُّب لكل النجاسات، لأنَّ المتنجس لا تُقبل له عبادة حتى يغسل النجاسة، ولهذا يجب العناية بتطهير الثياب والتنزُّه من البول إما بالاستجمار وإما بالاستنجاء.

ومعنى: «لا يستبرئ»: أي: لا يقطع أثر البول، أو لا يتحرز من البول، فالواجب على المسلم أن يتنبه لهذا عندما يريد التبول.

وفي هذا الحديث بيان خطر النميمة، وأنها من أسباب عذاب القبر.

وحديث ابن مسعود ﷺ فيه تحريم النميمة أيضاً، حيث قال ﷺ: «ألا هل أنبئكم» أي أخبركم، وهذا تعليم بطريق السؤال وهو أبلغ مما لو ألقى عليهم العلم ابتداءً فقوله مثلاً: «ألا أنبئكم ما العَضْه» أي: ألا أخبركم، والعَضْهُ: هو السحر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أي: قالوا إنه سحر، ومعنى «ألا أنبئكم ما العَضْهُ؟» أي: ما هو السحر الذي يفرق بين الناس، ويبغِّض بعضهم إلى بعض؟ «هي النميمة القالَةُ بين الناس» وقوله: «القالة بين الناس» أي: أصحاب القول الذين يأتون طائفة بكلام، ويأتون طائفة أخرى بكلام آخر، للإفساد بينهم.

باب ما جاء في البهتان

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

عن ابن عمر مرفوعاً: «مَنْ قال في مُؤْمنٍ ما ليس فيهِ، أَسكَنَه اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّى يَخرُجَ مِمَّا قال» رواه أبو داود بسند صحيح[(١)].

ولمسلم[(٢)] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «أَتَدْرُونَ ما الغَيْبَةُ؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: «ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ» قيل: أرَأَيتَ إنْ كانَ في أَخي ما أقولُ؟ قال: «إنْ كانَ فيه ما تَقولُ فَقَد اغتَبْتَهُ، وإنْ لم يَكُن فيه ما تَقولُ فقد بَهَتَّهُ». [١٢١]

---

[١٢١] البهتان: هو الكذب، والكذب من كبائر الذنوب، وهذا يدلُّ على أنه لا يجوز ولا يحل إيصال الأذى إلى المسلم بوجهٍ من الوجوه، من قول أو فعلٍ بغير حقٍّ، ويدخل في هذا البهتان وهو أن ترمي الشخص بما ليس فيه، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]،

---

(١) برقم (٣٥٩٧)، وأخرجه أحمد (٥٣٨٥).

(٢) في «صحيحه» برقم (٢٥٨٩).

....

ومعنى ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾: أي: ينتقصوه وينسبون إليه شيئاً لا يليق به ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنا الدَّهْرُ، بِيَدي الأَمْرُ أُقلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»[١]، فالله جلَّ وعلا يتأذّى بما ينسب إليه مما لا يليق به سبحانه وتعالى، ولكنه لا يتضرر، لأنَّ الله لا يضره شيء، إلا أنه يتأذّى بدليل هذا الحديث والآية، فلم يقل: يضرون الله، بل قال: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وبعضهم حمل معنى قوله: «يؤذيني ابن آدم» أي: يعاملني معاملةً تُوجب الأذى في حقي. ويؤذون الرسول ﷺ، يعني: يتنقصُّونه أو يَسبُّون أصحابه وأقاربه، فهم يؤذون الرسول ﷺ بأنواع من الأذى كأن ينسبوا إليه شيئاً لم يقله مثل الأحاديث الضعيفة التي دسَّها الوضاعون الذين يضعون الأحاديث على الرسول ﷺ، وكالذين يتهمون عائشة رضي الله عنها في عرضها، وكالذين يسبون الصحابة رضوان الله عنهم، فإنَّ هؤلاء يؤذون الرسول ﷺ، فجزاؤهم لعنة الله، أي: الطرد من رحمته، كما أنَّه سبحانه أعدَّ لهم عذاباً مهيناً في جهنم يوم القيامة خالدين مخلدين مهانين، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وحديث أبي هريرة ﷺ.

....

ثم قال جلَّ وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ينسبون إليهم شيئاً لم يقع منهم، ولم يكتسبوه، فهذا هو البهتان، وأمّا إذا كان ما قيل فيهم قد وقع منهم فهذه هي الغيبة، كما قال الرسول ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ مثل قوله ﷺ: «وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتَّه» فوصف هذا الفعل بأنه بهتان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا﴾ أي: كذباً قبيحاً، ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي: بيّناً واضحاً يتأثّمون به، فلا يضرون الشخص الذي بهتوه، وإنما يضرون أنفسهم، فيعود الضرر عليهم.

وفي حديث ابن عمر بيان عقوبة مَن قال في مؤمن ما ليس فيه من الصفات الذميمة، يتنقّصه بذلك ويكذب عليه، فكان عقابه بأن يسكنه الله رَدْغَة الخبال، وردغة الخبال: منزلة قبيحة في النار ـ والعياذ بالله ـ وكل النار قبيحة، ولكن هذه المنزلة فيها زيادة عذاب، وجاء في معنى ردغة الخبال في حديث آخر: أنها: «عصارة أهل النار»[1]، والعياذ بالله ـ فيشرب منها، إهانةً له بسوء صنيعه، فدلّ هذا على عظم حرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يجوز أن تُنتهك، وأنَّ من انتهك حرمة المؤمن فقد ارتكب كبيرة من

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٢) من حديث جابر ﷺ.

....

كبائر الذنوب، ولهذا يجب احترام المؤمنين وتقديرهم، وعدم تحقيرهم والإقلال من شأنهم، لأنَّ المؤمن كريم عند الله تعالى، فقد أعزَّه الله وكرّمه بالإيمان، فالمؤمنون هم الأعلون في الدنيا والآخرة، والذين ينتقصونهم ويحتقرونهم ويقلّلون من شأنهم داخلون في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فضلاً عمّا أخبر به الرسول ﷺ من أن الله سبحانه وتعالى يهينهم يوم القيامة بأن «يُسكنهم رَدْغة الخَبال حتى يخرج القائل مما قال» في أخيه وذلك بالتوبة من هذه الكبيرة ويتحلل من المَقول فيه.

وأمّا حديث أبي هريرة ﷺ، وهو ثاني حديثي الباب، وفيه قوله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» فهو تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فالنبي ﷺ قد فسَّر الغيبة في حديث أبي هريرة وبيَّنها، وهذا من تفسير السُّنة النبوية للقرآن، ولكنه ﷺ لم يلق عليهم التفسير ابتداءً لأهميته بل سألهم عن معنى الغيبة من أجل التنبه، وهذا فيه التعليم بطريقة السؤال والجواب في الأمور المهمة، «فقالوا: الله ورسوله أعلم»، فيه: أنَّ المسلم إذا سئل عن شيء وهو لا يدري بأنه لا يتخرّص، بل

....

يحيل السائل إلى من يعلم الجواب، ويقول: اللهُ أعلم، فقال ﷺ: «الغيبة ذكرك أخاك بما يكره» فلا تذكر عيوب أخيك، لأنه يكره ذلك كما أنه لو ذكر هو عيوبك لكرهت أنت ذلك، فكيف ترضى لأخيك ما لا ترضاه لنفسك؟ وقد قال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبَّ لِنَفسِهِ»(١)؛ فعِرض أخيك مثل عرضك، فكما لا ترضى أنت أن يمس عرضك بالغيبة، فلا تَرْضَ أن يمس عرض أخيك بالغيبة، أما أن تذكره بما يحب، كأن تُثني عليه وتمدحه في غيبته، فهذا شيءٌ طيب وهو لا يكرهه، وهذا فيه رفعٌ من شأنه، لأنَّكَ أنت لا تكره أن يثني عليك أحد ويمدحك في غيبتك، فعليك أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

وقوله ﷺ: «ذكرك أخاك» لأنَّ المؤمن أخو المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فكيف تغتاب أخاك المؤمن.

وقوله: «بما يكره» أما إذا ذكرته بما يحب فهذا من الإحسان إليه، ثم إنهم سألوا الرسول ﷺ: كيف يكون هذا غيبة؟ أي: والكلام الذي قلته موجود فيه، قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته» لأنَّه يكره هذا الكلام ولو كان معناه موجوداً فيه، فالمسلم

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

....

يستر أخاه المسلم ويدافع عن عرض أخيه في حال غيبته، وفي الحديث: «مَنْ رَدَّ عن عِرْضِ أخيهِ، رَدَّ اللهُ عن وَجْهِهِ النَّارَ يَومَ القِيامَةِ»[1]، فالمطلوب من المسلم أن يدافع عن عرض أخيه لا أن يقع فيه.

ثم قال ﷺ: «إنْ لَمْ يَكُنْ فيه ما تَقولُ فَقَدْ بَهَتَّه» هذا أشد الكذب، والعياذ بالله! إذن فالمغتاب لا يخلو إما أن يكون مغتاباً وإما أن يكون كذَّاباً، فدلّ على أنه لا يجوز ذكر المسلمين بما يكرهون في غيبتهم في المجالس، وإن كان هذا أصبح فاكهةَ كثيرٍ من المجالس التي يغتاب المجتمعون فيها إخوانهم وولاة الأمور والعلماء ولا يوقرون أحداً، فلا تعمر مجالسهم ولا يأنسون إلّا بالغيبة والتفكُّه بأعراض الناس، فعلى المسلم أن يحذر من هذه الأمور ويبتعد عنها، لما ورد فيها من الوعيد الشديد والعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦)، والترمذي (١٩٣١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

باب ما جاء في اللعن

عن أبي الدَّرْداء ﷺ مرفوعاً: «إنَّ العَبْدَ إذا لَعَنَ شيئاً صَعِدتِ اللَّعْنَةُ إلى السَّماء، فَتُغلَقُ أبوابُ السَّماءِ دُونَها، ثُمَّ تَهبِطُ إلى الأَرْضِ، فتُغْلَقُ أبوابُها دونَها، ثم تأخذُ يَمِيناً وشِمالاً، فَإذا لَمْ تَجِدْ مَساغاً رَجَعَتْ إلى الَّذِي لُعِنَ، فإنْ كانَ أَهْلاً، وإلّا رَجَعتَ إلى قائلها» رواه أبو داود بسند جيد[1].

وله شاهد عند أحمد بسند من حديث ابن مسعود[2].

وأخرجه أبوداود وغيره[3] من حديث ابن عباس رواته ثقات لكن أُعلّ بالإرسال.

ولمسلم[1] عن أبي بَرْزة ﷺ مرفوعاً: «أنَّ امرأةً لَعَنَتْ نَاقةً لها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَصْحَبْنا ناقةٌ عليها لَعْنَةٌ».

---

(١) في «سننه» برقم (٤٩٠٥).

(٢) في «المسند» برقم (٣٨٧٦).

(٣) أبوداود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨). والحديث عند أبي داود رواه من طريقين: من طريق مسلم بن إبراهيم مرسلاً، ومن طريق زيد بن أخزم ـ ومن طريقه أيضاً رواه الترمذي ـ موصولاً.

وله عن عمران[٢] نحوه. [١٢٢]

---

[١٢٢] اللعن: هو الدعاء بالطرد من رحمة الله تعالى، واللعن كبيرة من كبائر الذنوب، فعلى المسلم أن ينزِّه لسانه عنه، فقد جاء في الحديث: «ليس المسلمُ بالطَّعّانِ ولا اللَّعّانِ ولا الفاحِشِ ولا البَذيءِ»[٣]، فالأصل في المسلم أنَّه يترفَّع عن هذه الأخلاقيات الذميمة، فإذا حدث بينه وبين أحدٍ سوء تفاهم، فلا يجوز له أن يلعنه، أي: أن يدعو عليه بالطرد من رحمة الله تعالى، فكيف تطلب من الله أن يطرد أخاك من رحمته؟! وسيأتي بيان ما يترتَّب ما إذا تلفظ الإنسان باللعن في حديث أبي الدرداء الآتي، لا يذهب هدراً.

قوله ﷺ في حديث أبي الدرداء: «إن العبدَ إذا لعن شيئاً» أيَّ شيء، ليس الأدميّ فقط، كأنْ يلعن الدابّة، أو البُقعة، أو الساعة، أو اليوم وغير ذلك، فالأصل في المسلم أن يمسك لسانه عن هذه الكلمة القبيحة، لأنَّ هذه الكلمة القبيحة إذا ما صدرت مِن لِسان الإنسان فإنَّها لا تذهب هدراً بل تصعد إلى السماء، فتغلَق

---

(١) في «صحيحه» (٢٥٩٦).

(٢) في «صحيحه» برقم (٢٥٩٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٣٩) والترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

....

أبواب السماء دونها؛ لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠]، وهذه كلمة خبيثة، فلا تصعد إلى السماء، ولأن فيها ظلماً لمن صدرت في حقه، ثم تهبط إلى الأرض، فتُغلَق أبواب الأرض دونها، فلا تقبلها الأرض ولا تقبلها السماء، ثم تذهب يميناً وشمالاً بين السماء والأرض، فإن كان الذي صدرت في حقه يستحقها، وإلّا رجعت إلى من قالها، فيكون هو الملعون ـ والعياذ بالله ـ فكأنه حين لعن أخاه لعن نفسه، فكيف يلعن الإنسان نفسه بهذه الكيفية؟! فعلى الإنسان أن لا يعوّد لسانه على اللعن، بل ينزه لسانه عن ذلك، حتى لو كان الذي لعنه يستحق ذلك، فلا ينبغي له أن يَلعن.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أنَّ هذا الحديث له شاهد يعضده ويقويه عند أحمد وأبي داود وغيرهما، وهذا يدلُّ على سعة اطلاعه ومعرفته بالأدلة التي يسوقها في أبواب هذا الكتاب.

وفي حديث أبي برزة عند مسلم أن امرأة كانت تسير مع النبي ﷺ في بعض الأسفار، فلعنت ناقتها، فقال النبي ﷺ «لا تَصحبنا ناقةٌ عليها لعنة»، وورد عنده من طريق أخرى من حديث عمران ابن حصين ﷺ أنه قال: «خُذوا ما عليها ودَعُوها فإنَّها مَلْعونةٌ» وفي رواية

....

رواية أخرى عند أحمد[1] قال عمران: فكأني أنظر إليها تمشي في الناس ما يعرض لها أحد. وهذا يدلُّ على أنه لا يجوز لعن البهائم، فكيف بلَعْنِ المسلم.

(١) في «مسنده» برقم (١٩٨٧٠)، ومسلم (٢٥٩٥).

باب ما جاء في إفشاء السر

عن أبي سعيد مرفوعاً: «إنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ مَنزِلَةً عِند الله يومَ القِيامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إلى امرأَتِهِ، وتُفْضِي إليهِ، ثُمَّ يَنشُرُ سِرَّها»، وفي رواية: «إنَّ مِنْ أَعظَمِ الأَمانَةِ» رواه مسلم[١].

وعن جابر ﷺ مرفوعاً: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحَدِيثِ ثُمَّ التَفَتَ فهي أَمانَةٌ» حسَّنه الترمذي[٢].

ولأحمد[٣] عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعاً: «مَنْ سَمِعَ مِنْ رَجُلٍ حَديثاً لا يَشتَهِي أنْ يُذْكَرَ عنه، فهو أمانَةٌ، وإنْ لَمْ يَسْتكْتِمْهُ». [١٢٣]

---

[١٢٣] السر: هو الأمر الذي لا يُحِبُّ الإنسان أن يطَّلع أحدٌ عليه، وهو أمانةٌ عند من أفضى إليه به، فإذا أسرَّ إليك أخوك سرّاً وأبداه لك، فالواجب عليك أن تحفظه، فلا تخبر به أحداً، فإن أفشيته فقد ارتكبت كبيرة وخنت الأمانة.

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٤٣٧) (١٢٣)، و(١٤٣٧) (١٢٤).

(٢) في «جامعه» برقم (١٩٥٩)، وأخرجه أحمد (١٤٤٧٤)، وأبو داود (٤٨٦٨).

(٣) في «مسنده» برقم (٢٧٥٠٩).

....

ومن الأسرار التي يجب حفظها وعدم إفشائها ما يكون بين الزوجين كما جاء في حديث أبي سعيد، فإذا خلا أحدهما بالآخر فإنه يكون بينهما من الأسرار والحديث والأعمال ما لا يجوز لأحدهما أن يتحدث به، لأن في إفشائه حرجاً لكلا الزوجين وخدشاً للحياء، فمن فعل ذلك، كان من شرار الناس، سواء في ذلك الزوج أو الزوجة، فدلَّ ذلك على أن إفشاء السِّر من الكبائر، ولذلك ذكره الشيخ في كتاب الكبائر.

وقوله في حديث جابر: «إذا حدَّث الرجل» وذكر الرَّجل هنا على الغالب لا على التخصيص، «ثم التَفت» يميناً وشمالاً على قَصْدِ أن لا يطلع على حديثه غير الذي حدَّثه به، وهذا دال عن أنه لا يريد أن يطلع عليه أحد من الناس، فالواجب على من أفضى إليه به أن يحفظه؛ لأن التفاته تحفظ من أن يسمعه أحد، لأنه ائتمنه عليه، فلا ينبغي له أن يفشيه، لأن هذا هو الخيانة للأمانة.

وفي حديث أبي الدرداء قال ﷺ: «مَنْ سَمِعَ مِنْ رَجُلٍ حَدِيثاً لا يُحِبُّ أن يُذكَرَ عَنهُ، فهو أمانةٌ، وإن لَمْ يَسْتَكْتِمْه» أي: وإن لم يطلب منه كتمانه، فإذا أَفضى إليك أحدٌ بأمرٍ من الأمور السرية دون أن يُظهره لغيرك، كانت هذه أمانة عندك وعليك أن تحفظها فلا تفشي

....

سرَّه ولو لم يقل: اكتمه، فلا ينبغي أن يُتساهل في هذا الأمر، لأنه من باب حفظ الأمانات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، هذا جاء في سياق ذكر صفات المؤمنين، فحفظ الأمانات من الصفات الكريمة التي ينبغي أن يتخلق بها المؤمن، والأمانات ليست قاصرة على الأموال التي تودع عند الشخص كما يفهم ذلك بعض الناس من أنها الوديعة التي تودع عند شخص، بل هذا نوع منها وإلّا فهي كثيرة، منها: ما بينك وبين الله من عبادته وأداء فرائضه، واجتناب محارمه، وكذلك من الأمانات ما يكون بين الناس من الأسرار التي لا يحبون أن تنتشر، وإنما يحدثون بها بعض الناس الذين يثقون بهم، فإذا وثق بك أخوك وأفشى إليك سراً من أسراره، فإن عليك أن لا تنشره بين الناس، لأنَّ هذا من خيانة الأمانة، ومن الأمانات أيضاً أنه إذا ولّاك ولي الأمر عملاً ما من الأعمال الوظيفيّة فعليك أن تقوم بعملك على الوجه المطلوب، ولا تبخس منه شيئاً، لأنه أمانة كذلك.

باب ما جاء في لعن المسلم

عن ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً: «لَعْنُ الـمُؤْمِنِ كَقَتْلِه» أخرجاه[١].

وللبخاريِّ[٢] عن أبي هريرة ﷺ: «أنَّهم ضَرَبوا رَجُلاً قد شَرِبَ الخَمرَ، فلما انصرفَ قال بعضُ القومِ: أخزَاكَ اللهُ، قال النبيُّ ﷺ: «لا تَقولوا هذا، لا تُعِينُوا عليهِ الشَّيْطَانَ». [١٢٤]

---

[١٢٤] تقدَّم أن اللعن مطلقاً كبيرة من كبائر الذنوب، سواء لعنُ الإنسانِ أو الحيوانِ أو أي شيء آخر، ولكن لعن المسلم خاصة من أشد الكبائر، فالمسلم له حُرمة وحق وكرامة عند الله ـ جلَّ وعلا ـ فلا يجوز أن تدعو عليه باللعن، وقد علمت معناه، فأنت لا ترضى أن يلعنك أحد، فكيف تلعن أخاك المسلم؟!

وفي حديث ثابت قال ﷺ: «لَعْن المؤمن كقَتْله» أي: إذا قلت لأخيك: لعنك الله، فكأنما قتلته، وقَتْلُ المؤمنِ جريمة عظيمة رتَّب الله

---

(١) البخاري (٦٦٥٢)، ومسلم (١١٠).

(٢) في «صحيحه» برقم (٦٧٧٧).

....

عليها عقوبات شديدة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] فقد اشتملت هذه الآية على أنواع من الوعيد الشديد، والعياذ بالله، فلعن المسلم مثل قتله في الإثم، نعم هو لا يوجب القصاص ولا الدِّيَة ولا الكفارة، لكنه مثل القتل في الإثم الذي يستحقه عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنك إذا قتلته فقد أخرجته من الحياة، وإذا لعنته فقد أخرجته من رحمة الله، فهذا وجه مشابهة لعن المؤمن بقتله، كل منهما إخراج، إما من الحياة إلى الموت، وإما إخراج له من الرحمة إلى العذاب، فالواجب على المسلم أن يُنزِّه لسانه عن اللعن، لأنه كبيرة من كبائر الإثم، واللعن وإن كان منهياً عنه مطلقاً، إلّا أنه في حق المؤمن أعظم حرمة، لكرامة المؤمن على الله.

وأما حديث أبي هريرة عند البخاري، وفيه: «أنهم ضربوا رجلاً قد شرب الخمر»، فالمسلم ليس معصوماً فقد يقع في الذنوب، وتغلبه نفسه الأمّارة بالسوء والشيطان، فقد يقع منه فعل بعض المحرمات وبعض الكبائر كشرب الخمر، وهذا لا يخرجه من الإسلام أو الإيمان كما تقول الخوارج، بل هو مؤمن، ناقص الإيمان، ويُقام

....

عليه الحد تعزيراً له على هذه الجريمة، وزجراً له ولغيره من الوقوع فيها، لأنَّ شرب المسكر جناية على العقل، وقد جاء الإسلام بحماية الضرورات الخمس التي منها حفظ العقل، فإذا شرب ما يفسد عقله، فإنه يُجلد حمايةً لعقله الذي كرّمه الله به، وميَّزه به عن غيره من المخلوقات، والذي هو مناط التكليف والأوامر والنواهي، فإذا جنى عليه بشرب الخمر فإنه يقام عليه الحد، كما كان النبي ﷺ يجلد الشارب نحواً من أربعين، ولما كانت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ كثُرَ شرب الخمر، لأنه في عهده اتَّسعت رُقعة الخلافة، وكثر الذين دخلوا في الدين، وصار يحدث منهم ما يحدث، وكثرت الرعيّة، وكان منهم من لا يكون منضبط الإيمان لحداثة قربه وعهده بالإسلام، ولما كثر شرب الخمر في عهده ﷺ، استشار الصحابة في أنَّ الأربعين جلدة لا تردع شاربي الخمر، فأشاروا عليه أن يرفع حدَّ الجلد إلى ثمانين جلدة قياساً على حدِّ القاذف الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ [النور: ٤]، قالوا: إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، يعني: قذف بالزنى أو باللواط فلا يملك لسانه، ومن هذا الوجه قاسوه على القذف وأوجبوا فيه الحدَّ ثمانين جلدة، وهذا من سنة الخلفاء الراشدين،

....

وقد قال ﷺ: «عَلَيكُم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الـمَهْدِيِّينَ الرَّاشدينَ عَضُّوا عليها بالنَّواجِذ»[1]. فالشاهد من الحديث الذي ساقه المصنف أن الرسول ﷺ جلده، فدلّ هذا على أنَّ شارب الخمر يُجلد، وأنَّ هذا حدٌّ من حدود الله، ولما جلدوا هذا الرجل، وانتهوا وذهب الرجل، قال أحد الحاضرين: أخزاك الله، وفي رواية: «اللهم العَنْهُ»[2]. فقال لهم ﷺ: «لا تقولوا هذا، لا تعُينوا عليه الشَّيْطان» لأنه قد يؤثر عليه، فيقع في شرب الخمر مرةً ثانية، فيكون دعاؤكم عليه إعانة للشيطان عليه في ارتكاب المعصية وهي شرب الخمر.

فدلّ هذا على أنَّ الإنسان إذا أُقيم عليه الحد، فإنه يجب أن لا يتكلَّم فيه من قِبَل الآخرين ولا يُذمّ، يكفي أنه أُقيم عليه الحد، فلا يُزاد على الحد بالتوبيخ أو بالذم، لأنه مؤمن والمؤمن له حرمة، هذه ناحيـة، والناحيـة الأخرى أن هذا قـد يعين عليـه الشيطان فيكابر ويشرب الخمر، ومعلومٌ أن درء المفاسد مقدّم على جَلْب المصالح، وهذا فيه درءُ مفسدةٍ في أن لا يغريه الشيطان، فيجعله يغضب ويحقد

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) هي عند البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر ﷺ.

....

على من سبّوه، فيقع في الجريمة مرة ثانية مناهضةً لهم، فقد يَحملُه الدعاء عليه على التمادي أو يُقنِّطه من قبول التوبة، فكأنهم قد أعانوا على حصول مقصود الشيطان، ولهذا نهى النبي ﷺ عن لعن المسلم، فدلّ على أن المسلم لا يُسبّ حتى ولو كان فاعلاً لكبيرة من كبائر الذنوب، ولكن يُستر عليه، ويُحترم ولا يُوبّخ ولا يُتكلم في عِرضِه، بل يُندَب الدُّعاء له بالتوبة والمغفرة.

باب ذكر تأكُّده في الأموات

عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لا تسبُّوا الأَمْواتَ فإنَّهم قَدْ أَفْضَوا إلى ما قَدَّمُوا» رواه البخاري[١]. [١٢٥]

---

[١٢٥] قوله: «تأكُّده في الأموات» أي: تحريم اللعن في الأموات لأنَّ سَبَّ الأموات يجري مجرى الغيبة، فإنَّ الواجب احترام الأموات وعدم الوقوع في أعراضهم، فكما أنه لا يجوز الوقوع في أعراض الأحياء، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، فالوقوع في أعراض الأموات أشد، فلا يجوز ذِكْر مساوئهم وغِيبتهم.

وقوله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأمْوات» أي: بأي نوع من السبِّ والتنقص، حتى وإن كانوا عصاة؛ لأنهم مسلمون وحُرمة المسلم ميتاً كحرمته حيّاً، ولأنه كما قال النبي ﷺ: «أَفْضُوا إلى ما قَدَّموا» أي: وَصَلُوا إلى ما عملوا من خير أو شرٍّ، فلا تلاحقهم أنت بعد موتهم، ولكن كِلْ أمورَهم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولأنَّ في سبِّ الأموات إهانةٌ للأحياء، كما في الحديث: «لا تَسُبُّوا الأَمْواتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ»[٢]، فهذا الميت قد يكون له أقارب وأولاد، فإذا

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٣٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

....

سُبَّ تأذى بذلك أقاربه، فالحاصل أنَّ سبَّ الأموات محظور من كل الوجوه، فلا يجوز سبهم ولا تنقُّصهم، وإنما يُندَبُ الترحم على أموات المسلمين والدعاء لهم، فإنَّ رحمة الله واسعة.

باب ذكر قول: يا عدوّ الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه

عن أبي ذر ﷺ مرفوعاً: «لا يَرْمي رَجُلٌ رَجُلاً بالفُسُوقِ، ولا يَرْمِيهِ بالكُفْر، إلا ارتَدَّت عليه، إنْ لَمْ يَكُنْ صاحِبُه كَذلِكَ» رواه البخاري(١).

وعن سمرة ﷺ مرفوعاً: «لا تَلَاعَنُوا بلَعْنَةِ الله ولا بِغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ» صحَّحه الترمذي(٢).

ولهما(٣) عن أبي ذر ﷺ مرفوعاً: «مَنْ دَعا رَجُلاً بالكُفْرِ أَوْ قال: عَدوَّ الله، وليسَ كذلك، إلّا حارَ عليهِ». [١٢٦]

---

[١٢٦] من الألفاظ القبيحة التي لا تُقال في حق المسلم: يا عدو الله، أو يا فاسق ونحو هذه الألفاظ، وليس هذا خاصّاً باللفظ المذكور، إنما يدخل في ذلك أية كلمة فيها ذم وتنقُّص أو رميٌ بالكفر أو الفسق، أو بعداوة الله، فإنَّ هذا منهيٌّ عنه.

وهذا القول من كبائر الذنوب، فالذي ينال من أخيه ويَنعتُه فيقول: يا عدو الله، يا فاسق، يا كافر، ونحو ذلك من الألفاظ التي

---

(١) في «صحيحه» برقم (٦٠٤٥).

(٢) في «جامعه» (١٩٧٦)، ورواه أبو داود (٤٩٠٦).

(٣) البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) واللفظ له.

....

يتفوَّه بها بعض الناس عند النزاع والخصومات، فإنه يكون قد وقع في كبيرة من كبائر الإثم.

وفي حديث أبي ذر إخبار من الرسول ﷺ بقوله: «لا يرمي»: أي: لا يقذف أحدٌ أَحداً بالكفر أو بالفسوق، والفسوق هو: الخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، فإذا قال المسلم للمسلم: يا كافر أو قال: فلان كافر أو فاسق، فحكمه حكم اللعن، فإن لم يكن من قيلت في حقه مستحقاً لها رجعت لصاحبها الذي تفوّه بها، فيكون وصف نفسه بهذا الوصف القبيح.

وفي حديث سَمُرة قال ﷺ: «لا تَلاعَنوا بلَعْنَةِ الله» أي: لا يلعن بعضكم بعضاً «ولا بغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ» أي: لا تقولوا: غَضِبَ الله عليك، فتدعو عليه بالغضب، وكذلك لا يجوز أن تدعو عليه بالنار، فتقول: أوقعك الله في النار، أو أخزاك الله في النار، أو أدخلك الله النار.

فلا يجوز التلاعن بين المسلمين بهذه الألفاظ أو غيرها، لأن الأصل في علاقة المسلم بأخيه المسلم أنها قائمة على الأخوة والمحبة والمودّة، وبعض الناس يظن أن الكلام يذهب مع الهواء، فلا يدري أنه يُكتب ويُسجّل، وأنَّه يحاسب عليه يوم القيامة، فهو لا يحسب لهذه الأشياء حساباً، إنما يطلق لسانه من غير محاسبة، والله عزَّ وجل

....

قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، أي: إن ملكان يسجلان الحسنات والسيئات، فليس من قول إلَّا ويسجل، فإما أن يكون لك، وإما أن يكون عليك، فاختر لنفسك.

وفي حديث أبي ذر قال ﷺ: «مَنْ دَعَا رَجُلاً بالكُفْرِ» أي: قال له: يا كافر، أو: يا عدو الله، وهو «ليس كذلك» أي: ليس كافراً، ولا عدوّاً لله، «إلّا حار عليه» أي: رجع عليه كلامه، وتحمّله وكُتب في صحيفته.

وهذا فيه التحذير من هذه الأمور والتراشق بها، وأن لا يتشفّى إنسان من آخر بهذه الكلمات، فإنها لا تذهب سُدًى، ولها عواقب وخيمة، فالمسلم يطهّر لسانه من الكلام البذيء والجارح الذي يؤذي إخوانه.

باب ما جاء في لعن الرجل والديه

عن ابن عمر ﷺ مرفوعاً: «مِنْ أَكبَرِ الكَبائرِ أن يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيهِ». قيلَ: يا رَسولَ الله، وكيفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والدَيْهِ؟ قال: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أباهُ، ويَسُبُّ أُمَّه، فَيَسُبُّ أُمَّهُ» أخرجاه[1]. [١٢٧]

---

[١٢٧] من أقبح اللعن: لعن الرجل والديه، فقد سبق ذِكْرُ النهي عن اللعن والتلاعن بين الناس، فكيف إذا وصل الأمر إلى أن يلعن الرجل والديه ـ والعياذ بالله ـ اللَّذين جاء حقهما بعد حقّ الله تعالى، فقد قال جلَّ وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فجاء الأمر ببرِّهما بعد مقام العبودية لله، وهذا يدل على عظيم حقهما. ثم قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: فلا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفُّف الذي هو أدنى مراتب القول السيِّئ، بل قل لهما قولاً طيِّباً حسناً بتأدُّب وتوقير وتعظيم، ولكن هل يجرؤ أحد على لعن والديه مباشرة؟ الغالب أنه لا يجرؤ أحد على ذلك لكن يتسبب في لعنهما

---

(١) البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠).

....

من غيره، والرسول ﷺ بيَّن هذا بقوله: «يَلْعَنُ الرَّجلُ أَبا الرَّجُلِ، فيَلْعَنُ أباهُ» فيكون هو المتسبب في لعن والديه، «ويَلْعَنُ أُمَّه فيَلْعَنُ أُمَّه» فيرد عليه مثل ما قال.

باب النهي عن دعوى الجاهلية

ولما قال المهاجريُّ: يا لَلمهاجرين! وقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصار! قال رسول الله ﷺ: «أبدَعْوى الجاهليةِ وأنا بين أظهُرِكم؟» وغَضِبَ لذلك غضباً شديداً[1]. [١٢٨]

---

[١٢٨] في إحدى غزوات الرسول ﷺ حصلت مشادة، شابٌّ من المهاجرين وشابٌّ من الأنصار نادى بسببها كل شابٍّ قبيلته لتناصره على خصمه، فسمع ذلك النبي ﷺ واستنكره وغضب من أجلهم، لأنَّ المسلمين إخوة من جميع القبائل والأجناس والاعتزاز بالقبيلة من أمور الجاهلية. وقد نهينا عن التشبه بالجاهليين وأمرنا بترك أمورها. وهذا ما يسمى اليوم بالعنصرية والقومية فلا يجوز إحياؤها بعد إذ أماتها الله بأخوة الإسلام والاعتزاز بالإسلام.

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا اعتزوا بقيس أو تميم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

باب النهي عن الشفاعة في الحدود

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

ولهما[١] في حديث المخزوميّة: «أتشفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟».

وفي «الموطأ»[٢] عن الزبير ﷺ: إذا بلغت الحدودُ السلطانَ، فلعنَ اللهُ الشافعَ والمشفِّعَ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَن حالتْ شفاعتُه دون حدٍّ من حُدودِ الله، فقد ضادَّ اللهَ في أمرِه»[٣]. [١٢٩]

---

[١٢٩] تجب إقامة الحدود الشرعية إذا ثبتت عند الحاكم بالإقرار أو البينة ولا يجوز لأحدٍ أن يتدخل لإسقاطها بشفاعة أو بذل مال أو سلطة. ويجب أن تقام على الشريف والضعيف والغني والفقير وقد جاء الوعيد الشديد في حق من تدخل لإسقاط حد كما في هذه الأحاديث التي ذكرها الشيخ في هذا الباب. وقد لعن النبي ﷺ من آوى محدثاً.

---

(١) البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «الموطأ» ٢/ ٨٣٥.

(٣) أخرجه أحمد (٥٣٨٥)، وأبو داود (٣٥٩٧).

باب من أعانَ إلى خصومة في الباطل [١٣٠]

[١٣٠] الناس تحدث بينهم خصومات ومنازعات وهذا من طبيعة البشر، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ولـمّا توفي النبي ﷺ كان العلماء هم الذين يقومون بالحكم بين الناس، لأنَّ العلماء ورثة الأنبياء، يحكمون بين الناس فيما اختلفوا فيه، لأن الله قال: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والردّ إلى الله تعالى هو الردّ إلى كتابه الكريم، والردّ إلى رسوله ﷺ بعد موته هو الردّ إلى السُّنة الشريفة، والذين يأخذون الحكم من الكتاب والسُّنة هم العلماء الذين يحكمون بين الناس بموجب ما جاء في الكتاب والسنة، وهذا أمر ضروري للبشر، لا سيَّما للمسلمين، والخصوم ليسوا على حدٍّ سواء، فقد يكون منهم من هو أَلْحَن بالحُجَّة من الآخر، وعنده بلاغة، والآخر قد يكون دون ذلك، فالحاكم بشرٌ يقضي على نحو ما يسمع، كما قال النبي ﷺ:

....

«إِنَّما أنا بشرٌ، وإِنَّكُم تَخْتَصِمُون إليَّ، ولعل بعضَكُم أن يكونَ أَلْحَن بِحُجَّتِه مِنْ بَعضٍ، فأَقْضِي على نَحْوَ ما أسمَعُ، فَمَنْ قَضَيتُ له من حقِّ أَخيه شيئاً فلا يَأْخُذْهُ، فإِنَّما أقطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1].

وحُكم الحاكم لا يغير الحق لأنه يقضي على نحو ما يسمع، والحق قد يكون على خلاف ما قضى به، لأنَّ الحاكم حكم إنما هو على الظاهر، أما الباطن فلا يعلمه إلا الله، ولذلك تعاد الخصومات عند الله يوم القيامة، ويُنتصف للمظلوم من الظالم، وتؤدى الحقوق إلى أهلها، فلا يقول أحد: ما دام القاضي حكم في القضية، فالحق صار لي، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الحق لأخيه، هذا لا يجوز لأنَّ حكم الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وإنما يقضي على نحو ما يسمع وبما توفر إليه من البينات، ولذلك قال النبي ﷺ: «فإِنَّما هي قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فلْيَأْخُذْها أَوْ لِيَترُكْها»[2].

وقد يكون هناك من ينوب عن الخصم، كالوكلاء ـ والمحامين، وهذا موضوع الباب، فمَن كان يتوكَّلُ عن غيره في خصومة فعليه

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧) (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣) (٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٨١)، ومسلم (١٧١٣) (٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

....

أن يتقي الله ولا يُزوِّر الحجج، وإنَّما يدلي بالحق والصدق، سواء كان له أو على موكِّله، لأن بعض المحامين والوكلاء يريدون أن يكسبوا الأجرة، فيزوِّر القضية، ويأتي بشهود زُور حتى يكسب القضية ويحصل على ما يعطى مقابل المحاماة والوكالة، فعليه أن يتقي الله، لأنه هو الذي يتحمّل الوِزْر حيث جلب لموكِّله شيئاً ليس له، وظلم الخصم حيث أخذ منه الحق وأعطاه غيره، وفي الأثر: «شرُّ الناسِ مَن ظَلَم الناسَ للناس وباع دينه بدنيا غيره.

فهو أخذ الحق من صاحبه وأعطاه لغير صاحبه بسبب تزويره وخصوماته وبلاغته في الحجة، فعلى الذين يتولّون المحاماة والوكالات وأمر الخصومات أن يتقوا الله عز وجل، وألّا يخاصموا إلا بحق، أما أن يتعمدوا التزوير، ويغرِّروا بالقاضي ويستخدموا لذلك الأساليب الملتوية، كأن يكون هناك رشوة أو شهادة زور، فهذا في غاية الخطورة، فالخصومة بالباطل خطرها عظيم، وشرها كبير، فعليهم أن يتقوا الله تعالى، ويعلموا أنهم مسؤولون أمام الله سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الآية [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ الآية [النساء: ٨٥]. [١٣١]

---

[١٣١] قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ أي: على الخير والإصلاح والصلاح، ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: ولا تعاونوا على الضدِّ والنقيض منها، فالإثم ضد البرّ، والعدوان هو: الاعتداء على الناس بسَلْب حقوقهم، فالخصومة بالباطل من التعاون على الإثم والعدوان، وهذا مَحَلُّ الشاهد من الآية الكريمة، فالمخاصم بالباطل يكون متعاوناً على الإثم والعدوان، وقد قال تعالى في نهاية الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا عذاب الله وغضبه إن أنتم خاصمتم بالباطل وظلمتم الناس، فإنكم ـ حينها ـ تستوجبون غضب الله وعقوبته، فعليكم أن تتقوا ذلك الغضب، بتَرْكِ هذا الفعل الخطير، وعليكم بتقوى الله لأنه رقيب على الجميع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: اتقوا عقابه، فإن عذابه ليس سهلاً تحمله، بل هو شديد لا طاقة لكم به.

فهذا فيه تحذير من المعاونة على الخصومة بالباطل، فمن فعل وأعان على ذلك فقد عرَّضَ نفسه لعقاب الله سبحانه وتعالى.

....

وقوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾، الشفاعة قسمان: الأولى: شفاعة عند الله تعالى، وهذه له شروطها كما جاءت في الكتاب والسنة، والثانية: عند المخلوقين.

والشفاعة: هي ما يسميها الناس اليوم «الوساطة»، والوساطة في تحصيل الطلب، هي: أن يتقدم شخص بطلب من الوالي، أو الحاكم شيئاً له فيه مصلحة، وليس فيه ظلم أو عدوان على أحد، لكن قد يكون الحاكم لا يلقي بالاً لهذا الطلب، لأنَّ الطالب ليس ذا شأن، أو لا يعرفه الحاكم، فيأتي بعض الناس فيشفعون عند الحاكم لهذا الطالب في طلبه. والشفاعة مأخوذة من الشفع.

والشفع: ضد الوتر، فصاحب الطلب كان منفرداً في طلبه، ثم جاء هذا بالواسطة فصار شافعاً له، فتحول بذلك من كونه منفرداً في طلبه إلى أن أصبح شفعاً.

والشفاعة في الخير وفيما ينفع الناس مطلوبة، وفيها أجرٌ عظيم، قال النبي ﷺ: «اشْفَعُوا تُؤْجَروا»، ويقضي الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ما يشاء[1]، فالشافع في الخير مأجور، سواء قبلت شفاعته أم لم تقبل، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

....

يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، لأنَّ هذا من التعاون على البر والتقوى، ومن جَلْب النفع للمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، أي: نصيب من أجرها، فالحاكم إذا استجاب وأعطى هذا الطالب ما ينفع ويفيد، صار للحاكم أجر وللشافع أجر، ولهذا قال: ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: يناله نصيب مع الحاكم أو الشخص الذي أجاب الطلب بما ينفع، وهذا ترغيب من الله في الشفاعة في الخير، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾، فهذا في مقابل الشفاعة الحسنة، وهي الشفاعة بالباطل أو في ظلم وعدوان أو في أخذ حقوق الناس، هذا شفاعة سيئة، ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب منها، فيكون على الذي أجاب الشَّفاعة وهو ـ الوالي أو من عنده الطلب ـ إثم يشترك فيه مع الشافع، وهذا فيه تحذير من الشفاعة بالباطل لأخذ حقوق الناس، كما أنَّ منع إقامة الحدود فيه إعانة للظالم على ظلمه، وهذا من الشفاعة السيئة، وسيأتي ذكر ما فيها من الوعيد.

وهذه الآية قسمت الشفاعة إلى نوعين: شفاعة حسنة حثَّ الله عليها ورغَّب فيها، ورتب عليها الأجر والثواب، ولهذا ينبغي للمسلم

....

للمسلم أن يسعى فيها ولا يتوانى، لأنَّ هذا من باب التعاون على البر والتقوى، وما ينفع المسلم به أخاه المسلم.

والنوع الثاني: شفاعة سيئة، وهي ما يحصل بها ظلم للناس أو مصادرة لحقوقهم بسبب الشافع، ومناصرة للظالم على المظلوم، فهذه الشفاعة ينال الشافع ﴿ كِفْلٌ ﴾أي: نصيب من إثمها وشرِّها، وهذا محلّ الشاهد من الآية التي في الباب.

عن ابن عمر ﷺ مرفوعاً: «مَنْ حالَتْ شَفاعَتُه دونَ حَدٍّ من حُدودِ الله، فقد ضادَّ اللهَ في أمرِه، ومَنْ خاصَمَ في باطِلٍ وهو يَعلَمُ أنَّه باطلٌ، لَم يَزَلْ في سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزِعَ، ومَنْ قالَ في مُؤْمِنٍ ما ليسَ فيه، أَسَكَنَه اللهُ رَدْغَةَ الخَبالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمّا قال»[1].

وفي رواية: «ومَن أعان على خُصومةٍ بظُلمٍ، فقد باءَ بغَضَبٍ منَ الله عزَّ وجلَّ». رواه أبوداود بسندٍ صحيح»[2].
[١٣٢]

---

[١٣٢] قوله ﷺ: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله»، الحدُّ: هي العقوبة المقدرة التي شرعها الله في معصية لتمنع من الوقوع في مثلها، كحدِّ الخمر والزنى والقذف، وسائر الحدود التي شرعها الله سبحانه، فإذا تقرر الحدُّ على شخص فلا يجوز لأحدٍ أن يشفع فيه، لأنه إن فعل فقد عطّل حدّاً من حدود الله، وفي هـذا فساد للمجتمع وسَعْيٌ في شفاعة سيئة، وأشدّ من ذلك أنَّه «ضادَّ الله في أمره»، أي: خالف أمره لأنَّه سبحانه أمر بإقامة الحدود على مستحقيها.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٨٥)، وأبوداود (٣٥٩٧).

(٢) أبوداود (٣٥٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

وهذا الذي يشفع ويخالف الله في أمره، وينازعه سبحانه في هذا الأمر توعَّده الله بالوعيد الشديد، فإذا تقرَّرت الحدود وحكم بها القاضي فلا بد من تنفيذها، ولا يجوز الشفاعة فيها، فقد سرقت امرأة من بني مخزوم على عهد النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها، وشقَّ ذلك على أهلها، فذهبوا إلى أُسامة بن زيد ﷺ، حِبِّ رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده ﷺ بأن لا تُقطع يدها، حينها تكلّم النبي ﷺ وغضب غضباً شديداً، وقال: «أَتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ الله؟» إلى أن قال: «وايْمُ الله لَو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»(١)، فالشاهد أن النبي ﷺ غضب على أسامة، مع أنه يحبه ويحب أباه، بسبب أنه شفع في حدٍّ من حدود الله، وأنكر عليه ذلك، وأقسم ـ وهو الصادق المصدوق ـ أنه لا يُحابي أحداً في حدود الله، حتى ابنته فاطمة لو سرقت لقطع يدها، ولا يشفع لها كونها ابنة لرسول الله ﷺ، فهو القائل في الحديث نفسه: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه، وإذا سرقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». وقد كان هذا من فعل الأمم السابقة، التي غضب الله عليها، فلا يجوز أن يكون في هذه الأمّة، فمن

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

وجب عليه القصاص وطالب أهل الدم بإقامته فلا بُدَّ من إقامة القصاص عليه إلّا إذا أسقط أهل القصاص حقهم، وعفوا عنه، أما إذا طالبوا به، وجاء من يريد أن يمنعهم حقهم، فقد ضادّ الله، وكذلك الأمر في سائر الحدود، فإنَّه لا يجوز الشفاعة فيها.

وحقوق الناس كذلك، فلا تجوز الشفاعة فيما يسقط حقّاً من حقوقهم، فهذه هي الشفاعة السيئة، والعياذ بالله.

وقوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ومن خاصم في باطلٍ وهو يعلم أنه باطل» وهذا محل الشاهد من الحديث، أنَّ من خاصم في باطل أو أعان على الخصومة في الباطل، فقد أتى إثماً عظيماً، وهذا فيما إن كان يعلم أنه باطل، وأما إن كان مجتهداً ولا يدري أنه باطل، فهو غير مؤاخذ، لكن إذا علم فإنَّه «لم يزلْ في سخط الله» أي: لم يزل الله ساخطاً عليه.

وهذا فيه وصف لله بأنه يسخط ويغضب، لكن ليس كسخط المخلوقين، وإنما هو سخط وغضب يليق بجلاله، فهو من صفات الله تعالى.

وقوله: «حتى يَنزِعَ عنه» أي: يترك وينتهي عن مخاصمته، وذلك بأن يتوب منه ويُستحلَّ من الـمَقُول فيه.

....

وقوله ﷺ: «مَنْ قالَ في مُؤْمِنٍ ما ليس فيه» المسلم له حرمة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنَّ دِماءَكُمْ وأموالَكُمْ وأعرَاضَكُم حَرامٌ عليكُم كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا في شَهرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُم هذا»[1].

فمن تكلّم في عرض أخيه، وسبّه وشتمه، أو اغتابه، أو خوَّنه، أو قال له: يا فاسق، أو يا فاجر، أوْ: يا عدو الله، أو قذفه بفاحشة، فإن الله يَحْبِسُه في رَدْغَة الخَبال، أي: في النار، والعياذ بالله، وقد سبق بيان المراد برَدْغةِ الخبال[2]، وفي هذا عقوبة شديدة، حتى ينزع عن ذلك، يعني: أن يستمسح من المظلوم الذي تكلّم فيه. ومن ذلك أيضاً الوشاية بالمؤمنين عند الحكام وذوي الشأن، بغير حق، فهذا مما يستوجب الوعيد الشديد.

وقوله: «ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله»، هذا محل الشاهد من الحديث، وهذا يشمل: الوكيل والمحامي، لأنَّ كلاًّ منهما مُعينٌ على الخصومة بالباطل، وقوله: «فقد باء» أي: رجع، أو تبوَّأ مكاناً من النَّار، والعياذ بالله، «بغضب من الله»، الغضب

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) انظر باب ما جاء في البهتان: ص ٤٦٠.

....

والسخط والأسف بمعنًى واحد، فالله يغضب ويسخط، وهذا من صفاته، وغضب الله لا يقوم له شيء، وفي هذا الوعيد الشديد لمن اتصف بهذه الصفة المذمومة، وفيه كذلك الترغيب لمن وقع في مثل هذه الأمور، كأن يكون صدر منه ظلم أو إساءة أو مخاصمة بالباطل، لأن يعود إلى الله، ويتوب ولا يعود لمثله.

باب من شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَومِ الآخِرِ، فإذا شَهِدَ أمْراً فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيرٍ أوْ لِيَسكُتْ» رواه مسلم[١]. [١٣٣]

---

[١٣٣] الأصل في المسلم أن لا يتكلّم إلا بخير، ويدخل في هذا الكلام المباح الذي لا فائدة فيه، فإنه ينبغي عليه أن يمسك عنه مخافة الانجرار إلى حرام أو مكروه، فكيف إذا كان كلامه سيشعل نار الفتنة ويؤجِّج العداوة بين إخوانه؟ ولذلك فإنَّه على المسلم لو حضر حدوث خلاف بين إخوانه فإما أن يمسك لسانه، إلّا من كلمة خير يصلح بها، أو موعظة ينصح بها، فإن لم يستطع ذلك فلا أقلَّ من أن يسكت حتى يسلم هو، ولا يؤجِّج المشاحنة بين أخويه، فإن استطاع حَلَّ المشكلة والإصلاح بينهما فليفعل، لأنَّ له بذلك أجراً عظيماً.

وجاء في حديث آخر: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله وَاليَومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمِتْ»[١]، فإن كان الكلام فيه خير تكلم به، وإن لم يكن

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٤٦٨) (٦٢).

....

فيه خير، وكان فيه فتنة، فعليه أن يصمت ولا يشارك فيما يَحْدُث من خصومات أو مشادات.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥) (٧٤)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب ما يحذر من الكلام في الفتن

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «سَتكُونُ فِتنةٌ تَستَنظِفُ العَرَبَ، قَتلاها في النَّارِ، اللِّسانُ فيها أَشَدُّ مِن وَقْعِ السَّيفِ» رواه أبو داود[1].

وله[2] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «سَتكونُ فِتنَةٌ، بَكْماءُ عَمْياءُ، مَن أشرَفَ لها استَشرفَتَ له، وإشْرَافُ اللِّسانِ فيها كَوُقوعِ السَّيفِ».

ولابنِ ماجه[3] عن ابن عمر مرفوعاً: «إيّاكُم والفِتَنَ، فإنَّ اللِّسانَ فيها مثلَ وَقْعِ السَّيْفِ». [١٣٤]

---

[١٣٤] الفتن: جمع فتنة، وهي: الابتلاء والامتحان، وهذه الدار دار امتحان وفتن، وهذه حكمة الله جلَّ وعلا، يبتلي عباده ليميز المؤمن الصادق من الكاذب في إيمانه، فيُجري هذه الفتن والمحن من أجل أن يتميز أهل الإيمان الصادق من أهل النفاق.

---

(١) في «سننه» برقم (٤٢٦٥)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٩٦٧)، والترمذي (٢١٧٨) من حديث ابن عمرو وليس ابن عمر كما ورد عند المصنف في عدَّة نسخ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٦٤).

(٣) في «سننه» (٣٩٦٨).

....

والفتنة أصلها: ما يعرض على النار من الحديد والذهب ليزول ما علق بهما من الأوساخ، أو ما شابهها من الغش، فيُعرض على النار من أجل أن يخلص معدنه، ويذهب ما عليه من الدخيل، فما يجري في هذه الدنيا من أمور فيها شر، إنما هي امتحانات وابتلاءات من الله، ليميز الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، ولولا الفتن ما تميز أهل الإيمان من أهل النفاق، بل صار الناس سواء، فمن حكمة الله أنه يجري هذه الفتن والشدائد، ليمايز بين الفريقين.

وقوله ﷺ: «ستكون فتنة» هذا إخبار من النبي ﷺ بأنه ستكون فتن، ليس فتنة واحدة، إنما تذهب واحدة وتأتي أخرى، أي: تتتابع.

وقوله: «تَستَنظِف العربَ» أي: تستوعبهم هلاكاً، والعرب خاصة، لأنهم هم الذين حمّلهم الله هذا الدين وهذه الرسالة، وأنزل القرآن بلغتهم، وبعث النبي ﷺ منهم، فكان الواجب عليهم أن ينشروا هذا الدين، وأن يدعوا إلى الله تعالى ويجاهدوا في سبيله، فإذا قعدوا عن ذلك وتقاعسوا، سلّط الله عليهم الفتن التي تأتي عليهم جميعاً.

....

وقوله: «قتلاها في النار» لأنَّ هؤلاء القتلى هم الذين سبَّبوا هذه الفتن وأوقدوها، وشاركوا في إذكائها، فإذا قُتلوا استحقوا عذاب جهنم، لأن قتلهم كان بسبب إشعالهم الفتن، وأما الذي يبتعد عنها وينزِّه لسانه ويده فإنه يسلم.

وقوله: «اللسان فيها»، يعني: الكلام الذي يتكلم به في هذه الفتنة، سواء كان بلسانه الذي يتكلم به، أو بقلمه الذي يكتب به، أو بما يلقيه عبر وسائل الإعلام فينتشر بسرعة، فهذا الذي يفعل ذلك إذا قُتل فهو في النار، فلسانه ـ حينها ـ يكون أشدَّ من السَّيف، ويدخل في ذلك الذين يدعون بألسنتهم وأقلامهم إلى التعري والسفور والتهتك والتطاول على الأحكام الشرعية كما هو واقع الآن، فإذا لم تحفظ هذا اللسان وتستعمله في سبيل الحق، فإنه سيجني عليك وعلى مجتمعك.

وقوله ﷺ: «ستكونُ فِتنَةٌ صَمّاءُ بَكماءُ عَمياءُ» المراد: أنها تعمي بصائر الناس فلا يرون مخرجاً، فهم يصمُّون عن استماع الحق، أو المراد أنها فتنة لا تُبصر ولا تسمع فهي تفقد الحواسَّ، ولهذا فإنَّ أصحابها لا يسمعون، ولا يتكلمون بخير، ولا ينظرون إلى ما فيه مصلحة الناس، وإنما يصرّون على نشر هذه الفتن دون تراجع، أو

....

قبول للنصيحة، ولو نظرنا إلى واقع الناس اليوم لوجدنا أن هذا الحديث ينطبق عليهم، فأهل الفتن لا يقبل أهلها مناصحة، وإنما هم مندفعون في شرهم، سادرون في غيِّهم.

وقوله: «من أشرفَ لها استشرفت له» أي: مَن تطلّع عليها جرَّته لنفسها، فلا يكون الخلاص منها إلّا في البُعْد عنها.

وقوله: «وإشراف اللسان فيها» أي: إطالته بالكلام والخوض فيها «كوقوع السيف» في الحروب، بل هو أشدُّ، لأنَّ السيف إذا ضرب قتل أو جرح واحداً، وأمّا اللسان يصيب بأذاه خلقاً كثيراً.

ومن هنا فإنَّه من الواجب على المسلم وقت الفتن أن يتكلّم بالحق، ويبيّن ذلك الحق، فإن لم يكن عنده مقدرة على الكلام، أو كانت عنده تلك المقدرة لكنه مُنع من ذلك، فعليه أن يسكت، وإن استطاع تكلّم بخير من أجل وَأْدِ الفتنة في مهدها.

وقوله: «إياكم والفتن، فإنَّ اللسان فيها كوقع السيف» كلمة «إياكم» فيها تحذير، وقوله: «الفتنَ» منصوب على التحذير، والمراد: احذر الفتنَ، والمشاركةَ في إيقادها ونشرها باللسان.

باب قول: هلك الناس

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أهلَكُهم» رواه مسلم[1]. [١٣٥]

---

[١٣٥] هذا فيه النهي أن يقول المسلم: هلك الناس، وهذ يرجع لأمرين:

الأمر الأول: لأنَّ فيه تزكية للنفس، يعني: هلك الناس إلّا القائل، ويكون بذلك فضَّل نفسه عليهم ورأى أنَّه خيرٌ منهم، والأمر الثاني: أن فيه تشاؤماً وتعمياً، أي: إنَّ الناس كلهم ـ في نظره ـ على شرّ، على سبيل ازدرائهم واحتقارهم وتقبيح أحوالهم، فلا يجوز تعميم الهلاك على الناس فإنَّ الخير موجود، وكيف تحكم على جميع الناس بالهلاك وأنت لست مطَّلعاً على أحوالهم جميعاً، وفي هذا القول تقنيط للناس وتثبيط للهمم، فالواجب على المسلم أن يمسك لسانه إلَّا عن قول الخير. فلا يهلك الناس جميعاً، ولا يكفر الناس جميعاً، كما قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»[2]، فهذا يقتضي أن لا

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٦٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ ومسلم (١٩٢٣) واللفظ له من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

....

يهلك الناس جميعاً، فإذا قلت: هلك الناس، فكلهم - في نظرك - ضالون هالكون، وهذا خلاف قول النبي ﷺ، ولا تبرّر قولك هذا وتدّعي أنّه من باب الغيرة وإنكار المنكر.

وهذه اللفظة وَرَدَ في ضبطها روايتان الأولى: «أهْلَكُهُم» بالضم، أي: هو أشدُّهم هلاكاً، وفي رواية: «أهلكَهم» بالفتح، يعني: جَعلَهم هالكين، لا أنهم هالكون في الحقيقة، فهو بهذا الكلام قد أزال الخير كله من الناس حيث حكم عليهم بأنهم هالكون.

باب الفخر

وقول الله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ الآية [الأعراف: ١٢].

وعن عِياض بن حِمار مرفوعاً: «إنَّ الله تَعالى أَوحَى إليَّ أنْ تَواضَعُوا، حَتَّى لا يَفخَرَ أحدٌ عَلَى أَحدٍ، ولا يَبْغِي أَحدٌ على أَحَدٍ» رواه مسلم(١). [١٣٦]

---

[١٣٦] قوله: «الفخر» هو التطاول على الناس، والإعجاب بالحسب والنسب، والتكبر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، أي: كثير الفخر.

وقد قال النبي ﷺ: «أنا سَيِّدُ ولدِ آدَمَ ولا فَخْرَ»(٢)، فهو حين يقول هذا فإنما يتحدث عن نعمة أنعم الله بها عليه لا من باب الفخر، وإنما من باب الإخبار عن الشيء من باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ليشكر هذه النعمة ويثني عليها، ولذلك قال: «ولا فخر»، ومن هذه يُفهم أنَّه ينبغي أن لا يفتخر

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد ﷺ، واللفظ له.

....

الإنسان بحسبه ونسبه، أو أعماله، بل عليه أن يتواضع ويعتبر نفسه مقصراً في حق الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي من آدم أول من افتخر إبليس، لـمّـا أُمر بالسجود كما أخبر الله عن افتخار إبليس بأصله فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فهذا قياس باطل، لأنَّ الطين خير من النار، لأنَّ الطين ينبت الأشجار والنبات، وفيه معادن ومصالح أخرى للناس، وأما النار فهي تحرق ولا تنتج، فهو قاس قياساً باطلاً، وافتخر بأصله، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وعصى أمر الله تعالى حيث أمره بالسجود، والذي حمله على المعصية هو الفخر، حيث قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، أما الملائكة عليهم السلام فسجدوا كما أمرهم الله سبحانه، ولم يعصوا أمره كما فعل إبليس ولم يفتخروا بأصلهم وهو أنَّ الله خلقهم من نور.

وقوله ﷺ: «إنَّ الله أَوحَى إِلَيَّ أن تَواضَعوا» أخبر النبي ﷺ بأن الله أوحى إليه، والوحي: هو الإخبار بخفاء، ويكون بواسطة جبريل، أو قد يكون بأن يقذف الله في روعه أو يكون إلهاماً.

....

فالوحي قسمان: وحي إلهام وقذف في الرَّوع، ووحي بواسطة الملك، وكلاهما حدث للنبي ﷺ، فقوله: «تواضعوا» أمر من الله سبحانه وتعالى بالتواضع، وهو ضد الاستكبار، «حتى لا يفخر أحد على أحد».

وقوله: «ولا يبغي أحدٌ على أحد» البغي: هو: الاعتداء على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يعتدي أحد على أحد في نفسه أو في ماله أو عرضه، وقد يكون الاعتداء والبغي بالكلام السيِّئ في حق الناس.

وله عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجاهِلِيَّةِ لا يَترُكونَهُنَّ: الفَخرُ بالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ في الأَنسابِ، والاستِسقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ» وقال: «النَّائِحَةُ إذا لَم تَتُبْ قَبْل مَوتِها، تُقامُ يَومَ القِيامَةِ وعَلَيْهَا سِرْبالٌ من قَطِرانٍ، ودِرْعٌ مِن جَرَبٍ»[1]. [١٣٧]

---

[١٣٧] قوله ﷺ: «أربَعٌ في أُمَّتي مِنْ أَمرِ الجاهِلِيَّةِ لا يَترُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بالأَنسابِ..» الجاهلية: مأخوذة من الجهل، وهو ضد العلم، والجاهلية إذا أُطلقت أُريد بها ما كان عليه الناس قبل بعثة النبي ﷺ، فالناس قبل بعثته كانوا في جاهلية، لأن آثار الرُّسل انقطعت ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، بما يزيد على أربع مئة سنة، وفي هذه الفترة الزمنية كانت قد انقطعت وانقرضت آثار الرسالة، فكان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء في جميع النواحي، فلما بعث الله محمداً ﷺ وجاءهم بالكتاب والسُّنَّة زالت الجاهلية العامة، وجاءهم العلم ولله الحمد، لكن قد يبقى من خصال الجاهلية أشياء في بعض الناس، كما هي هذه الأربعة التي ذكرها ﷺ،

---

(١) مسلم (٩٣٤).

....

وأولها: «الفخر بالأحساب» ويراد به الفخر بالمنصب والمنزلة، وقد يدفعه هذا إلى التكبُّر على الناس وازدرائهم.

فإذا أعطاك الله المنزلة فلتشكر الله وتحمده وتتواضع ولا تفخر بحسبك.

الثاني: «الطعن بالأنساب» والأنساب: جمع نسب، وهو: الانتساب إلى قبيلة معروفة من القبائل العربية، فمن خصال الجاهلية أن يفتخر المرء على الناس بقبيلته وعشيرته، ويرى أن له فضلاً على الناس بذلك، وأن غيره أقلُّ منه لأنه من قبيلة كذا، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالآية بيَّنت أن المقصود من جعل الناس شعوباً وقبائل إنما هو التعارف وليس الافتخار والترفع على الناس، فالكرامة عند الله بالتقوى، وإن لم يكن للتقي نسب معروف، والشريف وضيع إن لم يكن تقياً، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيوم القيامة سيقف الناس جميعاً في صعيد واحد، الرئيس والمرؤوس، الفقير والضعيف، الحسيب والوضيع، فمن خفت موازينه فلا ينفعه نسبه، ولو كان من قريش أو من بني هاشم، ومَن تثقُل موازينه فلا يضره دناءة

....

نسبه، فإنَّ تقواه يرفعه الله بها، قال النبي ﷺ: «لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على أعجمِيٍّ إلَّا بالتَّقْوى»[1]: فالأصل واحد، لأنَّ «الكلّ من آدم، وآدم خلق من تراب» كما سيأتي من حديث أبي هريرة، وأمَّا الأنساب فما وضعت إلَّا للتعارف والتواصل بين الأقارب، فالذي يفخر بنسبه فيه خصلة من خصال الجاهلية.

الثالث: «الاستسقاء بالنجوم» وهو نسبة نزول المطر إلى طلوع النجم الفلاني أو غروبه، وهو من الشرك، ومن أمور الجاهلية، فإن المشركين كانوا ينسبون سقوط الأمطار للنجوم في طلوعها أو سقوطها في المغرب، فعندهم إذا طلع النجم الفلاني نزل المطر، وهذا أمر باطل، فإنزال المطر إنما هو بفضل الله وكرمه، وإنزاله بقدر معلوم، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ.

....

ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٩ – ٨٢]، ومفهوم الآيات: النهي عن قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وبنوء كذا، لأنَّ إنزال المطر إنما هو من عند الله.

الرابع: «النياحة على الميت» وهو إظهار الجزع والسخط عند موت القريب، وهذا مما لا يجوز، فعلى الذي يفتقد عزيزاً أن يصبر ويحتسب ويسترجع حتى ينال الرحمة، ولا بأس بالبكاء، فالنبي ﷺ بكى عند فراق ابنه، والله لا يعذب بدمع العين، ولكن يعذب أو يرحم باللسان، فالأصل في المسلم أن يصبر عند المصيبة ويستعين بالصلاة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فلا يجزع ولا يأتي بالنائحات، لأن هذا يعد تسخطاً لقضاء الله وقدره، وهو من أمور الجاهلية، وهو موجود عند بعض المسلمين، ومن كان فيه شيءٌ من هذه الأمور الجاهلية كان عنده نقص في إيمانه.

ثُمَّ أخبر النبي ﷺ أنَّ النائحة التي تنوح على الميت كما كانت عادة العرب، أنهم يستأجرون النوائح لضرب الخدود وشق الجيوب، وهذا العمل لا ينفع الميت بل يضره، ولا ينفع الحي، فالمصيبة قد

....

حصلت ولن ترتفع بالنياحة، وإذا لم تتب هذه النائحة التي تعمل كبيرة من كبائر الذنوب، قامت يوم القيامة «وعليها سِرْبال من قَطِران»، وهو النحاس المذاب، و«درع من جَرَب»، وهو مرض جلدي، فيكون لباسها معذِّب لها وجلدها معذِّب لها، فهذه هي عقوبتها إذا لم تتب إلى الله، أما إن تابت فالله يتوب عليها، والله أعلم.

فدلَّ هذا الحديث على أن هناك خصالاً من خصال الجاهلية تبقى في بعض الناس، ذكرت في الحديث من باب التحذير حتى لا يقع فيها المؤمن، والشاهد منه الطعن في الأنساب، فالمرء الذي تحقر نسبه قد يكون أرفع منك ديناً وتقوّى عند الله، فما ضرَّ بلالاً وصهيباً وسلمان وخبّاباً أنهم كانوا مَوَالي، وما نفع أبا جهل وأبا لهب أنهما كانا من قريش، فمع كون أبي لهب من بني هاشم، لم ينتفع بنسبه هذا بسبب كفره، فالذي ينفع هو التقوى لا النسب.

فدلَّ الحديث على أنَّ عادات الجاهلية لا تنقطع فعلى المسلم أن يحذر منها كما دلَّ على أنَّ من كان فيه خصلة من خصال الجاهلية أنه لا يكفر.

وروى الترمذيُّ وحسَّنه: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يَفتَخِرونَ بآبائِهم الَّذينَ ماتوا، وإنَّما هُم فحمُ جَهنَّمَ، أو لَيَكُونَنَّ أهوَنَ على الله مِنَ الجِعْلانِ، إنَّ الله أذْهَبَ عَنكُم عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ وفَخْرَها بالآباء، إنَّما هو مُؤمِنٌ تَقِيٌّ، أو فاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ من آدم، وآدَمُ خُلِقَ مِن تُرابٍ»[1] وعبِّيَّة: بتشديد الباء وكسرها: الكبر والفخر. [١٣٨]

---

[١٣٨] قوله ﷺ «لينتهين» بلام مفتوحة جواب قسم مقدر، أي: والله ليمتنعن عن الافتخار «أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا» على الكفر، وهذا بيان للواقع، «أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان» والجعلان جمع جُعَل: وهو دُويبة سوداء تلامس الغائط، وهذا يدلُّ على شناعة الافتخار والتكبر على الناس بالحسب والنسب، وكيف يفعل المسلم هذا وقد منَّ الله عليه بأن أذهبَ عنه «عُبِّيَّةَ الجاهلية» أي: نخوتها وكبرها، فالإنسان إمَّا مؤمن تقي أو فاجر شقي، يعني: الناس رجلان: مؤمن تقي، فهو الفاضل وإن كان وضيعاً، وفاجرٌ شقي فهو الوضيع وإن كان حسيباً، ثم إنَّ الناس كلهم بنو آدم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٩٥)، وأحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

خلقوا من تراب، فلا ينبغي لمن خلق من تراب التكبر، فإذا كان الأصل واحداً فالكل متساوون في أصل النسب، فدلَّ هذا على أنَّ المسلم ليس من خُلقه التكبر، وإنما هو متواضع.

باب الطعن في الأنساب

عن أبي هريرة مرفوعاً: «اثنَتَانِ في النَّاسِ هُما بِهِمْ كُفرٌ: الطَّعْنُ في الأَنسَابِ والنِّياحَةُ على الميّتِ»(١) [١٣٩]

[١٣٩] قوله ﷺ: «اثنتان» أي: خصلتان من كُنَّ فيه وأخذ بهما صارت به خصلة من خصال الكفر، وليس معنى هذا أنَّه يخرج من الملّة، لكن يكون فيه خصلة من خصال الكفر، والكفر على نوعين: الأكبر: وهو المخرج من الملة، والأصغر: وهو نقص في الإيمان ولا يَكْفُر صاحبه، إنما ارتكب كبيرة، فمثلاً «سبابُ المسلم فسوق وقتاله كفر»(٢)، المقصود به: الكفر الأصغر، لكنه كبيرة من أعظم الكبائر، ثم بَيَّن النبي ﷺ الخصلتين: الأولى: «الطعن في الأنساب» أي: الوقوع في تنقص الناس بنحو القدح في نسب ثابت، ونحن قد ذكرنا فيما سلف أن العبرة ليست بالأنساب، فإن النسب لا يرفع العبد عند الله، وإنما العبرة بالعمل الذي عمله الإنسان، فالذي يطعن في أنساب الناس، فيه خصلة من خصال الكفر الأصغر، لأنَّ كلمة الكفر إذا جاءت من معرّفة بالألف واللام، فإنها تعني الكفر

(١) مسلم (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

....

الأكبر كما في قوله ﷺ: «بَينَ العبدِ وبين الكُفرِ تركُ الصَّلاةِ»(١)، أما إذا جاءت بدون الألف واللام، مُنكَّرةً فإنها تعني الكفر الأصغر.

والخصلة الثانية: النياحة على الميت وقد سبق ذكر أنها إظهار الجزع على الميت بقول أو فعل، لأنَّ الواجب: الصبر والاحتساب، فالنياحة على الميت تكون بالقول كأن تقول النائحة: واجبلاه، واسنداه، أو تكون بالفعل: كشق الجيوب ولَطمِ الخدود، ودعوى الجاهلية، فالنياحة حرام، لأنها تنم عن الاعتراض على الله تعالى، وليس البكاء من النياحة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يمنع نفسه من البكاء، لأنَّ البكاء من الرحمة كما فعل النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم حيث جعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدمع فلما قيل له قال: «إنَّها رحمةٌ» وقال: «إنَّ العَيْنَ تَدْمَع والقَلْب يَحزن ولا نقولُ إلّا ما يَرضى ربُّنا»(٢)، فالعبرة باللسان وما يصدر عنه من شكاية وتسخط، أو بالفعل عند المصيبة كاللطم وشق الجيب، ولا يؤاخذ العبد بدمع العين.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٧٩)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي (٢٦١٩)، وابن ماجه (١٠٧٨)، والنسائي (٤٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس ﷺ.

باب من ادعى نسباً ليس له

ولهما[١] عن سعد مرفوعاً: «مَن ادَّعى إلى غَيرِ أبيهِ، وهو يَعلَمُ أنَّه غَيرَ أَبيهِ، فالجنَّةُ عَلَيهِ حَرامٌ».

ولهما[٢] عن أبي هريرة مرفوعاً ﷺ: «لا تَرغَبُوا عن آبائكُم، فَمَن رَغِبَ عَن أبيه فهو كُفْرٌ».

ولهما[٣] عن عليٍّ ﷺ مرفوعاً: «مَنِ ادَّعى إلى غَيرِ أبيهِ، أو انتَمَى إلى غَيرِ مَواليه، فَعَلَيْهِ لَعنَةُ الله والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعينَ، لا يَقبَلُ اللهُ منه يَومَ القِيامَةِ صَرْفاً وَلا عَدْلاً»[٤]. [١٤٠]

---

[١٤٠] المراد من حديث سعد من تحوَّل عن نسبته لأبيه وانتسب إلى غير أبيه عامداً مختاراً، كما كانوا في الجاهلية لا يستنكرون أن يتبنَّى الرجل ولد غيره ويصير الولد يُنسب إلى الذي تبنّاه، حتى نزل

---

(١) البخاري (٦٧٦٦)، ومسلم (٦٣).

(٢) البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢).

(٣) البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢).

(٤) البخاري (٧٣٠٠) مطولاً، ومسلم (١٣٧٠) (٤٦٧) واللفظ له.

....

قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، وهذا كمثل إنسان معروف نسبه، فيذهب ويَدِّعي نسباً أرفع من نسبه ليرفع نفسه به، أو من أجل تحصيل مال أو عمل أو وظيفة، كالذي يذهب إلى بلد فيغيّر نسبه من أجل الحصول على أمر من أمور الدنيا، فهذا كبيرة من كبائر الذنوب، فلا يجوز للإنسان أن يغيِّر نسبه، وذلك لأنَّ الأنساب يترتب عليها أمور كثيرة، فيجب أن يبقى الكلُّ على نسبه.

وقوله: «مَنْ ادَّعى إلى غَيْرِ أبيه وهو يَعلَمْ» أي أنَّ العقوبة تترتب عليه إذا كان يعلم أباه، أما إذا كان لا يعلم أباه ثم تحرّى فهذا لا يأثم، فالذي يعرف نسبه ونسب عائلته ثم يدّعي إلى غير أبيه، يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وهو متوعد بالحرمانِ من الجنة والعياذ بالله.

وقوله: «لا تَرغَبُوا عن آبائكُم» أي: تتركوا الانتساب إلى آبائكم وتنتسبون إلى غيرهم من أجل أمر من الأمور، فهذا لا يجوز، لأن هذا يترتب عليه محاذير وأضرار وخديعة للناس.

ومعنى «رغب عنه»، أي: تركه، وأمّا معنى «رغب فيه» يعني: أنه يُحبه ويرضاه، فالمعنى هنا: لا تتركوا الانتساب إلى آبائكم، لتنتسبوا لغيرهم.

....

ومعنى «فهو كافر» المقصود الكفر العملي وليس الكفر المخرج من المِلَّة: الاعتقادي، فدلَّ على أنَّ هذا الفعل كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله: «مَن ادَّعى إلى غَيْرِ أبيه، أو انتَمى إلى غَيْرِ مَواليه» من ادَّعى إلى غير أبيه سبق بيانه، أما من انتمى إلى غير مواليه، فلأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الوَلاءُ لِـمَنْ أعتَقَ»[1]، أي: ميراثه، فالولاء لا يجوز تغييره، فمن أعتق شخصاً فلا يجوز له أن يبيع هذا الولاء أو يهبه لغيره، وإنما يكون لعتقه، فإنَّ ذلك أمر معنوي كالنسب لا يتأتى انتقاله، وقد كانوا في الجاهلية ينقلونه بالبيع.

والولاء على قسمين، الأول: ولاء الموالاة، ويكون بين القبائل وهو ليس المقصود هنا، والثاني: ولاء العتاقة الذي هو سبب من أسباب الإرث، فأسباب الميراث ثلاثة: نكاح وولاء ونسب، فلا يجوز لإنسان إذا أعتق عبداً وصار له ولاؤه أن يبيع هذا الولاء لغيره، فمن غيَّر نسبه أو غيَّر ولاءه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فدلَّ هذا على أنَّ هذا كبيرة من كبائر الذنوب، وأنَّ الله «لا يقبل منه صَرْفاً»، يعني: فريضة، «ولا عدلاً»، يعني: النافلة أو الفدية، فالمقصود من هذا الحديث أن تغيير النسب من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

باب من تبرأ من نسبه

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «كَفَرَ مَن تَبَرَّأَ مِن نَسَبِهِ وإنْ دَقَّ، أو ادَّعى نَسَباً لا يُعْرَفُ»(١).

وللطبراني(٢) معناه من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

ولأبي داود وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً: «أيُّما امرأةٍ أَدخَلَتْ على قَوْمٍ مَن ليس مِنهم، فَلَيسَتْ مِنَ الله في شيءٍ ولَن يُدخلَها جَنَّتَهُ، وأيّما والِدٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وهُوَ يَنظرُ إليه، احتَجَبَ اللهُ عنه يَومَ القِيامَةِ، وفَضَحَهُ عَلى رؤوسِ الخلائقِ مِن الأَوَّلينَ والآخِرينَ»(٣). [١٤١]

---

[١٤١] قوله: «تبرأ من نسبه»، أي: كأن يقول إنسان نسبه معروف: أنا بريءٌ من هذا النسب، فهذا لا يجوز، لأن التخلص من النسب يترتب عليه أُمور ومفاسد، منها: قطيعة الرحم، وسقوط نسبه بين

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠١٩)، وبنحوه ابن ماجه (٢٧٤٤). ولفظه عند أحمد: «كُفْرٌ بالله تَبَرُّؤٌ من نسبٍ وإن دَقَّ، أو ادِّعاءٌ إلى نسبٍ لا يعرف».

(٢) في «الأوسط» (٢٨١٨) و(٨٥٧٥)، وأخرجه الدارمي في «سننه» (٢٨٦١) و(٢٨٦٣)، والبزار في «مسنده» (٧٠) و(٩١).

(٣) أبو داود (٢٢٦٣)، والنسائي (٣٤٨١)، وابن حبان (٤١٠٨).

....

الناس، فلا يجوز التصرف فيه، فإن فعل كان عليه الوعيد الشديد.

وقوله: «كَفَرَ مَن تَبَرّأَ مِن نَسَبِه وإن دَقَّ» المعنى: أن من تخلى عن نسبه فقد ارتكب كَبيرةً من كبائر الذنوب، فإن الكفر هنا معناه الكفر الأصغر، أي: الذي لا يخرج صاحبه من الـمِلَّةِ.

فدلَّ الحديث على أنه لا يجوز للمسلم أن يجحد نسبه ويتبرأ منه ويغيّره، وإلّا فقد وقع في الكفر وهو كفر النعمة، وحتى وإن كان نسبه ليس مرفوعاً عند الناس، وعليه أن يرضى به مهما كان، فإن مكانة الناس عند الله إنما هي بالتقوى، فإن كان عبداً تقيّاً لم يضره نسبه وإن كان وضيعاً، وإن كان فاجراً شقيّاً فلن ينفعه نسبه وإن كان شريفاً.

وأما ما جاء في حديث أبي هريرة: «أيُّما امرأةٍ أدخَلتْ على قَومٍ مَنْ لَيسَ مِنهم» بأن تنسب المرأة لزوجها وَلَدها من غيره، وهذا الفعل من الكبائر، لأنه يترتب عليه مفاسد كثيرة.

وقوله: «ليست من الله في شيء» هذه براءة من الله عزَّ وجل من التي تفعل مثل هذا الأمر، والوعيد الآخر أنَّ الله يحرمها من الجنة، وهذا وعيد شديد، فتوعدها بعدم الرحمة والعفو، وهذا وعيد شديد، فلا يجوز للمرأة أن تلصق بالقبيلة من ليس منهم.

....

وكذلك إذا أنكر الولد والده أو أنكر الوالد ولده، وقوله: «وهو ينظر إليه» أي يعرف أنه ولده، فإذا ما نفاه وأنكره فهو متوعد يوم القيامة بأن يحتجب الله عنه، فلا ينظر إلى الله يوم القيامة كما ينظر إليه المؤمنون، فيحرم من لَذَّة النظر إلى الله عزَّ وجل، ودلَّ على أنَّ هذا كبيرة من كبائر الذنوب، والأمر الآخر أنَّ الله يفضحه على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

والحاصل أنه لا يجوز للآباء أن يتبرؤوا من أبنائهم ولا للأولاد أن يتبرؤوا من آبائهم.

باب من ادَّعى ما ليس له، ومَنْ إذا خاصم فجر

فيه حديث ابن عمرو[١] في الصحيحين، ورُوِيَ عن ابن مسعود وعمر رضي الله عنهما: «مَنْ قالَ: أنا مؤمنٌ فهو كافرٌ، ومن قال: هو في الجنَّة فهو في النار، ومن قال: هو عالـمٌ فهو جاهلٌ»[٢].

ولهما[٣] عن أبي ذرٍّ مرفوعاً: «ليس مِن رجلٍ ادَّعى إلى غير أبيه وهو يَعلَمُه إلّا كفر، ومَنِ ادَّعى ما ليس له فليس منّا، ولْيَتبوَّأ مقعده مِنَ النارِ، ومَن رَمى مسلماً بالكُفْر ـ أو قال: يا عدوَّ الله ـ وليس كذلك، إلّا حارَ عليه». [١٤٢]

---

[١٤٢] قوله: «من ادَّعى ما ليس له» كأنْ يَدَّعي أحدٌ حقوق الآخرين ليأخذها ظلماً، أو يدَّعي أنه يعمل عملاً صالحاً أو أنه يتصدق، وهو ليس كذلك، وهذا كبيرة من الكبائر كما قال الله تعالى:

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً» وقد سلف تخريجه في «باب ما جاء في إخلاف الوعد» ص٢٣٠.

(٢) أورده الحارث ابن أبي أسامة في «زوائده» ١/ ١٦٢ عن عمر ﷺ.

(٣) البخاري (٣٥٠٨)، مسلم (٦١) واللفظ له.

....

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وهذه صفة اليهود الذين يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الـمُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابسِ ثَوْبَي زُورٍ»(١)، فدلَّ هذا على أن الأصل في المسلم أن لا يدَّعي ما ليس له، سواء كان ذلك حقوقاً للناس أو صفة من الصفات أو منزلةً من المنازل التي لم يبلغها، لأنَّ هذا تزوير وكذب وخداع.

وقوله: «إذا خاصم فجر» هذه من صفات المنافقين: أنه إذا خاصم كذب، أما المسلم فإنه إذا خاصم صدق، سواء كان له الحق أو عليه، فالمسلم حتى وإن وقع عليه ظلم فلا يخرجه هذا عن تمسكه بأحكام دينه، فلا يزور ولا يكذب من أجل أن تخرج القضية لصالحه، أما المنافق فيستخدم كل الوسائل حتى غير المشروعة من أجل تحقيق مصالحه، والنبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِـن خانَ، وإذا خاصَمَ فَجَر، وإن صلَّى وصامَ وزَعَمَ أنَّه مُسلِمٌ»(٢).

---

(١) البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم.

....

وأما حديث ابن مسعود وعمر، وفيه: أنه «قال: من قال أنا مؤمن فهو كافر»، لأنَّ المسلم لا يزكي نفسه، فمن قال: أنا مؤمن فهو كافر، يعني: الكفر الأصغر، ومن حكم لنفسه أنه في الجنة فهو في النّار، لأنه لا يدري ماذا تكون عاقبته، وهو كذلك لا يدري ما عنده من العمل الذي يؤهله لدخول الجنة؟ وهذه الصفة هي صفة اليهود والنصارى الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فالذي يدعي أنه سيدخل الجنة فقد شابه اليهود والنصارى، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يشهد لغيره أنه في الجنة أو في النار، لأنه لا يدري ما عاقبتهم، إلّا من شهد له الرسول ﷺ، لأننا لا ندري مآلات الأمور التي يؤول لها العباد، وفي الحديث أنَّ رجلاً قال: «والله لا يَغفِرُ الله لِفُلان، فقال الله: من الذي يَتَألَّى عَلَيَّ أن لا أغفِرَ لِفُلانٍ؟ فإنِّي قَد غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وأَحبَطْتُ عَمَلك»(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، فالواجب على المسلم أن يتأدب مع الله عزَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب بن عبد الله ﷺ.

....

وجلّ ومع رسول الله ﷺ، ويعرف قَدْرَ نفسه ولا يزكّيها، فلا يجوز له أن يدَّعي ما ليس له، لا من جهة العلم ولا من جهة العمل، وذلك من وجهين: الأول: أنه تزكية للنفس، وهو لا يعلم بماذا يُختم له، والثاني: أن فيه أمناً من مكر الله عزَّ وجل، وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فما استثنى نبيّاً ولا صدِّيقاً.

فمن قال: أنا في الجنة فهو في النار، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل، لأنه حتى وإن كان عنده علم فإنَّ فوقه من هو أعلم منه، والله أمر نبيه ﷺ أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وهو القائل جلَّ وعلا: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وما أكثر الذين يدَّعون العلم اليوم ويفتون ويتكلمون بغير علم، وإنما يدَّعونه مجرَّد ادِّعاء فقط، فإن العلم يحتاج إلى عمل.

وأما حديث أبي ذر: «من ادَّعى ما ليس له فليس منّا» وهو الذي ترجم له الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله: «من ادعى ما ليس له» أي: أيَّ شيء، سواء ادعى علماً لم يبلغه، أو مرتبة لم يصل إليها، أو ادَّعى أموال الناس وحقوقهم وهي ليست له، فهؤلاء جميعاً قد تبرأ منهم النبي ﷺ بقوله: «فليس منّا» وهذا فيه وعيد شديد من هذه الآفة الخطيرة.

باب الدعوى في العلم افتخاراً

عن عمر مرفوعاً: «يَظهَرُ الإسلامُ حَتَّى تَختلفَ التُّجارُ في البَحْرِ، وحتَّى تَخوضَ الخَيلُ في سبيل الله، ثُمَّ يَظهَرُ أَقوامٌ يَقرؤون القُرآن، يَقولونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنّا؟ مَنْ أفقَهُ مِنّا؟». ثم قال: «هَلْ في أُولئكَ من خَيرٍ؟» قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: «أُولئك مِنكُم مِن هذهِ الأُمَّةِ، وأُولئِكَ وَقودُ النَّار». رواه البزار بسند لا بأس به[1].

وللطبراني[2] معناه عن ابن عبّاس، قال المنذري[3]: إسناده حسن. [١٤٣]

---

[١٤٣] التفاخر أمر محرَّم شرعاً، وهو من كبائر الذنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، فلا يجوز للمسلم أن يفتخر على غيره، أو أن يُعجب بنفسه، بل عليه أن يتواضع لله عزَّ وجل، ويتواضع لعباد الله وهذه هي صفة المؤمنين،

---

(١) البزار في «مسنده» (٢٨٣) وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٢٤٢)، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» ١/ ١٧٨ برقم (٢٣٠).

(٢) في «الكبير» (١٣٠١٩).

(٣) في «الترغيب والترهيب» ١/ ١٧٨-١٧٩ (٢٣١).

....

ففي الحديث: «من تواضع لله درجةً رفعه الله درجةً حتى يجعله في عِلِّيين، ومَن تكبَّر على الله درجةً وضعه الله درجةً حتى يجعله في أسفل السافلين»[(١)].

والفخر محرَّم وهو كبيرة من كبائر الذنوب، لا سيّما إذا كان ذلك من أهل العلم، فأهل العلم أولى بالتواضع، لأنهم قدوة ولأنهم يعلمون ما في الفخر من الإثم، فهم أولى أن يتواضعوا وألّا يفتخروا.

وقوله في الحديث: «يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر» قوله: «مرفوعاً» أي: إلى النبي ﷺ، وقوله: «يظهر الإسلام» هذا إخبار منه ﷺ بظهور الإسلام وانتشاره في الأرض، وقد وقع كما أخبر به ﷺ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]، فقد أظهر الله الإسلام، فبلغ المشارق والمغارب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ودخلت فيه الأمم والدول، وذلك بسبب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، ولصلاحية هذا الدين، وأنه دين الفطرة، ودين يدخل القلوب بأحكامه وحِكْمته ونوره، فالذي يريد الحق يُبادر إلى الدخول فيه،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٧٢٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

....

ولا يتركه إلَّا المعاند، لذلك انتشر الإسلام بالحكمة والعلم والدعوة إلى الله، والجهاد إنما ينكره الذين يَصُدُّون عن سبيل الله، الذين يريدون بقاء الكفر وعدم انتشار الإسلام.

وقوله: «حتى يختلف التجار في البحر» يعني: حتى يتسع اقتصاد المسلمين، فينشط المسلمون في طلب التجارة في البحار، وتأمَن السُّفن، وكل ذلك في ظل الإسلام.

وقوله: «وحتى تخوض الخيل في سبيل الله» أي: للجهاد، فإنها تقطع الأرض والبحار والأنهار، فلا تترك مكاناً إلّا بلغته، وهذه الفتوحات التي بلغت المشرق والمغرب ـ شاهدة على ذلك ـ حتى امتد الإسلام من بلاد السند إلى بلاد الأندلس في أقصى المغرب، وهذا ما أخبر به النبي ﷺ، وقد ظهر ولله الحمد والمنّة.

ثم ينشأ في هذه الأمة قراء يقرؤون القرآن ويجيدون التلاوة، ويحفظون آياته ولكن دون أن يكون عندهم فقه، ومع هذا يقولون: «مَن أقرأ منا؟ ومن أعلم منا؟» يُعجبون بأنفسهم، وهذه الصفة ليست من صفات طالب العلم ولا العلماء، لأنه ما من عالم إلَّا ويوجد مَنْ هو أعلمُ منه، قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فلا يجوز لأحد أن يدعي لنفسه أنه بلغ مرتبة

....

ليس فوقه فيها أحد، لأنَّ هذا من باب التفاخر المحرَّم، والنبي ﷺ إنما ذكره من باب التحذير لطلبة العلم والعلماء من هذه الصفة القبيحة، أي: تفاخرهم بعلمهم، فإن العلم لا تُدرك له غاية.

إنما العلم بحرٌ زاخِرٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ قولٍ أحْسَنَه
وقل للمدَّعي في العلم معرفةً ذَكَرْتَ شيئاً وغَابت عَنْكَ أشياءُ

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وطالب العلم إنما ينال قسطاً قليلاً منه، فالذي يدعي أنه أحاط بالعلم، وأنه لا أحد أعلم منه، يدلُّ بذلك على قُصوره وجهله، ولذلك جاء في الحديث: «من قال: أنا عالمٌ، فهو جاهل»[١]، والعالم الحقيقي لا يزال يرى نفسه مقصِّراً، فيطلب العلم ليزداد منه، أما الذي يرى أنه بلغَ مَبلَغاً من العلم وأنه قد اكتفى بما عنده، فهذا يقف ولا يتعلّم ولا يتزود، وللأسف فإنَّ هذا حال كثير من الناس اليوم، خصوصاً الذين يتخرجون من المعاهد والجامعات، فيكتفون بالشهادات، ويظنون أنها تكفيهم، ولذلك تراهم لا يطلبون العلم ولا يذاكرونه، ولا يدرِّسون الناس، ويرون أنهم أعلم الناس، لا سيّما إن حصلوا على «الماجستير» و«الدكتوراة»، وهذا غلط ووهم،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

فالعالم الحقيقي أو المتعلِّم إنما يشعر بالنقص والجهل مهما حصَّل من العلوم، ولهذا فهو لا يتوقف عن طلب العلم عند حدٍّ معين، فالعلم بحر لا ساحل له، فكيف إذا افتخر فقال: لا أحدَ أعلم مني! ولا أفقه مني! فماذا حصَّل من العلم حتى يقول هذا الكلام؟ ومن فعل هذا فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب بدليل أنه جاء في آخر الحديث: «أولئك وقود النار»، والتوعد بالنار من ضوابط الكبيرة، ولهذا فإنَّ الذي يبلغ هذه المرتبة من الافتخار يجب أن يعلم بأنَّ الله عزَّ وجل قد توعَّده بالنَّار، لأنه تكبر وأُعجب بنفسه والله لا يحب المتكبرين، وقد جعل النار مثوىً لهم.

باب ذكر جحود النعمة

في «الصحيح» عن ابن عباس مرفوعاً، أن النبي ﷺ قال: «دَخَلْتُ النَّارَ فَرَأَيْتُ أكثرَ أهلِها النِّساءُ، يَكفُرن» قيل: يَكفُرنَ بالله؟ قال: «لا يكفرْن العَشيرَ، ويَكفُرْنَ الإحسانَ، لَو أحسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهرَ ثُمَّ رَأتْ مِنكَ شَيئاً قالت: ما رَأيتُ مِنكَ خَيْراً قَطُّ»[1].

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ لا يَشكُرُ اللهَ» صحَّحه الترمذي وقال: حسن غريب[2].

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ أُعطِيَ عَطاءً فوَجَدَ، فَلْيَجْزِ به، ومَنْ لـم يَـجِدْ، فَلْيُـثْـنِ بهِ، فإنَّ الثناءَ شكـرٌ، فإن أَثْنى فقَدْ

(١) البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧) ولفظ البخاري «أُريت النار»، ولفظ مسلم «رأيت النار».

(٢) برقم (١٩٥٤) وقوله: «حسن غريب» هكذا ورد، ولعله تصحيف من النساخ من حسن صحيح، كما ورد في «جامع» الترمذي، ولأن المصنف رحمه الله قال: «صححه الترمذي». وأخرجه أحمد (٧٥٠٤) وأبو داود (٤٨١١).

شَكَرَهُ، ومَن كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»[1]. [١٤٤]

---

[١٤٤] قوله: «باب جحود النعمة» أي إنكارها لأنَّ النعمة يجب أن تشكر، سواء كانت من الله أو أجراها سبحانه على يد مخلوق، وإلّا فالنعمة كلها من الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فإن أجرى الله نعمة على يد المخلوقين، فيجب على الـمُنعَم عليهم أن يشكروا الله جلّ وعلا، ثم يشكروا من أسدى إليهم معروفاً من الخَلْق كذلك، ولا يجحدوا النعمة، فإنَّ جحودها كفر أصغر، لا يخرج من الملة لكنه معصية كبيرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والنعمة لا تستقر إلا بالشكر، وإلّا فإنها تزول، وتُبدَّل بالنقمة إن لم تشكر، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، والنعمة إذا زالت لا تعود، فيجب على المسلم أن يشكر الله تعالى على نعمه التي أنعمها عليه، وأن يُحدِث لكل نعمة شكراً، والشكر يكون باللسان والقلب والعمل، وأركانه ثلاثة:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤).

....

أولها: أن يتحدث بالنعمة ظاهراً من باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ثانيها: أن يعترف بها باطناً بأنها من الله، وليست بحوله ولا كدِّه ولا قوته، والثالث: أن يَصْرفها في طاعة الله، فإذا اختلَّ ركنٌ من هذه الأركان يكون قد كفر النعمة وعرَّضها للزوال والعياذ بالله.

وكذلك ينبغي للمنعَم عليه أن يشكر المخلوق الذي أسدى الله على يده هذه النعمة، فإنَّ النبي ﷺ قال: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتُموه»(١).

وقوله: «أُريتُ النَّارَ فَرَأَيْتُ أكثَرَ أهلِها النِّساءُ» إن أكثر الناس كفراناً للنعمة النساء، والنبي ﷺ أُريَ الجنة والنار، وهذا من معجزاته، فرأى أكثر أهل النار النساء، والسبب أنهنّ يكفرن أزواجهن، أي: يجحدن إحسانهم، فالواجب على المرأة أن تشكر لزوجها ما أسدى إليها من العشرة الطيبة والقِوامة والستر، فهو يكدح وينفق عليها ويُسكنها ويكفيها المؤنة ويُعفُّها، فإنَّ له عليها أيادٍ كثيرة، وهي مع

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٦٥)، أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

هذا كله لو حصل منه أدنى تقصير كفرت كل ما أسدى إليها من قبل، فتنسى كل ذلك وتجحده، هذه صفة المرأة لذلك صارت النساء أكثر أهل النار.

وهذا فيه دليل على أن كفران النعمة كبيرة من كبائر الذنوب توجب دخول النار، وفيه أن المرأة يجب أن تُقدِّر زوجها، وتشكر له أياديه عليها، وتنظر في محاسنه وما أجرى اللهُ لها من الخير على يديه، ولتنْظُر إلى نعمة الله عليها وقد رزقها زوجاً ولتنظر إلى العوانس والأيامى، ما هنَّ فيه من التعب والضيق والكدر والشدة، فإنْ هي تنكَّرت لزوجها وجحدت إحسانه فإنها مُتوعدة بهذا الوعيد، وبذلك صارت النساء أكثر أهل النار بهذه الخصلة الذميمة.

وقوله: «مَنْ لا يَشْكُر الناسَ لا يَشْكُر الله» في هذا أنَّ مَنْ لا يَرى المعروف من الناس، فهو لا يَرَى المعروف من الله عزَّ وجل، وأمَّا إن كان يرى النعمة مِنَ الناس ويشكرها، فإنه من باب أولى يرى النعمة من الله تعالى ويشكرها، فكما أنه يشكر الله عزَّ وجل فلا بُدَّ أن يشكر الناس على المعروف ولا يجحده.

وقوله: «مَن أُعْطِيَ عَطاءً فلْيَجْزِ بِهِ» يعني: من أُعطيَ من الناس عطاءً أي منح مالاً أو هديَّة أو صدقة، أو مساعدة على قَضاء دين،

....

فإنه يجب عليه أن يشكر مَن أحسن إليه، فإن وجد مالاً أَعطَى من أحسن إليه، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فإن لم يجد ما يقابل ما أعطاه إيّاه، فإنه من الواجب عليه أن يدعو له، هذا هو الطريق الصحيح فيما يكون بين الناس في بذل المعروف والشكر عليه.

فدلّت هذه الأحاديث على أنَّ الشكر واجب على المنعَم عليه، سواء كان من الله تعالى، أو أجراها سبحانه على أيدي عباده، فإن لم يشكر وجحد، فإنَّ هذا الجحود يدخل في باب الكبائر.

باب ما جاء في لَـمْز أهل طاعة الله والاستهزاء بضَعَفتهم

عن أبي[1] مسعود ﷺ قال: لما نَزَلتْ آيةُ الصَّدقةِ كُنَّا نُحامِلُ على ظُهورِنا، فجاءَ رَجلٌ فتَصَدَّقَ بشيءٍ كَثيرٍ، فقالوا: مُرَاء، وجاءَ رَجُلٌ فتَصَدَّقَ بِصاعٍ، فقالوا: إنَّ الله لَغَنِيٌّ عن صاعِ هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٩][2] [١٤٥]

---

[١٤٥] قوله: «باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله» هذا الباب في بيان صفات المنافقين، الذين يلمزون أهل طاعة الله، أي: يعيبونهم ويستهزئون بهم، والاستهزاء لا يجوز مطلقاً، قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا يعب بعضكم بعضاً؛ لأنَّك إذا عبت أخاك فإنما تعيب نفسك، لأنَّ المؤمنين كنفس واحدة، ولأنَّ المؤمن يحب

---

(١) في الأصل: «ابن مسعود»، والمثبت هو الصواب.

(٢) البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

....

لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، واللَّمز: التَنقُّص.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ اللقب ما أشعر بمدح أو ذم، والمنهي عنه اللقب الذي فيه ذم، ثم قال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]، فقد سمّى الله: السخرية واللَّمز والتنابز بالألقاب فسوقاً أي معصية، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾؛ أي: عن ذلك كله ويترك هذه الخصال الذميمة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والظلم يكون بين العبد وربه ـ وهو الشرك والكفر ـ ويكون بين الناس أيضاً بجحد حقوق الناس وظلمهم فلا بُدَّ لهؤلاء من توبة، يعني: الذين لَمَزوا وتنقَّصوا غيرهم من المؤمنين.

وقوله: «عن أبي مسعود ﷺقال: لـمّا نزلت آيةُ الصَّدَقةِ كُنّا نُحامِلُ». أبومسعود هو: البدري، والمراد أنه لما أنزل الله الآية التي أمر الله فيها بالصدقة على المحتاجين، وكان الصحابة فقراء يشتغلون بالأجرة ولذلك قال: «كنّا نُحامل» أي: يحملون الأمتعة والأشياء المنقولة على ظهورهم ورؤوسهم مقابل الأجرة، ثم يتصدقون من كَسْبِهم امتثالاً لأمر الله سبحانه، لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم أكثر الناس استجابة لكلام الله.

....

وكان في المدينة منافقون يُظهرون الإسلام، ويسخرون من المؤمنين ويلمزونهم ـ وهذه هي طريقتهم ـ وهي علامة من علامات النفاق في كل زمان ومكان، وكما هو حاصل اليوم من اللمز لأهل العلم ولهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأئمة المساجد ولِعباد الله الملتزمين بدينهم، وهذا ديدنهم، فإنَّ المنافقين موجودون في كل زمان ومكان ابتلاءً من الله لعباده المؤمنين، والمنافقون هذا شأنهم لأن قلوبهم مريضة تحقد على المؤمنين، فلا يُستغرب ممّا يحدث من هؤلاء الذين يسخرون بالمؤمنين اليوم لأنَّ لهم سلفاً في فعلهم، ولما جاء بعض الصحابة بالمال الكثير يتصدق به فقالوا: هذا مُراءٍ، وجاء آخر بنصف صاع فقالوا: إن الله عن صاع هذا لغني. فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، والمطوعين هم: الذين يبذلون المال الكثير، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ هم: الفقراء، فقالوا عن الأول: مُراءٍ، وعن الثاني: إنَّ الله لغني عن صدقته، فماذا كان جزاؤهم؟ لقد عاملهم الله من جنس عملهم فسخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً

....

أليماً، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسخريته بهم عَدْلٌ منه ـ سبحانه وتعالى ـ، فالسخرية من المخلوق للمخلوق مذمومة، لأنها ظلم.

وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلَّ على تحريم ذلك مِنَ الناس عموماً ومن المسلمين خصوصاً، لأن أهل الإيمان لهم ميزة على الخلق لا سيّما إذا كانوا من علماء المسلمين، أو من ولاة أمور المسلمين، أو كانوا مِنْ عامة المسلمين وضعفتهم، فالمسلم له حق، وهو كريم على الله فلا يجوز أن يُنتقص.

باب الاستهزاء

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٠]، وقوله: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ الآية [الحجرات: ١١].

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الـمُستَهْزِئينَ بالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأحَدِهم في الآخرةِ بابٌ مِنَ الجَنَّةِ فيُقال له: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيَجيءُ بكَرْبِه وغَمِّهِ، فإذا جاءَه أُغْلِقَ دُونَهُ، ثُمَّ يُفتَحُ له بابٌ آخَرُ فيُقال له: هَلُمَّ هَلُمَّ، فيَجيءُ بكَرْبِه وغَمِّهِ، فإذا جاءَ أُغْلِقَ دُونَهُ، فما يزالَ كَذَلِكَ، حتَّى إنَّ أحَدَهُم لَيُفْتَحُ له البابُ مِن أبوابِ الجَنَّةِ فيُقال لَه: هلُمَّ، فَما يأتِيهِ مِنَ اليَأسِ». أخرجه البيهقي[1].

---

(١) في «الشعب» (٦٧٥٧).

ولابن أبي حاتم وغيره[1] عن ابن عمرو[2] مرفوعاً: «مَنْ مَاتَ هَمّازاً لَـمّازاً مُلَقِّباً للنَّاسِ، كانَ عَلامَتُه أنْ يَسِمَهُ اللهُ عَلى الـخُرْطُومِ مِن كِلا الشِّدقَينِ». [١٤٦]

---

[١٤٦] قوله: «باب الاستهزاء» الاستهزاء هو التنقص، أي: تنقّص أهل الفضل، أو الناس بشكل عام، وهو من كبائر الذنوب المستحقة لعقوبة الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ الذين أجرموا: هم الذين يتنقّصون ضَعَفة المسلمين كعمّار وصهيب وبلال وسلمان رضي الله عنهم، تنقّصهم المشركون وسخروا بصفاتهم، فوصفهم الله تعالى بالمجرمين، ووصف عباده المطيعين بالمؤمنين، ثم فرّق بعد ذلك بين المؤمنين والمجرمين، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، فانظر المقابلة بين الإيمان والإجرام، فهم أولى بالسخرية والتنقص، ومع ذلك قلَبُوها على أهل الإيمان والفضل والطاعة والتقوى، وقال ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: كان هؤلاء الذين أجرموا

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٨٨٠١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧٤٤)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٩٥ وعزاه لابن أبي حاتم وساقه بإسناده.

(٢) في الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبت من مصادر التخريج.

....

إذا مرّ المؤمنون بهم تغامزوا فيما بينهم تنقُّصاً واستخفافاً بهؤلاء المارَّة مِن المؤمنين، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أي: وإذا رجعوا إلى بيوتهم تحدثوا فيما بينهم معجبين وباستهزائهم بالمؤمنين، فهم يتلذَّذون بذلك، ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ أي: وإذا رأوا المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ حينما يرون المؤمنين وما هم عليه من العبادة والطاعة والصلاة والصيام والزهد، فيقولون عنهم: هؤلاء حَرموا أنفسهم من مشاركة الناس في متعهم، وأتْعبوا أنفسهم بالعبادة والطاعة وحرموا أنفسهم من التمدُّن والحضارة، كما يزعم البعض اليوم على ألسنة تلاميذ هؤلاء القوم وورثتهم.

فهذه طريقة المنافقين في السخرية والاستهزاء في قديم الزمان وحديثه، وهي من كبائر الذنوب، فالمؤمن عزيز على الله فلا يجوز تنقُّصه ولو كان فقيراً، ولو كانت عليه ثياب رثَّة، قال ﷺ: «رُبَّ أشْعَثَ مُدفوع بالأبواب، لَو أقسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّه»[(١)]، فالمؤمن عزيز على الله ولو كان فقيراً معدماً، فالقضية ليست بالمظاهر والأشكال، فانظر وتفكَّر ما قاله الله في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾[المنافقون: ٤]، فهم يظهرون بالأشكال الحسنة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

والفصاحة واللباقة ولكنهم مع ذلك في الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله، فلم تنفعهم فصاحتهم ولباقتهم ولا أناقتهم ولا لباسهم ولا حُسن أجسامهم عند الله لما لم يكن عندهم إيمان بالله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أي: فسخرتم من المؤمنين في دعائهم إيايّ وتضرعهم إليَّ كما فعل المشركون بعمار وبلال وصهيب، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، أي حتى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء خوف عقابي في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ أي: على أذاكم لهم وصبرهم على طاعتي ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنين: ١١١] أي: بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.

وقوله: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، القوم: الجماعة من الرجال دون النساء، فالله تعالى فرَّق بين الرجال والنساء، سمّى الرجال قوماً، وسمّى النساء نساء، فدلّ على أن اسم القوم لا ينطبق على النساء وإنما هو مختص بالرجال، قال الشاعر:

وما أدْري ولست إخالُ أدري أَقَــوْمٌ آلُ حِــصْن أمْ نِــساءُ

وقوله في الحديث: «إنَّ الـمُستَهزِئينَ بالناسِ يُفتَحُ لأحَدِهِم في الآخرة بابٌ من الجنة» هذا الحديث فيه بيان أنَّ الذي يسخر من الناس

....

في الدنيا، فإنَّ الله يسخر منه يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، فيوم القيامة يفعل بهم هكذا جزاءً وفاقاً، يُفتح لأحدهم باب إلى الجنة، وهو في كرب وشدّة وضيق فيفرح بذلك، فإذا وصله أُغلق وصُدَّ عنه، ثم يفتح له الباب الآخر حتى إذا جاء أُغلق، ثم يفتح له ويدعى، فييأس فلا يأتي، لشدّة يأسه وقنوطه، وهذا استهزاء به، فكان جزاؤه من جنس عمله.

وقوله في الحديث: «مَن مات همّازاً لـمّازاً مُلَقِّباً للنَّاسِ إلى آخر الحديث» في هذا الحديث وعيد شديد لمن اتصف بهذه الصفات، فالله يقول: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: «مُلقِّباً للناس»، يعني: يُلَقِّب الناس بألقاب الذَّم، فإنَّ الله عزَّ وجل يَسِمُه يوم القيامة على الخرطوم، الوجه، من باب، والمراد: أنَّ الله يُسود وجهه يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فيسوِّد الله وجهه يوم القيامة علامة على أنه كان في الدنيا همّازاً لقّاباً، جزاءً وفاقاً.

باب ترويع المسلم

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدَّثنا أصحابُ رَسولِ الله ﷺ: أنَّهم كانوا يَسيرون مَعَ النبيِّ ﷺ، فنام رَجُلٌ مِنهم فانطَلَقَ بَعضُهم إلى حَبْلٍ مَعَهُ فأخَذَهُ ففَزِعَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لمسلمٍ أنْ يُروِّعَ أخاه». رواه أبو داود[1]. [١٤٧]

---

[١٤٧] وقوله: «باب ترويع المسلم» الترويع: يعني: الإخافة والإرعاب، فلا يجوز للمسلم فعلُ شيءٍ يكون سبباً في إلقاء الخوف في قلب أخيه، لأنَّ الترويع فيه ضرر على المسلم، فمن فعل ذلك فإنه يجازى يوم القيامة على صنيعه، ويمكن أن ينال عقابه في الدنيا، ويدخل في ذلك ما يصدر من البعض الذي يتبنون أفكاراً منحرفة، تدفعهم إلى إرهاب الناس وإخافتهم من خلال التفجير، وترويع الآمنين والمستأمنين والمعاهدين، فالواجب تأمين المسلمين وتأنيسهم وإكرامهم لا تخويفهم وإرهابهم.

وقوله: «كانوا يَسِيرون مَعَ النبي ﷺ، فَنامَ رَجُلٌ مِنْهُم فانطَلَقَ بَعْضُهم إلى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخذَه ففَزِعَ» وذلك أنهم كانوا مع النبي ﷺ

---

(١) في «سننه» برقم (٥٠٠٤)، وأخرجه أحمد (٢٣٠٦٤).

....

في سفر، فنام أحدهم وجاء رجل ليمزح وأخذ حبله فروعه ـ ولا يجوز الترويع حتى بالمزاح ـ، وأيّاً كان هذا الترويع سواء بالكلام أو يأتيه على حين غفلة فيخيفه، أو من خلال الاتصال بالهاتف، كأن يخبره بخبر يفزعه على سبيل المزاح، أو بالفعل كأن يحمل عليه السلاح تخويفاً له، أو استغفاله وهو نائم، لأن كل ذلك من شأنه أن يسبب له ضرراً، فالحاصل أنَّ ترويع المؤمن بأي حال لا يجوز وهو كبيرة من كبائر الذنوب فيه من إدخال الأذى والضرر على المسلم، والمسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده.

باب المتشبِّع بما لم يُعطَ

ولهما[١] عن أسماءَ أن امرأةً قالت: يا رسولَ الله، إنَّ لي ضَرَّةً فهَلْ عليَّ جُناحٌ إنْ تَشبَّعْتُ مِن زَوْجي بما لم يُعْطِني؟ فقال: «الـمُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْط كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ». [١٤٨]

---

[١٤٨] قوله: «الـمُتشبِّع بما لم يُعطَ» أي: المتزيِّن بما ليس عنده يتكثَّر بذلك ويتزيَّن على غيره بالباطل، وفي الحديث أنَّ امرأة ذكرت للنبي ﷺ أنَّ لها ضَرَّة، وسألت إن كان يجوز لها أن تظهر أمامها وتدَّعي بأنَّ زوجها قد خصَّها بما تَفْضُلُها به، كمحبَّة أو أيِّ شيءٍ آخر أكثر من ضَرَّتها؟ فأنكر عليها ﷺ وقال: «المتشبِّع بما لم يُعطَ»، أي: الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، والمقصود إظهار فضيلة لم تحصل له، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يجوز وأن فاعل ذلك «كلابس ثوبي زور»، وهو الذي يزوِّر على الناس فيظهر أمامهم بصفةٍ ليست فيه على الحقيقة، والمراد أنه كان شبيهاً بـمَن لبس ثوبين لغيره وأوهمَ أنهما له، ويدخل في ذلك ادِّعاء صفات وأحوال ليست موجودة في الحقيقة. كما نهى عن ذلك لأنَّ هذه الصفة هي صفة اليهود حيث قال الله فيهم: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾[آل عمران: ١٨٨].

---

(١) البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

باب التحدث بالمعصية

ولهما عن أبي هريرة مرفوعاً[1]: «كُلُّ أُمَّتي مُعَافى إلّا المُجاهِرينَ، وإنَّ مِنَ المُجاهَرَةِ أن يَعْمَلَ الرَّجلُ عَملاً باللَّيلِ، ثُمّ يُصْبِحُ وقد سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فيقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذا وكَذا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُه رَبُّه، وأصبح يَكْشِفُ سِتْرَ الله عليهِ». [١٤٩]

---

[١٤٩] قوله: «باب التحدُّث بالمعصية» الواجب على المسلم أن يتجنب المعاصي والتحدُّث بها مهما أمكنه ذلك، لأن المعاصي فيها شر كبير، وقد تتزايد على الإنسان إذا تساهل فيها، والمعصية تجر إلى معصية أكبر منها، فعلى المسلم أن ينأى بنفسه عن المجالس التي تُذكر فيها المعاصي، يعني: أن يأخذ بالوقاية، فإن المعاصي تؤثر على الدين وعلى المروءة، والله قد حذّرنا من المعاصي ومن الوقوع فيها، والمعصية: كل مخالفة لأمر الله أو أمر رسوله ﷺ، وهي تتفاوت، فبعضها أشد من بعض، ولكن لا يُتساهل فيها لأنها تُمرِض القلب وتُضعف الإيمان، وتجلب العقوبة، إلى غير ذلك من المحاذير التي تنشأ

---

(١) البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

....

عنها، ولكن المسلم إذا ابتلي بشيء منها أن يُبادر بالتوبة، والنبي ﷺ يقول: «التَّائبُ مِنَ الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»[1]، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فلا ينبغي للمسلم أن يؤخر التوبة، فربما تتزايد المعصية وتجره إلى ما لا تحمد عقباه، وربما لا يدرك الوقت الذي يريد أن يتوب فيه فيموت وهو مقيم عليها، فلا بُدَّ من المبادرة بالتوبة، هذا أولاً.

وعليه أن يستحي من الله عز وجل ويستعظم المعصية مهما كانت صغيرةً، فقد جاء في الحديث: «إن المُؤْمِنَ يَرى ذُنوبَه كأَنَّهُ قاعِدٌ تَحتَ جَبَلٍ يَخَافُ أن يَقَعَ عَلَيْهِ، وإنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَه كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقالَ بِهِ هكذا»[2]، فالأصل في المسلم أنه يخاف ويستحي من الله ومن الناس كذلك، وقد قال ﷺ: «الحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ»[3]، فالحياء صفة في النفس تحمل على فعل ما يُحمَد وتَرْك ما يُذمُّ ويُعاب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٨١)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

ولا يجاهر ويتمدَّح، فإنَّ المجاهرة والتحدث بالمعصية جرم آخر يضاف إلى جرمه، ولهذا فإنَّ من الواجب عليه أن يستر نفسه، ويبادر بالتوبة، وأن يندم على ذنبه، ويعزم على أن لا يعود إليها، والنبي ﷺ قد حذَّر من المجاهرة بالمعاصي حيث قال: «وإنَّ من المجاهرة أن يَعْمَلَ الرَّجُلُ عَمَلاً باللَّيل ثُمَّ يُصْبِحُ وقَدْ سَتَرَهُ اللهُ فيَقُول: يا فُلان عَمِلْتُ كذا وكذا».

ثم إنَّ الذي يجاهر بالمعصية حَرِيٌّ أن لا يعفو الله عنه، أمَّا إذا كانت المعصية تستوجب حدّاً من الحدود وقد جاهر بها، فإنه يقام عليه الحد، لأنَّ الجريمة إذا وصلت للقضاء وثبتت بها فلا بدَّ من إقامة الحدّ على مرتكبها، ولو أنه ستر نفسه وتاب إلى الله لما كان عليه ملامة، أمّا إذا تحدث بها وأقرّ بها، وكانت تستوجب حدّاً من حدود الله، فإنه يقام عليه الحد.

ويستفاد من الحديث أن من وقع في معصية وستر نفسه وتاب إلى الله ولم يتحدث بها فإنه معافى، وذلك بأن ينال عفو الله، وأما من جاهر، فإنه يكون غير معافى، لأنه انتهك الستر الذي ستره الله به، واعترف على نفسه بالجريمة، فيترتب على ذلك ما يترتب، ويُسقط مكانته عند المسلمين، ويضع نفسه في موضع اتهام وشبهة، وبالتالي

....

يحذره الناس لأنه وضع نفسه في هذا الموضع، فدلَّ هذا على أنَّ المجاهرة كبيرة من الكبائر، ولذلك ساق الشيخ رحمه الله هذا الحديث تحت باب التحدث بالمعصية.

باب ما جاء في الشتم بالزنى

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ قَذَفَ مَمْلوكَهُ بالزِّنى يُقام عليه الحَدُّ يومَ القِيامَةِ، إلّا أنْ يَكونَ كَما قالَ»(١). [١٥٠]

---

[١٥٠] من الأمور التي حرَّمها الله عرض المسلم، وأن لا يُظن به إلّا الخير، فالله حرَّم عِرض المسلم وماله ودمه، والعرض: هو ما يقبل المدح والذَّم، هو أعز عند المسلم من المال، فإنه إن سُرِقَ أو ضاعَ ماله، فهو يرجو أن يعوضه الله، وأما العِرض فلا يُعوض إن ضاع أو انتُقص، يقول الشاعر:

أصونُ عرضي بمالي لا أُدَنِّسُه ... لا بارك الله بعد العِرضِ بالمالِ
أَحتالُ للمالِ إنْ أَودى فأَجمَعُه ... ولَسْتُ لِلعِرْضِ إنْ أَوْدى بِمُحْتالِ

فعِرض المسلم حرام كحرمة ماله ودمه، والقذف بالفاحشة سواء بالزنى أو اللواط اعتداء على الأعراض، وهو كسائر الذنوب، حيث رتَّب الله سبحانه وتعالى على قذف المسلم الحدّ وهو عقوبة مقدرة شرعاً، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] فالقاذف تترتب عليه ثلاث عقوبات، أولها: الجلد، حيث

---

(١) البخاري (٦٨٥٨) ومسلم (١٦٦٠) واللفظ له.

....

يضرب ظهره وجلده بالسياط. والثانية: أنه لا تقبل له شهادة أبداً، والثالثة: أنه يوصف بالفسق، أي: بالخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد توعَّدهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ – ٢٥]، فاحترام أعراض المسلمين والستر عليهم ودعوتهم إلى التوبة والإصلاح من الأمور التي رغَّب فيها الإسلام، ودعت الشريعة إلى الالتزام بها والتشديد على مراعاتها، فلا يجوز أن يُرمى المسلم بفاحشة حتى وإنْ وقعت منه، إذ الأصل في ذلك أن يُستر عليه ويُدعى إلى التوبة، لا أن يكشف أمره، لأنَّه لا بُدَّ له في هذه الحالة من أن يأتي بالشهود دليلاً على صحة كلامه وإلّا فيجلد ثمانين جلدة، وكل ذلك حماية لأعراض المسلمين، ولأنَّ في ذلك إشاعة للفاحشة، قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وإنما يُشيع الفاحشة في المسلمين أهل النفاق، أمَّا المؤمن فإنه يكره ذلك لنفسه ولأخيه ولمجتمعه، فالأصل أن تُخفى الجريمة ولا يُعلن عنها إلَّا في حدود ضيقة.

....

وقد دلّ الحديث على أنَّ القذف من كبائر الذنوب لما ترتب عليه من الحد، ودلَّ على أن السيد إذا قذف عبده لم يجب عليه الحدُّ، وإنما عليه الوعيد الشديد الذي ورد في الحديث في الآخرة.

باب النهي عن تسمية الفاسق سيداً

عن بُريدة مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سَيِّد، فإنَّه إنْ يَكُ سَيِّداً فَقَدْ أسْخَطْتُم رَبَّكُم» رواه أبو داود بسند صحيح[(١)]. [١٥١]

---

[١٥١] الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، وهو على قسمين: الأول: أن يكون من المؤمنين ولكنه ارتكب كبيرة دون الشرك، فإنه يُحكم عليه بالفسق. والثاني: أن لا يكون مؤمناً بل يدّعي الإيمان ويُظهره وهو في الباطن مخادع، وهذا هو المنافق، والمنافق يسمّى فاسقاً، يعني: خارجاً عن طاعة الله وخارجاً من الإسلام، والفاسق لا يجوز أن يُمدح ولا يُعظَّم، بل ينزّل منزلته اللائقة به، فلا يقال له: سيد، وهو منافق أو فاسق من المؤمنين.

والحديث جاء في سياق ذكر المنافق ويدخل فيه الفاسق من المؤمنين، ولهذا ترجم الشيخ للباب بقوله: «باب النهي عن تسمية الفاسق سيِّداً»، فلا يُسَوَّد المنافق، والسيد: هو المُعظَّم والرئيس، فالأصل أن لا يولّى في الوظائف والمناصب التي تجعله سيداً، لأنَّ الله

---

(١) أبو داود (٤٩٧٧)، وأخرجه أحمد (٢٢٩٣٩).

....

يغضب إذا رُفع هذا الفاسق أو المنافق فوق المنزلة التي يستحقها، لأنَّ في ذلك تشجيعاً لهم على هذه الجريمة، أي: جريمة الفسق والنفاق، فلا ينبغي أن يُمكَّنوا من التولي على أهل الإيمان والعقيدة، لأنهم قد ينشرون الشرّ بين الناس، ولأنَّ فيه تغاضياً عن جرمهم وعن فسقهم، وهذا يَضرُّ بالدين، فلا يجوز مدحهم ولا يجوز أن يولوا المناصب التي لها شأن في المسلمين.

وقوله: «لا تَقولوا للـمُنافِق سَيِّد» لأنَّ ذلك يجعله جريئاً على الفسق والجريمة، فإذا فعلتم هذا وسوَّدتموه فقد أغضبتم ربكم.

باب النهي عن الحلف بالأمانة

عن بُريدة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ حَلَفَ بالأمانَةِ فليس مِنَّا» رواه أبو داود بسند صحيح[١]. [١٥٢]

---

[١٥٢] الحلف معناه: توكيد الشيء بذِكْرِ معظم، والحَلِف تعظيم للـمَحْلوفِ به، وهذا لا يستحقه إلا الله تعالى، لأنَّ هذا نوع من أنواع العبادة، لذلك قال النبي ﷺ: «مَن حَلَفَ بغَيْرِ الله فَقَدْ أشرك»[٢]، وفي الحديث الآخر: «ألا إنَّ الله ينهاكم أن تَحلفُوا بآبائكم، مَنْ كانَ حالِفاً فلْيَحْلِف بالله أوْ لِيَصْمِت»[٣]، فالحلف لا يكون إلَّا بالله، لأنه تعظيم للمحلوف به، فلا يجوز الحلف بالأب أو بالنبي أو بالولي، أو بالشرف ولا بالأمانة أو بغير ذلك، لأنَّه لا يستحق التعظيم إلَّا الله تعالى. فالحلف لا يكون إلَّا بالله أو بصفة من صفاته ولا بشيء سوى ذلك.

---

(١) في «سننه» برقم (٣٢٥٣) وأخرجه أحمد (٢٢٩٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٥٣٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

ومن الحلف بغير الله الحلف بالأمانة، والأمانة: هي العهدة التي يؤتمن عليها العبد، والأمانة تكون بين العبد وبين ربه وبين الناس بعضهم مع بعض، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ولا يَتهاون بالأمانة إلّا أهل النفاق، ولكن لا يُحلف بها، لأن الحلف بها حَلْف بغير الله، ولكن نجد كثيراً من الناس يجري على ألسنتهم الحلف بالحياة والأمانة.

وقوله: «مَن حَلَفَ بالأمانَةِ فليسَ مِنّا» هذا يدلُّ على أنَّ الحلف بالأمانة كبيرة من كبائر الذنوب، لأن من ضوابط الكبيرة أنَّ النبي ﷺ تَبرَّأ مـمَّن فعل ذلك وحلف بالأمانة، ولذلك ذكر الشيخ رحمه الله هذا الحديث في كتاب الكبائر، لأنَّ هذا الأمر قد يتساهل فيه كثير من الناس، وهو خطير، فقوله: «ليس منّا» هذا فيه تحذير ووعيد شديدين من هذا الأمر الخطير، وأنَّ فاعل ذلك قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ولكنه لا يحكم عليه بالكفر.

باب النهي عن الحلف بملَّة غير الإسلام

عن أبي زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسلَامِ كَاذِباً مُتَعَمِّداً فهو كَما قالَ» أخرجاه(١).

وعن بُريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ، فقال: أنا بَرِيءٌ مِنَ الإسلام، فإن كَانَ كَاذباً فهو كما قال، وإنْ كان صَادِقاً فلن يَرْجِعَ إلى الإسلام سالماً» رواه أبو داود(٢). [١٥٣]

---

[١٥٣] ومن الحلف بغير الله الحلف بملة غير الإسلام كأن يقول: هو يهودي أو نصراني إن كان فعل كذا، وهو كاذب متعمد، فإن كان كاذباً فهو كما قال، وأمّا إذا لم يكن كاذباً، أو كان كاذباً ولكنه لم يتعمد الكذب، وإنما غلب على ظنه أنه صادق فهذا لا يدخل في الوعيد، لكن على المسلم أن يتجنب هذا الأمر، ولا يحلف إلَّا بالله ويتجنب الحلف بسواه، فإنه بذلك يسلك طريق النجاة.

---

(١) البخاري (١٣٦٣) ومسلم (١١٠).

(٢) في «سننه» (٣٢٥٨)، وأخرجه أحمد (٢٣٠٠٦)، وابن ماجه (٢١٠٠)، والنسائي (٣٧٧٢).

....

وقوله: «فلن يرجع إلى الإسلام سالماً» أي: سالماً من الإثم واللوم، بسبب ما صدر منه من هذا اللفظ، فينقص إسلامه بذلك، وهذا يدلُّ على تحريم هذا الحلف ولو كان صادقاً في كلامه.

باب ما جاء في الغيبة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢].

[١٥٤]

---

[١٥٤] قوله: «باب ما جاء في الغيبة» حَدُّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقصٍ في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في قوله أو في دينه أو في عرضه، لأنَّ انتهاك الأعراض من الغيبة، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ولـمّا نهى الله سبحانه وتعالى عن الغيبة وأمر بتقواه، دلَّ هذا على أن المغتاب ليس عنده تقوى، أو أنَّ تقواه ناقصة، فالغيبة وقد فسَّرها ﷺ بقوله: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أخاكَ بِما يَكْرَه» قيل: أَفَرَأَيْتَ إنْ كانَ في أَخي ما أَقول؟ قال: «إن كانَ فيهِ ما تَقول فقد اغتَبْتَهُ، وإن لَمْ يَكُنْ فَقَدْ بَهَتَّه»[1]، فالذي يتكلم في أعراض الناس وهم غائبون لا يخلو مِنْ أمرين: إمّا أن يكون كذَّاباً، وإمّا أن يكون مغتاباً، وكلا الأمرين كبيرة، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه عن أعراض المسلمين حتى ينجو من الأمرين، وذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

بأن لا يتنقَّصهم بذكر عيوبهم كأن يقول: فلان بخيل، أو: فلان جبان، أو يقول: فلان أعور، أو: فلان في جلده كذا، فهذا كله من الأمور التي يُراد بها السخرية والاستهزاء، ويدخل في باب الغيبة التي تُحبط الحسنات يوم القيامة.

فالواجب على المسلم أن يحافظ على أعراض إخوانه كما يحافظ على عرضه، لأنَّ المسلمين كالجسد الواحد، فكما لا ترضى أن يغتابك الناس فلا تغتب أحداً، ومع أن الغيبة من كبائر الذنوب، إلّا أنَّ بعض الناس لا يتورَّعون عنها، بل يتفكَّهون بها في المجالس فيتنقَّصون الناس ويلمزونهم، ويخوضون في أعراضهم مع أنَّ الواجب على المسلم أنْ يكفَّ لسانه عن الخوض في عرض أخيه، بل يجب إن كان في مجلس واغتيب فيه أحد أن يُنكر ذلك ويَذُبَّ عن عرض أخيه، وفي الحديث: «من رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيه كَفَّ اللهُ عَنْ وَجهِهِ النَّار يوم القيامة»[1]. والأعراض لها مكانة عند الله والمسلمين فلا يُتهاون بها، لا بقذف ولا بغيبة ولا بهمز ولا بلمز، فالله عزَّ وجل يقول: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦)، والترمذي (١٩٣١) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

....

بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: إخوانكم، وهذا معناه: أنَّ المسلمين كالنفس الواحدة، وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ اللقب هو: ما أشعر بمدح أو ذم، وسمَّى الله عزَّ وجل ذلك بالفسوق، وأنَّ من لم يتب فإنه ظالم.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الغيبة تشتد إذا كانت في ولاة أمور المسلمين والعلماء، لأنَّ هؤلاء أمر الله باحترامهم، ولأنه يترتب على غيبة ولاة الأمور ـ إضافة لما مضى ـ إلقاء الفتنة بين المسلمين، وتبغيض الرَّعية للراعي والراعي للرعية، وهذا لا شكَّ أنَّ فيه ضرراً كبيراً على المسلمين.

عن أبي بَكْرةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال في خُطبته يوم النَّحْر: «أيُّ شَهْرٍ هذا؟» فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْرِ اسمِهِ، فقال: «أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلنا: بَلى، قال: «فأَيُّ بَلَدٍ هَذا؟» فسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنّا أَنَّه سَيُسمِّيه بغَيْرِ اسمِهِ، فقال: «أَلَيسَ بَلَدَ الله الحَرامِ؟» قُلنا: بَلى، قال: «فَأَيُّ يَومٍ هَذا؟» فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنّا أَنَّه سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسمِهِ، فقال: «أَلَيسَ يَومَ النَّحْرِ؟» قلنا: بَلى، قال: «فإِنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عَلَيكُم حَرامٌ، كَحُرمَةِ يَومِكُم هَذا في شَهْرِكُم هَذا في بَلَدِكُم هَذا، وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُم فيَسأَلَكُم عَن أعمالِكُم، أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعدي كُفَّاراً يَضرِبُ بَعْضُكُم رِقابَ بَعضٍ، ألا فَلْيُبَلِّغ الشّاهِدُ مِنكُمُ الغَائِبَ، فلَعَلَّ بَعضَ مَن يَبلُغُه أن يَكون أَوْعى مِمَّن سَمِعَهُ» ثُمَّ قال: «أَلا هَلْ بَلَّغتُ؟» قُلنا: نَعَم. قال: «اللَّهُمَّ اشهَدْ» قالَها ثَلاثاً، أخرجاه(١). [١٥٥]

---

[١٥٥] أما قوله ﷺ في حديث أبي بكرة في خطبة النبي ﷺ يوم النحر: «أَيُّ شهرٍ هذا؟» فالنبي ﷺ خطب عدَّة خطب، فقد خطب يوم عرفة الخطبة البليغة العظيمة، وخطب يوم النحر وهي هذه الخطبة

---

(١) البخاري (١٧٣٩) و(٧٤٤٧)، ومسلم (١٦٧٩).

....

ليعلّم الناس مناسك الحج والأمور العامة، وهذه الخطبة البليغة أراد ﷺ بها أن يبيّن حرمة المسلم، وهذا من كمال نصحه ﷺ فقال: «أي شهرٍ هذا؟» وقد أراد أن ينبههم، ويَلْفت الانتباه لخطورة ما أراد أن يبيِّنه لهم، فسكتوا، وهذا من أدبهم مع النبي ﷺ، ثم قال: «أليس ذا الحجة؟»، أي: الشهر الذي يؤدى فيه الحج، وهو من الأشهر الحرم، فقال الصحابة: بلى، ثم سأل: «أيُّ بلدٍ هذا؟ فسكتوا فقال: أليس بلد الله الحرام؟»، قالوا: بلى، يعني ﷺ بذلك: مكة، ثم قال: «فأيُّ يومٍ هذا؟» فسكتوا وهم يظنون أن النبي ﷺ سَيُسمِّيه بغير اسمه، ثم إن النبي ﷺ بعد أن انتبه الصحابة وتهيئت قلوبهم للقول قال: «أليس يومُ النَّحر؟» قالوا: بلى، قال: «إنَّ دِماءَكُم وأَموالَكُم وأعراضَكُم عَلَيْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هذا في بَلَدِكُم هَذا في شَهْرِكُم هَذا»، فالدماء والأعراض والأموال حرمتها كحرمة هذه الحرمات العظيمة وهي البلد الحرام والشهر الحرام ويوم النحر، ثم إنه حذَّر بعد ذلك من أمر خطير فقال: «لا تَرجِعوا بَعدي كُفَّاراً» وهذا فيه تحذير ونهي عن انتهاك الدماء، وقد حرَّم الله دم المسلم والمعاهد على حَدٍّ سواء، فلا يجوز الاعتداء عليهما، ولا سيّما في أيام الفتنة، فإنْ حصلت فتنة فالمسلم يكف ولا يشارك فيها، وأن يكونُ عاملاً للإصلاح بين الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

....

﴿ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، هذا هو ما يجب على المسلم: الإصلاح، فإن عجز عن ذلك، فإنَّه ينجو بنفسه ويبتعد عن شَرِّها ولا يدخل في الفتنة.

وقوله: «كفّاراً» المراد بالكفر هنا: الكفر الأصغر وهو الكفر العملي، ليس الكفر المخرج من المِلَّة بدليل قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ثم قال في آخر ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فبعد أن ذكر القتال فيما بين المسلمين لم ينفِ عنهم الأخوة في الإيمان.

وقوله: «فلْيُبَلِّغ الشاهِدُ مِنكُم الغائب» هذا فيه الحثُّ على تبليغ ما ورد عن الله وعن رسوله ﷺ، والدعوة إلى نشر العلم بين المسلمين، فمن أعطاه الله علماً فلا بُدَّ أن ينشره ولا يكتمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فلا يجوز كتمان العلم إلّا إذا ترتب على كتمان بعضه مصلحة راجحة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ لـمّا قال: «ألا أُبشِّر الناس؟ قال: «إنِّي أخافُ أن يَتَّكِلوا»[1].

---

(١) البخاري (١٢٩)، ومسلم (٣٢).

....

أما إذا لم يترتب على نشر بعض العلم مفسدة، فإنه من الواجب عليه أن يبلغ العلم ولا يكتمه، لأنَّ الناس بحاجة إليه، ثم قال: «رُبَّ مُبلَّغٍ أوعى مِن سامِعٍ»، فالناس يتفاضلون في هذا، فمنهم من يحفظ النصوص، ولكنه قليل الفهم لا يستطيع أن يعرف ما فيها من أحكام، ألفاظ هذه النصوص الذين لم يحضروا ولم يسمعوا ما سمع من الأمور العلمية فقد يكونون أفقه ممن حضروا، فيستفيدوا مما بُلِّغوا، ويفيدون غيرهم. وهذه هي فائدة نشر العلم، أن يصل لأناس يفقهونه، فدلّ على أنَّ المقصود ليس إيصال النصوص فقط، وإنما المطلوب الفقه فيها والعمل، ثم قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا هَل بَلَّغتُ: «اللهم فاشْهَد» ثلاثاً، وهذا فيه أنَّ الأصل في الخُطَب أن لا تطوَّل، وإنما تختصر اختصاراً غير مُخِلٍّ، لأنَّ هذا أدعى للفهم والانتباه، ولهذا قال ﷺ: «إنَّ طولَ صلاةِ الرجل وقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فأطيلوا الصلاةَ واقصُروا الخُطْبة»[1]، فقوله: «مَئِنَّة» أي: علامة «على فقهِهِ»، لكن بعض الناس يخالف السُنَّة فيقصرون الصلاة ويطيلون الخطبة، فيجعلون الصلاة في دقيقتين والخطبة في ساعة أو أكثر ولا يعلق منها شيء في الذهن ولا يحفظ منها شيء.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر ﷺ.

ولهما[1] عند ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الـمُسلِمُ مَن سَلِمَ الـمُسلِمونَ مِن لِسانِه ويَدِه، والـمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عنه».[١٥٦]

---

[١٥٦] أما قوله: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» فالمراد بالمسلم هنا: كامل الإسلام، لأنَّ الغيبة نقص في الإسلام، فمن كمال الإسلام ترك الغيبة، فمن تركها كَمُلَ إسلامه. وقوله: «مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه» كالسبِّ والشتم والغيبة، وسَلِمَ المسلمون من يده، بضربهم وإيذائهم بقتل أو أخذ مال، فاليد جارحة من الجوارح يكتسب بها المسلم أفعالاً خَيريّة أو أفعالاً محرَّمة، فمن الإسلام كف المسلم يده عن أذى النفس، ولسانه عن أعراضهم، فإسلام العبد يحتاج إلى المحافظة عليه مما يؤثر فيه من الأقوال المخلّة والأفعال القبيحة وسائر التصرفات، فالمسلم يكون مسلماً فيما بينه وبين الله بإخلاص العبادة له، وبتسليم قلبه له، ويكون مسلماً بينه وبين المسلمين، بكَفِّه لسانه عن شتمهم ويده عن ضربهم وإيذائهم، فأفضل المسلمين مَن جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين.

---

(١) البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠).

....

وقوله: «والمهاجر منْ هَجَرَ ما نهى الله عنه» الهجرة في اللغة: هي ترك الشيء، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]؛ أي: اترك عبادة الأصنام، ومنه ترك الوطن والخروج منه إذا كان في بقائه فيه مضرَّة على الدين، فالمسلم يفرُّ ويخرج بدينه إلى مكان يأمن فيه على دينه، لذلك قال العلماء في تعريف الهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فراراً بالدين، كما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة فِراراً بدينهم، والهجرة باقية إلى قيام الساعة، قال النبي ﷺ: «لا تنقطعُ الهِجرةُ حتى تنقَطِعَ التَّوبةُ، ولا تنقطعُ التَّوبةُ حتى تخرجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها»[١]، أي عند قيام الساعة حين تخرج الشمس على خلاف مخرجها من المشرق فتخرج من المغرب، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فإذا خرجت الشمس من مغربها تنقطع الهجرة ويُغلق باب التوبة، ويبقى المسلم على إسلامه والكافر على كفره عليه علامة الكفر.

وأمَّا قوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[٢]، أي: من مكة، فلا هجرة من مكة إلى المدينة لأنها ـ أي: مكة ـ صارت بلد إسلام بعد

---

(١) أخرجه أحمد في (١٦٩٠٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في (٢٧٨٣) من حديث ابن عباس ﷺ.

....

فتحها، أمَّا الهجرة العامة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فهي باقية. والمقصود أنَّ المهاجر كامل الهجرة مَن ترك الشرك وترك المعاصي كالزنى وشرب الخمر وكل ما نهى الله عنه، وترك بلاد الكفر، فالهجرة تكون بالبدن، وهي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وتكون قلبيّة وذلك بترك المحرّمات، أمَّا من هجر بعض الذنوب والمعاصي وبقي مستمراً على بعضها، فهذا هجرته ناقصة، والشاهد من الحديث ترك الغيبة وهجرها، لأن فيها ضرراً على المسلمين.

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَن أَكَلَ لَحْمَ أخيهِ في الدُّنيا قُرِّبَ إليه يَومَ القِيامَةِ، فيُقال لَهُ: كُلْهُ مَيتاً كما أكلته حَيّاً، فيأْكُلُه، فَيَكلَحُ وَيَصيحُ» رواه أبويعلى بسند حسن[1].

ولابن حبّان[2] وصحَّحه عنه في قصة ماعز، أنَّ رجلاً قال لآخر: انظُر إلى هذا الرَّجُلِ الذي سَتَرَ اللهُ عَليهِ فلَمْ يَدَعْ نَفسَه حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الكَلْبِ، فقال لهما النبيُّ ﷺ: «كُلا من جِيفَةِ هذا الحِمارِ الميِّتِ كَما أكلتما عِرضَ هَذا الرَّجُلِ، فإنَّ ما أَكلتُما أشَدُّ مِن أَكلِ هذهِ الجِيفةِ». [١٥٧]

---

[١٥٧] قوله: «من أكل لحم أخيه، في الدنيا قُرِّب إليه يوم القيامة. فيقال له: كُلْه ميتاً كما أكلته حياً» قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢].

فأكل لحوم الأموات أمر تنفر منه النفوس، والمغتاب إنما يأكل لحم أخيه بكلامه في عِرضه فكما أنَّ أكل لحوم الناس بعد موتهم أمر تكرهه النفوس، فكذلك يجب أن تكره أكل أعراضها في حال حياتها، لأنَّ ذلك أكل معنويّ.

---

(١) كما في «الفتح» ١٠/ ٤٧٠، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦٥٦) وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ٤٩٣، رقم (٤١٧٥).

(٢) في «صحيحه» برقم (٤٣٩٩).

ولهما[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ مَرَّ بِقَبْرين فقال: «إِنَّهُما لَيُعَذَّبانِ وما يُعذَّبانِ في كَبيرٍ، بلى إنه كبير، أمّا أَحَدُهما فكان لا يَسْتَبرِئُ مِنَ البَوْلِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشِي بالنَّميمةِ».

أخرج البخاري في «الأدب المفرد»[٢] نحوه من حديث جابر، وفيه: «أمّا أَحَدُهما فكانَ يَغتابُ الناسَ».

ولأحمد بسند صحيح معناه من حديث أبي بكرة[٣]، ولأبي داود الطيالسي[٤] عن ابن عباس مثله بسند جيد. [١٥٨]

---

[١٥٨] أما حديث ابن عباس «أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقبرين وقال: إنهما ليعذبان...» فأحوال أهل القبور لا يعلمها إلَّا الله تعالى، ولكن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء، فقد أطلعه الله تعالى على حالهما، وهذا من معجزاته ﷺ، أما نحن فنمر على القبور فلا نرى شيئاً، فهم في عالم ونحن في عالم آخر، والنبي ﷺ قال: «إنهما يعذبان»،

---

(١) البخاري (١٣٦١)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) برقم (٧٣٥).

(٣) في «مسنده» برقم (٢٠٣٧٣). وأخرجه أحمد (١٩٨١).

(٤) في «مسنده» برقم (٢٦٤٦).

....

وهذا دليل على أن العبد يُعذّب في قبره، فنحن نؤمن بذلك كما أخبر الله ورسوله، فعذاب القبر ثابت بالتواتر وقد أمر النبي ﷺ أن نستعيذ بالله منه في التشهد الأخير من الصلاة، ففي الحديث استعيذوا بالله من أربع: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[1] فلا ينكر عذاب القبر إلاَّ أهل الضلال، أمَّا أهل السُنَّة والجماعة فيؤمنون به ويعتقدونه، وهو من أصول العقيدة، فقد قال: «إنهما ليعذبان»، ثم بَيَّن سبب تعذيبهما، فقال: «وما يعذبان في كبير»، أي: هو سهْل عليهما تركه ومع ذلك لم يتركاه، وأما قوله: «إنه كبير»، أي: إنه من كبائر الذنوب.

وقوله: «لا يستبرئ» وفي رواية: «لا يستنزه» والمقصود لا يستنجيء ولا ينقي ذكره بالاستجمار، فالواجب على المسلم أن ينتظر حتى ينقطع البول، ثم يستجمر بالأحجار أو يستنجي بالماء، فالذي لا يتحرز من بوله يُعذَّب في قبره، وذلك كبيرة من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٧٦٨)، والبخاري (٤٧٠٧)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس ﷺ.

....

وقوله: «وأمّا الآخر فكان يمشي بالنميمة» هذا محل الشاهد من الحديث وهي الوشاية ونقل الحديث على وجه الإفساد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ – ١١]، وفي الأثر: النمام يُفسد في ساعة ما يفسده الساحر في سنة، فالنمّام أشد خطراً من الساحر من ناحية الإفساد بين الناس.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ بعضاً ممن ينتسبون إلى العلم يستخدمون الغيبة والنميمة من أجل التفريق بين العلماء وطلبة العلم، ونحن ندعوهما أن يكفوا عن ذلك.

وللترمذي وصححه(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: «حَسْبُكَ مِن صَفِيَّةَ كذا وكَذا ـ قال بعضُ الرواةِ: تعني أنها قصيرة ـ قال: «لَقَد قُلتِ كَلِمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البحرِ لَمزَجَتْهُ». قالَت: وحَكيتُ له إنساناً فقال: «ما أُحِبَّ أن تحكي لي إنساناً وإنَّ لي كذا وكذا» [١٥٩]

---

[١٥٩] أما حديث عائشة وفيه أنها قالت عن صفية: حسبك من صفية أنها كذا وكذا، يعني: أنها قصيرة فإن صفيَّة هي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ عُرفت بصلاحها وتقواها، وهي صفية بنت حُيَيّ ابن أخطب، ومعلوم ما يكون بين النساء الضرائر، فعائشة رضي الله عنها كانت غارت منها وقالت: حسبك من صفية كذا وكذا، تقصد أنها قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «لقد قلتِ كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» ولم يشفع لها أنها أم المؤمنين، فإنَّ النبي ﷺ أنكر عليها هذه الكلمة، وهذا فيه أنه يجب على المؤمن إنكار المنكر.

---

(١) في «جامعه» (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣)، وأخرجه أبوداود (٤٨٧٥).

باب ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق

عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ لعن من أضلَّ الأعمى عن الطريق[1].

ولأبي داود[2] عن معاذ ﷺ مرفوعاً: «مَنْ حَمَى مُؤمِناً مِنْ مُنافقٍ آذاهُ، بَعَثَ الله له يَوْمَ القِيَامةِ مَلَكاً يَحمي لَحْمَهُ مِنْ نَارِ جَهنَّم، ومَنْ رَمَى مُسْلِماً بشيء يريد شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللهُ على جسرِ جَهَنَّمَ حتَّى يَخْرُجَ مـمَّا قَالَ». [١٦٠]

---

[١٦٠] لقد حثَّت الشريعة على الرفق بالضعفاء وإعانتهم والشفقة عليهم ومنهم الأعمى الذي لا يُبصر الطريق، فالواجب إرشاده وتجنيبه ما أمامه من أخطارٍ، لأنه فاقد للبصر، وأنت أنعم الله عليك بهذه الحاسَّة، والأصل استعمالها واستغلالها بما يُرضي الله، وينفع الآخرين، سيَّما وفي هذا الحديث لعن من أضلَّ الأعمى عن الطريق، سواءً تعمد ذلك أو كان مازحاً، فإنه يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤١٧) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً بلفظ: «لعن الله من كَمَهَ الأعمى عن السبيل».

(٢) في «سننه» برقم (٤٨٨٣).

....

وأمَّا ما جاء في حديث أبي داود: «من حمى مؤمناً...» فهذا الحديث فيه مسألتان، الأولى: أنَّ الواجب على المسلم أن يبادر لحماية أخيه ممن اغتابه فيذبَّ عنه ممّا يقوله المغتاب.

فلا يجوز للمسلم أن يعيب أخاه ويتنقصه، بل يرفع من شأنه ويثني عليه لا أن يَشِينه، فإن فعل وشانَ أخاه كان جزاؤه أنَّ الله يحبسه على جسر جهنم حتى يخرج ممَّا قال، لأنه يوم القيامة يُنصب الصراط، وهو الجسر الذي يضرب على متن جهنم ليمرَّ الناس عليه على قَدْرِ أعمالهم، فإذا مرّ المسلمون عليه فإنهم يمنعون من دخول الجنة، حتى يوقفوا على القنطَرة ليقتص لبعضهم من بعض فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم بدخول الجنَّة، لأنَّ الجنة طيبة لا يدخلها إلَّا الطيبون.

فالحطُّ من أقدار المسلمين وتصغير شأنهم واحتقارهم أمر عظيم أشار إليه هذا الحديث، ولا سيّما ما يفعله الكثيرون من أجل أن ينفضّ الناس عن فلان، فيطعنون في أمانته وعلمه، وبعضهم يبرر عمله هذا بقوله: إنَّ كلامي هذا من باب إنكار المنكر، فسبحان الله! إنَّ هذا هو المنكر بعينه، لأنَّ ما قلته في أخيك غيبة والغيبة من أعظم المنكر، والمنكرُ لا يقابل بمنكر أشد منه، فالواجب على المسلم

....

أن يعرف هذه الأمور ويحذر من لسانه، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقد وقال النبي ﷺ في الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم إلَّا حصائد ألسنتهم»(١)، فالكلام الذي يقوله الإنسان يحفظ ويُدوَّن على العبد، ومن ثم يُجزى به ويقتص منه للمظلوم، فلا بد أن يحذر العبد من اللسان، لأنه قد يضيع الحسنات، لا سيما إذا استخدمه في الكلام النابي والقذر، ومن أقذر الكلام الغيبة والنميمة والتي تساهل فيها كثير من الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

باب تشييع الفاحشة في المؤمنين

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. [١٦١]

---

[١٦١] تشييع الفاحشة بين المؤمنين معناه: ذكر الفاحشة التي تقع من بعض الناس أو اختلاق شيء لم يقع وذلك بنشرها في المجالس والاجتماعات أو في الصحف ووسائل الإعلام، وهو أمر لا يجوز من وجوه منها: أنه فيه فضيحة وتشهير لمن وقع في الخطأ، ولأنَّ هذا يبعث على التساهل في أمور الفواحش، ويُجرِّئ الفسقة على ارتكابها، فيجب أن لا تذكر في المجالس والصحف وغيرهما، وهذا الصنيع من الكبائر، فالشيخ ـ رحمه الله ـ أورد هذا الشيء في كتاب الكبائر لأهميَّته، وقد توعَّد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بأنَّ لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، فإذا كان فاعل ذلك متوعداً بالعذاب، فإنَّ ذلك يدل على أنها كبيرة من كبائر الإثم، لأنَّ هذا التوعد من ضوابط الكبيرة.

والمطلوب على ضوء ذلك محاصرة الجريمة وسترها وعدم نشرها، فالواجب على المسلم الإقلاع عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين

....

المؤمنين وأن يستر عليهم، والأصل في المسلم البراءة، قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

باب الرِّشوة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة: ٤١]، عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ «لَعَنَ اللهُ الرَّاشي والـمُرتَشي» وصحَّحه الترمذي(١).

ولأحمد(٢) عن ثوبان مرفوعاً: لَعَنَ رسولُ الله ﷺ الرَّاشِي والـمُرْتَشيَ والرائشَ، يعني: الَّذي يَمشِي بَينَهُما. [١٦٢]

---

[١٦٢] من الكبائر الرشوة، وهي المال الذي يُدفع إلى الحكام والموظفين والمسؤولين، فالذي يدفع لهم رشوة يحصل على طلبه، والذي لا يدفع يمنع منه، والرِّشوة آفة عظيمة لا تنتشر في مجتمع من المجتمعات إلَّا أفسدته، لأنَّها تُسبب الظلم ومنع المستحقين من تحصيل حقوقهم وإعطاءها إلى الظلمة، والرِّشوة مأخوذة من الرِّشاء، وهو: الحبل الذي يستخرج به الماء من البئر، فالذي يدفع الرِّشوة يشبه الذي يدلي بالحبل إلى البئر ليحصل على الماء، والرائش هو الوسيط بين الراشي والمرتشي، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم

---

(١) في «جامعه» (١٣٣٧)، وأخرجه أحمد (٦٥٣٢)، وأبوداود (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢٣١٣).

(٢) برقم (٢٢٣٩٩).

....

بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال عن اليهود: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة: ٤٢] والسحت هو: الرِّشوة.

ففي تعاطي هذه الآفة خطر عظيم، فينبغي للمسلمين أن يتعاونوا ويتظافروا في إنكارها والتحذير منها والسعي إلى منعها، لأنها إن فشت في المجتمع ضاعت الحقوق وانتشر الظلم، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

والرّشوة أنواع فقد تكون مالاً أو منفعة، فكل شيء يبذل من أجل سَلْب حقوق الناس فهو رشوة، وسواء سميت رشوة أو هدية أو إكرامية فهي رشوة، فالواجب على المسلم أن يتنزه عن الرشوة ولا يدفعها ولا يأخذها ولا يسكت عمّن يرى أنه يتعامل بها، لأنَّ هذا منكر يجب إنكاره، فلقد قال النبي ﷺ: «مَن رَأى منكم مُنكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإنْ لَمْ يَستَطِعْ فبِلِسانِهِ فإن لم يَستَطِعْ فبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضعَفُ الإيمانِ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

باب هدايا الأمراء غلول

عن أبي حُميد، قال: استعمَلَ رَسولُ الله ﷺ رَجُلاً عَلَى الصَّدَقةِ، فلمّا قَدِمَ قال: هَذا لَكُمْ وهَذا أُهدِيَ إليّ، قال: فقال النبي ﷺ: «ما بالُ الرَّجُلِ نَستَعمِلُه على العِمالَة، مِمّا وَلاّنا الله فيقول: هَذا لَكُمْ وهَذا أُهْدِيَ إليّ! فهَلّا جلَسَ في بَيتِ أبيهِ أوْ بيت أُمِّه فينْظُرَ هل يُهْدى إلَيْهِ شَيءٌ أمْ لا؟ والّذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لا يَأخُذُ أحَدٌ مِنكُم شَيئاً بِغَيْرِ حَقِّه، إلّا لَقِيَ الله وهُوَ يَحْمِلُهُ يَومَ القِيامةِ، إن كان بَعيراً لَهُ رُغاءٌ، أو بَقَرَةً لَها خُوارٌ، أو شاةً تَيعَرُ» ثم رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رأَيْنا عُفْرَةَ إبطَيْهِ ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغتُ» قالها ثلاثاً[1]. [١٦٣]

---

[١٦٣] وهذا نوع آخر من أنواع أكل أموال الناس بالباطل وهو الغلول، والغلول: هو الأخذ من الغنيمة قِبَل قسمتها، لأن الغنيمة التي تؤخذ من الكفار في الجهاد تجمع ثم تقسم من قِبَل ولي الأمر أو مَنْ فَوَّضَ إليه توزيعها على المقاتلين، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ

---

(١) البخاري (٢٥٩٧) ومسلم (١٨٣٢).

....

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وإنما يأخذ المقاتل ما يقسمه له الوالي بعد نزع الخمس، للراجل سهم، وللفارس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان لفرسه، ولا يحق لأحد أن يُخفي شيئاً، ويَدخل في ذلك ما يؤخذ من بيت مال المسلمين، كأن يأخذ الموظفون من بيت المال دون إذن ولي الأمر، فيلحق هذا بالغلول لأنه مال مشترك.

وأما حديث أبي حميد، وفيه: أنه «ﷺ استعمل رجلاً على الصَّدقة...» إلى آخره، هذا الحديث يُشير إلى نوع آخر من أنواع الغلول وهو هدايا العمال، فإذا ولَّى وليُّ الأمر عمالاً لجباية الزكاة، فلا يجوز لهم أن يأخذوا من أصحاب الأموال شيئاً غير الزكاة التي عمدوا في جبايتها.

فقد استعمل النبي ﷺ أرسل رجلاً ليجبي الزكاة، فصار هذا الرجل يقبل الهدايا من الناس بحكم منصبه، فلما قدم على النبي ﷺ ومعه أموال الزكاة، دفعها وقال: هذا لكم وأمسك ما أهدي إليه، فغضب النبي ﷺ وقال: «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أُهدي إليّ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى له أم لا»، ثم بيّن أن من أخذ شيئاً بأنه يأتي يحمله يوم القيامة فضيحة له، لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]،

....

والإنسان لا يستطيع أن يحمل بعيراً، أو بقرةً على رقبته ولكن يكلف هذا عقوبة له وفضيحة.

باب الهدية على الشفاعة

عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً: «مَنْ شَفَعَ لأَخيهِ شَفاعةً فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْها، فَقَبِلَها، فقد أَتى باباً من أَبوابِ الرِّبا» رواه أبو داود(١).

ورواه إبراهيم الحربيُّ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: السُّحْتُ أن يَطلُبَ الرجلُ الحاجَةَ فتُقضَى له فيُهدى إليهِ فيَقْبَلَها.

وله عن مسروق عنه: مَن رَدَّ عن مسلم مَظلَمةً فأعطاه عليها قليلاً أو كثيراً فهو سُحْتٌ، قلنا: يا أبا عبد الرحمن، ما كنّا نَرى السُّحْتَ إلّا الرِّشوةَ في الحكم، قال: ذلك كُفرٌ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. [١٦٤]

---

[١٦٤] الشفاعة هي: الوساطة في تحصيل المطلوب، فهناك طالب ومطلوب منه، وشافع: وهو الواسطة بين الاثنين لقضاء حاجة الطالب من المطلوب، وسميت شفاعة من الشفع، هو ضد الوتر، لأنَّ الطالب كان وتراً في طلبه، أي: منفرداً، فجاء الشافع فانضم

---

(١) في «سننه» برقم (٣٥٤١).

....

إليه فصار شفعاً بعد أن كان وتراً في طلبه، هذا اشتقاقها من حيث اللغة، قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾[النساء: ٨٥]، فالشفاعة الحسنة فيها ثواب، قال ﷺ: «اشفَعوا تُؤْجَروا ويقضي الله على لسان رسوله ﷺ ما يشاء»[1] إلّا في الحدود، فإنَّ الشفاعة فيها لا تجوز إذا بلغت السلطان، أمّا إذا كانت الشفاعة فيها مصلحة للمشفوع له في غير الحدود، وليس فيها مضرَّة لأحد، ولا يأخذ الشافع في مقابلها شيئاً، فإنَّ فيها أجراً عظيماً - وهي شفاعة حسنة - ويحتسب الأجر فيها عند الله.

أما حديث أبي أمامة: «مَن شَفَعَ لأَخِيهِ شَفَاعَةً» يعني: شفاعة حسنة «فأهدى له» أي: المشفوع له «هدية» لأنَّ الأصل أن لا يأخذ شيئاً، لأنه يريد الأجر الأخرويّ فلا يبطله بأخذ الأجرة الدنيوية، لأنَّ هذا يعطل الشفاعة بين الناس، فإن أخذ هذه الهدية يكون قد وقع في الرِّبا، لأن الرِّبا هو الزيادة التي تؤخذ من غير مقابل، ويكون في المعاملات وغيرها، وهو أخذ بغير حق، هذا من ناحية، والأمر الآخر أن الشفاعة عمل خير، فالأصل أن تكون خالصة لله عزَّ وجل لا يقصد بها طمع الدنيا، فكيف يأخذ عليه أجراً.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى ﷺ.

....

وما روي عن إبراهيم الحربي عن عبد الله بن مسعود: «السُّحت أن يطلب الرجل الحاجة فتقضى له فيهدى إليه فيقبلها» فسمَّى الهدية على الشفاعة سُحْتاً، يعني: محرماً شديد التحريم، فالشفاعة الحسنة تكون في تحصيل مطلوبٍ مباح، أو بدفع ضرر، فلا تقبل هدية في مقابل ذلك، لأنَّ الصحابة سموا هذا سحتاً، قيل للصحابي: أليس السحت هو الرشوة في الحكم؟ فقال: ذلك كفر، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقد يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر مخرجاً من الملة، وقد يكون كفراً أصغر بحسب اعتقاد الحاكم، كأنَّ يتعمد الحكم بغير ما أنزل الله، فإنَّ استباحة الحكم بغير ما أنزل الله كُفرٌ أكبر، على تفصيل في المسألة في كتب أهل العلم، وقد بيَّن ذلك ابن كثير في «تفسيره» عند ذكر هذه الآية.

باب الغلول

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦١].

عن أبي هريرة ﷺ قال: لـمَّـا فَتَحَ اللهُ خَيبَرَ انطَلَقنا إلى الوادي ومَعَ رَسولِ الله ﷺ عَبدٌ لَهُ، يقال له: مِدْعَمٌ، فَلَمَّا نَزَلْنا الوادي رُمِيَ بِسَهْمٍ فَمات، فقُلنا: هَنيئاً له بالشهادة يا رَسولَ الله، فقال: «كَلّا، والذي نَفسِي بيَدِهِ إنَّ الشَّملَةَ التي أخَذَها يومَ خَيْبَرَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيهِ ناراً، أخَذَها مِنَ المغانم لم تُصِبْها الـمَقاسِمُ» فَفَزَعَ الناسُ، فجاءَ رَجُلٌ بِشِراكٍ أَو شِراكَيْن، فقال: يا رَسول الله، أصبتُ يومَ خَيْبَرَ فقال: «شِرَاكٌ أو شِراكانِ مِن نارٍ» أخرجاه[1]. [١٦٥]

---

[١٦٥] تحدثنا فيما مضى بأنَّ الغلول ينقسم إلى قسمين: غلول يؤخذ من المغانم، وغلول العمال الذين يأخذون الهدايا.

أما حديث أبي هريرة قال: «لـمّا فتح الله خيبر انطلقنا إلى الوادي..» إلى آخره فالمراد منه: أنَّه على المجاهد إذا أخذَ غنيمة أن يرجعها لأنها

---

(١) البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

أمانة، فيدفعها إلى المغانم لكي تُقسم، ويكون هو من ضمن الذين تقسم عليهم، ولا يقول: أنا وجدتها. وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ أثناء غزوة خيبر مشى هو وأصحابه في وادٍ، وكان مع النبي ﷺ عبد مملوك له فأصيب بسهم، فقالوا: هنيئاً له الشهادة، بناء على ظاهره، فقال النبي ﷺ: «كَلّا، والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ التي أخَذَها لَتَلْتَهِب عَلَيْهِ ناراً»، والشملة: نوع من الكساء يلبسه الإنسان إما أن يكون إزاراً ورداءً، أو قطعة واحدة، كان قد أخذها هذا العبد قبل القسمة، فأخبر النبيُّ ﷺ: أنها ستتحول إلى نارٍ يُعذب بها، فدلَّ على أنَّ الغلول يمنع من تحصيل أجر الشهادة، فإذا قتل المجاهد وكان غالاً فلا ينال أجر الشهداء، فإذا كان الغلول يمنع أجر الشهادة؟ فجاء رجل لـمّا سمع النبي ﷺ يقول ذلك بشراك أو شراكين؛ والشِّراك: سَيْر النعل الذي يكون على ظهر القدم، كان قد أخذهما، وما ظنَّ أن لهما حُكمَ الـمَغْنَم، فقال النبي ﷺ: «شِراكان مِن نارٍ» والمعنى: أن الغلول يُوجب النار وإن كان شيئاً حقيراً، فما أُخذ من الغنيمة مهما كان صغيراً أو كبيراً قبل القسمة فإنه يكون غلولاً وناراً على صاحبه.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فسبب نزول هـذه الآية أنه في بعض المغازي جمعت

....

الغنائم وأحصيت، ولكنهم فقدوا قطيفة حمراء، وقالوا: لعلَّ النبي ﷺ أخذها لأنَّ له ﷺ أن يتصرف بحكم ولايته، فنفى الله عن نبيه أن يغل، يعني: لو أن النبي ﷺ أخذها لكان غالًّا، فكيف بغيره؟! فهذا يدل على شدّة تحريم الغلول سواء كان من نبيٍّ أو من غيره إلَّا ما خُصَّ به النبي ﷺ مما أباحه الله له بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[الحشر: ٦].

باب طاعة الأمراء

وقوله الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦]. [١٦٦]

---

[١٦٦] من المقطوع به أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش منفرداً، بل لا بُدَّ له من أن يجتمع مع بني جنسه ـ فالإنسان مدني بطبعه ـ من أجل التعاون وتحقيق مصالحه الدينية والدنيوية، ولـمّا كان الأمر كذلك والناس يجتمعون في قرية أو مدينة أو أي تجمع، فإنَّه لا بدَّ أن يحصل اختلاف، واعتداء من بعضهم على بعض، كالاعتداء على النفس أو المال أو العرض، وهذه هي طبيعة البشر، فالإنسان من طبيعته الظلم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، فكان لا بُدَّ ممن يحكم بينهم حاكم يمنع الظلم ويرد الظالم وينصر المظلوم، فكان لا بد من الرجوع إلى الحاكم ليفصل بينهم ويتولى شؤونهم، وهذا الحاكم هو السلطان، وهو وَلِيُّ الأمر، ولما كانت لا تحصل إقامة السلطان إلَّا بالسمع والطاعة له، فلذلك أمر سبحانه وتعالى بالسمع والطاعة لولاة الأمور، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ

....

تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، فأمر سبحانه وتعالى بطاعة ولاة الأمور بعد طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والمصدر الذي يحتكمون إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فالمرجع كتاب الله وسنة رسوله الكريم، والـمُنَفِّذ هو السلطان، ولا يتم ذلك إلَّا بالسمع والطاعة والانقياد له، لذلك نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عن مخالفة ولاة الأمور ما داموا مستقيمين على طاعة الله ورسوله، لذلك لا تجوز معصيتهم ولا الخروج عليهم لما ينتج عن ذلك من المفاسد كاختلال الأمن، وتسلط الظلمة، واعتداء المجرمين، حتى ولو كان في بعض ولاة الأمور نقص في الدين ما لم يصل إلى الكفر فلا يُخرج عليه حتى وإن كان الوالي ظالماً، فيحرم الخروج عليه، بل يجب الصبر على هذا الظلم لما في الخروج عليهم من الشرور الكثيرة المحققة، ولذلك قال النبي ﷺ: «أُوصيكُم بتَقوى الله والسَّمعِ والطَّاعَةِ، وإن عَبْداً حَبَشِيّاً، فإنَّه مَن يَعِشْ مَنْكُم بَعدي فَسَيرى اختلافاً كثيراً، فَعَليكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشِدينَ الـمَهْدِيِّيْن فتمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ»[1]. ولذلك صارت إقامة السلطان وإقامة ولي الأمر أمراً ضرورياً وواجباً شرعياً على الأمة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

....

لا يصلحُ الناسُ فَوضَى لا سُراةَ لهم ولا سُراةَ إذا جُهّالُهم سَادوا

فلا بُدَّ من إقامة الحكم وإقامة السلطان لما يزع الله به من الشرور ويدفع به من الفتن، لذلك يقول عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه: إنَّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ـ يعني: يدفع بالسلطان ـ ما لا يدفع بالقرآن، فالقرآن يحتاج إلى من ينفذه، فمنصب السلطان منصب عظيم لا بُدَّ منه فهو جُنّة حصينة، تُتَّقى به الشرور، لذلك لا يجوز للمسلمين أن يبقوا بدون سلطان ولو لوقت قصير، ولما مات النبي ﷺ لم يشتغلوا بتجهيزه من تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه حتى نصبوا وَليَّ الأمر، وبايعوا أبا بكر خليفةً بعد رسول الله ﷺ لعلمهم أنه لا يجوز أن يمر وقت دون وجود إمام.

أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ فهو نداء من الله إلى الذين يؤمنون بالله ورسوله ﷺ لأنهم يستمعون لنداء الله، وقد أمرهم بثلاثة أوامر الأمر الأول: إطاعة الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لما في ذلك من العبودية لله والمصلحة للناس، الأمر الثاني: إطاعة الرسول ﷺ، لأنه المُبَلِّغ عن الله تعالى قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقد

....

ذكر الله ما في طاعة الرسول من الفوائد، ومنها: الهداية، والرحمة، الأمر الثالث: وهي طاعة ولاة أمور المسلمين، فإنه تجب طاعتهم ما لم تكن في معصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لهم فيها ويطاعون فيما عداها.

وقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يدخل العلماء في هذا، فمن الناحية السياسية طاعة الولاة، ومن الناحية العلمية طاعة العلماء، فلا بد أن يطاع ولاة الأمور من الأمراء والعلماء، فتتكامل بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر الحياة السعيدة وتتكامل بها مصالح البشر ومنافع الناس.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية تقيكم من عذابه، وذلك بفعل أوامره وترك نواهيه، وتقوى الله تكون بحسب الاستطاعة، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: ما تستطيع، فإن عجزت عن شيء فإنَّ الله لا يكلف العبد فوق طاقته.

وعن معاذ بن جبل ﷺ مرفوعاً: «الغَزْوُ غزوانِ، فأمَّا مَنْ ابتغَى بِهِ وَجهَ الله، وأطاع الإمامَ، وأَنفقَ الكَريمَةَ، وياسَرَ الشَّريكَ، واجْتَنَبَ الفَسادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ ونُبْهَتَه أَجْرٌ كُلُّه، وأمَّا مَن غَزا فَخراً ورِياءً وسُمعَةً، وعَصى الإمامَ، وأفسَدَ في الأرضِ، فإنَّه لَن يَرجِعَ بالكَفَافِ» رواه أبو داود والنسائي[1]. [١٦٧]

---

[١٦٧] قوله ﷺ في حديث معاذ: «الغَزْوُ غَزوان» الغزو: هو الخروج للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهو: غزو الكفار والمفسدين في الأرض لأجل إزالة ضررهم، وهذا من صلاحيات الإمام، فلا يقوم غزو ولا جهاد بدون الرجوع إلى ولي أمر، فالولي هو الذي يأمر به وينظمه، وهو الذي ينظر في أحوال المسلمين هل يستطيعون الجهاد أو لا؟

وقد قسَّم النبي ﷺ الغزو إلى قسمين: صحيح، وهو الذي تكون فيه المصالح والمقاصد العظيمة، وهو الذي يكون من أجل إعلاء كلمة الله ونشر الدين فهذا واجب، والثاني: غزو يراد به الرياء والسمعة، أو الطمع في الدنيا وهذا محرم، ولهذا سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة وحميّة والرجل يقاتل ليرى مكانه، فقال ﷺ: «مَن قاتَلَ لِتكونَ

---

(١) أبو داود (٢٥١٥)، والنسائي (٣١٨٨)، وأخرجه أحمد (٢٢٠٤٢).

. . . .

كَلِمةُ الله هِيَ العُلْيا فهو في سَبِيل الله»[1]، وما عداه فإنه في سبيل ما قصد وما أراد، ولهذا قال ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نَوى»[2]، فليست العبرة بالمظاهر ولكن العبرة بالنيّات والمقاصد، ولا يعلم النيات والمقاصد إلَّا الله تعالى، فهو الذي يعلمهما ويجازي عليهما، ومحل الشاهد من الحديث قوله: «فأمّا مَن ابتَغى به وَجهَ الله وأطاعَ الإمامَ» فلا بد من طاعة الإمام في الجهاد فإنَّ المصنف استدل للباب بهذا الحديث.

وقوله: «وأنفَقَ الكَرِيمَة»، يعني: المال الطيب لا المال الرديء الذي يَقلُّ نفعه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أو المال المحرَّم فإذا أراد الإنفاق فعليه أن ينفق من أحسن ما عنده، وكلما طابت النفقة بأن كانت من كسب طيب ومال حلال وجيدة النوع، كانت أفضل.

وقوله: «ياسَرَ الشَّريكَ» من الـمُياسرة، بمعنى المساهلة، أي: ساهَلَ الرفيق وعامله باليُسْر، فالناس يحتاجون إلى المشاركة، فينبغي لمن كان له شريك أن يكون ناصحاً لشريكه ومتفاهماً معه،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

....

ويحرص على أن لا يكون بينهما شقاق، ولذلك قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا ثالِثُ الشَّرِيكَينِ ما لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُما صاحِبَه، فإذا خانَه خَرَجتُ مِنْ بَينِهما»[1].

وقوله: «واجتنب الفساد» الفساد ضد الصلاح، والغازي أولى بهذا الأمر، يعني: أن يخلص النية، ويطيع ولي الأمر، وينفق من أحسن ما أعطاه الله وكان قصده الإصلاح لا الفساد، فإذا اتصف بهذه الصفات، فإنه يؤجر على كل أقواله سواءً كان نائماً أم مستيقظاً، وأما من كان على النقيض من ذلك، فلا غزا لوجه الله، إنما ليقال: إنه بطل، وعصى الإمام، وعمل رياءً طلباً للمدح والسمعة، رجع وقد لزمه الإثم، لأنَّ الطاعات إذا لم تقع بنية صالحة انقلبت إلى معاصٍ، والعاصي آثم.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨٣) والدارقطني (٢٩٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وعن ابن عُمر ﷺ مرفوعاً: «عَلى الـمَرْءِ الـمُسلِم السَّمعُ والطَّاعَةُ فيما أحَبَّ وكَرِهَ، إلّا أن يُؤمَرَ بِمَعصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بِمَعصِيَةٍ، فلا سَمعَ ولا طاعَةَ» أخرجاه(١). [١٦٨]

---

[١٦٨] وقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «عَلَى المرءِ الـمُسْلِم السَّمعُ والطَّاعة» يعني: لولي الأمر، سواء كان يوافق رغبته وهواه أم لا يوافق، لما في ذلك من المصلحة العظيمة، فقد يكره الإنسان شيئاً ويكون له فيه خير كثير، فليست العبرة برغبة الإنسان، وإنما العبرة بما يترتب على الأمر من المصالح والمفاسد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فالله يعلم ما فيه مصلحتكم ولو كرهتموه، ويعلم ما فيه مضرّتكم ولو أحببتموه، فاعلم أن صالحك في طاعة أمر الله ورسوله، ولو كنت تظن غير ذلك.

---

(١) البخاري (٢٩٥٥) و(٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩) واللفظ له.

باب الخروج عن الجماعة

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]. [١٦٩]

---

[١٦٩] عرفنا من الباب السابق أنه لا بدَّ من الاجتماع، وأنَّ الاجتماع لا يكون إلَّا بولي الأمر، وولاية الأمر لا تتم إلا بالسمع والطاعة، وذكرنا أنَّ معصية ولاة الأمور من كبائر الذنوب، فلما ذكر في الباب السابق وجوب السمع والطاعة لولاة الأمور وما في ذلك من المصالح ودفع المضار، ثم ذكر في هذا الباب ما في الخروج عليهم من المضار والمفاسد، وأنَّ الخروج على ولي الأمر كبيرة، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَنْ يُطِعِ الأمير فَقَد أطاعَنِي، ومَنْ يَعْصِ الأَميرَ فقد عصاني»(١)، فطاعة ولي الأمر من طاعة الرسول، وطاعة الرسول وولي الأمر هي من طاعة الله، إلَّا إذا أمر الوالي بمعصية حينها تُتجنَّب المعصية، ولا يعني هذا الخروج عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧) ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ هذا وعيد فمعنى: (نوله) أي: نتركه في غيِّه وضلاله، ﴿ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ هذا في الآخرة، ومعنى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي: يخالف الرسول، فيكون هو في شق والرسول في شق آخر، وهذا إذا تبيَّن له الهدى، ولكن إن كان جاهلاً ولا يدري فإنه يعذر، فإن عَلِمَ وشاقَّ الرسول بعد العلم، فإنه يكون حين ذلك متوعداً بالعذاب، فيتركه الله في الدنيا وغيِّه وضلاله ويعذبه في الآخرة.

وقوله: ﴿ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ هذا هو الشاهد فالمؤمنون جماعة واحدة، فإذا خرج عليهم أحد، كان متّبعاً غير سبيلهم، لأنه فارق الجماعة، واستدلَّ العلماء بهذه الآية على حجيّة الإجماع، فإذا أجمع المسلمون على أمر، فإنَّه لا يجوز الخروج على هذا الإجماع، ومن خرج عن هذا الإجماع فقد شاقَّ الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، فضلَّ ضلالاً عظيماً، والآية فيها دليل على حرمة الخروج على جماعة المسلمين.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ حبل الله هو: القرآن، وقيل: الإسلام، وقيل: الرسول والكل حق. والاعتصام

....

معناه: التمسك، لأنَّ المرء في هذه الدنيا في شرور وخوف فيلجأ إلى القرآن والإسلام وسنة الرسول فيعتصم بهما، ثم قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ نهى عن التفرق، لأنَّ التفرّق عذاب، والاجتماع رحمة وأمن واستقرار، ويُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ النهي عن الخروج عن الجماعة كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فاجتماع المسلمين وعدم تفرقهم من المصالح العظيمة التي يرجع الخير فيها إلى الجميع، فيجني المسلمون ثمرة ذلك من الفوائد الكثيرة كالأمن والاستقرار والرخاء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَن كَرِهَ مِن أمِيرِه شَيئاً فلْيَصبِرْ، فَإِنَّه مَن خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ قِيدَ شِبرٍ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً» أخرجاه(١). [١٧٠]

---

[١٧٠] وأما قوله ﷺ في حديث ابن عباس: «مَنْ كَرِهَ من أميرِه شيئاً فلْيَصْبِرِ» فهذا فيه أنَّ الأمير قد يحصل منه شيء يكره منه كمظلمة أو أخذ مال، فعليك أن تصبر ولا تشق عصا الطاعة، لأنَّ الصبر على هذا الأمر أسهل مما يحدث لو خرجت على ولي الأمر، وهذا من باب دفع أخف الضررين، وخصوص، أما العموم فإنَّ خروجك عليه فيه تفريق الكلمة، ومن ناحية الخصوص فإذا خرجت على جماعة المسلمين ومتَّ على ذلك فإنك ستموت ميتة جاهلية، لأنَّ أهل الجاهلية لا يصبرون على طاعة ولاتهم، وهم الذين لا تجمعهم راية، فمن خرج عن جماعة المسلمين شابه أهل الجاهلية.

---

(١) البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

ولمسلم(١) عن حذيفة ﷺ مرفوعاً: «سَتكونُ بَعدي أَئِمَّةٌ لا يَهتَدون بِهَدْيِي، ولا يَستَنُّونَ بِسُنَّتي، وسَيَقُومُ فيهِم رِجالٌ قُلُوبُهم قُلوبُ الشَّياطينِ في جُثمانِ إنسٍ» قال حُذيفةُ: قَلتُ: يا رسولَ الله، كَيفَ أصْنَعُ إنْ أَدْرَكْتُ ذلك؟ قال: «تَسْمَعُ وتُطِيعُ الأمير، وإنْ ضُرِبَ ظَهرُكَ، وأُخِذَ مالُكَ، فاسمَع وأَطِع». [١٧١]

---

[١٧١] أما قوله ﷺ في حديث حذيفة: «سَتكونُ بَعدي أَئِمَّةٌ لا يَهتَدونَ بهَديي» فيه الصبر على طاعة ولاة الأمور، وإن لم يكونوا مستقيمين ما لم يصلوا إلى حد الكفر، وذلك لجمع كلمة المسلمين، وهذا من ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما، وقوله: (وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) فيه دليل على وجوب السمع والطاعة للأمير ولو نالك منه ظلم، فالواجب ـ والحالة هذه ـ الصبر وعدم شق عصا الطاعة، لما يترتّب على ذلك من المفاسد، وهذا مع الولاة العصاة، فكيف مع الولاة الصالحين والعادلين، الذين لم يحصل منهم تعدٍّ على حدود الله، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن العباد إذا أساؤوا مع الله، فإنَّ الله يُسلِّط عليهم الولاة الظلمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩].

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٤٧) (٥٢).

ولهُ[1] عن عَرْفَجَة الأشجعيِّ ﷺ مرفوعاً: «مَن أَتَاكُمْ وأَمْرُكُم جَمِيعٌ على رَجُلٍ واحِدٍ، يُرِيدُ أن يَشُقَّ عَصاكُم، ويُفرِّقَ جَمَاعَتَكُم فاقتلوهُ». [١٧٢]

---

[١٧٢] وقوله ﷺ في حديث عرفجة: «مَنْ أتاكُمْ وأَمرُكم جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ واحِدٍ يريد أن يَشُقَّ عصاكم، ويفرِّق جماعتكم فاقتلوه» يدلُّ هذا الحديث أنه إذا تم الأمر وانعقدت البيعة للأمير واجتمعت الكلمة، ثم قام مَن يريد أن يشق عصا الطاعة، ويفرق الجماعة، فإنه يجب قتله لإراحة المسلمين من شرِّه، وهذا من باب دفع الشر العظيم بالشر الأقل، فيقتل وإن كان مسلماً؛ لأن قتله أقلُّ مفسدة، وهذا يدلُّ على أنه لا تجوز طاعة دعاة الضلال، الذين يتلمسون العثرات ويتتبعون زلّات وُلاة الأمور فينشرونها من أجل إثارة الفتنة، فلا بُدَّ من الحذر من هذا الصنف، فإنَّ المصلحة في كفِّ شرهم تحصل للجميع وليست لولي الأمر فحسب، قد لا يكون هؤلاء الدعاة عندهم المقدرة على الخروج، لكنهم يستخدمون التحريش والتكلم في المجالس والاجتماعات فيترتب على ذلك الفساد.

---

(١) مسلم (١٨٥٢) (٦٠).

....

فلقد كان الحجاج والياً وكان ظلمه قاسياً، ومع هذا صَبَرَ المسلمون والعلماء على ظلمه، وكان فيهم خيار التابعين، وهذا الإمام أحمد مع كل ما أصابه من الولاة كان صابراً محتسباً، وقد عفا عمَّن عذَّبه وظلمه، ولقد كان المسلمون والعلماء مع ولاة الأمر مع ما كان يحدث منهم من أخطاء، فكانوا يناصرونهم ويقاتلون معهم، ولا سيّما الإمام أحمد، فقد كان بإمكانه بإشارة منه أن يحرّض الناس على الخليفة، ولكنه صبر ولم يخرج على الإمام، فهذا منهج عظيم عند المسلمين، وهو أن لا يخرج على وليّ الأمر بسبب الظلم والفسق، والسبب ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في الخروج عليه أكثر منها في بقائه، فالواجب الحذر من دعاة الفتنة المندسين بين الناس.

باب ما جاء في الفتن

وقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ الآية [الأنفال: ٢٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا﴾ الآية [الأنعام: ٦٥]. [١٧٣]

---

[١٧٣] قوله: «باب ما جاء في الفتن» أي: ما ورد من التحذير من الفتن في الكتاب والسنة، فإنَّ الله تعالى قد حذّر من الفتن في كتابه وعلى لسان نبيِّه ﷺ، والفتن جمع فتنة، وهي الابتلاء والامتحان ومن ذلك ما يجري من بعض الولاة من التصرفات السيئة، والله سبحانه وتعالى يبتلي عباده ويمتحنهم ليتبيَّن الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فلو تُرك الناس بلا امتحان لصاروا سواء.

فمن حكمة الله تعالى أن يجري الفتن، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فلا يحصل التمايز إلّا إذا حدثت

....

الفتن، فالمؤمنون الصادقون يثبتون، والكاذبون المنافقون يسقطون، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١].

والفتنة على أنواع: فتنة شبهات، وفتنة شهوات، أما فتنة الشبهات فتكون في العقيدة كفتنة الخوارج والمعتزلة والجهمية والشيعة وغيرهم من الفرق، الذين انحرفوا في عقيدتهم بسبب الشبهات التي بدت لهم، وكذلك الشُّبه التي أضلَّت عبّاد القبور الذين عبدوا غير الله حيث طافوا بالقبور، وذبحوا لها، وطلبوا من أصحابها العون والمساعدة، وتوسلوا بهم، وسبب ذلك كله إنما هو الشبهة التي استقرت في أنفسهم بأن هؤلاء الأموات ينفعون ويضرون.

وأما فتنة الشهوات فهي أخف، وتكون في المعاصي، وهي دون الشرك كشرب الخمر والزنى، فهذه الأمور تشتهيها النفوس فتميل معها.

وقد تكون الفتن بالمصائب، فالله ـ عزَّ وجلّ ـ يبتلي عباده بالمصائب ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فهذا موقف أهل

....

الإيمان عند المصائب، الصبر والاحتساب والاستسلام لقضائه تعالى، وأما موقف ضِعاف الإيمان عند المصائب فإنهم يتسخطون ويتشكون، فتراهم يلجئون على النياحة وضرب الخدود وشق الجيوب.

وقد تكون الفتن بالأموال والأولاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] فالأموال فتنة، يعني: هل يلتزم صاحب الأموال بالكسب الحلال والإنفاق بما يُرضي الله تعالى، أو يحمله حب المال على المجازفة بالمعاملات فيقع في الرِّبا والميسر وما أشبه ذلك من البيوع المحرمة والمكاسب المحرَّمة؟ وقد تكون الفتنة بتصريفها، يعني: هل يُنفقها في طاعة الله ومرضاته ويخرج زكاتها، أم ينفقها في معصيته وسخطه فيستعين بها على الشهوات المحرمة، والملذات الهابطة. وأما الفتنة في الأولاد فتكون في تربيتهم، هل يربيهم على الطاعة والخير ويصبر على ما يصيبه من جراء ذلك من التعب أم يتركهم ويضيّعهم.

ومن الفتن كذلك فتنة الناس بعضهم ببعض، فالله يبتلي المؤمن بالمنافق والمسلم بالكافر، ويبتلي أولياءه بأعدائه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، والله يبتلي المؤمنين بالكفار من أجل أن يقوم

....

المسلمون بالدعوة والجهاد في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فالفتن كثيرة ومتنوعة، فهل يخرج منها المؤمن أم لا يخرج؟ فالخطر عظيم، ولا بُدَّ للمؤمن أن يثبت على دينه ويصبر لا سيما في آخر الزمان، الذي تكثر فيه هذه الفتن وتشتدُّ أكثر من ذي قبل بسبب غربة الدين، وقلة المناصرين، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] هذا تحذير، أي: احذروا وخذوا الوقاية من ﴿فِتْنَةً﴾ وجاءت نكرة من باب التعظيم لها، فهي قد تتعدَّى الظالم فتصيب الصالح والطالح، فإن أنكرها الناس وقاموا بالواجب نجوا منها، وإن لم ينكروها ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ولم يقاوموها ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم نحوها، فإنها تعمُّ عقوبتها الصالح والطالح، ولذلك جاء في الحديث: «إذا خَفيت الخطيئة لم تضر إلّا صاحبها، وإن ظهرت فلم تغيَّر ضَرَّتِ العامة»[1]، وذلك لأنَّ الطالح يعاقب بمعصيته، أما الصالح فيعاقب لأنه لم ينكرها.

وقوله: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

قوله: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: كالصواعق والرِّياح المدمرّة والحجارة والأعاصير المهلكة، وقوله: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الزلازل المدمرة والبراكين والقنابل المدفونة، وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ وهذا أشد، فإن الله إذا شاء سَلَّط العباد بعضهم على بعض، فصاروا شيعاً، وأحزاباً، وهذا فيه تحذير من التحزب والحث على الاجتماع وطاعة ولي الأمر، والمقصود أنَّ الله سبحانه قد يسلّط بعض الناس على بعض كما هو المشاهد اليوم حيث تحدث هذه الفتن بين الناس وما يعقبها من حروب طاحنة، لا لشيء وإنما لأن الله سلّط بعضهم على بعض، وسبب ذلك الكفر والمعاصي والاختلاف والتفرق، وجعل الناس شيعاً، أشد من العذاب الذي يرسله الله من فوق أو من تحت.

عن ابن عَمرو قال: كُنّا مَعَ النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فنَزَلْنا مَنزِلاً، فمِنّا مَنْ يُصْلِحُ خِباءَهُ، ومِنَّا مَنْ يَنتَضِلُ، ومِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ، إذ نادَى مُنادي رَسولِ الله ﷺ: الصَّلاةُ جامِعَةٌ. فاجتَمَعْنا إلى رَسولِ الله ﷺ فقال: «إنَّه لم يَكُنْ نَبِيٌّ قَبلي إلّا كان حَقّاً عليه أن يَدُلَّ أُمَّتَه عَلَى خَيرِ ما يَعلَمُه لهم، ويُنذِرَهُم شَرَّ ما يَعلَمُه لَهُم، وإنَّ أُمَّتَكُم هذِهِ جُعِلَ عافِيتُها في أوَّلِها، وسَيُصِيبُ آخِرَها بَلاءٌ وأُمورٌ تُنكِرونَها، وتَجِيءُ الفِتنَةُ فيُرَقِّقُ بَعضُها بَعضاً، وتَجِيءُ الفِتنةُ فيقول المُؤْمِنُ: هذِهِ مُهلِكَتي، ثُمَّ تَنكَشِفُ، وتَجِيءُ الفِتنَةُ فيقول المُؤْمِنُ: هذِهِ هذِهِ، فمَن أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عنِ النَّارِ ويَدخُلَ الجَنَّةَ فلَتأْتِهِ مَنِيَّتُه وهو يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ. [١٧٤]

---

[١٧٤] أما حديث ابن عمرو الطويل: «كنا مع النبيِّ في سفرٍ فنزلنا منزلاً» فهو حديثٌ عظيم، وفيه من التوجيه النبوي الشيء الكثير لا سيّما في زمن الفتن. كانوا في سفر مع النبي ﷺ فنزلوا وتفرَّق الناس في أشغالهم، وبينما هم كذلك إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: «الصلاةَ جامعةً» أي: احضروا للصلاة، فلما اجتمعوا، أخبر ﷺ ما يكون من الفتن لكي يستعدوا لها، وأخبر أن أولها يحصل في عهده ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين والصحابة والقرون

....

المفضلة وهي خير القرون كما قال: «خَيْرُكُم قَرني، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الذين يَلُونَهُم»[١]، ثم بعد هذه القرون المفضلة تحدث الشرور والفتن، ثم قال ﷺ: «حتى يرقق بعضها بعضاً» أي: يصير بعضها رقيقاً، أي: خفيفاً لعِظَم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقاً، فتكون كل فتنة أشد مِنَ التي قبلها، وإذا جاءت الفتنة، فإن المؤمن يظن أنه سيهلك فيها، ثم تنكشف، ثم تأتي أخرى «فيقول المؤمن: هذه هذه» يعني: هذه مهلكتي. ثم بيَّن ﷺ ما تدفع به هذه الفتن.

حيث حثَّ ﷺ على اجتماع الكلمة وطاعة ولي أمر المسلمين، فإنَّ الإمام يكون ستراً للرعية وحجاباً دونها يدرء الله به الفتن، فالأمة تتعاون معه، ويكون لهم دولة فيخشاهم أعداؤهم، فمن الفتن أنه إذا كان المسلمون مجتمعين على إمام واحد ثم جاء من يريد أن يفرّق أمر المسلمين ويشق العصا فإنَّ دفع شره يكون بقتله، مثل دعاة التكفير الذين يكفرون ولي الأمر والمسلمين، فهؤلاء لا بُدَّ من قتلهم لإزالة شرهم، لأنهم يسعون في هلاك المسلمين، وتشتيت جمعهم وتفريق كلمتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

....

وفي الحديث من الفوائد أنَّ الأنبياء يهتمون بأمر الأمة، فيدلونهم على الخير، ويُحذرونهم من الشر، ومن ذلك تحذيرهم من الفتن، وأعظمهم تحذيراً منها نبينا محمد ﷺ، وأنَّ هذا شأن النبيين وأتباعهم إلى يوم القيامة.

وفي قوله ﷺ: «سَيُصيب آخِرَها بلاءٌ وأمور تنكرونها» إخبار منه ﷺ بأنه سيكون هناك اختبار وامتحان وأمور تنكر مخالفةً لما كان في أولها من الخير، وبأنه ستشتد الفتن في آخر الزمان، فتكون كلّ واحدة أشدّ من التي قبلها، ثم بيَّن ما تحصل به السلامة من هذه الفتن فقال: «فمن أَحَبَّ أَن يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ»، وهذا كقول الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: «يُزَحزَح» يدل أن الابتعاد عن النار أمر يحتاج إلى جهد، فهناك مصاعب وفتن تحصل في الدنيا قل من ينجو منها وهناك أهوال تحصل يوم القيامة تُشَيِّبُ الرؤوس حتى إنَّ الأنبياء يقولون: ربّ سلم رَبِّ سَلِّم، ومن هذه الأهوال: الوقوف في المحشر، ووزْنِ الأعمال، وتطاير الصحف، والمرور على الصراط لينتهيَ الأمر بالمسلم لجنَّة أو نار. والصراط: هو جسر على متن جهنم أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف، يمر الناس عليه على قد،

....

أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يعدو عَدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، والنبيّون عليهم الصلاة والسلام على جَنبتَي الصراط يقولون: اللهم «سَلِّم سَلِّم» فمن نجا من هذه الأهوال زحزح عن النار ونجا منها أدخل الجنة، وأما من لم يَنْجُ وسقط، فقد خاب وخسر، وكانت جهنم مصيراً له، لأنه ليس بعد هذه الدار إلَّا الجنة أو النار، فمن أَحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فليأتِ يوم القيامة بإيمان بالله ورسوله، وهذا لا يكون إلَّا بمعرفة وعلم، أي: معرفة الإيمان والإسلام والثبات عليهما.

ولْيَأْتِ للنَّاسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤتَى إِلَيْه، ومَن بايعَ إماماً فأَعطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وثَمَرَةَ قَلبِه، فَلْيُطِعْهُ إن استَطاعَ، فَإِن جاء آخَرُ يُنازِعُه، فاضرِبوا عُنُقَ الآخَرِ». رواه مسلم[1]. [١٧٥]

---

[١٧٥] قوله: «وليَأتِ للنّاسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤتى إليه»، أي: يعامل الناس مثل ما يحب أن يعاملوه، فيكره الشر للناس كما يكرهه لنفسه، وفي الحديث: «لا يُؤمنُ أَحَدُكُم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنَفْسِه»[2]، أما الذي يريد الشر للنّاس، واحتكار الخير لنفسه، فهو متوعد بعدم دخول الجنة؛ لأنَّ الله شرط شروطاً لدخولها: هي الإيمان بالله ورسوله والموت على ذلك، ففي الحديث الدعوة والحثُّ على الالتزام بطاعة الله ورسوله، واجتناب الفتن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمَن التزم بذلك خَتَم اللهُ له بالصلاح، وكان من أهل الجنة.

وقوله ﷺ: «مَنْ بايَعَ إماماً فَأَعطاهُ صَفقَةَ يَدِهِ وثَمرةَ قلبه فليُطعه إن استطاع» وهذا من أسباب النجاة من الفتن وهو لزوم البيعة للإمام، ولا تكون البيعة من كل الناس بما فيهم الصغار والكبار والنساء وإنما تكون لأهل الحل والعقد من العلماء والأمراء، ومَن

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

....

عَدَاهم تبعاً لهم، لأنهم ينوبون عن الناس بذلك، ولا يكون هذا الأمر بالانتخابات كما هو حاصل في الدول الكافرة، وإنما يكون بالبيعة الشرعية ـ فمن بايع ثم نكث فإنما ينكث على نفسه، ولهذا قال ﷺ: «فإن جاء آخر يُنازعه فاضربوا عنق الآخر» أي: فإن خرج عليه أحد فلا بُدَّ من صَدِّه ومنعه ولو بقتله، حتى يستقيم الأمر، كما قال الله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. فتجب مقاومة أصحاب الأفكار الخبيثة ودعاة الفتنة الذين يريدون تفريق كلمة المسلمين ويقومون بالعصيان المسلح أو يبثون الأفكار التي تفرِّق بين المسلمين بدعوى الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة، فيسمون عملهم الخبيث جهاد في سبيل الله وطلباً للشهادة ليغروا بذلك شباب المسلمين وضعاف الأنفس والعقول.

وله[1] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «بادِروا بالأعمال فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِمِ، يُصبحُ الرَّجُلُ مؤمناً ويُمسي كافِراً، ويُمسي مُؤمِناً ويُصبِحُ كافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ من الدُّنيا». [١٧٦]

---

[١٧٦] أما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم» فيه الحث على المبادرة، أي: المسارعة وانتهاز الفرص بالإكثار من الأعمال الصالحة والطاعات وعدم تضييعها، وترك التكاسل والخمول قبل مجيء الفتن، فإنَّ عُمُر الإنسان أيام معدودة، فما دمت معافى في بدنك وفي أمن واستقرار، فسارع إلى الاشتغال بالطاعات، لأنه إذا جاءت الفتن شغلت عن الطاعات، ولهذا قال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً» أي: اسبقوا بالأعمال قبل حدوث هذه الفتن، فإن الإنسان إذا كان في أمن واستقرار عمل، فإذا جاءت الفتن ألهته عن العمل وربما دخل فيها، وقد وصفها ﷺ أنها «كقطع الليل المظلم» وهذا يعني أنها في شدَّتها وظلمتها وعدم تبيُّن أمرها كظلام الليل، يُلبسُ على المرء طريقه، فلا يبصر الإنسانُ في الفتنة الطريق الصحيح، سيَّما وأنَّ أهل الشرور يتفننون في إدارة هذه الشرور ويُلْبِسون على الناس، وقد أخبر الصادق المصدوق أنها فتن وليست فتنة واحدة، والفتن إذا أقبلت لا يعرفها

---

(١) في «صحيحه» برقم (١١٨).

....

إلَّا العلماء، وإذا أدبرت عرفها كل الناس، فكثير من الناس يقبلونها ويغترون بها، ولذلك فإنَّ المسلم يتخطفه الخطر «يصبح مؤمناً ويمسي كافراً» والسبب أنه «يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا» إما بقبول هدية أو وظيفية أو أي عَرْض من عَرَض هذه الدنيا الزائل، فيكون ذلك ثمناً لتركه دينه.

وله[1] عن مَعقِل بن يَسارٍ ﷺ مرفوعاً: «العِبادَةُ في الهَرْجِ كهِجْرةٍ إليَّ». [١٧٧]

---

[١٧٧] وقوله ﷺ في حديث معقل: «العِبَادَةُ في الهَرْج كهِجرَةٍ إليَّ» الهَرْج: القتل الذي يحصل في الفتن، فإنَّ كثيراً من الناس يشتغلون في سفك الدماء، والنبي ﷺ قد حثَّ على العبادة في وقت الهرج، لكثرة ثوابها ولهذا قال ﷺ إنها: «كهجرة إليَّ»، والهجرة معلومٌ فضلها، فالذي ينشغل بالعبادة في وقت الهرج ويبتعد عن الفتن يكون كمهاجر للنبي ﷺ، فوجه الشبه أنَّ المهاجر ترك وطنه وخرج فاراً بدينه إلى النبي ﷺ، وكذلك المسلم الذي عاصر الفتنة فتركها وأقبل على عبادة ربه، فذاك هجر أرض الشرك والآخر هجر الفتنة، وقد قال النبي ﷺ: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المسلِمون مِن لِسانه ويَدِه، والمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى الله عنه»[2] يعني: ترك ما نهى الله عنه، فهذا يُعتبر مهاجراً، لأنه هجر وترك ما نهى الله عنه.

وفي هذا الحديث من الفوائد: الحثُّ على اعتزال الفتن، هذا لا يعني أن لا يُحذِّر النَّاس منها، بل يتركها في نفسه وينهى عنها كما يحب لنفسه عدم الوقوع فيها.

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٩٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم مختصراً (٤١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ولهما[١] عن حذيفة أن عمر قال: أيُّكُم يحفظُ قَولَ النَّبِيِّ ﷺ في الفِتَنِ؟ فقلتُ: أنا، فقَال: هاتِ، فإنَّكَ عَلَيْهِ لَجَريءٌ، فقلت: سَمعتُه يقول: «فِتنةُ الرَّجُلِ فِي أهلِه وَمالِه وَوَلَدِه وجارِه، تُكَفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدَقةُ والأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ» فقال: ليس هذا أُريدُ، إنَّما أُريد التي تَموجُ كَمَوْجِ البَحْرِ، فقلت: ما لَكَ وَلَهَا يا أميرَ المُؤمنين؟ إنَّ بَينَك وبَينَها باباً مُغْلَقاً، فقال: يُفْتَحُ البابُ أم يُكسَرُ؟ قلتُ: بَل يُكسَرُ، قال: ذلك أجْدَرُ أن لا يُغْلَقَ، فقلتُ لحذيفة: أَكانَ عُمرُ يَعْلَمُ مَنِ البابُ؟ قال: نَعَم، كما أنَّ دونَ غَدٍ اللَّيْلَةَ، إنِّي حَدَّثْتُه حَدِيثاً لَيسَ بالأغاليطِ، فَهِبْنا أن نسأَلَه مَنِ البابُ، قُلنا لِمَسْروقٍ: اسألْهُ، فسَأَلَهُ فقال: عُمَرُ. [١٧٨]

[١٧٨] أما قول عمر: «أيّكم يَحفَظُ قَولَ النَّبيِّ ﷺ في الفِتَن؟»، وكان عمر قد سأل الحضور عنده عن الفتن، فتقدم حذيفة للإجابة، لأنه كان خبيراً بها، فقال له عمر: «هاتِ فإنك عليه لجريءٌ» فأخبره أنَّ الفتن على قسمين: ـ فتن صغيرة تكفرها العبادات، وفتن غليظة، والصغيرة: كفتنة الإنسان في زوجه إذا كان له أكثر

(١) البخاري (٥٢٥)، ومسلم (١٤٤).

....

من زوجةٍ، بأن يميل إلى واحدة أكثر من الأخريات، وكذلك في ولده، وفي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥]، فقد ينشغل الإنسان بماله وولده عن ذكر الله تعالى، لكنَّ هذه الفتن تكفِّرها الصلاة والعبادات كما ذكر حذيفة ﷺ في هذا الحديث، وعن هذا النوع من الفتن قال عمر لحذيفة: «ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر» إنما قصد عمر الفتنة التي يحصل بها سفك الدماء وشقّ عصا الطاعة، لأن الناس كانوا بعد النبي ﷺ مجتمعين في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال له حذيفة: «ما لك ولها يا أمير المؤمنين؟» أي: الفتنة الغليظة «إنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال عمر: يُفتح الباب أم يكسر؟ فقال حذيفة: بل يكسر» والصحابة لا يعلمون ماذا قصد حذيفة وعمر، في حين أنَّ كلاً من عمر وحذيفة يعرفان معنى الباب، فلذلك استحيا الصحابة أن يسألوا حذيفة في حينها، لكنهم سألوه بعد ذلك: فذكر لهم بأن المراد بالباب: عمر، وأنَّ كَسْره: قتله، فَقُتِلَ عمرُ ﷺ على يد أبي لؤلؤة المجوسي ـ عليه اللعنة ـ وهو يصلي، فبايع الناس عثمان ﷺ ولم تحصل فتن في أول خلافته، ثم جاء يهوديّ خبيث وهو ابن السَّوداء ـ عبد الله بن سبأ ـ وسمي ابن السَّوداء، لأنَّ أمه كانت

....

حبشية، فأظهر هذا الخبيث الإسلام وجعل يسب عثمان في المجالس، فاجتمع عليه من استهوتهم الفتنة، والكلام في ولي الأمر، وهذا شأن بعض الناس الذين يستبيحون الكلام في ولاة الأمور، ثم انتُبِه لهذا الخبيث فهرب إلى مصر، واجتمع عليه بعض الناس هناك، وكوَّنوا لهم طائفة خبيثة وانتهى الأمر بقتل عثمان ﷺ، وكانت الفتنة الأولى بقتل عمر ﷺ ثم الثانية بقتل عثمان ﷺ، فبقتله انفتح باب فتنة على المسلمين، وحصلت الحروب، وكان مشعل هذه الحروب والفتن هو ابن سبأ الذي راح يُذكي نار الفتنة، وتتابع قتل الخلفاء فقُتِلَ الخليفة الرابع علي ﷺ، ثم إنَّ الله جَمع المسلمين على معاوية ﷺ، وكان قد تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما، فتمَّ الأمر لمعاوية واجتمع المسلمون عليه، وسُمِّي ذلك العام بعام الجماعة، وانسدَّ باب عظيم من الفتن بفضل الله ثم بحكمة وحنكة معاوية ﷺ وحسن إدارته للأمور، وتحقَّقت نبوءة النبي ﷺ في قوله في الحسن ﷺ: «إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بينَ فئتين عظيمتين من المسلمين»(١)، فاستتب الأمن وانسدَّ الباب على دعاة الفتنة، وشتتهم الله ولم يبق

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة ﷺ.

....

من قتلة عثمان أحد لم يقتل، فعاقَبهم الله بذنوبهم، هذا مجمل الحديث عن الفتن التي حصلت في عصر الصحابة.

ولمسلم⁽¹⁾ عن أبي بَكْرَةَ ﷺ مرفوعاً: «إنَّها سَتكونُ فِتَنٌ، ألا ثُمَّ تَكون فِتنةٌ، القاعِدُ فيها خَيْرٌ من الماشي، والماشي فيها خَيْرٌ من الساعي إليها، ألا فإذا نَزَلَت أو وَقَعَتْ، فمَن كانَ له إبْلٌ فليَلْحَقْ بإبِلِهِ، ومَن كانَ له غَنَمٌ فلْيَلْحَقْ بغَنَمِه، ومَن كَانَ له أرضٌ فلْيَلْحَق بأَرْضِهِ». فقال رَجُلٌ: يا رَسولَ الله، أَرَأَيْت مَن لَم يَكُنْ له إبلٌ ولا غَنَمٌ ولا أرْضٌ؟ قال: «يَعمِد إلى سَيفِه فيَدُقُّ على حَدِّه بحَجَرٍ ثُمَّ لِيَنْجُ إنِ استَطاعَ النَّجاةَ» ثم قال: «ألا هَلْ بَلَّغتُ؟» قالَها ثَلاثاً، ثم قال رَجُلٌ: يا رَسولَ الله، أَرَأَيْتَ إن أُكرهْتُ حَتَّى يُنطَلَقَ بي إلى أَحَدِ الصَّفَّينِ، فَيَضْرِبَني رَجُلٌ بسَيفِه، أو يَجِيءَ سَهمٌ فيَقْتُلَني؟ قال: «يَبوءُ بِإثمِكَ وإثمِه فيكونُ مِن أصحابِ النَّارِ». [١٧٩]

---

[١٧٩] قوله ﷺ في حديث أبي بكرة: «إنَّها سَتكون فتنٌ، القاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ الماشي والماشي فيها خيرٌ من القاعد» هذا الحديث مفاده التحذير من عِظَم هذه الفتن، والحث على تجنُّبها والهرب منها، وأنَّ شرَّها يكون على حسب التعلق بها، والمقصود الفتن العامة العظيمة المهلكة كاختلال الأمن وضياع الولاية، وشق عصا

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٨٨٧).

....

الطاعة، فهذه الأمور الخطيرة لا بُدَّ أن يتأنى المرء إزاءها، وأنَّ لا يتعلَّق بها ولا يستشرفها ولا يدخل فيها، ولهذا قال ﷺ: «القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي» ففي هذه الحالة ينبغي للمسلم أن يتجنب الفتن، وينشغل عنها، ولهذا حثَّ ﷺ المسلم على اعتزال هذه الفتن، بدعوته لصاحب الإبل أن يلحق بإبله، وإن كان له غنم لحق بها، وإن كان له أرض اشتغل بها، وأمره ﷺ هذا لأجل أن ينجو المسلم بنفسه، ويبتعد عن الدخول والمشاركة في الفتن، ثم إنَّ الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبيّ عن حال الذي ليس عنده أرض أو إبل؟ قال: « يَعْمد إلى سيفه فيَدُقُّ على حدِّه بحجرٍ ثم لِيَنج إن استطاع النَّجاة»، ولذلك لما حصلت وقعة الحرّة جمع ابن عمر أهله ومواليه ومنعهم من المشاركة فيها، وكذلك فعل سعد ابن أبي وقاص، فقد اعتزل الفتن وجلس في قصره بالعقيق.

فلما سأله الصحابي أنه في حال إنْ ذُهب به قهراً ثم أُصيب بطعنة أو رمية، قال: «يَبُوءُ بإثمِهِ وإثمِكَ، ويكون من أصحاب النار» كما قال تعالى في ابني آدم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٩]. فإذا كانت

....

الفتنة عامة فإنَّ الإنسان يكف يده عن المشاركة فيها ولا يدافع عن نفسه.

ومن فوائد هذا الحديث: بيان عِظَم حرمة دم المسلم، وفيه التحذير من الفتنة والحث على اجتناب الدخول فيها، وأن شرَّها يكون بحسب التعلُّق بها.

ولأبي داود[1] عن سعد ﷺ قلت: يا رَسولَ الله، أَرَأَيْتَ إن دَخَلَ عَلَيَّ بيتي، وبَسَطَ يَدَهُ لِيَقْتُلَني، فقال: «كُنْ كخَيْرِ ابنَي آدمَ» وتَلا هذه الآية: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الآية [المائدة: ٢٨][١٨٠]

---

[١٨٠] قول سعد: «يا رَسولَ الله، أَرَأَيْتَ إن دَخَلَ بَيتي وبَسَطَ يده لِيَقتُلَني؟» معناه كَفٌّ يد المسلم عن قَتل أخيه، فإذا جاء مسلم ودخل عليك بيتك فخيرٌ لك أن تكفَّ يدك عن قتله، ولكن إن قتلته دفعاً للصائل فهذا قد أذن فيه الشارع، لكن إن كففت يدك عنه، وأدى ذلك إلى قتلك، فهو خير لك، وهذا في الفتن العامة بين المسلمين، أما في غير الفتن العامة فالمسلم يدافع عن نفسه وماله وحرمته.

فالحاصل أنَّ على المسلمين أن يحاصروا الفتن ويضيقوا نطاقها ما استطاعوا، لأنهم إن تركوها خمدت ونامت، وأتت على الأخضر واليابس، ولذلك لما دخل المجرمون على عثمان ﷺ كفَّ يده ويد غيره، أراد بذلك أن يُقلل من الفتنة.

---

(١) في «سننه» برقم (٤٢٥٧). وفي الأصل: ولابن ماجه، والصواب ما أثبت، ولعلَّه خطأ من الناسخ.

باب تعظيم قتل النفس التي حرَّم الله إلّا بالحق [١٨١]

[١٨١] هذا الباب في بيان حُرمة قتل النفس التي حرَّم الله، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فقد نهى الله سبحانه في هذه الآية عن قتل النفس التي حرَّم الله، وهي نفس المؤمن، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، ويدخل في هذا نفس المعاهد من الكفار، فإنه يحرم قتله، ولهذا قال الله سبحانه مبيِّناً أنه ما ينبغي لمؤمن أن يُقْدِمَ على ذلك إلّا عن طريق الخطأ، وبيَّن أنه إن كان المقتول مؤمناً ولكن أولياءه من الكفّار أهل حرب فلا دية لهم وأنه على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فكونه من الكفار لا تجب فيه دية، وإنما تجب فيه كفارة لأنه نفس مؤمنة، ثم قال ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا

....

حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢]، أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمَّةٍ أَو هُدنةٍ فلهم دية قتيلهم، والكفارة كما في قتل المؤمن، فهذا يدل على تحريم قتل المعاهدين من الكفار، وأن دماءهم محرمة كالمسلمين، فقتل الخطأ فيه الدية والكفارة، وقتل العبد فيه الوعيد كما في الحديث: قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعاهداً لَم يَرَح رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رائِحَتَها توجَد مِن مَسِيرَةِ أربَعين عاماً» رواه البخاري[1].

فالذين يقتلون المعاهدين والمستأمنين بالتفجيرات والقصف بالأسلحة بحجة أنهم كفار ويعتبرون هذا من الجهاد في سبيل الله هؤلاء قتلوا الأنفس التي حرَّم الله بغير حق وفعلهم هذا من الخيانة ونقض العهود وليست من الجهاد في سبيل الله، ويحق عليهم الوعيد الذي جاء في الحديث: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة».

---

(١) في «صحيحه» برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

عن سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ قال: يا أَهلَ العِراقِ ما أَسأَلَكُم عَنِ الصَّغِيرةِ وأَركَبَكُم للكبيرة؟! سَمِعْتُ أَبي يقول: سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الفِتنَةَ تَجيءُ مِن ها هُنا ـ وأَوْمَأَ بِيَدِه نَحوَ المَشْرِقِ ـ من حَيثُ يَطلُعُ قَرنُ الشَّيطَانِ، وأنتُم يَضْرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ، وإنَّما قَتَلَ موسى الذي قَتلَ مِن آلِ فِرعونَ خَطأً، فَقال الله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾» [طه: ٤٠]. رواه مسلم[1]. [١٨٢]

---

[١٨٢] سالم بن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهم جميعاً، الذي سأله أهل العراق عن دم البعوض: أهو نجس؟ فقال: يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، تقتلون الحسين وتسألون عن دم البعوض، سمعت أبي ـ يعني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفتنة من هاهنا» ـ يعني: تخرج من العراق، لأنَّ مشرق المدينة هو العراق.

وقوله: «من حيث يطلع قرن الشيطان» أي من مشرق المدينة وهو العراق، فأنكر عليهم ابن عمر سؤالهم عن دم البعوضة وتشددهم في النجاسة وتساهلهم في سفك الدماء.

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٩٠٥) (٥٠).

....

وقوله: «أشار بيده إلى المشرق» هذا ينطبق على العراق لأنه يقع شرق المدينة، والعراق نشأت منه الفتن كفتنة الخوارج، وفيه كانت المعارك التي حصلت بين المسلمين.

وقوله: «إنما قَتَلَ موسى الذي قَتَلَ من آلِ فِرعَونَ خَطَأً» في القرآن، فهو كان قد نشأ في بيت فرعون، ولقد قصَّ الله علينا قصة موسى في عدة مواضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

وقصة موسى يطول سردها، وهي موجودة في كتب التفاسير، ولكن الذي يَهمُّنا هنا بيان أن قتل النفس بغير حق ممنوع، لأنه يترتب على القتل محاذير مثل الهم والغم، والخوف وهذا الذي دعا موسى لأنْ يهرب من مصر إلى أرض مدين، وهو لم يكن قد تعمد القتل، ولكنَّ قتله إنما كان خطأً، فكيف حال من قتل متعمداً؟!

ثم قال الله تعالى لموسى ممتناً عليه بعد أن كلَّمه برسالته: ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]، يعني: همَّ القتل، وهيَّأنا لك الطريق، ووفقناك لذاك الرجل الصالح الذي استقبلك وزوّجك إحدى ابنتيه.

ولهما[1] عن المقداد ﷺ قلت: يا رسول الله، أرأَيتَ إنْ التقيت أنا ورَجلٌ مِنَ الكُفَّار، فاقتَتَلنا، فضَرَب إحدَى يَديَّ بالسَّيفِ فقَطَعَها، ثُمَّ لاذَ مِنِّي بِشَجرَةٍ فقال: أَسلَمتُ لله، أَأَقتُلُهُ؟ قال: «لا تَقتُلْهُ، فإنَّكَ إن قَتلْتَه، فَإنَّه بمَنزِلَتِكَ قَبْلَ أن تَقتُلَه، وأنتَ بمَنْزِلَتِه قَبلَ أن يَقولَ كَلِمَته التي قالَها». [١٨٣]

---

[١٨٣] قول المقداد في ثاني أحاديث الباب: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ إن لَقِيَني رَجُلٌ مِنَ الكُفَّارِ فاقتَتَلْنا» يدلُّ على تحريم قتل المسلم، حتى وإن كان إسلامه حديثاً، فهو يسأل النبي ﷺ: أنه لو التقى مع الكافر في الجهاد وقطع الكافر يد المسلم، ثم أراد المسلم أن ينتقم منه فقال الكافر: أسلمت، هل يجوز أن يقتله؟ فقال له النبي ﷺ: «لا تقتله»، لأنه أصبح مسلماً وأصبح دمه حراماً، ولهذا قال له النبيُّ ﷺ: «فإنَّكَ إن قتلته فإنَّه بمنزلتك» يعني صار مُصانَ الدم بالإسلام مثلك، «وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها» أي: أنت بعد قتلك له تكون غير معصوم الدم ولا محرَّم القتل قصاصاً، وليس معنى «بمنزلته» أنك تكفر، فمن دخل في الإسلام فإنه يُكَفُّ عنه، فإن ثبت على إسلامه حرم دمه وماله، وإن دخل، وظهر منه ما يخالف الإسلام، حكم عليه بالردّة.

---

(١) البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

ولهما(١) عن أُسامةَ بن زيد رضي الله عنه قال: بَعثَنا رَسولُ الله ﷺ إلى الـحُرقات من جُهَيْنَةَ، فصَبَّحْنا القَومَ فهَزَمْناهم، فلَحِقتُ أنا ورَجُلٌ مِن الأنصارِ رَجُلاً مِنهُم، فلَمَّا غَشِيناه قال: لَا إله إلّا اللهُ، فكَفَّ عَنه الأنصارِيُّ فطَعَنتُه بِرُمحي، فقَتَلتُه، فلَمَّا قَدِمنا بَلَغَ ذلِكَ رَسولَ الله ﷺ، فقال: «يا أُسامةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعدَما قالَ: لا إلهَ إلّا الله؟» قُلت: يا رَسولَ الله، إنَّما قالَها مُتَعوِّذاً، فقال: «أَقَتَلْتَهُ بعدَما قالَ: لا إله إلّا الله؟» قال: فما زالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حَتَّى تَـمَنَّيْتُ أَنِّي لَم أَكُن أَسلَمْتُ قَبلَ ذلِكَ اليَوْمِ.

وفي رواية(٢) أنه قال: «أفَلاَ شَقَقْتَ عَن قَلْبِه».

ولمسلم(٣) أنه قال: يا رَسولَ الله، استَغْفِر لي، فقال: «كَيفَ تَصنَعُ بلا إله إلّا الله إذا جاءَت يَومَ القِيامَةِ». [١٨٤]

---

[١٨٤] قوله: «ولهما عن أسامة بن زيد»: فيه أنَّ أسامة قَتَلَ هذا الرجل بعد أن قال: لا إله إلَّا الله ظنّاً منه أنه إنما قالها ليَسلَمَ من القتل،

---

(١) البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٢) عند مسلم (٩٦).

(٣) في «صحيحه» برقم (٩٧).

....

فأنكر عليه النبيُّ ﷺ وقال له: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلَّا الله؟!»، قالها ثلاثاً، فقال أُسامة: إنها قالها تعوُّذاً، فقال له النبي ﷺ: «هلَّا شَقَقتَ عَن قَلبِه؟» فهذا إنكار من الرسول ﷺ لقتل من أظهر الإسلام، لأنَّ الله تعالى هو الذي يتولَّى السرائر ونحن ليس لنا إلّا الظاهر، إلّا إن تَبيَّنَ لنا غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [النساء: ٩٤]، فالواجب التثبت في هذه الحالات وعدم التسرع، فالنيات لا يعلمها إلَّا الله، فمن أسلم أَخذنا بظاهر حاله، إلَّا إذا أظهر منه ردة فحينها يقتل مرتداً.

وللبخاري[١] عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «لن يَزالُ الـمُؤمِنُ في فُسْحَةٍ من دِينِه ما لَمْ يُصِبْ دَماً حَراماً». [١٨٥]

---

[١٨٥] قوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «لا يَزالُ الـمُؤمنُ في فُسْحَةٍ من دينِهِ ما لَمْ يُصِبْ دَماً حَراماً» فيه أنَّ المسلم في سلامة وعافية بسبب دينه ما لم يصب دماً حراماً، فيقتل نفساً حرَّم الله قتلها، فإنه إن فعل ذلك وقع في الابتلاء والامتحان، ويكون هو الذي أوقع نفسه في الإثم، وفيه النهي عن سفك الدم الحرام.

---

(١) في «صحيحه» برقم (٦٨٦٢).

باب تكثير السواد في الفتن

عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاحَ فليسَ مِنّا، ومَن غَشَّنا فليسَ مِنّا» رواه مسلم[١]. [١٨٦]

---

[١٨٦] قوله: «باب تكثير السواد في الفتن» المراد: أنه لا يجوز للمسلم أن يدخل مع أهل الفتن ويُكثِّر عددهم.

وأما قوله: «مَن حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاح» فيه أنه يجب على المسلم أن يلقي سلاحه في الفتن.

وقوله: «فليسَ مِنّا» براءة من النبي ﷺ مِمَّنْ فَعَلَ ذلك، وهو من باب الزجر والوعيد ليكفَّ الإنسان عن الفتن، وأنه ليس مـمَّن اهتدى بهَدْينا واقتدى بعملنا وعلمنا وحُسن طريقنا. فلا يجوز حمل السلاح على المسلمين وفي الحديث: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار).

وقوله: «مَن غَشَّنا فليسَ مِنّا»: لأنَّ الدين النصيحة وهي لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، وعامتهم، فالأصل في المسلم أن يكون طاهراً نقيّاً سليم الظاهر والباطن، والغش كبيرة من كبائر الذنوب،

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٠١).

....

وهذا في جميع أنواع المعاملات فيحرم الغش فيها كتدليس العيوب وكتمانها، وخلط الجيد بالرديء، والمكر والخديعة، ولهذا دعا الإسلام إلى التناصح بين الأفراد والجماعات، والنصيحة تكون في المعاملة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي البخاري(١) عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطِعَ عَلَى أَهلِ المَدِينةِ بَعْثٌ، فاكتُتِبْتُ فيهِ، فَلَقِيْتُ عِكْرِمةَ فأَخبَرْتُه، فنَهاني أَشَدَّ النَّهي وقال: أخبَرَني عبدُ الله بنُ عبّاسٍ: أنَّ أُناساً مِنَ المُسلمين كانوا مَعَ المُشرِكين يُكَثِّرون سَوادَ المُشركين على رسول الله ﷺ فيأتي السَّهْمُ يُرمَى بهِ فيصيبُ أَحَدَهُم فيَقتُلُه أو يُضرَبُ فيُقتَل فأنزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء: ٩٧].

وقوله ﷺ: «ولكن من رَضِيَ وتابَعَ»(٢). [١٨٧]

---

[١٨٧] قوله: «قُطِعَ عَلَى أهلِ المَدِينةِ بَعْثٌ فاكتُتِبْتُ» أي فُرض على أهل المدينة أن يُجهزوا جيشاً في الفتنة التي نشبت بين أهل الشام وأهل المدينة، فاكتتب محمد بن عبد الرحمن الأسود في هذا الجيش فنصحه عكرمة بالتخلي عن ذلك ابتعاداً عن الفتنة، وذكر عكرمة تفسير ابن عباس لهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا

---

(١) في «صحيحه» برقم (٤٥٩٦).

(٢) مسلم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها مطولاً.

....

ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩]، هذه الآيات نزلت في أناس من المسلمين تركوا الهجرة وهم يقدرون عليها، وبقوا في مكة، فلما حصلت وقعة بدر خرج المشركون بهؤلاء المسلمين وأجبروهم على القتال معهم ضد المسلمين، فكان من المسلمين من قُتل في ذلك، فأنزل الله هذه الآية التي يؤخذ منها أنَّه لا يجوز تكثير سواد المشركين على المسلمين، ويستنبط منها أيضاً أنه لا يجوز تكثير أهل الفتنة.

وقوله: «ولكن من رضي وتابع» أي رضي بفعل الولاة المخالف للشرع وتابعهم عليه، فهؤلاء ينكر عليهم باللسان فقط براءة للذمة ومن لم يقدر على الإنكار باللسان فإنه ينكر بقلبه ويعتزل الفتن وما عند الولاة من المخالفة للشرع ولا يخرج عليهم بل يلزم السمع والطاعة في غير ما يخالف الشرع.

باب ذكر العقوق

وقول الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤]. [١٨٨]

---

[١٨٨] من الكبائر بعد الشرك عقوق الوالدين، والعقوق من العَقّ: وهو القطع، فإذا قاطع المرء والديه فقد عقَّهما، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، وذلك لأنَّ الله عزَّ وجل ذكر حق عبوديته، ثم أتبعها بذكر حق الوالدين فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦] وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالله عزَّ وجل ذكر حقه: وهو عبادته وحده لا شريك له، ثم ذكر حق الوالدين، فمن عقَّ والديه فقد أتى كبيرة من الكبائر.

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال الله عزَّ وجل: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، فالله تعالى أمر بشكره على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، فهو المتفضل بها على عباده، ثم أمر بشكر الوالدين لأنهما أعظم الناس إحساناً على الولد بعد الله سبحانه وتعالى، فحقهم يأتي بعد حق الله تعالى، وعقوقهما كبيرة تأتي

....

بعد الشرك بالله من حيث عظم الذنب، قال سبحانه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والإحسان يكون بالقول والفعل، ثم ذكر العلة بعد ذلك، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، لا شكَّ أن حمل الجنين فيه مشقة وآلام ومقاساة تحصل للحامل، فينعكس ذلك على نشاطها وحياتها، ثم لا تنسَ آلام الوضع الذي فيه من الخطورة التي قد تُفضي إلى الموت، ثم الرضاعة ومعاناتها في ذلك، قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[البقرة: ٢٣٣] فالأم تقاسي في الحمل والوضع والرضاعة والقيام بتربية الطفل بدنياً ومعنوياً فلذلك صار حقُها على الولد عظيماً كما سيأتي.

عن ابن عمرو[1] رضي الله عنهما: أَقبَلَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: «أُبايِعُكَ عَلَى الهِجرَةِ والجِهادِ، أَبْتَغي الأَجرَ مِنَ الله، فقال: «هَلْ مِن والدِيكَ أحَدٌ حَيٌّ؟» قال: نَعَم، بَل كِلاهُما، قال: «فتَبْتَغي الأجرَ مِنَ الله تعالى؟» قال: نعم فقال: «فارجِعْ إلى والِدَيكَ فأَحسِن صُحْبَتَهُما». أخرجاه واللفظ لمسلم[2].

[١٨٩]

---

[١٨٩] قول الرجل: «أُبايِعُكَ على الهِجْرَةِ والجِهاد»، فسأله النبي ﷺ: «هَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحدٌ حَيٌّ؟» قال: نعم قال: «ففيهما فجاهد»، فأرجعه النبي ﷺ إلى والديه ولم يكتبه في الجهاد.

فدلَّ ذلك على أنَّ حقَّ الوالدين أعظمُ من الجهاد الذي هو من أفضل الأعمال، وهذا دليل على أن الولد لا يخرج إلى الجهاد إلَّا بإذن الوالدين، وفي هذا ردٌّ على الذين يخرجون اليوم إلى ما يسمونه جهاداً وهو تخريب وقتل للأنفس المحرَّمة بغير حق، وهؤلاء قد ارتكبوا معصيتين: الأولى: معصية الوالدين، والثانية: معصية الخروج على الإمام وعدم طاعته.

---

(١) جاء في الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبت من مصادر التخريج.

(٢) البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

وعن معاوية بن جاهمة ﷺ: أنَّ جاهِمَة جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أَرَدْتُ أن أغْزُوَ وَقَد جِئتُ استَشيرُكَ، فقال: «هَل لَكَ مِن أمٍّ؟» قلت: نَعَم، فقال: «فالْزَمْها فإنَّ الجَنَّةَ تحتَ رِجْلَيْها» رواه أحمد والنسائي[1]. [١٩٠]

---

[١٩٠] قوله في حديث معاوية بن جاهمة ﷺ أنه جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال يا رسول الله: «أردت أن أغزو وجئت استشيرك» هذا مثل الحديث الذي قبله، جاء هذا الرجل إلى النبيِّ ﷺ يستشيره في الجهاد، فسأله النبي ﷺ «فهل لك من أُمّ؟» قال: نعم، قال: «فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها»، أي: إن الجنة والثواب يكونان في خدمة الوالدين وبرهما، والجنة قريبة منهما لمن وفقه الله، وفيه أنَّ الوالدين أفضل من الجهاد الذي هو فرض كفاية.

---

(١) أحمد (١٥٥٣٨)، والنسائي (٣١٠٤) واللفظ له.

وعن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، مَن أَحَقُّ الناسِ بحُسنِ صُحبَتي؟ قال: «أُمُّك» قال: ثُمَّ مَن؟ قال: «أُمُّك» قال: ثُمَّ مَن؟ قال: «أُمُّك»، قال: ثُمَّ مَنْ قال: «أبوك» أخرجاه[1]. [١٩١]

---

[١٩١] قول الرجل في حديث أبي هريرة: «مَن أحقُّ الناسِ بِحُسْنِ صحبتي؟» يؤكد حق الوالدين، ويُرجِّح حق الوالدة لأنه لَـمَّا سأل عن أحق الناس بحسن صحبته؟ يعني: بحسن ملازمتي ومصادقتي، قال له النبي ﷺ: «أُمك»، ثلاثاً، ثم في الرابعة قال: «أبوك»، فهذا دليل على أنَّ حق الأم أعظم من حق الأب، وذلك من أجل ما قاسته الأم من آلام الحمل والوضع والإرضاع، ثم تشترك مع الأب في التربية، فكان لها ثلاثة حقوق. وللأب حق واحد.

---

(١) البخاري (٥٩٧١)، ومسلم في «صحيحه» (٢٥٤٨).

وللبخاري[١] عن ابن عمرو[٢]، رضي الله عنهما مرفوعاً: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس». [١٩٢]

---

[١٩٢] قوله ﷺ في حديث ابن عمرو: «الكَبائِرُ الإشراكُ بالله» الذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر، والكبائر اختلف العلماء في ضابطها، والصحيح أنَّها كل ذنب توعد الله عليه بنار، أو لعن، أو رتَّبَ عليه حَدّاً. وأما الصغائر: فهي ما نُهي عنه ولم يرتَّب عليه شيء من ذلك.

والكبائر تقسم إلى قسمين: أكبر الكبائر: وهي الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين، ثم قتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، ثم الزنى بذات المحْرم، وقد سأل ابن مسعود النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تَجعَلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ»، قال: ثم أيُّ؟ قال: «أن تَقتُلَ وَلَدَكَ خَشيَةَ أن يَطعَمَ مَعَك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حَلِيلَةَ جارِكَ»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ وَمَن

---

(١) في «صحيحه» برقم (٦٦٧٥).

(٢) جاء في الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبت من «صحيح البخاري».

....

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[١] [الفرقان: ٦٨ – ٦٩]، فجعل الشرك بالله والزنى بالمحارم وبزوجة الجار وقتل الأولاد هي أكبر الكبائر.

وقوله ﷺ: «اليمين الغموس» وهي التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، ولا كفّارة لها إلّا التوبة والاستغفار، ومعناها: أن يحلف على أمر ماضٍ كاذباً متعمداً، كأن يقول: اشتريت هذه السلعة بكذا وكذا، وهو كاذب ليخدع من يريد شراءها ويحلف على ذلك، هذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار، وفي الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يَومَ القِيَامةِ، ولا يُزَكِّيهم ولهم عَذابٌ أَليم وذكر منهم: «ورجل حلف على سلعةٍ لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب»[٢]، وورد في حديث آخر: «والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦).

(٢) البخاري (٢٣٦٩)، وبنحوه مسلم (١٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٦) من حديث أبي ذر ﷺ.

باب ذكر القطيعة

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ – ٢٧]. [١٩٣]

---

[١٩٣] لما ذكر عقوق الوالدين بدأ بذكر عقوق بقيّة الأقارب، وقد جعل الله للأقارب حقوقاً بعضهم على بعض، وهم كل من تجمعك معهم قرابة من قبل الأب أو الأم كالإخوة والأخوات والأعمام والعمات، والأجداد والجدات والأخوال، والخالات، فهؤلاء لهم حقوق جعلها بعد حق الوالدين وهم أولي القربى، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٢٢ – ٢٣]، فدلّ على أن قطعية أُولي القربى من الكبائر، كما قال الله تعالى في آية الحقوق: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة.

....

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]؛ أي بالقرآن (إلّا الفاسقين) جمع فاسق والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، وهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فذكر قاطع الرحمة في جملة الفاسقين، فصلة الأرحام واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة، والذين قطعوا أرحامهم قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل لأنَّ الله أمر بصلة الأرحام، وأخبر الله تعالى أنهم فاسقون، أي خارجون عن طاعة الله وهذا وعيد شديد لهم.

ولهما[1] عن جُبير بن مُطْعِم ﷺ مرفوعاً: «لا يَدخلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ».

ولهما[2] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إنَّ الله خَلَقَ الخَلقَ، حَتَّى إذا فَرَغَ مِنهُم، قامَتِ الرَّحِمُ فقالت: هذا مَقَامُ العائِذِ بكَ من القَطِيعةِ، قال: نَعَم، أما تَرضَينَ أن أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قالت: بَلى، قال: فذلك لَكِ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤُوا إن شِئتُم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٢٢]. [١٩٤]

---

[١٩٤] قوله ﷺ في حديث جُبير بن مطعم: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ» هذا فيه وعيد شديد، وليس معنى الحديث أنه يُمنع من دخول الجنة كالكافر، وإنما لا يدخلها مع أول الداخلين، بل قد يتأخر دخوله إليها. ويعاقب بدخول النار مع أصحاب الكبائر.

وقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «هذا مقام العائذ بك من القطيعة» الرحم من جملة المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى، وقد عاذت به؛ أي: استجارت بالله من القطيعة، فقال لها: «أما ترضين أن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأَقطَعَ مَن قَطَعَكِ؟» قالت: نَعَم، وهذا يدل على

---

(١) البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤).

....

عِظَم حَقِّ الرحم، والتحذير من قطعها ووجوب صلتها، ثم إنَّ النبي ﷺ استشهد بقوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ وفي هذا نهيٌ عن الإفساد في الأرض بالمعاصي عموماً ومن قطع الأرحام خصوصاً، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض بالطاعات وصلة الأرحام، وهي الإحسان إلى الأقارب في الأقوال والأفعال وبذل الأموال وغير ذلك من سائر وجوه الإحسان والتواصل.

باب أذى الجار

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ الآية [النساء: ٣٦]. [١٩٥]

[١٩٥] من الكبائر: أذى الجار، والجار: هو الذي يسكن إلى جوارك سواء كان من أقاربك أم لا، فالجار له حق، وحقُّه هذا مذكور في الكتاب والسُّنة الشريفة، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، وهذا من جملة الحقوق العشرة، وفي الحديث: «ما زَالَ جِبْرِيلُ يُوصيني بالجارِ حتَّى ظَنَنتُ أَنَّهُ سَيُورِّثُه»[١] أي: سيحكم بتوريث الجار من جاره. وفي هذا الحثُّ على تعظيم حق الجار والاعتناء به، والاهتمام بشأنه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق: وهو الجار المسلم القريب، وجار له حقان: وهو المسلم القريب، وجار له حق واحد: وهو الجار الكافر.

(١) البخاري (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر ﷺ.

عن أبي شُرَيح ﷺ مرفوعاً: «مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضَيفه، ومَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليُحسِنْ إلى جارِه، وَمَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خَيراً أو لِيَصْمِتْ». أخرجاه[1].

ولمسلم[2] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ» قيل: مَن يا رسولَ الله؟ قال: «الذي لا يَأمَنُ جارُه بَوائِقَهُ».

البوائق: الغَوائل والشُّرور. [١٩٦]

---

[١٩٦] قوله ﷺ: «مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضَيفَه» الضيف: هو الذي ينزل عندك يريد حقّ الضيافة من الطعام ونحوه، لأنه مسافر ومحتاج، فهذا له حق، فمن الإيمان بالله إكرام الضيف، وقوله «مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ فليحسن إلى جاره»، وهذا هو الشاهد من الحديث: وهو الأمر بالإحسان إلى الجار.

---

(١) البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٨).

(٢) في «صحيحه» برقم (٤٦) بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»، وأما اللفظ الذي ساقه المصنف فرواه البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح، وذكر بإثره أنه روى عن أبي هريرة ﷺ.

....

وفي حديث أبي هريرة حَلَفَ النبي ﷺ، وقال: «لا يؤمن» أي: الإيمان الكامل: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» أي: دواهيه وظُلمه وشروره، حيث نفى الإيمان عمن يسيء إلى جاره، فمن حق الجار على جاره أن يكرمه ويحترمه، وأن لا يتطلع إلى عوراته، وأن لا يتسمع كلامه الذي لا يحب أن ينشر.

والجار قد استأمنك وسكن بجانبك، فإذا تطلعت إلى عوراته وآذيته فقد خنته، فعلى الجار أن يحترم جاره غاية الاحترام، ويُحِبَّ لجاره ما يحبُّه لنفسه، لقوله ﷺ: «لا يُؤمِنُ أحَدُكم حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لنَفْسِهِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وللترمذي[(١)] وحسَّنه عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «خَيرُ الأصحَابِ عِندَ الله خَيرُهُم لصاحبِهِ، وخَيرُ الجِيرانِ عِندَ الله خَيرُهم لجارِهِ».

وفي «المسند» و«صحيح الحاكم»[(٢)] عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «أيُّما أهلُ عَرَصَةٍ أصبَحَ فيهم امرُؤٌ جائِعٌ فقد بَرِئَتْ مِنهُم ذِمَّةُ الله».

وفي «صحيح الحاكم» عن ابن عباس مرفوعاً: «ليس المؤمنُ الذي يَشبعُ وجارُه جائعٌ»[(٣)].

وفي رواية: «لا يؤمنُ مَن بات شَبعانُ وجارُه طاوٍ»[(٤)].
[١٩٧]

---

[١٩٧] قوله: «خَيْر الأصحابِ عِندَ الله»، أي: أكثرهم ثواباً عنده «خيرُهم لصاحبه» أي: أكثرهم إحساناً إليه ولو بالنصيحة، لأنَّ خير الأصحابِ الذي ينفع صاحبه بعلمه إن احتاج إليه، ويَسُد

---

(١) في «جامعه» برقم (١٩٤٤).

(٢) أحمد (٤٨٨٠)، والحاكم ٢/ ١١-١٢.

(٣) «المستدرك» ٢/ ١٢.

(٤) هي عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٣٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

....

حاجته ويُعينه بماله، «وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» أي: ولو برفع الأذى عنه، فكيف بالذي ينفع جيرانه بالإحسان والإطعام ونحوه، وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر: «إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكثِرْ ماءَها وتَعاهَد جيرانَكَ»(١).

وقوله: «أيُّما أَهْلُ عَرَصَةٍ» العرصة: المكان والمحل، «أصبح فيهم امرؤٌ جائع فقد برئت منهم ذمة الله» فإن كان أهل المحلة جياع، وفيهم غني ولا يَسُدُّ حاجةِ جيرانه، فقد برئت ذمة الله منه، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد الشديد.

وقوله: «ليسَ المُؤمِنُ» أي: ليس المؤمن الكامل الإيمان «الذي يَشبَعُ وجارُه جائِعٌ» أي: وهو عالمٌ بحال جاره، فإنه لا بُدَّ للجار أن يُشبع جَوْعة جاره حتى وإن كان غير مسلم، وهذا من محاسن هذا الدين، فمن اتصف بهذه الصفة من عدم الاهتمام بجوعة الجار دلَّ ذلك على قسوة قلبه وكثرة شُحِّه وضعف إيمانه وسقوط مروءته، ودناءة طبعه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٥) (١٤٢) من حديث أبي ذر ﷺ.

باب الاستخفاف بأهل الفضل

عن ابن عمرو ﷺ مرفوعاً: «ليسَ مِنّا مَن لَمْ يَرحَمْ صَغيرَنا، ولم يَعْرِفْ شَرَفَ كَبيرَنا». صحَّحه الترمذي(١).

ولأبي داود(٢) عن أبي موسى مرفوعاً: «إنَّ مِن إجلال الله إكرامُ ذي الشَّيبَةِ المُسلمِ، وحامِلِ القُرآن غَيرِ الغالي فيه، والجافي عَنه، وإكرامُ ذي السُّلطانِ المُقسِطِ» حديث حسن.

ولأحمد(٣) بسند جيد: «ليسَ مِنّا مَن لا يُجِلُّ كَبيرَنا ولا يَرحَمُ صَغيرَنا، ولا يَعرفُ لعالِمِنا حقَّه» انتهى. [١٩٨]

---

[١٩٨] إنَّ للمسلم عند الله حرمة عظيمة، فإنه تعالى فضَّله على سائر مخلوقاته، ولهذا فإنَّ الاستخفاف بالمؤمنين لا يجوز، وهو يدخل في باب الكبائر من الذنوب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ

---

(١) في «جامعه» برقم (١٩٢٠) وأخرجه أبو داود (٤٩٤٣).

(٢) أبو داود (٤٨٤٣).

(٣) أحمد (٢٢٧٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

....

عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، فالمسلم له حرمة لا يجوز انتقاصها، وإذا كان من أهل الفضل كان احترامه أشد، ولا تجوز السخرية منهم، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩]، فلا بُدَّ من تقدير أهل الفضل والاعتراف بفضلهم، وقد يكون هذا عن حسد فيكون الأمر أشد، فيجمع بين الاستخفاف ـ وهو تنقيص قدرهم ـ والحسد، وهو تمني زوال النعمة عنهم وهذا كبيرة من كبائر الذنوب، وقد يكون المرء في نفسه حقيراً، فيريد أن يزهد الناس في أهل الفضل، وليس من الإنصاف أن يدفع المرء عيب النقص عنه بانتقاص الأفاضل، فهذا من كبائر الذنوب، ولذلك ذكره الشيخ في كبائر الذنوب.

وقوله ﷺ: «إنَّ من إجلال الله» أي: تعظيمه «إكرام ذي الشيبة المسلم» أي: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام وتوقيره في المجالس والرفق به، والشفقة عليه، لحرمته عند الله.

وقوله: «وحامل القرآن» أي: وإكرام حافظ القرآن «غير الغالي فيه» أي: غير المتجاوز الحدَّ في العمل به، وتتبُّع واشتبه منه ابتغاء

....

الفتنة وابتغاء تأويله «والجافي عنه» أي: التارك له البعيد عن تلاوته والعمل به «وإكرام ذي السلطان المقسط» أي: ولي الأمر العادل في حكمه ورعيته.

وقوله ﷺ «لَيْسَ مِنَّا مَن لا يُجِلّ كبيرنا ولا يَرحَم صَغِيرنا ولا يعرف لعالمنا حقَّه» الأصل أن يُنزِل الناس منازلهم، فيرحم الصغير لضعفه، ويعرف شرف الكبير في السن والكبير في الدرجة، أي: في العلم، أو الكبير في الجاه، فيَنزِل الناس منازلهم ولا يستخف بهم.

وقوله ﷺ: «فضل العالِم عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ على سائِرِ الكَواكِبِ»[1]، فالعالم له مكانة بعلمه، ولذلك فإنَّه ينبغي أن يحترم ويُجلّ ولا يُهوّن من شأنه، لأنَّ هذا فيه تنقص لشخصه، وفيه تنقص للعلم الذي يحمله.

«وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» لأنَّ نفع العالم يتعدى إلى غيره كضوء القمر يضيئ الكون وأما العابد فنفعه قاصر عليه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥)، وأبوداود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء.

باب إغضاب الزوج

وقول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ الآية [النساء: ٣٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «والَّذي نَفْسِي بيَدِه ما مِن رَجُلٍ يَدعو امرَأَته إلى فِراشِهِ فتَأبى عليهِ إلّا كانَ الَّذي في السَّماءِ ساخِطاً عَلَيْها حَتَّى يَرضَى عَنْها زوجُها»(١). وفي روايةٍ: «إلّا لَعَنَتْها الـمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِح» أخرجاه(٢).

وعنه مرفوعاً: «لَو كُنتُ آمِراً أحداً أن يَسجُدَ لأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الـمَرأَةَ أن تَسجُدَ لِزَوْجِها» صحَّحه الترمذيُّ(٣).
[١٩٩]

---

[١٩٩] الله سبحانه وتعالى جعل حقاً للزوج على زوجته وكذلك للمرأة على زوجها فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٦) (١٢١).

(٢) البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) (١٢٠).

(٣) في «جامعه» برقم (١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

الفتنة وابتغاء تأويله «والجافي عنه» أي: التارك له البعيد عن تلاوته والعمل به «وإكرام ذي السلطان المقسط» أي: ولي الأمر العادل في حكمه ورعيته.

وقوله ﷺ «لَيْسَ مِنّا مَن لا يُجِلّ كبيرنا ولا يَرحَم صَغِيرنا ولا يعرف لعالمنا حقَّه» الأصل أن يُنزِل الناس منازلهم، فيرحم الصغير لضعفه، ويعرف شرف الكبير في السن والكبير في الدرجة، أي: في العلم، أو الكبير في الجاه، فيَنزِل الناس منازلهم ولا يستخف بهم.

وقوله ﷺ: «فضل العالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ على سائِرِ الكَواكِبِ»[1]، فالعالم له مكانة بعلمه، ولذلك فإنَّه ينبغي أن يحترم ويُجلّ ولا يُهوّن من شأنه، لأنَّ هذا فيه تنقص لشخصه، وفيه تنقص للعلم الذي يحمله.

«وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» لأنَّ نفع العالم يتعدى إلى غيره كضوء القمر يضيىء الكون وأما العابد فنفعه قاصر عليه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥)، وأبوداود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء.

باب إغضاب الزوج

وقول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ الآية [النساء: ٣٤].

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «والَّذي نَفْسِي بيَدِه ما مِن رَجُلٍ يَدعو امرَأَته إلى فِراشِهِ فتَأبَى عليهِ إلّا كانَ الَّذي في السَّماءِ ساخِطاً عَلَيْها حَتَّى يَرضَى عَنْها زوجُها»(١). وفي روايةٍ: «إلّا لَعَنَتْها الـمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِح» أخرجاه(٢).

وعنه مرفوعاً: «لَو كُنتُ آمِراً أحداً أن يَسجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الـمَرأَةَ أن تَسجُدَ لِزَوْجِها» صحَّحه الترمذيُّ(٣).
[١٩٩]

---

[١٩٩] الله سبحانه وتعالى جعل حقاً للزوج على زوجته وكذلك للمرأة على زوجها فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٦) (١٢١).

(٢) البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) (١٢٠).

(٣) في «جامعه» برقم (١١٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

وأما قوله في الآية: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فالقنوت في الآية المقصود به دوام الطاعة لله وللأزواج، فَهُنَّ مطيعات لله أولاً، ثمَّ لأزواجهنّ ويداومن على ذلك، ومعنى ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ إذا غاب عنها الزوج حفظته، في نفسها ومالها، وقيل: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: حافظات للسر بينهن وبين أزواجهن، وهذه صفات لا بُدَّ أن تتحلى بها المرأة.

وأما قوله في حديث أبي هريرة: «ما مِن رَجُلٍ يَدعو امرأَته إلى فراشِه فتَأبَى عليه» من حقوق الزوج على زوجته أنه إذا دعاها إلى الاستمتاع، أن لا تمانع إلّا لعذرٍ شرعي، لأن هذا الحق من أعظم حقوقه عليها، فإذا امتنعت سخط الله وملائكته عليها، لأنها فعلت جريمة كبرى، وهي نشوزها عن زوجها في هذه الحالة، وفي الرواية الأخرى: «لَعَنَتها الملائِكَةُ حتَّى تُصبِحَ» أي يدعون عليها باللعنة والملائكة مستجابو الدعوة، وهذا يدل على أن هذا الفعل كبيرة من كبائر الذنوب، لأن سخط مَنْ في السماء عليها ولعنتهم يدلُّ على أنها كبيرة. والمراد بمن في السماء الله وملائكته.

ففي الحديث دليلٌ على أنَّ الملائكة تدعو على أهل المعصية.

....

وأما قوله في الحديث: «لو كُنتُ آمِراً أَحَداً بالسّجودِ لأَمرتُ الـمَرأَةَ أن تسجدَ لِزَوْجِها» وذلك أنه لـمّا قدم معاذ بن جبل ﷺ من الشام، وكان قد رأى النصارى يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم على عادتهم، فأراد معاذ أن يسجد للنبي ﷺ فمنعه[1] من ذلك، لأنه لا يجوز السجود إلّا لله، وفي آخر الحديث: «لَوْ كُنتُ آمِراً أَحَداً أن يسجد لأحد لَأَمَرْتُ الـمَرأَةَ أَن تسجُدَ لِزَوجِها» وهذا يدل على عظم حق الزوج على زوجته، وسبب ذلك كثرة حقوقه عليها، وفي هذا غاية المبالغة في بيان تأكد طاعة المرأة لزوجها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣).

باب أذى الصالحين

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

عن أبي هُبيرة ﷺ، أنَّ أبا سفيان أتى على سلمانَ وصُهيبٍ وبلالٍ في نَفرٍ فقالوا: ما أخَذَتْ سُيوفُ الله مَأخَذَها مِن عُنُقِ عَدُوِّ الله، فقَال أبو بكر: أتَقولون هَذا لِشيخِ قُريشٍ وسَيِّدِهِم؟ فأتَى النبيَّ ﷺ فأخبرَه فقال: «يا أبا بَكرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُم، لَئن كُنتَ أَغضَبْتَهم فقد أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فقال: يا إخوَتاه، لَعَلّي أغضَبْتُكُم؟ فقالوا: لا، يَغفرُ اللهُ لَكَ يا أخي، رواه مسلم[١].

وللترمذي[٢] وحسَّنه عن أبي بَكرةَ ﷺ مرفوعاً: «مَن أَهانَ السُّلطان أَهانَهُ اللهُ». [٢٠٠]

---

[٢٠٠] لا تجوز أذية الصالحين بالقول أو بالفعل وذلك بالاستطالة باللسان أو اليد، والأذية لا تجوز في حق أيِّ أحدٍ، وهي في حق

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٥٠٤)، وأبو هبيرة راوي الحديث هو الصحابي عائذ بن عمرو المزني، وهو من أهل بيعة الرضوان ﷺ.

(٢) في «جامعه» برقم (٢٢٢٤).

الصالحين من باب أولى، لشرفهم عند الله تعالى، وقد قال الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، فدلت هذه الآيات على تحريم أذية الله ورسوله وإيذاء المؤمنين والمؤمنات لِما في ذلك من إثم عظيم.

وأما حديث أبي هبيرة، وقولهم فيه: «ما أَخَذَت سُيوفُ الله مأخَذَها من عُنُقِ عَدُوِّ الله» هذا الحديث فيه أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى المدينة في الفترة التي بعد صلح الحديبية وهو على الكفر، فلما مر على سلمان وصهيب وبلال، وهم من فقراء المسلمين وسادات المؤمنين ومن السابقين الأولين إلى الإسلام وقد أُوذوا في سبيل الله أذًى كبيراً، فقالوا: «ما أخذت سيوف الله مأخذها من عنق عدو الله»، يريدون أنه ينبغي أن يُقتل لِما حصلَ منه في حقِّ المسلمين قبل أن يسلم، لكن الله مَنَّ عليه فأسلم بعد ذلك، فلما جاء أبوبكر النبيَّ ﷺ وذكر ما حصل من الثلاثة في حقِّ أبي سفيان، وما ردَّ به عليهم فقال النبي ﷺ: «لَعَلَّكَ أَغضَبْتَهُم» أي: بهذا الكلام الذي رَدَدْتَ عليهم به، فرجع إليهم أبوبكر فقال: يا إخوتاه

....

لعلي أغضبتكم؟ فأبو بكر خاف أن يكون قد أغضب هؤلاء الأجلّاء، لما بيَّن له النبي ﷺ ما في إغضابهم من إغضاب الله تعالى فدلّ هذا على أن إغضاب الصالحين يُغضب الله، وأنّه يجب على المؤمن أن يلتمس رضاهم ويتأدب معهم، وفي هذا ردٌّ على الذين يَتَنقَّصون الصحابة ويَجْحَدونَ فضائلهم، متجاهلين أنَّ الله عز وجل يغضب على من فعل ذلك.

وقوله ﷺ: «مَن أهانَ السلطان أهانَهُ اللهُ» سبق القول أن السلطان المقسط ينبغي أن يُجل، وأن إجلاله من إجلال الله، وهذا الحديث فيه الحثُّ على إجلال السلطان مطلقاً، حتى وإن كان ظالماً أو عاصياً، لأن إهانة وليِّ الأمر تسبب بغض الرعية له، وبالتالي تسبب الخروج عليه، فالأصل أن يُجلَّ ويعظَّم لما فيه من خير للأمة، وأمن للبلاد، ودفع للظلمة، ونصر للمسلمين، وحفظ للحقوق، وإقامة للحدود، فالسلطان ظل الله في الأرض، فهؤلاء الذين يَتَنَقَّصون ولاة أمور المسلمين في المجالس وفي الأشرطة المسجلة يدخلون في هذا الوعيد، وهم بفعلهم هذا يظنون أنهم يلتمسون الأجر، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن الأمر على العكس من ذلك ففعلهم هو المنكر بعينه.

باب ما جاء في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢].

روى البيهقيُّ(١) عن ابن مسعود ﷺ قال: القَتْلُ في سَبِيل الله يُكَفِّرُ كُلَّ شيءٍ إلّا الأمانَةَ والدَّيْنَ - يُؤتى بالعَبْدِ يَومَ القِيَامَةِ وإن قُتل في سَبِيل الله فيقال له: أدِّ أَمانَتَكَ، فيقول: أي رَبِّ، كَيفَ وَقَد ذَهَبَت الدُّنيا؟ فيقال: انطَلقوا بهِ إلى الهاوِية فيَنطَلِقون بِهِ إلَيْها فتُمثَّلُ لَهُ أَمانَتُهُ كَهَيْئَتِها يَومَ دُفِعَت إلَيَه، فيَراها ويَعرفُها، فَيَهوى في أثَرِها حَتّى يُدركَها فيَحمِلُها عَلَى مَنكِبِهِ، حَتَّى إذا ظَنَّ أنَّه خارِجٌ زَلَّتْ عن مَنكِبِهِ فهوَ يَهوِي في أثَرِها أَبَدَ الآبِدينَ، ثم قال: الصَّلاةُ أَمَانَةٌ، والوُضُوءُ أَمَانَةٌ، والوَزنُ أَمَانةٌ، والكَيلُ أَمَانةٌ - وعَدَّدَ أَشياء - وأَشَدُّ ذلِكَ الوَدائعُ، قال: فأَتَيْتُ البَرَاءَ فَقلت: أَلا تَرَى إلى ما قالَ ابنُ مسعودٍ؟ قال كَذا وكَذا، قال: صَدَقَ، أما سَمِعْتَ الله

---

(١) في «الكبرى» ٦/ ٢٨٨، وفي «الشعب» ٤/ ٣٢٣.

تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال زيدُ بن أَسلمَ: هِيَ الصَّومُ والغُسْلُ مِنَ الجَنَابَةِ وما خَفِيَ مِنَ الشَّرائِعِ. [٢٠١]

---

[٢٠١] الأمانة مأخوذة من الأمن، وهو لغة: ضد الخوف، وهي كلمة عامة تشمل كل المسؤوليات التي تسند إلى العبد فإنه يجب أن يقوم العبد بها تجاه الله وتجاه خلقه، وتشمل الودائع والوظائف، وتشمل العبادات كالصلاة والصيام والاغتسال فهذه كلها ونحوها أمانات في ذمة العبد، ولذلك قال الله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾، والأمانة في الآية هي التكاليف الشرعية، والعَرْض المذكور في الآية هنا عَرْضُ تخيير لا عَرْض إلزام، فلو كان عرض إلزام لما تخلّفت هذه المخلوقات عن حملها ولما قالت ما لنا إذا قمنا بها فقال لها: لكم الأجر إن أحسنتم والعقوبة إن أسأتم، فهذه المخلوقات آثرت السلامة والعافية، وآثر الإنسان وهو آدم وذريته الغنيمة فاحتملها.

وقوله جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فهذا أمرٌ من الله تعالى بأن تسند المسئوليات إلى المؤهلين لحملها والقيام

....

بها، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال: ٢٧].

وما جاء في الحديث الذي أخرجه البيهقي عن ابن مسعود وفيه قوله: «القَتْلُ في سبيل الله يُكَفِّرُ كُلَّ شيء إلّا الأمانة والدَّين»، هذا الحديث فيه أن الشهيد الذي يُقتل في المعركة لإعلاء كلمة الله يغفر له كل شيء من الذنوب إلّا: الأمانة والدَّيْن، فلا بُدَّ من أدائهما، لأنَّ حقوق العباد مبنية على المشاحة لا تسقط حتى يسمح بها أصحابها، أما الذنوب التي بين العبد وربه فإن الله يغفرها له إن شاء، ثم ذكر أن صاحب الأمانة إذا خان فيها يقال له: أدِّ أمانتك، فيقول: كيف يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ أي إن الآخرة ليس فيها أموال، وإنما هي دار الجزاء والعقاب، فيُلْقى بالأمانة في الهاوية، يعني: في النار، فيهوي في أثرها من أجل أن يأتي بها، فإذا أدركها وحملها وظن أنه خارج من الهاوية زلَّت عن منكبه مرة بعد أخرى وهو يهوي على إثرها ليؤديها.

وهذا الكلام لا يقوله ابن مسعود من رأيه، وإنما له حكم الرفع، ولهذا لـمّا ذهب راوي الحديث إلى البراء وسأله قال: صدق، أما قرأت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، فدلَّت الآية على أنه لا بُدَّ من أداء الأمانة، ثم فسر الأمانة

....

بأنها أكثر من الوديعة، فالوضوء والصلاة والاغتسال من الجنابة، كل ذلك أمانة بينك وبين الله، والناسُ لا يطَّلعون عليها، فلا بُدَّ أن تؤديها كما أمر الله ورسوله ﷺ، دون تفريط فيها. وكذلك الأعمال الوظيفية أمانة في ذمة الموظف والأسرار التي بين الناس أمانة يحرم إفشاؤها.

باب الولايات من الأمانة

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ أعرابيّاً سأل النبي ﷺ: مَتى السَّاعَةُ؟ قال: «إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظِرِ السَّاعَةَ»، قال: كيف إضاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فانتَظِرِ السَّاعَةَ» أخرجه البخاري[1]. [٢٠٢]

---

[٢٠٢] الولايات: تعني الوظائف، فالوظيفة أمانة، فلا بد أن تقوم بها على الوجه المطلوب دون أن تضيع حق أحد، ولا تضيع الوقت فتنتقص منه وتغادر الدائرة قبل انتهاء الدوام المطلوب منك في العمل، فالولايات أمانة سواء كانت إمارة، أو مكتباً تعمل فيه أو غير ذلك، قال المفسِّرون في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾: إنه أمر للولاة، أن يولوا الأعمال من يقوم بها على أكمل وجه، فالوظيفة أمانة، كبيرةً كانت أم صغيرة، وبعض الناس لا همّ له سوى نفسه والطمع في الراتب، ولا يهتم بأعمال الوظيفة المُلقاة على عاتقه، وهذا مما تساهل فيه الناس في هذا العصر، وأخطر من ذلك أن بعضهم لا يُمضي أعمال الناس إلّا بالرشوة، فإن لم يُعطَ عطَّلها. فيكون ملعوناً كما جاء في الحديث الصحيح مِن لعن الراشي والمرتشي.

---

(١) في «صحيحه» برقم (٥٩).

....

وأما قول السائل: «متى الساعة؟» الساعة لا يعلم وقت قيامها إلَّا الله سبحانه وتعالى، ولكن النبي ﷺ ذكر له علامةً من علاماتها فقال له: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، وقد ذكر تعالى أنَّ لها أمارات تدلُّ على اقترابها فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد: ١٨]، يعني: علاماتها وأمارات اقترابها، فالنبي ﷺ ذكر له العلامة فقال: «إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتَظِر السَّاعَة» فقال: كيف؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيْرِ أهلِهِ» أي: أُسنِدَت المسئوليات فيمَن لا يقوم بها، وقيل المراد بالساعة المذكورة في إجابة الرسول ﷺ ساعة زوال الدولة، وأنَّ ذلك عند إسناد الأمور إلى غير من يقوم بها على الوجه المطلوب.

باب النهي عن طلبها

عن عبد الرحمن بن سَمُرَة ﷺ مرفوعاً: «لا تَسألِ الإمارَةَ فإنَّكَ إن أعطيتَها من غَيْرِ مَسألَةٍ أُعِنْتَ عَلَيها، وإنْ أُعطيتَها عن مَسألَةٍ وُكِلْتَ إلَيها، وإذا حَلَفتَ عَلى يَمينٍ فرَأَيْتَ غَيرَها خَيراً مِنها فائتِ الذي هُو خَيْرٌ وَكَفِّر عَن يَمينِكَ» أخرجاه(١).

ولمسلم(٢) عن أبي ذرٍّ ﷺ، قلت: يا رَسولَ الله، ألَا تَستَعمِلُني؟ فضَرَبَ بيَدِهِ على مَنْكِبي ثم قال: «يا أبا ذَرٍّ، إنِّي أراكَ ضعيفاً، وإنَّها أَمانةٌ، وإنَّها يَوْمَ القِيَامَةِ خِزيٌ ونَدامَةٌ إلّا مَن أَخَذَها بِحَقِّها وأَدَّى الذي عَلَيهِ فيها». [١٠٣]

---

[١٠٣] هذا العنوان معناه النَّهيُ عن طلب الولاية والوظيفة، لأن أكثر الناس اليوم يطلبون الآيات، ويدخل في هذا الإمارة والقضاء والوظائف على مختلف أنواعها، لأنَّ من حرص على طلبها فإنَّه لا يُعان عليها. ومن ابتلى بها من غير طلب أعانه الله على القيام بها.

---

(١) البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٢) في «صحيحه» برقم (١٨٢٥).

....

وحديث عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً: «لا تَسأَلِ الإمارّة» فيه مسألتان: الأولى: النهي عن السعي لتولِّي الإمارة، سواء كانت إمارة عامة أو خاصة، فالنبي ﷺ نهى عبد الرحمن فقال: «لا تسأل الإمارة، فإنَّك إن أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها»، وهذا فيه أنه ينبغي للمسلم أن لا يسألها، لأنه في عافية ولا يضمن من نفسه القيام بها فإذا لم يقم بها صارت عليه حسرة وندامة، ثم قال له ﷺ: «وإن أُعطيتها عن مسألة وُكلت إليها»، لأنَّ مَن طلبها فإنَّ الله يكله لجهده ولا يُعينه عليها، وهذا فيه وعيد لمن يسعى إلى تحميل نفسه هذا الأمر، ومن ابتلي بها من غير طلب منه لها أعانه الله على القيام بها.

والمسألة الثانية: تتمثل في قوله ﷺ: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فائْتِ الذي هو خير وكفِّر عن يمينك»، كمن حلف أن لا يتصدق مثلاً ـ ولا شكَّ أن الصدقة خير ـ فإنَّ عليه أن يكفر عن يمينه ويتصدق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

فإذا حلف أن لا يصلي الوتر أو التراويح أو أن لا يصلَ رحمه، فإنه يكفِّر ويأتي الذي هو خير، فيفعل المحلوف على تركه ثم يكفِّر،

....

لقوله: «فكفِّر عن يمينك وائت الذي هو خير»[1] فدلَّ هذا على أنَّ عليه أن يقدِّم الكفارة ثم يأتي الذي هو خير، ولفظ حديث الباب: «فائت الذي هو خير ثم كفِّر عن يمينك». يدل على أنه يفعل ما حلف على تركه ثم يكفر فيكون مخيراً بين هذا وهذا.

وقول أبي ذر للنبي ﷺ: «ألا تستعملني» طلب فيه للولاية ولكن النبي ﷺ لعلمه بحاله بأنه لا يستطيع أن يقوم بالمهام لضعفه، ضرب على كتفه مطيباً لخاطره وقال له: «إني أراك ضعيفاً» فالنبي ﷺ إنما امتنع من توليته لضعفه، ولهذا فقد وقَّره ورحمه من أجل أن يَسْلَمْ من تَبِعاتها، فقال له: «إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة»؛ فالنبي ﷺ منعها عنه لا لنقص في دينه وعلمه، ولكن لأنه ضعيف عن القيام بوظائف تلك الولاية. ودلَّ ذلك على أنَّ الوالي لا بد أن تتوفر فيه القوة والأمانة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

تتمة: قال بعض العلماء إنه يجوز لمن يأنس في نفسه الكفاءة أن يتقدم لطلب المنصب الديني إذا خشي أن يضيّع لعدم من يقوم به على الوجه المطلوب أخذاً من قول يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]

---

(١) هي عند البخاري (٦٦٢٢).

باب ما جاء في غش الرعية

عن مَعقِل بن يَسارٍ ﷺ مرفوعاً: «ما مِن عَبدٍ يَستَرعيهِ اللهُ رَعِيّةً، يموتُ يَوْمَ يَمُوتُ وهو غاشٌّ لِرَعِيَّتِه، إلَّا حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنّةَ»(١).

وفي روايةٍ: فلم يُحِطْها بنَصِيحَتِه إلَّا لم يَجِدْ رائحةَ الجَنَّةِ» أخرجاه(٢) [٢٠٤]

---

[٢٠٤] قوله: «باب ما جاء في غش الرعية»، أي: غش الوالي لرعيته، أي: والٍ ولاية عامةً أو خاصةً، والغش: ضد النصح، وقد جاء الوعيد الشديد للوالي إذا غَشَّ رعيته، فلم يقم بما وجب لها من الرعاية، مما يدلُّ على أنَّ ذلك من كبائر الذنوب، فإنَّ الواجب على الوالي أن يهتم برعيته، كما يجب على الرعية أن تنصحَ للوالي، وتكون النصيحة متبادلة كما قال النبي ﷺ: «الدينُ النَّصيحةُ» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولِكِتابه ولِرَسوله ولأَئمَّةِ المُسلمين وعامَّتِهم»(٣)، فإذا تناصح كلٌّ من الوالي والرعية كان الصّلاح واستقامت الأمور وعمّ الأمن، أما

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥١)، وأخرجه مسلم (١٤٢).

(٢) البخاري (٧١٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

. . . .

إذا حصل الغش من الوالي، وحصل الفساد في الرعية، واضطربت أحوالها، حصل من الأضرار الشيء الكثير بسبب إهمال الوالي واستوجب الوعيد الشديد.

وقوله في الحديث: «مَا مِن عَبدٍ يَستَرعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلّا حرَّم الله عليه الجنَّة» هذا فيه أنَّ الله هو الذي يوَلِّي الولاة، لأنَّ كل شيء بقضاء الله وقَدَرِهِ، فإن الولاة قد ولَّاهم الله قَدراً وشرعاً، سواء الرعيَّة اختارته، أو هو استولى عليها، فإنما هذا بقدر الله، والله عزَّ وجل شرع تولية الرُّعاة حتى لا تكون الأمور فوضى، فلا بدَّ من أن يقوم الوالي بما عليه من المهام، والرواية الثانية تبين الرواية الأولى وتوضحها، فقد قال فيها ﷺ: «ولَم يُحِطْها بِنصيحَتِهِ» وقد ذكرنا أن الغش ضد النُّصْح، فالواجب على الوالي أن يسوسَ رعيته بما يُصلحها ويدفع عنها الضرر، وأن لا يسمح بأي خلل يَدْخل عليها فمعنى قوله: «راعٍ» أي: أنه مُستحفَظ على هذه الرعيَّة، فقد فوض إليه رعايتها كما يُفوَّض الراعي لرعاية الغنم، فإنه لو تركها ولم يهتم بها لأكلتها السباع وهلكت، فمن الغش أن يُترك الناس وما يريدون، كما يُطالب بهذا اليوم دعاة حرية الرأي والديمقراطية القائلين: إنَّ للمرء أن يقول ما يشاء،

....

ومَنْعُه من ذلك فيه تقييد للحرية، فهذا الكلام باطل، لأنه يجب على ولي الأمر الأخذ على أيدي هؤلاء، ولا يفتح لهم المجال لنشر الآراء الفاسدة، والأفكار الدخيلة، وإنما يرجع في ذلك إلى أهل العلم حتى يبيِّنوا للناس ما أمرهم الله ببيانه.

باب الشفقة على الرعية

وقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٩].

ولمسلم(١) عن عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً: «اللَّهُمَّ مَن وَلِيَ مِنْ أمرِ أُمَّتِي شَيئاً فَشَقَّ عَلَيهم فاشقُقْ عَليهِ، ومَن وَلِيَ مِن أمرِ أُمَّتي شَيئاً فَرفَقَ بِهم فارْفُقْ بهِ». [٢٠٥]

---

[٢٠٥] من مهمات الراعي أن يُشفق على الرعية، ولا يَشُقَّ عليهم، ولا يحملهم أمراً يَصْعُب عليهم، وينظر في أمر ضعفائهم، ولا يكون نظره فقط إلى الأقوياء وأصحاب الشأن، ولا يسلط الأقوياء على الضعفاء، بل يكون نائباً عنهم حتى يأخذ الحق لهم.

وقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فالنبي ﷺ راعٍ وهو أول الولاة، وكل من يأتي بعده فإنه يَخْلُفُه، وقوله له: ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾ أي: تواضع لهم، أما قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ﴾ فـ«الباء» حرف جر و«ما» صلة مؤكدة، والأصل فبرحمة من الله، ولذلك صار الاسم مجروراً بالباء ويقول الله تعالى للنبي ﷺ:

---

(١) في «صحيحه» (١٨٢٨).

....

الله هو جعل هذه الرحمة في قلبك فَلنت لهم من غير ضعف واستمعت لكلامهم، ومعنى هذا أنَّ لِيْنَه لهم ما كان إلّا برحمةٍ من الله، ولذلك لا بد للولاة بعد النبي ﷺ أن يتأسّوا به في ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لأنَّ اللين من غير ضعف سبب للاجتماع والتآلف والرحمة، وهو أن لا يكون الوالي فظّاً غليظاً على رعيته فينفروا منه ويحقدوا عليه مما يكون سبباً في فساد الأمر.

وأما قوله في الحديث: «اللَّهمَّ مَن وَلِيَ مِن أمرِ أُمَّتي شَيئاً فَشَقَّ عَلَيهِم» هذا الحديث فيه أنَّ النبي ﷺ دعا للولاة ودعا عليهم: أنَّ من شقَّ منهم على المسلمين بأن يشقَّ اللهُ عليه، وأن من ترفق بالرعية أن يرفق الله به، فالجزاء من جنس العمل، فالذي يقتدي بالنبي ﷺ ويرفق برعيته، فإنَّ الله يرفق به، ومن خالف النبي ﷺ وشقَّ على رعيته، فإنَّ الله يشقُّ عليه، فينبغي لـمَن وَلِيَ أمر المسلمين أن يتحرى ما فيه الرفق بهم والأحسن لهم، والنبي ﷺ يضع بذلك سياسة عظيمة لولاة الأُمور يحثهم فيها على السعي في مصالح الرعية، وفي دفع الضرر عنها ويتجنب ما يشقُّ عليهم من قول أو فعل، وعدم الغفلة عن أحوالهم، وإذا وضعوا السياسات وأصدروا القرارات

....

أن يتحرَّوا بذلك الرفق بالرعية. وما يحقق مصالحها ويدفع عنها المضار ويلتمسوا رضي الله في ذلك لا رضى الناس فيما يسخط الله عزَّ وجل.

باب الاحتجاب دون الرعيّة

عن أبي مريم الأزدي ﷺ أنَّه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن وَلّاه الله شَيئاً مِن أُمورِ المُسلمين فَاحتَجَبَ دونَ حاجَتِهِم وخَلَّتِهِم وفَقرِهِم، احتَجَبَ اللهُ دون حاجَتِهِ وخَلَّتِهِ وفَقْرِهِ يومَ القيامةِ» فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس. رواه أبوداود والترمذي[1].

وللترمذي عن عمرو بن مرّة الجهني نحوه، وصحَّحه الحاكم[2]. [٢٠٦]

---

[٢٠٦] مما يجب على الوالي أن يستقبل شكاوى الرعية مباشرة، وأن لا يسد بابه دونهم، فيستمع إلى شكواهم وطلباتهم، كما كان يفعل ذلك النبي ﷺ والخلفاء من بعده، حيث إنهم كانوا لا يمنعون الناس من الوصول إليهم، فإن احتجب الوالي، بأن يجعل بينه وبينهم حاجب، فإنَّ الله يحتجب عنه يوم القيامة لأنَّ الجزاء من جنس العمل.

---

(١) أبوداود (٢٩٤٨)، والترمذي (١٣٣٣).

(٢) الترمذي (١٣٣٢)، والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٩٤.

....

وفي هذا الحديث أن أبا مريم بلّغ معاوية قول النبي ﷺ: «مَن وَلّاه الله شيئاً من أمرِ المُسلمين فاحتَجَبَ دون حاجَتِهم» نصحاً له ففيه أنَّ ولي الأمر يجب أن تُبذل له النصيحة من قبل أهل العلم والرأي والمشورة، فهذا الرجل ينصح معاوية بأن النبي ﷺ أمر بأن لا يحتجب الوالي عن الرعيّة، والأصل في النصيحة للولاة أن تكون مباشرة فيُخاطب بها، ويكتب له بها كما كتبت عائشة رضي الله عنها لمعاوية ﷺ بحديث: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس. ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»، فالصحابي بلَّغ معاوية ﷺ ما ورد عن رسول الله ﷺ من خطورة الاحتجاب دون خَلّة الرعيّة بفتح الخاء؛ أي: حاجتهم، فإن فعل فإنَّ الجزاء من جنس العمل، لذلك جعل معاوية ﷺ رجلاً ينوب عنه للنظر في حاجات الناس، وهذا دليل على أنه يجوز للوالي أن يتخذ من يساعده في الأمر ومهام الولاية من أهل الكفاءات. وقلنا إنَّ النصيحة للوالي تكون معه مباشرة أو بواسطة ولا تكون باغتيابه في المجالس وذكر معائبه كما يفعل دعاة الفتنة.

باب المحاباة في الولاية

أخرج أحمد والحاكم[1] وصححه عن يزيد بن أبي سفيان ﷺ، أن أبا بكر ﷺ قال له: يا يزيدُ، إنَّ لك قَرابةً فهل عَسَيتَ أن تُؤثِرَهُم بالإمارَةِ، وذلكَ أكثَرُ ما أخَافُ عَلَيْكَ، بعد ما قال رسولُ الله ﷺ: «مَن وَلِيَ مِن أمرِ الـمُسلمين شَيئاً فأَمَّرَ أحَداً مُحَاباةً، فعليه لَعنَةُ الله والملائكةِ والناس أجمعينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً حتَّى يُدخِلَهُ جَهَنَّمَ».

وللحاكم[2] وصحَّحه عن ابن عباس مرفوعاً: «مَنِ استَعمَلَ رَجُلاً علَى عِصَابةٍ، وفيهم مَن هو أرضَى لله مِنه، فَقَد خَانَ الله ورَسولَه والمؤمنينَ». [٢٠٧]

---

[٢٠٧] مما يجب على ولي الأمر أيضاً أن يُعيِّن على الأعمال من هو أهلٌ لها، من الذين يقومون بها وبأعبائها على الوجه المطلوب، فلا يحابي بها صديقاً أو قريباً، فالولاية أمانة، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، أي: أن تُسندوا

---

(١) أحمد (٢١) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٩٣).

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٩٢).

....

الأمور إلى من يقوم بها على الوجه المطلوب، فالوظائف التي تحت نظر ولي الأمر أمانات، يجب عليه أن يضع على كل ولاية فيمن يصلح لها، ولا يحابي بذلك أحداً، لأنَّ ذلك يُفسد أحوال الرعيّة، وهذا كله من النصح للرعية.

وقوله في الحديث الذي أخرجه أحمد عن يزيد بن أبي سفيان أن أبا بكر ﷺ قال له: «يا يزيد إن لك قرابة فهل عَسيت أن تؤثرهم بالإمارة» أبو بكر الصديق ﷺ خليفة رسول الله ﷺ ووزيره وصاحبه، فها هو يوصي يزيد بن أبي سفيان أخا معاوية وقد ولّاه على الشام، واستمر والياً عليها إلى أن توفي، فتولَّى بعد ذلك معاوية، وكان يزيد رجلاً فاضلاً عادلاً، ساس الولاية سياسة حسنة، فأبو بكر ﷺ حذّره من أن يولي قرابته محاباة لهم، وأخبره أن النبي ﷺ قد حذَّر من ذلك، وأخبر أن الله لا يقبل منهم صرفاً: يعني: الفريضة، ولا عدلاً: وهي النافلة، وأنَّ عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأنَّ الله سيُدخله جهنم، فهذه أنواع من الوعيد تجعل وَليّ الأمر يتقي الله ويحذر من تولية القرابة محاباة لهم. وترك الأكفياء.

وقوله في حديث ابن عباس: «مَنْ استَعمَلَ رَجُلاً على عِصابَةٍ» هذا تحذير لمن وَلَّى رجلاً على جماعة من الناس ـ ولو كانت ولاية

....

صغيرة ـ وفيهم من هو أصلح منه للولاية، فقد خان الله ورسوله، فالواجب على وليِّ الأمرِ أن يولِّي الأصلح للمناصب مهما أمكن ذلك، أي: الأمثل فالأمثل في كل زمان بحسبه.

باب الجور والظلم وخطر الولاية

أخرج الحاكم[١] وصحَّحه: «ما مِن أحَدٍ يَكونُ على شَيءٍ من أُمورِ هذِه الأُمَّةِ فلم يَعدِل فيهِم إلّا كَبَّهُ اللهُ في النَّارِ».

ولهما[٢] عن معاذ ﷺ مرفوعاً: «اتَّقِ دَعْوَةَ الـمَظلومِ، فإنَّه لَيسَ بَينَها وبَيْنَ الله حِجابٌ». [٢٠٨]

---

[٢٠٨] من الآفات التي تعترض الولاة والموظفين والمسؤولين الجور: وهو ضد العدل، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه. والظلم يكون للناس في أموالهم، ويكون في دمائهم وأعراضهم، فالغيبة والنميمة والسب ظلم، في الأعراض، والظلم يكون في القتل بغير حق وهذا في الدماء ويكون في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا في الأموال والحقوق، ووليُّ الأمر مسؤول عن منع هذا كلِّه منه ومن غيره، فإنه يوم القيامة لا بُدَّ من أن تُؤدَّى الحقوق إلى أصحابها، وهناك ليس إلَّا الجنَّة أو النار، فالولاية شأنها عظيم وخطرها جسيم، وهي مسؤولية، وجاء في الحديث أنَّ الإنسان إذا سألها وُكِل إليها، ولم يعن عليها وإن ابتلي بها من غير مسألة أُعين عليها.

---

(١) الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٩٠-٩١).

(٢) البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩).

....

وقوله ﷺ: «ما مِن أَحَدٍ يَكونُ علَى شَيءٍ مِن أُمورِ هذهِ الأُمَّةِ فلم يعدل فيهم إلّا كبَّه الله في النار» يعني: من تولَّى من أمور هذه الأمة شيئاً قليلاً أو كثيراً، ثم لم يعدل إلا أدخله الله النار، وفي هذا وعيد شديد، ويدخل في هذا أصحاب الوظائف المختلفة، فإنَّه لا بُدَّ أن يقوم الموظف بمصالح الناس وإنجاز معاملاتهم وعدم تأخيرها، وأن يتوخى العدل في عمله ولا يحابي أحداً ولا يرتشي.

وقوله في حديث معاذ: «اتَّقِ دَعوَةِ الـمَظلُومِ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» هذا لـمّا بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن معلماً وقاضياً أوصاه فقال له: «إنَّكَ تأتي قَوماً مِن أهلِ الكَتابِ فادعُهُم إلى شَهَادَة أن لا إله إلّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، فإن هُم أجابوكَ لِذلكَ فَأَعلِمْهُم أنَّ الله افتَرَضَ عَلَيهم خَمسَ صَلَواتٍ في كلِّ يَومٍ ولَيْلَةٍ، فإذ هُم أطاعُوا لِذلكَ فَأَعلِمْهُم أنَّ الله افتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِن أَغنِيائِهِم فَتُرَدُّ في فقرائِهِم، وإيَّاكَ وكَرائِمَ أموالِهِم، واتَّقِ دَعوةِ الـمَظلومِ، فإنه ليسَ بَينَها وبينَ الله حِجابٌ»، وهذا محل الشاهد من الحديث، فأوصاه ﷺ بأن يتجنب ظلم الناس لئلا يدعو عليه المظلوم، وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، ثم قال له محذِّراً من خطر دعوة المظلوم: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»

....

أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع يردُّها عن الله فيستجيب لها ولو كان المظلوم كافراً. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

وهذا فيه حثٌّ على العدل بين الناس، فإنَّ الظلم ظلمات، ودعوة المظلومين مستجابة، حتى وإن كانوا من غير المسلمين كاليهود والنصارى الذين يدفعون الجزية، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فالعدل واجب لا سيَّما فيمن ولّاه الله أمور المسلمين من الولاة والموظفين والعمال، الذين يجبون الزكاة فلا يأخذ أكثر مما يَجِبُ، ولا يأخذ من جيد الأموال، وخيار المال إلّا برضى أصحابها، ولا يأخذ الرديء كذلك بل يأخذ المتوسط، «فإنَّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب» أي: حاجز يَحُول دون وصولها إلى الله واستجابته لها.

ولمسلم[1] عن عدي بن عميرة ﷺ مرفوعاً: «مَن استَعْمَلناهُ على عَمَلٍ فكتم منه مَـخِيطاً فما فوقَه كان غُلولاً يأْتي بهِ يَومَ القِيامَةِ».

ولأحمد[2] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «وَيلٌ للأُمراءِ، وَيلٌ للعُرَفاءِ، وَيلٌ للأُمَناءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ يَومَ القِيامَةِ أنَّ ذَوائِبَهُم كانَتْ مُعَلَّقَةً بالثُّرَيّا، يَتَذَبْذَبونَ بَينَ السَّماءِ والأَرْضِ ولَمْ يَكونوا عَمِلوا على شَيء». [٢٠٩]

---

[٢٠٩] قوله: «مَنْ استَعمَلْنَاهُ على عَمَلٍ فكَتَمَ منه مَـخِيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة» الـمَخِيط: الإبرة، وفي هذا تعظيم القليل من الغلول، وهذا وعيد شديد وزجر أكيد عن الخيانة من العامل في أخذ شيء مما ولي عليه وأنها من الكبائر فالواجب على الجباة ـ وهم السعاة الذين يقبضون الزكاة من الناس ـ أن لا يأخذوا شيئاً من الناس كالرشوة التي تدفع للعمال باسم الهدية، ولهذا قال ﷺ: «هَدايا العُمّال غُلولٌ»[3]، وقد استعمل النبي ﷺ رجلاً على الزكاة فقـال: هذا لكم، وهـذا أُهـديَ إليّ، فقـال عليـه الصـلاة والسلام

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٣٣).

(٢) في «مسنده» برقم (٨٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٦٠١) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

....

بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «ما بالُ العَامِلِ نَبْعَثُه فيَأْتِي يقول: هذا لكم وهذا أُهدِيَ إليَّ، فهلّا جَلَسَ في بَيتِ أبيهِ أو بيت أُمِّهِ فَيَنظُرَ أَيُهْدَى إليه، وفي هذا تحذير للعمال من أن يأخذوا شيئاً من هذه الأموال، وفيه تحريضٌ لهم على الأمانة وتحذيرهم من الخيانة ولو في شيءٍ قليل وهذا يتناول كل المسئولين عن أموال الدولة.

أما قوله ﷺ: «وَيلٌ للأُمَراءِ، وَيلٌ للعُرفاء، وَيلٌ للأُمناء». ويل: كلمة عذاب ووعيد، وقيل: واد في جهنم، يعني: ويل لهم إذا لم يعدلوا، والعرفاء: المقدَّمون في القبائل الذين يُعرِّفون بقبائلهم، والأمناء: هم الذين يؤتمنون على أموال بيت المال، أو أموال الناس، فإذا أخذوا من هذه الأموال شيئاً أو ضيَّعوها، فإنهم متوعَّدون بالعذاب الشديد يوم القيامة.

ثم أخبر عن الولاة أنهم يتمنون يوم القيامة لو عُلِّقوا من شعرهم بالثُّريا؛ يعني: بين السماء والأرض يتذبذون، وأنهم لم يَلُوا هذا العمل، ولم تحصل لهم هذه العزَّة والرِّياسة والرِّفعة على الناس في الدنيا وذلك أنَّ التعليق بالناصية مَثَلٌ للمذلَّة والهوان، وهذا فيه الوعيد الشديد لـمَن تولّى الإمارة أو العرافة أو الأمانة ولم يَقُم بحقِّها، وفيه الحث للوالي على أن يتقِّي الله في مسؤوليته ولا يتخذها

....

مغنماً ينتهز بها الفرصة فيأخذ غير مرتبه، فالولاية ليست مغنماً ينتهزه المسئول، وإنما هي أمانة ومسؤولية يُسأل عنها يوم القيامة ويعذب على تفريطه وإهماله فيها وما أخذه بسببها.

باب ولاية من لا يحسن العدل

عن أبي ذر ﷺ مرفوعاً: «يا أبا ذَرٍّ، إنِّي أَراكَ ضَعيفاً، وإنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحبُّ لنَفْسي، لا تأَمَّرَنَّ على اثنَينِ، ولا تَوَلَيَنَّ مالَ يَتيمٍ» رواه مسلم[1].

ولأبي داود[2] عن بريدة ﷺ مرفوعاً: «القُضاةُ ثَلاثَةٌ: واحِدٌ في الجَنَّةِ، واثنانِ في النَّارِ، فأَمَّا الَّذي في الجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَجارَ في الحُكمِ فَهُوَ في النَّار، ورَجُلٌ قَضَى للناسِ عَلَى جَهلٍ فَهُوَ في النَّارِ».

وله[3] عن أبي هُريرة ﷺ مرفوعاً: «مَن أَفْتى فُتْيا بغيرِ علمٍ كانَ إثمُ ذلك على الذي أَفْتاهُ». [٢١٠]

---

[٢١٠] أبوذر ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام ومن الزهاد، يقول له النبي ﷺ: «إنِّي أراكَ ضَعيفاً» وضعفه هنا ليس في دينه ولا في أمانته، وإنما في تحمُّل أعباء الولاية ومواجهة المشكلات، ولهذا قال

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٢٦).

(٢) في «سننه» برقم (٣٥٧٣).

(٣) في «سننه» برقم (٣٦٥٧).

....

له النبي ﷺ: «إِنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفسِي» وهذا القول يدل على أنَّ من تولى شيئاً يجب أن يكون ناصحاً في ولايته، ثم قال: «لا تأَمَّرنَّ على اثنين» فكيف بالإمارة على جماعة أو دولة؟ «ولا تَولَّينَّ مالَ يَتيمٍ»، لأنَّ مال اليتيم يجب حفظه، فالواجب أنْ يتولَّى عليه من هو أهل لحمايته وله القدرة على تنميته.

فأبوذر ﷺ كان مشتغلاً بأمور العبادة والطاعة والزهد ولم يكن مهتماً بأمور الدنيا، فما أحبَّ النبي ﷺ أن يوليه لأنه عرف أنه سيعجز عن القيام بالمهمة. وقد دلَّ هذا على أنه لا يكفي في الوالي أن يكون ذا ديانة فقط بل لا بد أن يكون قوياً في القيام بالمهام الموكولة إليه.

وقوله في الحديث: «القَضاةُ ثَلاثَةٌ: واحِدٌ في الجَنَّةِ واثنانِ في النَّارِ» هذا يدل على خطورة القضاء، وأنه يتحرز منه، أمّا الذي في الجنة فهو الذي عَرَفَ الحقَّ وقضى به، أما الذي عرفَ الحقَّ وقضى بخلافه فهو في النار، والذي قضى بجهل في النار أيضاً، لأنَّه لا يجوز أن يقضي بغير علم، حتى وإن أصاب فهو آثم، فيشترط في القاضي العلم والعدل، وفي هذا التحذير من الحكم بجهل أو بخلاف الحقِّ مع معرفته به.

. . . .

وقوله ﷺ: «مَن أُفْتِيَ فُتيا بغَير علمٍ كانَ إثمُ ذلِكَ عَلَى الَّذي أفْتَاهُ» الإفتاء: هو بيان الحكم الشرعي من غير إلزام به، والقضاء: بيان الحكم مع الإلزام به، والناس بحاجة إلى القضاة والمفتين، ولكن يجب على المفتي أن يتَّقي الله ولا يفتي الناس بجهل أو بهوًى، فإنه يتحمَّل إثم مَنْ أفتاه، وأما المُستفتي فإنَّه إذا لم يكن يعلم أن المفتي أفتاه بغير علم فلا شيء عليه وإثمة على المفتي، ولكن إن كان يعلم أنه ليس بعالم أو أنه يفتي بغير الحق فهو شريك له في الإثم، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار»[1]، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتدافعون الفتوى ـ وهم علماء ـ لأنهم يعلمون خطرها، بخلاف ما هو حاصل في زماننا هذا من كثير من المتعالمين فتراهم يتهافتون على الفتوى، بما فيهم الذي ليس عنده علم فلا يتورَّع عن أن يفتي، وكلٌّ يفتي برأي مخالف للآخر حتى في المسألة الواحدة، حتى وصل الأمر أنَّ الذي عنده علم يفتي بخلاف

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١٥٧) من مرسل عبيد الله بن أبي جعفر.

....

ما يعلم، يريد بذلك أرضاء الناس، والحظوة عندهم، وليقال: إنه ليس متشدداً، وأنه سهل ومَرِن!! ومنفتح ومتسامح مما يسمونه بالفقه الميسر وفقه الواقع.

فالواجب على المسلم أن يتقِّ الله ولا يَدْخل في الفتوى، إلَّا إنْ احتيج إليه وكان عنده علم وإلّا فيبتعد عنها، والأصل أن تُضبط أمور الفتوى ولا سيَّما في الصحف والمجلات والإذاعات والفضائيات، وهذه الفتوى الغير منضبطة جعلت الناس في حيرة واضطراب، فلقد كثر المفتون، وأصبحت الفتوى سهلة، فمن المفتين من لو سألته سؤالاً لأجابك على الفور، في حين لو عُرض هذا السؤال أبي بكر وعمر لجمعوا له أهل بدر، فليتق الله من يتعرض لذلك، فإنما المفتي يقول عن الله ورسوله، فانظر فيما أفتيت، وكيف أنك تحمل وزر فتواك إن أفتيت بغير علم ومعرفة وفقه. أو أفتيت بما يخالف الحق إرضاء للناس (فمن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس).

باب الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن

وقول الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].
[٢١١]

---

[٢١١] أنواع الأمانة كثيرة، ومنها هذا النوع: وهو أمانة البيع والشراء، بأن يكون كلٌّ من البائع والمشتري أميناً في معاملته لا يغش ولا يخدع ولا يدلس كما قال النبي ﷺ: «البَيِّعان بالخِيَارِ ما لَم يَتفرَّقا، فإن صَدَقا وبيَّنا بورِكَ لَهُما في بَيعِهما، وإن كَذَبا وكَتَما مُحِقَت بَرَكَةُ بَيعِهِما»(١). فالأصل أنَّ البيع بين المسلمين مبني على الأمانة وعدم الغش والخيانة، وكذلك يجب أن تكون الأمانة في الكيل والوزن، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥]، فالذي يبخس الكيل والوزن خائن غشاش، وقد أهلك اللهُ أمةً من الأمم ببَخْسهم المكاييل كما أخبر الله تعالى عن قوم شعيب عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسانه مخاطباً قومه ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فالوزن يكون بالقسطاس المستقيم، يعني: المعتدل الذي ليس فيه نقص ولا بخس لحقوق الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام ﷺ.

....

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]، فيجب على المسلم الذي يبيع ويشتري أن يوفي بالكيل والوزن، ويَصْدق في البيع والشراء، وقد قلَّ هذا في الناس اليوم إلّا من رحم الله، فكثيرون اليوم الذين يغشون في الكيل والوزن، وما هو بمثابة الكيل والوزن، يبيعون بضاعتهم على أنها كاملة الوزن وهي منقوصة، وهذا من الغش وبخس الناس أشياءهم، سواء في الحبوب أو الخضراوات أو غير ذلك، فلا بدَّ للمسلم أن يتقي الله في بيعه وشرائه ومعاملاته ولا يتخذ الغش مهارة في البيع والشراء.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ أي: فليقضه دَيْنَه، فإذا لم يكن هناك كتابة ولم يكن رهان وأتمن البائعُ المشتري بعضهما، فإنه يجب على المشتري أن يؤدي أمانته ويتقي الله ربه، وفي الآية دليل على التوثيق، والتوثيق يكون أولاً بالكتابة، وثانياً بالإشهاد، وثالثاً بالرهن، ثم إذا لم توجد هذه الأمور ووثق البائع بالمشتري فعلى المشتري أن يدفع الثمن بسهولة من غير مماطلة ولا جحود للحق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ هذا توجيه من الله للناس في

....

معاملاتهم بأن يَبْنُوها على التوثيق، فإن فَرَّطوا فإن الله بما يعملون عليم، لا يخفى عليه خافية، وليعلم الظالم أن المظلوم الذي أُخذ حقه سيبقى حقه في رقبته، فإن لم يدفع إليه، ولم يسامح الذي له الحق، فإنَّه يأخذه يوم القيامة من حسناته إن كان له حسنات. وإلَّا من سيئات المظلوم فطرحت عليه فطرح في النار كما في الحديث.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: حَدَّثنا رَسولُ الله ﷺ بحديثين رَأيتُ أَحَدَهما وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثنا: «أنَّ الأَمانَةَ نَزَلَت في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجال، ثم نَزَلَ القُرآنُ، فعَلِمُوا مِنَ القرآنِ، وعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» ثمَّ حَدَّثنا عن رَفعِ الأمانةِ فقال: «يَنامُ الرَّجلُ النَّوْمَةَ فَتقبَضُ الأَمانةُ مِن قَلْبِه، فيَظَلُّ أثَرُها مِثل أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنامُ النَّومَةَ فتقبَضُ الأمانةُ مِن قَلبِهِ، فَيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ أثَرِ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحرَجَها على رِجلِكَ فنَفِطَ فتَراهُ مُنتَبِراً وَلَيْسَ فيه شَيءٌ، ثمَّ أخذَ حصاةً فدَحرَجَها على رِجْلِهِ، فيُصبحُ النَّاسُ يَتَبايعونَ فلا يَكادُ أَحَدُهُم يُؤَدِّي الأَمانَةَ حَتَّى يُقالَ: إنَّ في بَني فُلانٍ رَجُلاً أَميناً، وحَتَّى يُقال للرَّجُلِ: ما أَجْلَدَهُ! ما أَظرَفَهُ! ما أَعْقَلَهُ! وما في قَلبِه مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ». ولَقَد أَتى عَلَيَّ زَمانٌ وما أُبالي أَيُّكُم بايعتُ، لئن كان مُسلماً لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دينُه، وإنْ كان نصرانياً أو يَهودِيّاً لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ ساعيهِ، وأمّا اليومَ فما كُنتُ لأُبايعَ منكم إلّا فُلاناً وفُلاناً[(١)].

الجَذْرُ: الأصل، والوَكْتُ: الأثرُ اليسيرُ، والـمَجْلُ: نَفْط يسير من أثر عمل، ومُنْتَبِراً: مرتفعاً، ساعِيه: الوالي عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣) واللفظ له.

ولمسلم(1) في حديث الشَّفاعة: «وتُرسَلُ الأَمانَةُ والرَّحِمُ فيَقومان بجنبتي الصِّراط يَميناً وشِمالاً». [٢١٢]

---

[٢١٢] وأما قوله في حديث حذيفة: «حدَّثنا النبي حديثين رَأَيْتُ أحَدَهُما» وأنا أنتظر الآخر حدثنا أنَّ الأمانة في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنة» أي: إنَّ الأمانة نزلت في أصل قلوب الرجال وتمكنت منها، فكانت هي الباعثة على الأخذ بالكتاب والسُّنة، وهذا هو المراد بقوله: «ثم نزل القرآن فعلموا» أي: تعلموا «من القرآن» ومما يتلقون عنه ﷺ، من السنة فكانوا يتعلمون من القرآن قبل أن يتعلموا السُّنة، ثم أخبر النبي ﷺ بأن الأمانة ستُنزع في آخر الزمان، ويقلُّ الأُمناء في الناس، «حتى يقال إنَّ في بني فلان رجلاً أميناً» وهذا يدلُّ على فساد أهل الزمان، لنُدْرَة الرجل الأمين، ولهذا فقد قال النبي ﷺ: «أوَّلَ ما تَفْقِدون مِن دِينِكُم الأمانةُ وآخرُ ما يَبقَى من دينكم الصَّلاةُ»(2)، وهذا يكون ـ والله أعلم في آخر الزمان ـ بعد ذهاب القرون المفضلة، كما جاء في الحديث: «إنَّ بَعدَكُم قَوماً يَخونونَ ولا يُؤتَـمَنون وَيشهَـدُون ولا يُسَشْهَـدُونَ ويُنـذِرُونَ ولا

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٩٥) من حديث أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨٢) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

....

يَفونَ»(١)، إلّا أنَّه لا تذهب الأمانة بالكُلية، بل تبقى في الناس على قلَّة بعد أن كان الأُمناء في القرون المفضلة كثيرين، وهذا الإخبار من النبي ﷺ معناه التحذير، لأن بعض الناس إذا نهيته عن حرام قال لك: كل الناس يفعلون ذلك، حتى إنه ليقال عن الأمين إنه مغفل وقليل الخبرة، وعن الغاش: أنه فاهم وكيِّس، وقد أخبر ﷺ أن الرجل يُمدح وليس فيه ذرة من إيمان.

وقوله في حديث مسلم: «تُرسَلُ الأَمانَةُ والرَّحِمُ» وذلك لعظَم أمرهما، وكبير موقعهما، فمن أدى الأمانة ووصل الرَّحم نجا حين يقوم الناس في المحشر فيتقدمون فيطلبون من يشفع لهم، فيأتون آدم ثم نوحاً ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام فيعتذرون، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها» فيذهب فيخرّ ساجداً بين يدي ربه - وهذا من خصائصه ﷺ - حتى يؤذن له فيشفع، فيأتي الله ليفصل بين العباد كما قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] يأتي ويجيء سبحانه إتياناً ومجيئاً يليقان بجلاله، ثم يُنْصب الصراط على

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

....

متن جهنم، فيمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من ينجو ومنهم من يسقط، والشاهد من هذا كلِّه: أنه ترسل الأمانة والرحم فيقومان بجَنبتَي الصراط يميناً وشمالاً فتصوَّر الرحم والأمانة شخصيتين على الصفة التي يريدها الله تعالى تطلبان المارة بحقهما، فالذي ضيَّع الأمانة تطالبه الأمانة، والذي ضيَّع الرحم تطالبه الرحم في موقف حرج، موقف تشيب فيه النواصي، لأنَّ الخطر عظيم، وهذا فيه بيان عِظمُ الأمانة وأن الواجب على المسلم أن لا يتساهل فيها، فإنها تترصد له في ذلك الموقف الحرج تُطالب بحقها.

باب قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ الآية [التحريم: ٦].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مَسؤولٌ عَن رَعيَّتِه، فالإمامُ راعٍ ومَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ في أَهلِ بيته مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِه، والـمَرأَةُ راعِيَةٌ على بَيتِ زَوجِها وولده ومَسؤولةٌ عَن رعيتها، والوَلدُ راعٍ في مالِ أَبيهِ ومَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِه ومَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، فكلُّكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه» متفق عليه(١). [٢١٣]

---

[٢١٣] الرعاية: هي الولاية على الشيء لحفظه والقيام بمصالحه؛ وكلٌّ عليه رعاية بقَدَره مِنَ الراعي العام ـ وهو ولي الأمر ـ إلى الراعي على أهل بيته، ويدخل في هذا الزوجة في بيت زوجها، والخادم في مال سيده، لأنَّ الكلَّ سيُسأَلُ عمَّا استرعاه الله عليه.

---

(١) البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) واللفظ للبخاري.

....

وقول الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ فيه أن قيِّم الأسرة راعٍ عليها وأنَّه لا بد أن يقي أهله ناراً وقودها الناس والحجارة، فربُّ البيت مأمور أن يقي نفسه ثم أهله وأولاده من النار، بمعنى أن يأمرهم بطاعة الله من صلاة وعبادات وينهاهم عن الحرام والمعاصي، ولا يهملهم فيهلكون، وقد مرَّ في الحديث: «ما مِن عَبدٍ يَستَرعيهِ اللهُ رَعِيَّةً فَيموتُ يَومَ يَموتُ وهو غاشٌّ لرَعيَّته إلّا حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الجَنَّة»[1]، فكلُّ مَن يُضيع أهل بيته متوعد بهذا الوعيد، والغش: هو عدم رعايتهم والقيام عليهم بما يصلحهم، ولذلك فهو مطالب بأن يُخلي بيته من المنكرات والمحرمات، لأنَّه إذا كان البيت مملوءاً بذلك، فلن يسهل عليه الأمر، فلا بد أن يبدأ بالتربية في وقت مبكر، وأما ما يتعلق بالراعي العام فقد سبق الحديث عنه في الأبواب السابقة.

وقوله: «كلُّكُم راعٍ وكلُّكم مَسؤول عن رَعيَّتِهِ» هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الرعاية تكون بحسب الشخص، فالإمام راع على رعيته ومسؤول عنها، وذلك بأن يحوطها برعايته ونصحه، وأن يحكم بالعدل فيها، وأن يُقيم الحدود على من يستحقها، والمرأة كذلك

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢) من حديث معقل بن يسار ﷺ.

....

راعية في البيت على أولادها الصغار وفي شؤون البيت وحفظ محتوياته، فرعايتها في البيت هو الأصل، فإن خرجت وتركت البيت والأولاد وأسندت العمل إلى غيرها، ضيَّعت رعيتها، أما إن كان لديها الوقت الكافي بعد القيام بواجبها البيتي فإنَّها تخرج لتقوم بالأعمال التي تناسبها، وإلّا فتكون قد خانت وضيَّعت الأمانة، فعلى نساء المسلمين أن يتنبهنَ لذلك، هذا هو الأصل في المرأة لا كما يُروِّج الفساق بقولهم: إنَّ نصف المجتمع معطل، لأن المرأة عندهم لا تعمل العمل الذي يريدونه وهو تركها لعملها الذي ستسأل عنه يوم القيامة وذهابها للعمل ليس من اختصاصها، فعمل المرأة في بيتها، والقيام على أولادها بما يصلحهم هو صلاح المجتمع كله، ولن تنفعها أعمالها خارج البيت وهي مضيّعة لبيتها، وكذلك الخادم فهو راع في مال سيده، فيقوم عليه ويحافظ عليه، وكذلك الخادم الذي يسترعيه سيده لا بد أن يحافظ على أعمال سيده، ولذلك لا يقول أحدكم: أنا لست براعٍ، بل الكل راعٍ حتى نفس الإنسان فإنها تحتاج منه إلى رعاية وتأديب ومجاهدة، وتعويد على طاعة الله.

باب الرفق بالمملوك

عن أبي مسعود البَدْري ﷺ؛ أنه ضَربَ عبداً له فقال النبيُّ ﷺ: «اعْلَم أبا مسعود، أنَّ اللهَ أقدَرُ عليك مِنْكَ على هذا الغُلامِ» قلتُ: هو حُرٌّ لوَجهِ الله تعالى، فقال: «أَمَا إنَّك لَو لَمَ تَفعَل، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ ـ أو لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[1]. [٢١٤]

---

[٢١٤] في هذا الباب الحَثُّ على الرِّفق بالمملوك والخادم، وفيه الحث على استعمال العفو وكظم الغيظ، وفيه أنَّ مَن ضيَّع رعيته فقد جاء باباً من أبواب الكبائر، ومن هؤلاء المملوك وهو الرقيق، فإنَّ سيده مأمور بالرفق به وعدم المشقة عليه، فإن حقه مذكور ضمن الحقوق العشرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، يعني: المماليك، فلا يجوز أن تقول: هذا ملك لي، ويحقُّ لي أن أتصرف فيه كيف أشاء، نعم هو

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

....

ملك لك، لكن لا يجوز أن تحمِّله فوق طاقته وتجوّعه، فأنت مسؤول عنه يوم القيامة، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة سيئ المَلَكَة»[(١)].

أما حديث أبي مسعود البدري وفيه: «أنه ضرب عبداً له فقال له النبي ﷺ: اعلَمْ أبا مسعودٍ، أن الله أَقْدَرُ عليك منك على هذا الغُلام» فقد نَدِمَ أبو مسعود على ما فعل بهذا الغلام فأعتقه لوجه الله كفارة لما فعل، فقال له النبي ﷺ: «أما إنَّكَ لو لم تَفعَل لَـمَسَّتْكَ النَّار» وهذا فيه الحث على الإحسان إلى المماليك وهم الأرقاء الذين جعلهم الله تحت يدك، وسبب الرق الكفر كما عرَّفه العلماء بقولهم: الرق: عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر، وذلك أن المسلمين إذا قاتلوا الكفار واستولوا على أولادهم ونسائهم فإنهم لا يقتلونهم، ولكن يسترقُّونهم، ولا يرتفع الرِّق إلَّا بالعتق، فالرق من أحكام الجهاد في سبيل الله، أما الرِّق الذي مصدره السرقة فحرام كما في الحديث قال الله: «ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة» منهم: «ورجُلٌ باعَ حُرّاً فأكل ثَمَنَه»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣١)، وابن ماجه (٣٦٩١)، والترمذي (١٩٤٦) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

والحاصل أن الأصل في بني آدم الحرية، فلما عصوا الله بالكفر جعل الله عليهم الرق عقوبة لهم، فالرق أصل شرعي لا ينكره إلَّا جاحد أو جاهل أو زنديق.

باب الرفق بالبهائم

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ رأَى حِماراً قَدْ وُسِمَ في وَجْهِه، فأنكَرَ ذلك[١].

وفي رواية: «لَعَنَ اللهُ الذي وَسَمَهُ»[٢].

وفي رواية: «نَهى عَن الضَّرْبِ في الوَجْهِ وعن الوسمِ في الوجه» رواه مسلم[٣]. [٢١٥]

---

[٢١٥] البهائم تدخل في المِلْك لأن الله مَلَّكنا إياها، وسخرها لنا، وهي أرواح تجوع وتعطش، فلا يجوز للإنسان أن يهملها ويقول: إنها بهائم، وقد نُهيَ عن تعذيبها فإنَّ لها حقاً وحرمةً.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ «رَأى حماراً قَد وُسِمَ في وَجهِهِ فأنكر ذلك» الإساءة للحيوان لا تجوز كأن يضربه على وجهه أو يسمه والوسم هو الكي عليه، لأنَّ الوجه مجمع الحواس، وإحساسه في وجهه أكثر من غيره، وهو تعذيب وتشويه له،

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٦٢٥).

(٢) عند مسلم (٢١١٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٣) في «صحيحه» برقم (٢١١٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

....

وفي الرواية الأخرى جاء اللعن بحقِّ من فعل ذلك، واللعن لا يكون إلّا على كبيرة، وكذلك في الرواية الأخرى ورد النهي عن الضرب في الوجه، لأنَّ كل هذا لا يجوز وهو منهيٌّ عنه، لأنَّ فيه تعذيباً للحيوان وتعريضاً له للعمي أو غيره من الإصابات في الوجه.

ولهما[1] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «دَخَلت امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ ربَطَتها، فَلا هِيَ أطعَمَتْها، ولا هِيَ أرسَلَتْها تأكُلُ مِن خَشاشِ الأَرْضِ حَتَّى ماتَت». [٢١٦]

---

[٢١٦] قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «دَخَلَت امرأةٌ النَّارَ في هِرَّة» هذا الحديث يدل على أنَّ من أمسك حيواناً، حتى وإن كان مما لا يُملَك، لكنه يجوز له أن يحبسه، لكن بشرط أن يؤمن له الطعام والشراب، وأن لا يعذبه، فالنبي ﷺ لم ينكر على المرأة أنها حبست الهرّة، وإنما أنكر الإساءة إليها، وأنها لم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، فلا يجوز للمسلم أن يسيء للحيوانات أو الطيور ويعطّشها ويجوّعها ويعرّضها للبرد الشديد، فإذا ماتت بسبب من هذه الأسباب، فإنه يُعذب بالنار كما حصل لتلك المرأة، فإنها دخلت النار بصنيعها في الهرة.

وهذا هو خُلق الإسلام العظيم، فالحيوانات لها حرمة ولا يجوز تعذيبها، سواء كانت من الحيوانات التي تُملك أو التي لا تملك، واليوم نرى الغرب يتبجح بالمحافظة على الحيوانات والبيئة، ويفتخر بذلك ويجعلون جمعيات لحقوق الإنسان، وفي هذا الجانب

---

(١) البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩).

....

نقول لهم: إنَّ الإسلام قد سبق الجميع في ذلك، ولهذا فهو قد رتَّب العقاب والثواب على الإحسان أو الإساءة للحيوان، ليس حساباً دنيوياً فحسب، بل أخروياً كذلك، فتلك المرأة دخلت النار في هرة.

ولمسلم(١) عن ابن عمرو(٢) رضي الله عنهما مرفوعاً: «كَفَى بالمرءِ إثماً أن يَحْبِسَ عمَّن يملِكُ قُوتَهُ».

ولأبي داود(٣): «أن يُضَيِّعَ مَن يَقوتُ».

ولهما(٤) عن الحسن رحمه الله أنه قال لصاحب الجَمَلِ الذي لم يَعْلِفْهُ: «أما إنَّه ليحاجَّك يوم القيامة». [٢١٧]

---

[٢١٧] قوله ﷺ في حديث ابن عمرو: «كَفَى بالـمَرءِ إثماً أنْ يَحبِسَ عَمَّن يَملِكُ قوتَهُ» هذا عام في كل من أنت مكلف بالإنفاق عليه، فإنك آثم إذا حَبست عنه رزقه، ويدخل في هـذا الحيوانات التي تحت يدك، فأنت مكلف بإطعامها ورعايتها ولا يجوز لك أن تحبس عنها رزقها كالإبل والأغنام، ولا يجوز لك أن تحلبها فتحرم أولادها، وإنما تأخذ ما يزيد عن حاجة أولادها، وقد شكى الجمل للنبي ﷺ أنَّ صاحبه يجوّعه، فأمر النبي ﷺ الرجل بأن لا يجوِّعه، وفي حديث الحسن أنه أوضح لصاحب الجمـل الـذي لم يعلفه أن هـذا الجمل

---

(١) في «صحيحه» (٩٩٦).

(٢) جاء في الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبت كما في «صحيح مسلم».

(٣) في «سننه» برقم (١٦٩٢) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) هو عند أحمد (١٧٤٥)، وأبي داود (٢٥٤٩) من طريق الحسن بن سعد عن عبدالله بن جعفر مرفوعاً بمعناه، ولم يخرجه البخاري ومسلم.

....

سيحاجُّه ويطلب حقه منه يوم القيامة، وفي هذا معجزة من معجزات النبيّ ﷺ الدالة على صدقه حيث فهم شكوى الحيوان، وفيه تواضعه وكمال شفقته ورحمته حتى في البهائم التي لا لسان لها لتشكوا مما بها من جوع وعطش.

باب إباق العبد

عن جرير بن عبد الله ﷺ مرفوعاً: «أَيُّما عَبدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَةُ»(١). [٢١٨]

---

[٢١٨] العبد المراد به المملوك، وإباقه: هروبه من سيده، والأصل في العبد أن يخضع لسيده، ويقوم بالعمل الذي يوكله إليه، فإن هرب ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله: «فقد برئت منه الذمة»، يعني: ذمة الله وحفظه، وقيل: ذمة سيده حتى يرجع إلى مالكه، والإباق كبيرة من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩).

باب ظلم الأجير

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «قال الله تعالى: ثلاثَةٌ أنا خَصْمُهُم يَومَ القِيَامَةِ، ومن كنتُ خصمُه خَصَمْتُه: رَجُلٌ أَعطى بِي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرّاً فأَكَلَ ثَمَنَه، ورَجُلٌ استَأجَرَ أجيراً فاسَتَوْفَى مِنهُ ولَم يُؤتِهِ أَجْرَهُ» رواه البخاري[١]. [٢١٩]

---

[٢١٩] ظلم الأجير يكون بمنعه أجرته، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «أَعْطِ الأجيرَ أجرَهُ قَبلَ أن يَجِفَّ عَرَقُه»[٢]، لأنَّه أدى لك العمل فاستحق الأجرة، فإن لم تعطه فقد ظلمته. قد يتساهل كثير من الناس في أجور العمال وهم فقراء محتاجون، فيستغل ضعفهم وحاجتهم، فيطردهم ولا يعطيهم أجرهم، وقد قال الله تعالى في هذا الحديث القدسي: «ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهم يوم القيامة» هذا الحديث فيه أنَّ الله قال، وهذا إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: «إنَّ الله قال: ثَلاثَةٌ أنا خصمهم» أي: أخاصمهم، فمَن أكل حقهم واستضعفهم في الدنيا، فإنَّ الله يكون خصمه يوم

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٢٧٠) دون قوله: «ومن كنت خصمه خصمته».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

....

القيامة، ومن كان الله خصمه خَصَمَه، وأول الثلاثة: «رجل أعطى بي ثم غدر»، بمعنى أنه خان العهد، والله يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، فالواجب الوفاء بالعهد الذي يكون بين الراعي والرعية وبين الناس بعضهم مع بعض، فالواجب الوفاء بالعهود، فمن خان العهد كان الله تعالى خصمه يوم القيامة.

والثاني: «رجل باع حرّاً فأكل ثمنة» الأصل في بني آدم الحرية، لأن الله تعالى خلقهم لعبادته، لكن إذا حصل قتال بين المسلمين والكفار وأُسِرَ الكفار وفيهم نساء وأطفال فإنهم لا يُقتلون، وإنما يُسْتَرقّون، ويستقر الرقُّ عليهم وعلى فروعهم، ولا يرتفع إلَّا بالعتق، فالرِّق في الإسلام حكم شرعي لا ينكره إلَّا جاهل أو ملحد، أما الرِّق غير الشرعي وهو السلب والسرقة ونهب الذراري ثم بيعها فهذا حرام، ومن فعلَه فقد أتى كبيرة من كبائر الذنوب، ولا يجوز للمرء أن يرقق نفسه ويوافق على أن أحداً يتملكه بغير الرق الشرعي لأنه عبد لله، ففي هذا الحديث أنَّ مَن باع حرًّاً فقد مَنَعه وحَرَمه التصرُّف فيما أباح الله له، وألزمه حالَ الذلَّة والصغار، وهذا ذنب عظيم، وكبيرة من كبائر الذنوب.

....

والثالث: «رجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يؤته أجره» فيه دليل على أن الأجرة تُستحق بالعمل، فكل من استخدم أجيراً ولم يعطه أجرته فكأنه استعبده، وهذا كبيرة من كبائر الذنوب التي يجب التحذير منها لما يترتَّب عليها من الوعيد الشديد.

باب سؤال المرأة الطلاق

أخرج الترمذي وابن حبان[1] في «صحيحه» عن ثوبان ﷺ مرفوعاً: «أَيُّما امرَأةٍ سَألَتْ زَوْجَها الطَّلاقَ مِنْ غَيْرِ ما بَأسٍ فحَرامٌ عَلَيْها رائِحَةُ الجَنَّةِ». [٢٢٠]

---

[٢٢٠] المرأة يجب عليها أداء حقوق الزوج، ويحرم عليها النشوز وهو: الامتناع عن حقوقه، ويحرم عليها أن تسأله الطلاق من غير سبب، فإن سألت كان هذا كبيرة، أما إن طلبت الطلاق لسبب من الأسباب كأن تكون كارهةً له ولا تحب العيشَ معه، فإن لها ذلك، ويكون ذلك بالخُلع على عوض ويسمى بالفدية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ إلَّا إن سمحت نفسه هو وطلقها من غير عوض فهذا حسن، وكذلك يجوز لها طلب ذلك إن كان مقصِّراً بحقها، فلها أيضاً أن تطلب الطلاق.

وقوله ﷺ: «أَيُّما امرَأةٍ سَألَت زَوْجَها الطَّلاقَ مِن غَيْرِ ما بأسٍ فحَرامٌ عليها رَائِحَةُ الجَنَّةِ» في هذا الحديث وعيد شديد لمن سألت زوجها الطلاق من غير سبب يبيح لها ذلك، فإنها تحرم من رائحة الجنة، ورائحة الجنة تشم من مسيرة خمسين عاماً، وهذا يعني أنها لا

---

(١) الترمذي في «جامعه» (١١٨٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٨٤).

....

تدخلها مع أول الداخلين، فإنَّ نشوزها على زوجها ليس بكفر، وإنما هو كبيرة، وأصحاب الكبائر تحت مشيئة الله، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذَّبهم.

باب ما جاء في الديوث

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «ثلاثةٌ لا يَدْخلونَ الجَنَّة: «العاقُّ لِوالدَيهِ، والدَّيُّوثُ، ورَجِلَة النِّساء». رواه في «المستدرك»[1]، والطبراني[2] بسند قال المنذريُّ[3]: لا أعلم فيه مجروحاً قريباً منه، وفيه: «فما الدَّيُّوث، قال: «الذي لا يُبالي بمَن دَخَلَ عَلى أهلِهِ»، قيل: فما الرَّجِلَةُ؟ قال: «الَّتي تَتَشَّبه بالرِّجال». [٢٢١]

---

[٢٢١] الدّيوث: هو الذي يُقِرُّ السوء في أهله، بأن يرى أحداً يدخل عليهم ولا ينكر ذلك، والرجل راعٍ في بيته وهو مسؤول عن رعيته، فلا يجوز أن يترك زوجته تكلم الرجال أو تمازحهم، ويجب أن يمنع الوسائل المؤدية إلى الدياثة كالاختلاط والسفور، والسفر من غير محرم.

---

(١) ١/ ٧٢.

(٢) في «الكبير» (١٣١٨٠).

(٣) «الترغيب والترهيب» ٣/ ٣٠-٣١، وقول المنذري ورد بعد ذكر حديث عمار بن ياسر، وليس في الحكم على إسناد حديث ابن عمر.

. . . .

وقوله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يَدخُلون الجَنَّة: العاقُّ لوالَدِيه، والدَّيُّوث، ورَجُلَةُ النساءِ» الديوث ذكرنا معناه، وأمّا الرَّجِلَة من النساء فهي التي تتشبه بالرجال في لباسهم وأقوالهم وأفعالهم، واللعن للجنسين للمشبهات من النساء بالرجال وللمتشبهين من الرجال بالنساء، فدلَّ على أنَّ هذا الفعل من الكبائر.

باب ظلم المرأة

أخرج الطبراني[١] بسند رجاله ثقات، أنه ﷺ قال: «أيُّما رَجُلٍ تَزَوَّج امرَأَةً على ما قَلَّ مِنَ المَهرِ أَو كَثُرَ، وليسَ في نَفسِه أن يُؤَدِّيَ إلَيها حقَّها خَدَعَها، فَماتَ ولَمْ يُؤَدِّ إلَيها حَقَّها لَقِيَ الله يومَ القيامة وهُوَ زانٍ». [٢٢٢]

---

[٢٢٢] هذا فيه وعيد شديد على لمن منع حق الزوجة، فإنَّ الله تعالى رتَّبَ لكلٍّ من الزوجين حقوقاً على الآخر، فمن منع حق الآخر كان هذا كبيرة من الكبائر، فإن تزوَّج رجل امرأة على مهر كثير أو قليل، ووثقت المرأة أنه سيقوم بحقوقها، ولكنه أضمر في قلبه أن لا يفعل ذلك فمات على ذلك مات وهو زانٍ، لأنَّ هذا خيانة وغدر، وكذلك الذي يتزوج بنية الطلاق لقضاء شهوته ولا يريد أن يستمر معها رغم أنها تزوجته ليقوم بحقوق الزوجية، فهذا يلقى الله وهو زان، لأنَّه ما وفى بالعقد، أي: إن استمتاعه بها بدون مقابل، بل بالخديعة، فيكون له نصيب من الزني، وهذا فيه وعيد شديد، نعم العقد يُحلها، لكن لا بد من الالتزام بحقوق العقد وواجباته.

---

(١) في «الصغير» (١١١) من حديث أبي ميمون الكردي.

باب الإشارة بالسلاح على وجه اللعب

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا يُشيرنَّ أحدُكم إلى أَخيه بالسِّلاح، فإنَّه لا يَدري لَعَلَّ الشَّيْطانَ يَنزِعُ في يَده فيَقَعُ في حُفْرَةٍ من النَّار». أخرجاه[١].

ولمسلم[٢]: «مَن أشارَ إلى أَخيهِ بِحَدِيدَةٍ، فإنَّ الملائِكَةَ تَلْعَنُه حَتَّى يَرُدَّها، وإنْ كانَ أخاهُ من أبيهِ وأُمِّه».

وللترمذي[٣] وحسَّنه عن جابر ﷺ: نَهى رسولُ الله ﷺ عن تَعاطي السَّيفِ مَسْلُولاً».

وفي «المسند»[٤] عن أبي بكرة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَومٍ يَتَعاطَوْنَ السَّيفَ مَسْلولاً فقال: «لَعَنَ اللهُ مَن فَعَلَ هذا، أوَ لَيسَ قَدْ نَهَيتُ عَنه؟» ثم قال: «إذا سَلَّ أَحَدُكُم سَيْفَهُ فنَظَرَ إِلَيه ثُمَّ أرادَ أن يُناوِلَه أَخاهُ فلْيُغْمِدْهُ ثُمَّ يُناوِلْهُ

---

(١) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٢) مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الترمذي (٢١٦٣)، وأبوداود (٢٥٨٨).

(٤) «مسند» أحمد برقم (٢٠٤٢٩).

إِيَّاهُ». [٢٢٣]

---

[٢٢٣] ترويع المسلم لا يجوز بأيِّ حال، حتى ولو كان على سبيل المزاح، لأنه ربما يفلت مِنْ يده السلاح وينزغ الشيطان بينهما.

وقوله: «لا يُشيرَنَّ أحَدُكُم إلى أَخيه بالسِّلاح» في هذا نهيٌ عن الإشارةِ بالسلاح، ولو كان هازلاً، فإنَّ من فعل ذلك فهو حري أن يصيب أخاه بقتل فيوقع نفسه في النار، لأنه تسبب في قتله، فلا يجوز التلاعب بالسلاح، بل يجب ضبطه وتأمينه حفاظاً على حياة أخيه وأمانه.

وكذلك لا يتبادلان السيف مسلولاً، فربما يحصل شرٌّ بذلك، والشرع جاء بسد الذرائع المفضية إلى المحاذير، فلا بُدَّ أن يوضع السيف في جِرابه، سواء كان ذلك في جدّ أو هزل.

أما قوله في الحديث: «نهى رسول الله ﷺ عن تعاطي السيف مسلولاً». لأنَّه قد يُخطئ في تناوله فيجرح شيئاً من جسمه أو يسقط على أحد فيؤذيه، ويدخل في هذا النهي عن كل ما في معناه كالبندقية إذا كانت الرصاصة فيها، فلا بُدَّ أن تؤمن الإنطلاق، وقد رتَّب النبي ﷺ على ذلك وعيداً أنه من فعل ذلك بأن يقع في حفرة من النار، بالإضافة إلى اللعن، فدلَّ على أنه كبيرة من كبائر الذنوب.

باب العصبية

عن جُندب بن عبد الله ﷺ مرفوعاً: «مَن قُتِلَ تَحتَ رايةِ عُمِّيَّـةٍ يَدعُو عَصَبِيَّةً أو يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَـتُه جاهليَّـةٌ» رواه مسلم[1]. [٢٢٤]

---

[٢٢٤] من الكبائر التي نهى عنها رسول الله ﷺ العصبية الجاهلية، وهو أن يتعصب المرء لقومه أو قبيلته أو شيخه أو مذهبه، سواء كانوا على حق أو باطل، والأصل في المسلم أن يكون مع الحق أينما دار، فإن كان الحق مع قومه صار معه، وإن صار مع غير قومه دار مع الحق، أما الذي يكون مع قومه مطلقاً سواء كانوا على حق أو باطل كان هذا من العَصبيَّة الجاهلية، وكذلك الذي يتعصب لشيخه أو إمامه ولو كان مخطئاً، فإنه لا يجوز للمسلم أن يكون كما قال الشاعر الجاهلي:

وَهَلْ أنا إلّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُـدِ

هذه هي عصبية الجاهلية: وكذلك الذي يتعصب لحزبه فهو مع حزبه وإن كان الحق مع غيره، في حين أنَّ الأصل في المسلم أن يبحث عن الحق ويتبعه أينما كان.

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٥٠).

....

وأما قوله: «مِن قُتِلَ تَحتَ رايَةٍ عِمِيَّةٍ» العِمِّيَّة: بكسر العين وضمها، وجهان، والمراد بها الضلالة، فهذا الحديث فيه التنفير من العصبية الجاهلية، وأن الأصل في المسلم أن يقاتل تحت راية الحق، ولا يقاتل تحت راية الباطل والضلالة وهي العمّية، فمن قُتِلَ تحتها ينصر باطلاً أو يذلّ حقّاً «فقِتْلَةٌ جاهلية» يعني: يموت ميتة أهل الجاهلية، وفي هذا وعيد شديد، وقد حصل هذا في عصرنا الحاضر عند أصحاب الأفكار المنحرفة والهدامة التي يدافعون عنها ويقاتلون دونها، فيقتلون ويعتبرون أنفسهم شهداء، والحقُّ أنَّ هؤلاء قد قتلوا تحت راية عميّة مخالفة لرأي الجماعة وشاقَّة لعصا الطاعة، فتكون قِتلتهم جاهلية.

ولأبي داود[1] بسند جيِّدٍ عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعاً وموقوفاً: «فمَن نَصَرَ قَومَهُ على غيرِ الحَقِّ، فهُوَ كالبَعِيرِ الذي رُدِّيَ في بئرٍ، فهُوَ يَنزِعُ بِذَنَبِه». [٢٢٥]

---

[٢٢٥] وقوله: «فَمَن نَصَرَ قَوْمه عَلَى غَيرِ الحَقِّ فهو كالبَعِير الذي رُدِّي في بئر، فهو ينزع بذَنَبِه» الواجب على المسلم أنَّه إذا رأى قومه على غير الحق أن يناصحهم ويبيِّن خطأهم، فإن قبلوا منه فالحمد لله، وإن لم يستمعوا له اعتزلهم ولا يقاتل معهم على الباطل، فإذا قاتل معهم وهم على غير الحق فهو كالبعير الذي يسقط في بئر ويُحرك ذنبه يريد النجاة، وهذه الحركة غير منجية له، وكذلك الذي يقاتل مع قومه على غير الحق يُريد بذلك العزة وهو في الحقيقة يُذلّ نفسه، وأنَّ قتاله قتال ذلة.

---

(١) في «سننه» برقم (٥١١٧).

باب من آوى مُحدِثاً

عن عليٍّ ﷺ قال: حدثني رسولُ الله ﷺ بأربع كلمات: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ والدَيهِ، لَعَن اللهُ من آوى مُحدِثاً، لَعَنَ اللهُ من غَيَّر مَنارَ الأرضِ» رواه مسلم(١).
[٢٢٦]

---

[٢٢٦] المُحْدِث: هو الذي فعل جريمة يستحق عليها الحد كالزاني، أو السارق، أو شارب الخمر، فالذي وجب عليه حد من الحدود التي شرعها الله سبحانه ـ وهي رادعة للناس عن الجرائم والفواحش ـ لا بُدَّ من تنفيذها ولا يجوز حماية من وجبت عليه أو الشفاعة فيه، وفي الحديث: «مَن حالَتْ شَفاعتُه دُونَ حَدٍّ من حُدودِ الله فقد ضادَّ الله»(٢). فالحدود لا يجوز لأَحَدٍ أن يتدخل لإسقاطها، بل يجب تنفيذها طاعة لله وردعاً للمجرمين، فإذا قطعت يد السارق أمن الناس على أموالهم، وإذا جُلد الزاني أو رُجم أمن الناس على أعراضهم وأنسابهم، بخلاف ما إذا عطَّل الناس الحدود فإنَّ الفوضى تَعُمُّ، وستنتشر الجريمة، لا كما يقول البعض: إنَّ إقامة

---

(١) في «صحيحه» (١٩٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥٣٨٥)، وأبوداود (٣٥٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

الحدود وحشية، بل إنَّ فعل الجرائم هو الوحشية والحدود رحمة، فكيف يرحمون المجرم ولا يرحمون من وقع عليه الظلم؟ ولذلك قال النبي ﷺ: «حَدٌّ يُقام في الأرضِ خَيرٌ للنَّاسِ مِن أن يُمطَروا ثَلاثينَ أو أربَعينَ صَباحاً»[1].

وقوله ﷺ في حديث علي: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيْرِ الله» هذا الحديث فيه أنه حدثه النبي بأربع كلمات يعني: أربع جمل؛ الأولى: «الذبح لغير الله»، فبدأ به لأنه شرك وهو أعظم الذنوب، كأن يذبح تقرُّباً لغير الله، فيذبح للجِنِّ أو للصنم، أو للشياطين كي يأمن إيذاءهم، والذبح عبادة لا تجوز إلا لله، قال الله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢]، كما أن الصلاة لا تكون إلا لله وكذلك الذبح، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾[الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]، فقرن تعالى النسك مع الصلاة، والنسك هو الذبح، فدل على أنه عبادة عظيمة لا تجوز لغير الله، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الدين، وهو ملعون، أي: مطرودٌ من رحمة الله، فدلَّ على أنَّ الذبح لغير الله من أكبر الكبائر.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

والثانية: لعن الوالدين؛ فلعن الوالدين كبيرة، لأنَّ الله لعن من يلعنهما، لأنَّ هذا ينافي ما أمر الله به من الإحسان إليهما وبرهما بالقول والفعل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإذا خالف هذه الأوامر ودعا عليهما باللعنة، فإنَّ الله يلعنه، يعني: يطرده من رحمته، وقد لا يلعن الرجل والديه مباشرة، ولكن يَلْعن أبا الرجل فيلعن أباه أو أمه، فقد تسبب بلعنهما، فإنَّ الله يلعنه.

والثالثة: لعن من غير منار الأرض، والمراد بها: المراسيم التي تكون على حدود الأملاك، بأن تكون الأرض مشتركة ثم تقسم وتوضع علامات على حدودهم، فمن غَيَّر هذه المراسيم لعنه الله، لأن في ذلك تضييعاً لحقوق الناس.

والرابعة: تحدثنا عنها في شرح الباب، وهي إيواء المحدِث.

كتاب المظالم

باب ظلم اليتيم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. [٢٢٧]

---

[٢٢٧] المظالم: جمع مظلمة مأخوذ من الظلم وهو: وضع الشيء في غير موضعه، والظلم موبقة كبيرة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: ٤٨]، فالآيات والأحاديث كثيرة في النهي عن الظلم والتحذير منه، والله قد لعن الظالمين، واللعن على الذنب يدلُّ على أنه كبيرة.

وأما قوله في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، هذا وعيد من الله سبحانه وتعالى: للذين يأكلون أموال اليتامى بغير حق، أنهم يأكلون في بطونهم ما يُورِدُهم النار، وهم يظنون أنهم يأكلون طعاماً هنيئاً، ولكنهم إنما يأكلون ناراً، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً شديدة يحترقون فيها ويصلاهم حرَّها.

ولهما(١) عن أبي هُريرة ﷺ مرفوعاً: «اجتنِبوا السَّبعَ الـمُوبِقات» قالوا: وما هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحْرُ، وقَتلُ النَّفسِ الَّتي حَرَّم الله إلّا بالحقِّ وأَكل الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحفِ، وقَذفُ الـمُحصَناتِ الغافِلاتِ الـمُؤمِناتِ». [٢٢٨]

---

[٢٢٨] وقوله ﷺ: «اجتَنِبوا السَّبْعِ الـموبِقات» الموبقات، يعني: المهلكات وأولها: الشرك بالله، وقد سلف الحديث عنه والثانية: السحر، والسحر في اللغة: ما خفي ولطف سببه، وأما في الشرع فهو على قسمين: الأول: حقيقي يؤثر بالأبدان، إما يقتل المسحور، أو يمرض الجسم وهو: عبارة عن رقى وعُقد وعزائم تؤثر في بدن المسحور وعقله، وهذا أعظم أنواع السحر.

الثاني: سحر تخييلي، وهو أن يُخَيِّل الساحر للناس الأمور على غير حقيقتها، فيخيل للناس أنه يسحب السيارة بشعره، أو أنه يطعن عينه بأسياخ الحديد ولا تؤثر فيه، أو يأكل الجمر، وهذا مثل سِحْرِ سَحَرةِ فرعون لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد حشوها بالزئبق، فخيّل للناس أنها تسعى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ

---

(١) البخاري (٢٧٦٦)، مسلم (٨٩).

....

ﭐلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، والسحر بنوعيه كفر بالله كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فجعل تعلمه وتعليمه كفراً، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والسحر ضرر محض، قال الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهذا الساحر إذا ثبت عليه السحر إما بإقراره أو بالبينة، فإنه يُقتل حتماً ولا يُستتاب، قال عليه الصلاة والسلام: «حَدُّ الساحِرِ ضَربةٌ بالسَّيفِ»(١).

وقد قَتَلَ ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ السَّاحِرَ: عمر وابنته حفصة، وجندب بن كعب، فقد كتب عمر ﵁ إلى عماله: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال الراوي: فقتلنا ثلاث سواحر، وحفصة أم المؤمنين قتلت جارية لها سحرتها، وجندب بن كعب قتل ساحراً بحضرة أحد أمراء بني أمية، كان يُخيِّل للناس أنه يقتل الشخص، ثم يُحييه، فقرب منه جندب وقتله، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠) من حديث جندب ﵁.

....

والثالث: قتل النفس التي حرَّم الله قتلها إلَّا بالحق، فالمؤمن لا يجوز قتله إلَّا بإحدى ثلاث كما قال النبي ﷺ: «لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ يَشهَدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلّا بإحدى ثلاثٍ: الثَّيِّبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتارِكُ لدِينِهِ المُفارِقُ للجَماعةِ»[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، هذا في المؤمن، وكذلك الكافر المُعاهد والمستأمَن، فهو داخل في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قتَلَ مُعَاهِداً لم يَرِحْ رائحَةَ الجَنَّة، وإنَّ رِيحَها يوجَدُ مِن مَسيرَةِ أرْبَعينَ عاماً»[2]. وأمَّا قتل الخطأ، فإنه إذا قُتل المعاهد خطأً ففيه دية مسلَّمة إلى أهله وكفارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، هذه النفس التي حرَّم الله التي لا يجوز قتلها إلَّا بالحق، وهو ما ذكره النبي ﷺ في الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

....

والرابع: أكل الربا، وهو من أخبث المآكل والمكاسب، وقد جاء الوعيد الشديد عليه في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والربا ممحوق ولو تضخمت الأموال العائدة منه، قال الله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[البقرة: ٢٧٦]، بالإتلاف والنكسات الاقتصادية أو يمحقها بنزع البركة منها، فآكلو الربا لا ينتفعون بالأموال، لأنَّ الله يُذهب بركتها ويمحقها، ولا تُقبل منهم الصدقات منها ولا يُقبل حَجُّهم منها ولا صِلتهم منها، وإنما يُبارك الله بالمال الطيب المكتسب من الحلال فيُنمِّيه في الدنيا بالبركة، ويثيب عليه في الآخرة.

الخامس: أكل مال اليتيم، وقد سبق الحديث عنه.

السادس: التولي يوم الزحف، وذلك إذا التقى المؤمنون والكفار والتحم القتال بينهم أو تقابل الجيشان فلا يجوز لمن حضر من المسلمين أن ينصرف ويترك القتال، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

....

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦]، فالتولي يوم الزحف من السبع الموبقات.

السابعة: قذف المؤمنات الغافلات، يعني: أن يرمي بالزنى امرأة عفيفة مسلمة غافلة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾ [النور: ٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ ﴾ [النور: ٢٣ – ٢٤] هذه هي السبع الموبقات والعياذ بالله.

باب غَصْبِ الأرض

عن سعيد بن زيدٍ ﷺ مرفوعاً: «مَن اقتَطَعَ شِبْراً مِن الأرضِ ظُلْماً طَوَّقَهُ الله إياه يومَ القِيامَةِ مِن سَبْعِ أَرَضِينَ» أخرجاه(١). [٢٢٩]

---

[٢٢٩] ومن المظالم التي هي من كبائر الذنوب: غصب الأرض، وهو: الاستيلاء عليها بغير حق، فإنَّ من غصب شيئاً منها «طوقه من سبع أرضين يوم القيامة» يعني: تخسف به الأرض، فتصير البقعة المغصوبة في عنقه كالطوق يحمله فيُعذَّب به.

وسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجَنَّة، وهو ابن عم عمر ابن الخطاب ﷺ، ادَّعت عليه امرأة مجاورة له أنه أخذ أرضها فقال: أنا آخذ أرضها وقد سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ اقتَطَعَ شِبراً من الأرضِ ظُلماً طَوَّقَهُ اللهُ إياه يَومَ القِيَامَةِ مِن سَبعِ أَرَضينَ»، هذا في المساحة الكلية فكيف بالذي يقتطع المساحات؟ فإنَّه يطوَّقها من سبع أرضين يوم القيامة، ودلَّ الحديث على أن الغَصْب كبيرة، وأنَّ غَصْب الأرض أعظم من غَصْب غيرها إذ لم يرو فيه هذا الوعيد

---

(١) البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠)، واللفظ لمسلم.

....

الشديد، ودلَّ الحديث على أنَّ الأرض طباق كالسماوات، وأنَّ مَنْ ملك أرضاً ملك ما تحتها، فله أن يحفر فيها وما وجد فيها من كنوز أو معادن جامدة فهي ملكه لأنها من أجزاء أرضه، وكذلك يملك هواءها فله أن يبني فوقها ما لم يَضُرّ بمَن يُجاوره.

باب الظُّلم في الأبدان

عن ابن عمرو[١] رضي الله عنهما مرفوعاً: «ثَلَاثةٌ لا يَقبَلُ اللهُ مِنهُم صَلاةً: مَن أَمَّ قَوماً وَهُم لَهُ كارِهونَ، ورَجُلٌ أَتى الصَّلاةَ دِبَاراً، ـ والدِّبار: أن يأتيها بعد أن تَفُوتَه ـ ورَجَلٌ اعتَبَدَ مُحَرَّراً». رواه أبو داود والطبراني[٢] بسند جيد. [٢٣٠]

---

[٢٣٠] الظلم في الأبدان يكون بالقتل أو بالضرب، وأما هذا الحديث: «ثَلاثَةٌ لا يَقبَلُ اللهُ مِنهُم صَلاةً» هذا فيه وعيد شديد لهؤلاء الثلاثة الوارد ذكرهم، وأولهم: «من أَمَّ قوماً وهُم لَهُ كارِهُون»، أي يكرهونه بحق، أما إن كانوا يكرهونه عن هوًى بغير حق فلا، فإنه لا يدخل في الوعيد الوارد في هذا الحديث، وأما إن كانوا يكرهونه بحق كأن يكون لأمر مذموم في الشرع لبدعته مثلاً أو فسقه فهذا لا تُقبل صلاته فلقد جاء في الحديث كذلك «أنَّ صلاته لا تُرفع فوق رأسه»[٣].

---

(١) جاء في الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبت من مصادر التخريج.

(٢) أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه (٩٧٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٧١).

....

والثاني: «من أتى الصلاة دِباراً» يعني: يتأخر عن الصلاة مع الجماعة حتى تفوته، أو يتأخر عن الصلاة في وقتها حتى يخرج الوقت، هذا لا تقبل صلاته.

والثالث: «ورجل اعتَبد مُحَرَّراً» أي: اتخذ الحر عبداً، فالأصل في الإنسان الحريّة فلا نسلب حريته إلَّا بأمر شرعي كأن يسبي في الجهاد في سبيل الله، ولهذا فإنَّ الذين يَسرقون الأحرار الصغار ثم يبيعونهم فهؤلاء لا تقبل صلاتهم.

وعن أبي أُمامة ﷺ مرفوعاً: «مَن جَرَّد ظَهْرَ مُسلِمٍ بِغَير حَقٍّ لَقِيَ الله وهُوَ عَلَيهِ غَضبانُ»(١). [٢٣١]

---

[٢٣١] وقوله: «من جَرَّد ظهر مسلم بغير حقٍّ» يعني: عَرَّاه من ثيابه ليضربه بغير حق ليشتدَّ عليه الألم «لقي الله» أي: يوم القيامة «وهو عليه غضبان» فقد دلَّ الحديث على أنَّ من فعل هذا فإنَّه قد ارتكب كبيرة من الكبائر.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٣٦).

باب الظلم في الأموال

في «الصحيح»[1]: «ولا يَنتَهِبُ نُهبَةً يَرفَعُ الناسُ إلَيهِ فيها أبصارَهُم حينَ يَنتَهِبُها وهو مُؤمِنٌ». [٢٣٢]

---

[٢٣٢] قوله ﷺ: «ولا يَنتهب نُهبة» الانتهاب هو الاغتصاب مثل ما كانت العرب عليه في الجاهلية من الغارات وأخذ أموال الناس قهراً، وكذلك من يسرق الأموال أو يأخذها بالخديعة والغش، فمال المسلم حرام لا يؤخذ إلَّا بحق، وقوله: «يرفع الناسُ إليه فيها أبصارهم»، يعني: هي ذات قيمة تستتبع أنظار الناس وتجعلهم يطلبونها، أمّا إن كان ما أخذه يسيراً لا يطمع فيه فلا يدخل في هذا الوعيد لكنه لا يجوز له ذلك، وقوله لا «ينتهبُها وهو مؤمن»، أي الإيمان الكامل، وهذا يدلُّ على أن الانتهاب كبيرة.

---

(١) البخاري (٢٤٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب خذلان المظلوم

عن سَهل بن حُنَيْف ﷺ مرفوعاً: «مَن أُذِلَّ عِندَهُ مُسلمٌ فَلَمْ يَنصُرْهُ وهُوَ يَقدِرُ أَن يَنصُرَهُ، أَذَلَّهُ اللهُ عَلَى رؤوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيَامَةِ» رواه أحمد(١).

ولأبي داود(٢) عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما مرفوعاً: «ما مِن امرِىءٍ مُسلِمٍ يَخذُلُ امرأً مُسلِماً في مَوضِعٍ تُنتَهَكُ فيه حُرمَتُه ويُنتَقَصُ فيه مِن عِرْضِه، إلّا خَذله اللهُ تعالى في مَوطنٍ يُحِبُّ فيهِ نُصْرَتَهُ، وما مِن امرِئٍ مُسلِمٍ يَنصُرُ امرَأً مُسْلِماً في مَوضعٍ يُنتَقَصُ فيهِ مِنْ عِرضِه ويُنتَهَكُ فيه من حُرْمَتِه إلّا نصَرَه اللهُ في مَوطنٍ يُحِبُّ فيه نُصرَتَه». [٢٣٣]

---

[٢٣٣] من الواجب على المسلم نَصْرُ المظلوم، فيتعيَّن على المسلم أن يساعد المظلوم ويخلِّصَه من ظلمه إذا كان يقدر، فإن تركه وهو يقدر فقد ارتكب كبيرة من الكبائر.

وقوله: «من أُذِلَّ عنده مسلم» يعني في بَدَنِه أو ماله أو عرضه، «فلم ينصره» أي: يدفع عنه الظلم «وهو» أي: والحال أنه «يقدر أن

---

(١) في «المسند» برقم (١٥٩٨٥).

(٢) في «سننه» برقم (٤٨٨٤).

....

ينصره، أذلّه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة»، فدلَّ الحديث على أنَّ هذا من كبائر الذنوب، فإنَّ الأصل في المسلم أنَّه يدافع عن أخيه كما يدافع عن نفسه.

وأما قوله: «ما مِن امرِئٍ يخذِلُ امرَأً مُسلماً في مَوْضِعٍ تُنتهك فيه حُرمته ويُنتقص فيه من عرضه إلّا خذله الله تعالى في موطن يُحِبُّ فيه نصرته» هذا كالحديث الذي قبله، فمن تُكلم عنده في عرض مسلم فلا بُدَّ له من أن يَذبَّ عن عِرض أخيه، فإن ترك ذلك وهو يقدر، كان جزاؤه أن الله يخذله في موضع يحب أن ينصره فيه، ومن نصر أخاه في موضع يُذلُّ فيه، فإن الله ينصره في موضع يحب أن ينصر فيه، فإنَّ الجزاء من جنس العمل، وعلى هذا فالذين يحضرون المجالس التي يقع فيها غيبة ونميمة ولا ينكرون ذلك ـ ولا سيما إذا كان من اغتيب من ولاة أمور المسلمين وعلمائهم ـ فالأمر أشد، وذلك لأنَّ العلماء والولاة هم الذين بهم يستقيم أمر الأمة، فلا بُدَّ من الدفاع عنهم لأنَّ ذلك دفاع عن الدين وحماته.

باب ما جاء في أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]. [٢٣٤]

---

[٢٣٤] هذا من حقوق الأخوة في الإسلام، وهو يتضمن مسألتين: الأولى: الأُخوة في الإسلام، والثانية: حق المسلم على المسلم. أمَّا الأخوة في الإسلام، فإنَّ الله تعالى جعل المؤمنين إخوة لا في النسب، وإنما في الإسلام، فالإسلام يجمع بين العربي والعجمي، والذكر والأنثى، والعبد والحُرِّ، والغني والفقير، وهذا شيء واجب ودائم، فالمؤمن أخو المؤمن من أول الخلق إلى آخرهم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فالمؤمنون إخوة في الماضي والحاضر والمستقبل، لا تنفصل هذه الأخوة حتى في الجنة: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولقد كان

. . . .

العرب قبل الإسلام عبارة عن قبائل متفرقة تغزو بعضها بعضاً ليس بينها إلّا العداوة والتناحر، ثم لما جاء الإسلام أصبحوا متوحدين بالإيمان، فكانوا من قبلُ أعداء فانقلبت هذه العداوة إلى أخوة والذي قلبها إنما هو الإيمان، لذلك أمرهم الله تعالى بأن يتذكروا هذه النعمة التي جعلتهم إخوة متحابين، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك إلّا الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[الأنفال: ٦٣]، فالأخوة بين المؤمنين ثابتة وراسخة، لا يُزحزها شيء إلّا الكفر، والمؤمنون لا يفرق بينهم شيء، وإن حصل بينهم ما يكدر صفو هذه العلاقة، فإن الواجب على المسلمين أن يسارعوا إلى إزالة ذلك، وسورة الحجرات جاءت لتتحدث في هذا الموضوع، فقد جاء فيها: قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وهذا تحذير من النمام الذي يحرّش بين المؤمنين ليوقع العداوة بينهم، ولذلك قال الله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: تثبتوا مما بلغكم ولا تقبلوا أخبار النمام لأنَّ هناك نمامين يعملون بالوشاية بين المؤمنين، وأنه يجب على المسلمين أن يتأكدوا من خبر هذا الفاسق، حتى لا يصيبوا جماعة منهم بجهالة فيحصل الندم.

....

وذكر الله في الآيات أنه لو حصل بين المسلمين قتال، فإنَّ الذي قاتل المؤمنين يكون باغياً، ولهذا يجب أولاً أن يُسعى بالصلح بين المتقاتلين: من البغاة وأهل العدل، فإن رفضت الفئة الباغية، فإنَّ المسلمين يقاتلون هذه التي تبغي، حتى تفيء إلى أمر الله لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فإن رجعت الفئة الباغية فيكون الإصلاح بالعدل، دون محاباة لطائفة على حساب الأخرى، قال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ثم بيَّن الله سبب هذا الإصلاح، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلا تنتفي صفة الإيمان عنهم حتى مع كل ما حصل بينهم، وكذلك نهى الله تعالى عن السخرية التي هي من عوامل التفرقة بين المسلمين، فما دام أنه مؤمن فلا يجوز أن تسخر منه وقد أكرمه الله بالإيمان، فالعبرة ليست بالمنظر والهيئة وإنما بالقلوب، فلا يجوز للمؤمن أن يسخر من أخيه المؤمن، فربَّما يكون الذي تسخر منه عند الله خيراً منك، فالمؤمنون يُجِلُّ بعضهم بعضاً، ويحترم بعضهم بعضاً مهما اختلفت مناصبهم ومظاهرهم ومراتبهم، فإنَّ الإسلام قد آخى بينهم، فدلَّ هذا على أنَّ السُّخرية كبيرة من كبائر الذنوب.

....

وكذلك فإنَّ من أسباب العداوة لمزُ المؤمنين بتنقصهم كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٧٩]، وهذه هي صفة المنافقين، فلقد لمزوا النبي ﷺ وقد أخبر الله تعالى عن هؤلاء فقال: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقال ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

ومما يؤجج العداوة بين المسلمين التنابز بالألقاب، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾، واللقب: ما يشعر بالمدح أو الذم، فإن كان يُشعر بالمدح فلا بأس به، وإن كان يُشعر بالذم فلا يجوز، فالأصل في المسلم أن لا يُلقّب أخيه بما يشعر بالذم، ومثله تلقيب الجماعات، كأن يلقب جماعة من المسلمين بما يشعر بالذم، حتى وإن كان على خلاف معها، فالأصل في المسلم أن يرد الخلاف للحق، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[النساء: ٥٩]، ثم قال الله عزَّ وجل: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]، يعني: التنابز بالألقاب، ثم قال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] حُصِر الظلم فيهم لشدة ظلمهم، أي: إنَّ الذين لا يزالون هذا دأبهم هم الظالمون.

....

ثم إنه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والظن فإنَّ الظَّن أَكذَبُ الحَدِيثِ»(١)، فالأصل في المسلم العدالة، فلا يجوز أن يُساء الظنُّ به، فتجنب الكثير من الظن حتى لا تقع في الظن الآثم.

ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي: لا تَتبَّع عورات إخوانك، بل اغفل عنها، كما نهى كذلك عن الغيبة فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة: ذكرك أخاك بما يكره، فلا تتحدث عنه في المجالس، فإن رأيت منه شيئاً يسوؤك فناصحه، وإلّا فقد شبه الله فعل من ارتكب هذا الإثم بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً. ثم إنه سبحانه أرجعهم إلى الأصل، فلا فضل لبعضهم على بعضٍ من جهة الأصل، لأنهم آدميون، العربي والأعجمي، الأبيض والأسود، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، الشعوب للعجم، والقبائل للعرب، من أجل التعارف، لكي تعرف أنك من القبيلة الفلانية لا للتفاخر، فتعلّم الأنساب من أجل التعارف والتواصل

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

هذا لا بأس به، أما إذا كان ذلك من أجل التفاخر بالأنساب، فهذا حرام، لأنَّه من أمور الجاهلية.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقال النبي ﷺ: «أَلَا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعجمي على عربي ولا لأحمرَ على أسودَ ولا أسودَ على أحمر إلا بالتقوى»[1] وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فهذا دستور عظيم، لو أنَّ الأمة سارت عليه لذهب ما بينها من الحزازيات والخلافات.

وأما قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، أول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقوله في هذه الآية: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ فيه إثبات أنَّ الله سبحانه يحب، فهو يحب المؤمنين والمحسنين والمتطهرين، وهم يحبون الله حبّاً شديداً، لا تعدل محبته في قلوبهم شيئاً من الأشياء، وهذا أعظم أنواع العبادات، لأنَّ العبادة في الأصل مبنيةٌ على محبة الله قال الإمام ابن القيم:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل سمع خطبة النبيِّ ﷺ.

....

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذُلِّ عابده هما قطبانِ
وعليهما فلك العبادة دائرٌ ما دار حتى قامت القطبانِ
ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطانِ

وهذا فيه الولاء لله والبراء مما سواه والولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين.

وفي «الصحيح»(١): «لَوْ كُنتُ مُتَّخِذاً مِن أُمَّتي خَليلاً لاتَّخذتُ أَبَا بَكْرٍ خَليلاً، وَلكِن أُخُوَّةُ الإسلامِ أفضَلُ».

وعن أبي موسى مرفوعاً ﷺ: «الـمُؤمِنُ لِلمُؤْمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً» أخرجاه(٢). [٢٣٥]

---

[٢٣٥] وقوله ﷺ: «لو كنتُ متَّخذاً من أُمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً» هذا الكلام قاله ﷺ في الأيام الأخيرة من حياته، ومعنى الخليل: الذي نال أعلى درجات المحبة، وأبو بكر ﷺ هو أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، وهو الذي ناصره من أول بعثته إلى أن توفي ﷺ واستمر بعد ذلك على تمسُّكه بمنهج النبوة، حيث قمع المرتدين، فمواقفه وثباته ثبات الجبال الراسيات، وقد أحبه ﷺ حبّاً شديداً، فلولا أن رسول الله ﷺ خليلُ الله، كما قال ﷺ: «إنَّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(٣) ـ لاتخذ أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام، لأنَّ الـخُلَّة لا تقبل الاشتراك، فلذلك لم يتخذ الله خليلاً، وقال: «ولكن أخوة الإيمان»، وهذه منقبة عظيمة، وهذا محل

---

(١) البخاري (٣٦٥٦) و(٣٦٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب البجلي ﷺ.

....

الشاهد من الحديث أن الإيمان يقتضي أن نكون إخوَّة متحابين متآلفين.

وقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان»: يعني: أن المؤمنين يتعاونون فيما بينهم ويُكمِّل بعضهم بعضاً، فالبناء يتكون من اللَّبِنات، فإذا ترابطت اللَّبنات ترابطاً كاملاً اشتدَّ البنيان، وإذا اختلَّت اللَّبنات اختلَّ البنيان، وكذلك المؤمنون حينما يجتمعون ويترابطون ويُعين بعضهم بعضاً تكون لهم القوة والمنعة وتقوم دولتهم ولا يطمع فيهم عدو.

ولهما(١) عن النعمان بن بَشير ﷺ مرفوعاً: «مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهِم وتَراحُمِهِم وتَعاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ إذا اشتَكى مِنه عُضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى». [٢٣٦]

---

[٢٣٦] وقوله: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم» مثال آخر ضربه ﷺ للمؤمنين فيما بينهم، فقوله: «في توادّهم» أي: في محبة بعضهم لبعض، «وتراحمهم» أي: في رحمة بعضهم لبعض «كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو» بأن أصيب بمرض أو سقم، فإنَّ الجسد كله يشتكي مع أن عضواً واحداً منه هو الذي أصابه المرض، كذلك المؤمنون إذا اشتكى منهم مؤمن واحد، فإن كل المؤمنين يتأثرون لشكوى أخيهم، وهذا مَثَلٌ بليغ ضربه النبي ﷺ لحال المؤمنين فيما بينهم، فهم يتألمون جميعاً إن أصاب أحدهم مصيبة، لأنَّ الذي يفرح لمصاب أخيه، يكون هذا نقصاً في دينه، وهذا هو شأن المنافقين الذين يفرحون لمصاب المسلمين، فلا يكفي المسلم أن يحزن لأخيه إن أصابه شيء فحسب، بل لا بُدَّ أن يسعى في إزاله سبب إصابته، فإن كان المرض في بدنه يرقيه الرقية الشرعية ويعالجه عند الأطباء، وإن كان فقيراً واساه

---

(١) البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

....

بماله، وهذا من أعظم الأمثال التي ضربها ﷺ في وحدة المسلمين واتفاقهم وتآلفهم وتعاونهم.

وعن أبي هُريرة ﷺ مرفوعاً: «لا تَحاسَدُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَناجَشُوا ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُم على بيعِ بَعضٍ، وكونوا عِبَادَ الله إخواناً، المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظْلِمُه ولا يَخْذِلُه ولا يَحْقِرُه، التَّقوى ها هُنا ـ وأشارَ إلى صَدرِه ثلاث مرات ـ بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المُسلِمَ، كُلُّ المُسلِمِ على المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُه ومالُه وعِرضُه». رواه مسلم(١). [٢٣٧]

---

[٢٣٧] وقوله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا» هذا حديث عظيم، ومنهج قويم يسير عليه المسلمون، كي يجتنبوا ما يضر مجتمعهم، ويسعون بها ينفعهم، فالمسلمون كالنفس الواحدة والبنيان الواحد.

وقوله: «لا تحاسدوا» الحسد داء قديم، ومعناه تمني زوال النعمة عن المنعَم عليه، بخلاف لو تمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من الخير فهذا غبطة وليس حسداً، وهذا شيء طيب يؤجر عليه المسلم، فتتمنى مثلاً أن يكون لك مثلُ أخيك من المال كي تُحسن مثله، فيكون لك من الأجر مثله، أما الحسد فهو يعني: تمنِّي زوال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٣).

النعمة عن أخيك وأن تصير إليك، وأول من حسد إبليس، فقد حسد أبانا آدم عليه السلام، فماذا جرَّ عليه الحسد؟ جرَّ عليه الكفر، فعصى أمر ربه وأبى أن يسجد لآدم، وجَرَّ عليه هذا الحسد كذلك غضب الله تعالى وسخطه وعقابه، وصار قواداً لكل شر يدعو إلى النار والضلال والفسق، كل هذا بسبب الحسد، ولو أنه سجد كما أمره الله عز وجل لما زالت عنه هذه النعمة، ولَـما صار إلى هذا المصير.

ولقد وقع التحاسد من ابنَي آدم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧] إلى آخر الآيات في ذكر قصتهما، فلقد حسد أحدهما الآخر، فهدده بالقتل ثم قتله، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تُقتَلُ نَفْسٌ إلَّا كانَ على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنها»[1].

وكذلك كان الحسد سبباً لكُفر بني إسرائيل لما حسدوا نبينا ﷺ، وحسدوا هذه الأمة على ما أعطاها الله من فضله، حسدوا النبي ﷺ فجحدوا رسالته وهم يعلمون أنه نبيٌّ، فنالوا لعنة الله تعالى وغضبه بسبب هذا الحسد، فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من الحسد، ولقد حذَّر منه النبي ﷺ فقال: «دَبَّ إِلَيكُم داءُ الأُمَمِ: الحَسَدُ والبَغْضاءُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، وأحمد (١٤١٢) من حديث الزبير رضي الله عنه.

....

قوله: «ولا تباغضوا» أي: اجتنبوا الأشياء التي تسبب التباغض بينكم، لأنَّ الأصل في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض أن تكون قائمة على المحبة المتبادلة.

وقوله: «ولا تناجشوا» النجش: هو الزيادة في سوم السلعة، كأن تكون سلعة معروضة للبيع فيأتي ويزيد أحدُهم في ثمنها وهو لا يريد شراءها إما للإضرار بالمشتري، أو لينفع صاحب السلعة، فهذا منهيٌّ عنه، أما إن كان لك فيها رغبة وزدت في ثمنها لتشتريها وتصير إليك فهذا لا شيء فيه، لكن إن لم يكن لك بها حاجة فلا يجوز لك أن تزيد في ثمنها. وكذا إذا عرضت السلعة، واتفق الموجودون على أن لا يزيدوا في السلعة، ليتآمروا على البائع، فيضطر أن يبيعها بثمن بخس، كان هذا من النجش المنهيِّ عنه.

وقوله: «ولا تدابروا» يعني: لا يُعرض بعضكم عن بعض عند اللقاء، بل تقابلوا بالسلام والبشاشة والمودة، فإنك إن أعرضت عن أخيك تأثر وحصل في نفسه عليك شيء.

وقوله: «ولا يبع بعضكم على بيع بعض» هذا من نفي الضرر عن المسلمين، ومثاله: أن يشتري بعضهم سلعة بثمن معيَّن ويشترط أن له الخيار لمدة يوم أو يومين، ثم يأتي آخر فيقول للبائع:

....

افسخ البيع وأنا أشتري منك بأكثر مما دفع لك المشتري الأول، فهذا لا يجوز، وكذلك من البيع على البيع: أن يبيع رجل لرجل سلعة فيجيء بائع آخر ويقول له: افسخ بيعك معه، وأنا أبيعك بثمن أرخص، فسواء كان بيعاً على بيع، أو شراء على شراء فهذا لا يجوز.

وقوله: «وكونوا عباد الله إخواناً» هذا كما أمر الله عزَّ وجل المؤمنين بأن يكونوا إخوة، فدلَّ ذلك على أنَّ تلك الأمور تنافي كمال الأخوة.

وقوله: «المسلم أخو المسلم» وما دام الأمر كذلك فلا يجوز أن يحتقر المسلم أخاه المسلم ولا يخذله، لأن له عند الله مكانة، فلا تحقر من كان له عند الله مكانة، وإنما يجب نُصرته ونصر المسلم لأخيه بأن لا يخذله إن كان قادراً على نصرته، وينصر الظالم كذلك بأن يأخذ على يده، فلا هو يظلم أخاه ولا يترك أحداً يظلمه.

وقوله: «التقوى هاهنا» أي أنَّ العبرة بما في القلوب وليست بالهيئات، فالقلب هو محط نظر الله، وقد قال ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى صُوَرِكُم وأمْوالِكُم، ولكن ينظر إلى أعمالِكُم وقُلوبِكُم»[1]. وأما المظاهر فلا عبرة بها، وقد قال الله عزَّ وجل عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، يعني:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) من حديث أبو هريرة ﷺ.

....

منظرهم جميل ولهم فصاحة في القول، لكنهم في الدرك الأسفل من النار، وذلك لفساد قلوبهم، ولكن قد يغلط بعض الناس في هذه المعنى، فتجده إذا ما نُهِيَ عن معصية كحلق لحية أو عدم التزام بسنة، بادرك بالقول: التقوى في القلب، ويُفسر كلام الرسول ﷺ بغير معناه، نعم المدار على القلب لكن المعاصي تدلُّ على أنَّ القلب فيه فساد، فلو كان بالقلب تقياً لما ارتُكبت المعصية!

وقوله: «وأشارَ إلى صَدرِه ثلاثَ مرَّاتٍ»، هذا من باب التأكيد على أن العبرة ليست بالمظاهر، وإنما العبرة بما في القلوب، وأنَّ القلب إذا كان تقياً ظهرت آثار التقوى على الأفعال والأقوال، وإن كان فاسداً ظهر ذلك على الأقوال والأعمال.

وقوله: «بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاه» أي يكفيه من الشر وهذا فيه تحذير عظيم من ذلك، فمَن حقَّر مسلماً من المسلمين فقد حقَّر ما عظَّم الله عزَّ وجل.

وقوله: «بحسب امرئٍ» أي: حَسبُه وكافيه، من صفات الشر ورذائل الأخلاق احتقار أخيه المسلم.

وقوله: «كُلُّ المُسلِم على المُسلِم حَرامٌ» هذا صرَّح به النبي في خطبته في حجة الوداع فقال: «إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأَعراضَكُم

....

عَلَيكُم حَرَامٌ كحُرمَةِ يَومِكُم هذا في بَلَدِكُم هذا في شَهْرِكُم هذا»[١]، وقد قال النبي ﷺ: «لا يحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسلمٍ إلَّا بإحدى ثلاثٍ: الثَّيِّب الزَّاني، والنَّفْس بالنَّفْسِ، والتَّارك لِدينِه المُفارِق للجَماعةِ»[٢]، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

ولهما[1] عن ابن عُمَر رضي الله عنهما مرفوعاً: «الـمُسلِمُ أخو الـمُسلِمِ لا يَظْلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجَةِ أخيهِ كانَ اللهُ في حاجَتِه، ومَن فَرَّجَ عَن مُسْلِمٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيا فَرَّجَ اللهُ عنه كُربَةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يوم القِيَامَةِ». [٢٣٨]

---

[٢٣٨] وقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «الـمُسلِمُ أَخو الـمُسلِمُ لا يَظْلِمُه». هذا كالحديث الذي قبله إلا أنه يختلف عنه في بعض الألفاظ، ففيه التأكيد على أنَّ المسلم أخو المسلم، والإسلام يقتضي الأخوَّة الصادقة، فقوله: «لا يظلمه» يعني: لا يقع منه في حقِّ أخيه ظلم في نفسه وماله وعرضه، وقوله: «ولا يُسْلمه» يعني: لا يتركه للظالم فلا ينصره.

وقوله: «ومَن كان في حاجَةِ أَخيهِ كان الله في حاجته» هذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما أنك سعيتَ في قضاء حاجة أخيك المؤمن فإنَّ الله سيجازيك بالإحسان إحساناً، فهو سوف يقضي حاجتك.

وقوله: «ومن فَرَّج عن مُسلِمٍ كُربةً من كُرب الدنيا فَرَّج الله عنه كربةً من كرب يوم القيامـة» الكربة: هي الشِّدَّة العظيمة والحاجة

---

(١) البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).

....

الشديدة، كأن ينزل بالمؤمن شدة في أمر من الأمور كدَيْن ركبه ولا يقدر على سداده، ونحو ذلك، وتنفيس الكرب إحسان، وعليه فإنَّ الله ينفِّس عنه كربة من كرب يوم القيامة، ويجازيه بالإحسان إحساناً ولا شكَّ أن كربة يوم القيامة أعظم.

وقوله: «ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» كذلك من حق المسلم على المسلم أن يستره، إذا رأى منه زلة فلا يتكلم عنها في المجالس وينشر ذلك، فإن ستر عليه ونصحه فإنَّ الله يستر عليه في الدنيا والآخرة، هذا فيه وجوب الستر على المؤمنين وعدم التشهير بهم.

ولهما[1] عن أنس ﷺ مرفوعاً: «لا يُؤمِنُ أحدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لنَفْسِه». [٢٣٩]

---

[٢٣٩] وقوله ﷺ في حديث أنس: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه» هذه قاعدة عظيمة: وهي أنَّ ما ترضاه لنفسك فارضه لأخيك، وما لا ترضاه لنفسك فلا ترضه لأخيك، وفيه أنَّ إيمان المرء لا يكتمل حتى يحقق هذا المعنى.

---

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وللبخاري[1] عنه مرفوعاً: «انصُرْ أَخاكَ ظالِماً أو مَظْلُوماً»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله إن كان ظالِماً كَيْفَ أنصُرُه؟ قال: «تَحْجُزُه، وتَمْنَعُه مِنَ الظُّلْمِ، فَذلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ». والله تعالى أعلم. [٢٤٠]

---

[٢٤٠] وقوله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» المظلوم نَصْره بأن تساعده وتدفع عنه الظلم، ومن ذلك إن سمعت مَنْ يغتابه أو يتكلّم فيه فإنك تذبُّ عن عِرضه وتمنع من يتكلم فيه، وأما نصر الظالم فيكون بأن تمنعه من الظلم، وتأخذ على يده، فهذا نصرك إيّاه، لأنَّ هذا الظالم أخ لك فينبغي أن تحجزه وتمنعه عن إيقاع الظلم بالآخرين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) في «صحيحه» برقم (٦٩٥٢).

الفهرس

مقدمة الشارح ٥

كتاب الكبائر ١٣

باب أكبر الكبائر ٢٠

باب كبائر القلب ٢٣

باب ذكر الكبر ٢٨

باب ذكر العجب ٣٧

باب ذكر الرياء والسمعة ٤٨

باب الفَرح ٦٠

باب ذكر اليأس من رَوْح الله والأمن من مكر الله ٦٥

باب ذكر سوء الظن بالله عز وجل ٦٨

باب ذكر إرادة العلوّ والفساد ٧٧

باب العداوة والبغضاء ٨٣

باب الفُحش ٨٨

باب ذكر مودة أعداء الله ٩٣

باب ذكر قسوة القلب ٩٩

باب ذكر ضَعف القلب ١١١

أبواب كبائر اللسان ١٢٠
باب التحذير من شر اللسان ١٢٠
باب ما جاء في كثرة الكلام ١٣٥
باب التشدّق وتكلّف الفصاحة ١٥١
باب شدّة الجدال ١٥٧
باب من هابه الناس خوفاً من لِسانه ١٦١
باب البذاء والفُحش ١٦٤
باب ما جاء في الكذب ١٧٣
باب ما جاء في إخلاف الوعد ١٨٢
باب ما جاء في زعموا ١٨٨
باب ما جاء في الكذب والمزاح ونحوه ١٩٣
باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه ٢٠٣
باب ما جاء في النهي عن كون الإنسان مداحاً ٢٠٧
باب ما يمحق الكذب من البركة ٢١٠
باب من تحلّم ولم ير شيئاً ٢١٤
باب ذكر مرض القلب وموته ٢١٦
باب ذكر الرضا بالمعصية ٢٣٢
باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها ٢٤٥
باب ذكر الريب ٢٤٩

باب السخط.. ٢٦٨
باب القلق والاضطراب ٢٧٣
باب الجهالة ٢٨٩
باب القِحَة ٣٠١
باب الحرص على المال والشرف ٣٠٥
باب الهلع والجُبْن ٣٠٨
باب البخل ٣١٥
باب عقوبة البخل ٣٢٢
باب ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله ٣٢٨
باب بغض الصالحين................................... ٣٣٠
باب الحسد ٣٣٦
باب سوء الظن بالمسلمين ٣٤٤
باب ما جاء في الكذب على الله أو على رسوله ٣٤٨
باب ما جاء في القول على الله بلا علم.................... ٣٥٨
باب ما جاء في شهادة الزور ٣٦٨
باب ما جاء في اليمين الغموس......................... ٣٧٤
باب ما جاء في قذف المحصنات ٣٧٩
باب ما جاء في ذي الوجهين............................ ٣٩١
باب ما جاء في النميمة ٣٩٩

باب ما جاء في البهتان........................٤٠٤
باب ما جاء في اللعن........................٤١٠
باب ما جاء في إفشاء السر........................٤١٤
باب ما جاء في لعن المسلم........................٤١٧
باب ذكر تأكّده في الأموات........................٤٢٢
باب ذكر قول: يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه......٤٢٤
باب ما جاء في لعن الرجل والديه........................٤٢٧
باب النهي عن دعوى الجاهلية........................٤٢٩
باب النهي عن الشفاعة في الحدود........................٤٣٠
باب من أعان على خصومة في الباطل........................٤٣١
باب من شهد أمراً فليتكلم بخبر أو ليسكت........................٤٤٣
باب ما يحذر من الكلام في الفتن........................٤٤٥
باب قول: هلك الناس........................٤٤٩
باب الفخر........................٤٥١
باب الطعن في الأنساب........................٤٦١
باب من ادعى نسباً ليس له........................٤٦٣
باب من تبرأ من نسبه........................٤٦٦
باب من ادَّعى ما ليس له ومن إذا خاصم فجر........................٤٦٩
باب الدعوى في العلم افتخاراً........................٤٧٣

باب ذكر جحود النعمة ٤٧٨
باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعفهم ٤٨٣
باب الاستهزاء ٤٨٧
باب ترويع المسلم ٤٩٢
باب المتشبِّع بما لم يُعطَ ٤٩٤
باب التحدث بالمعصية ٤٩٥
باب ما جاء في الشتم بالزنى ٤٩٩
باب النهي عن تسمية الفاسق سيداً ٥٠٢
باب النهي عن الحلف بالأمانة ٥٠٤
باب النهي عن الحلف بملة غير الإسلام ٥٠٦
باب ما جاء في الغيبة ٥٠٨
باب ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق ٥٢٣
باب تشييع الفاحشة في المؤمنين ٥٢٦
باب الرّشوة ٥٢٨
باب هدايا الأمراء غلول ٥٣٠
باب الهدية على الشفاعة ٥٣٣
باب الغلول ٥٣٦
باب طاعة الأمراء ٥٣٩
باب الخروج عن الجماعة ٥٤٧

باب ما جاء في الفتن ٥٥٤
باب تعظيم قتل النفس التي حرَّم الله إلّا بالحق ٥٧٦
باب تكثير السواد في الفتن ٥٨٤
باب ذكر العقوق ٥٨٨
باب ذكر القطيعة ٥٩٥
باب أذى الجار ٥٩٩
باب الاستخفاف بأهل الفضل ٦٠٤
باب إغضاب الزوج ٦٠٧
باب أذى الصالحين ٦١٠
باب ما جاء في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة ٦١٣
باب الولايات من الأمانة ٦١٧
باب النهي عن طلبها ٦١٩
باب ما جاء في غش الرعية ٦٢٢
باب الشفقة على الرعية ٦٢٥
باب الاحتجاب دون الرعية ٦٢٨
باب المحاباة في الولاية ٦٣٠
باب الجور والظلم وخطر الولاية ٦٣٣
باب ولاية من لا يحسن العدل ٦٣٩
باب الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن ٦٤٣

باب قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»............ ٦٥٠
باب الرفق بالمملوك.. ٦٥٣
باب الرفق بالبهائم ٦٥٦
باب إباق العبد ٦٦٢
باب ظُلم الأجير... ٦٦٣
باب سؤال المرأة الطلاق ٦٦٦
باب ما جاء في الديّوث ٦٦٨
باب ظلم المرأة.. ٦٧٠
باب الإشارة بالسلاح على وجه اللعب ٦٧١
باب العصبية ٦٧٣
باب من آوى محدِثاً ٦٧٦
كتاب المظالم ٦٧٩
باب ظلم اليتيم.. ٦٧٩
باب غصب الأرض ٦٨٥
باب الظلم في الأبدان...................................... ٦٨٧
باب الظلم في الأموال ٦٩٠
باب خذلان المظلوم ٦٩١
باب ما جاء في أُخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم........ ٦٩٣